رضا سُليمان

رواية

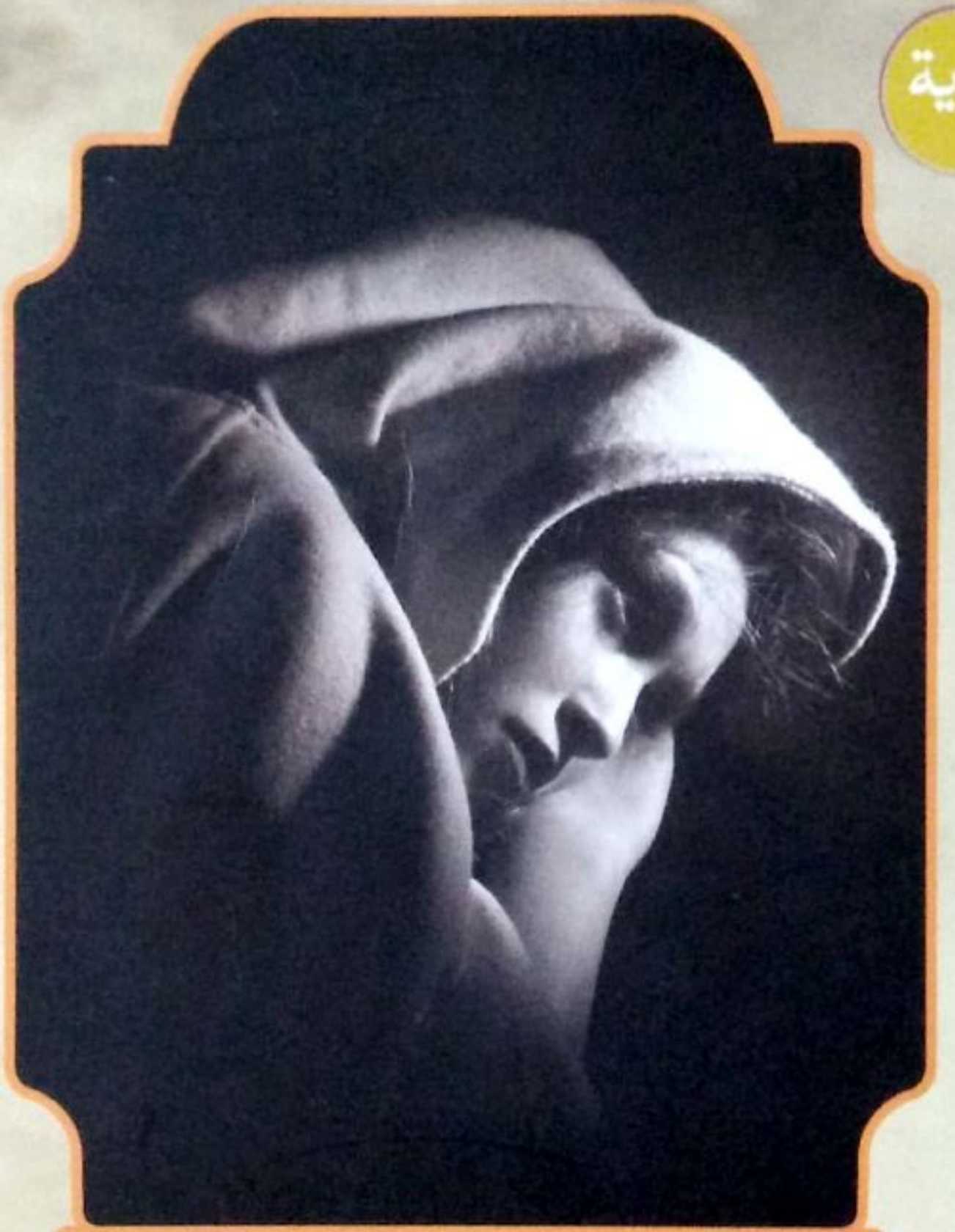

وحي العشق

المجموعة الدولية
للنشر والتوزيع

Scanned with CamScanner

وحي العشق

رواية

رضا سُليمان

Scanned with CamScanner

دار سما للنشر والتوزيع
جمهورية مصر العربية
15 ش يوسف الجندي متفرع من شارع البستان - باب اللوق - القاهرة
تليفون: 24517300 202+ - 01271919100 2+
email: samaeditor@yahoo.com
Web- sites publishing@sama-publishing.com

التوزيع
المجموعة الدولية
للنشر والتوزيع
80 ش طومان باي - الزيتون - القاهرة - جمهورية مصر العربية
تلفاكس: 24518068 202+ - 01099998240 2+
email:aldawleah_group1@yahoo.com

التنفيذ الفني
درج
ali@daraj-eg.com

وحي العشق

«وحي العشق»: كلمة لاتينية تعني العاشقة

Scanned with CamScanner

إهـــداء

إلى روح أمي..

إلى روح أبي..

لعلكم تدركون الآن الرسالة الحقيقية

التي خُلقنا من أجلها .

ليتنا ندركها ...

رضا سَليمان

Scanned with CamScanner

كلنا هذا الرجل..

هابيل.. فـ «خيرٌ»

أو

قابيل.. فـ «شرٌ»

فانظر مَن تكون؟

Scanned with CamScanner

الفقـرات
(أ) و(ب)
لمحات سريعة على سبيل التمهيد

(أ)
هنـــاك

في مكان ما..

في زمن ما..

هناك.. على حافة ذاكرة البشرية..

يجلس وحيدًا بجسده الهائل، ينظر إلى تلك الجنان المترامية الأطراف، خرير أنهارها يختلط بتغريد طيورها، الجميع يسبح بحمد خالقه فوق وسائد عطرية تنبعث من بين خملات زهورها المتباينة الألوان والأحجام. لوحة عظيمة شفافة غير محدودة، رغم ذلك لم يكن الجالس يشعر براحة داخلية، الحقيقة أن داخله كان يعتصر غضبًا.

منذ أن خُلق لا يفعل شيئًا إلا تعبده لخالقه، في قلبه يقين بأنه في منزلة أعلى، لِمَ لا وهو المخلوق من نار وباقي الملائكة خلقهم الله من نور، النار أقوى بطبيعة الحال.

الآن عَلِمَ أن العلي يخلق من طين ما سوف يطلق عليهم بشرًا.

يُخيم عليه الصمت الرهيب وهو يتذكر ما فعله، وأعوانه، في تنفيذ أمر الله بمعاقبة بني الجن الذين يسكنون الأرض بعد أن أفسدوا فيها وسفكوا الدماء، وكان عقابهم بأن ألحقهم بجزر البحور وأطراف الجبال.

Scanned with CamScanner

الآن وقد نفذ أمر الله وأجلى من أفسد وسفك عن الأرض، يخلق الله بشرًا ليسكنها؟

يتذكر قولهم: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ فيجيبهم رب العزة ﴿قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾.

لا يعلم لماذا يرتبك داخله بهذا الشكل، يغلبه القلق، تحتوية هشاشة يكاد يتلاشى بسببها. لقد عاد من رحلته الأرضية منتصرًا منتشيًا، طامعًا أن تلك الأرض ستكون له، مملكة يحكمها، يمتلكها في قبضة يده، ينتظرها مكافأة له على حسن طاعته وتفانيه في عبادة العلي.

لا يعلم كم مر عليه من الوقت غارقًا هكذا في بحر شروده، إلا أنه يستفيق فجأة على الأمر الإلهي ﴿اسْجُدُوا لِآدَمَ﴾.

اسجدوا لآدم؟!!

تعلو ألسنة نيرانه بداخله وتتأجج، غضبةٌ هائلة للهيبها أزيز مفزع، يذهب عقله ولا يكاد يرى أمام عينيه. أيُخلق من طين، ويحتل مكانة قربي منك يا إلهي، مكانة أعلى مني منزلة، وسوف يسكن الأرض التي حلمت بها، وبعد كل ذلك أسجد له؟

لن يكون ذلك أبدًا.

يقف مذهولًا لا يعلم كيف يتحرك وماذا يفعل، يرى الملائكة يسجدون طائعين، يسجدون تكريمًا لا عبادة، لكنهم يسجدون، وفي السجود تقليل من الساجد ورفعة لمن يُسجد له.

يأتيه سؤال يربكه، لا يستطيع أن يكذب أمام العلي، إن أجاب.. سوف يُفرغ ما بداخله من حسد وحقد، من طمع في تلك المنزلة التي ينزلها «آدم» الآن، كلمات قليلة ولكنها كانت تعادل مئات الآلاف من السياط التي تلهبه:

- ﴿مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ﴾؟

حاول جاهدًا، من قبل، أن يكبح جماح رغباته وشهواته، أن يظل على تلك المنزلة التي حظى بها حتى اللحظة، لكن طمعه أعمى عينيه، حَقِدَ على آدم، فقال وقد أخذته العزة وغلبه التكبر والخيلاء:

- ﴿أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ﴾.

لم يكن السؤال بحثًا عن إجابة تُظهر مكنون ذاته الخفي، فذاك أمر معروف، إنما كان سؤالًا لإظهار أحقاده أمام الجميع، حتى ذاته، سؤالًا يتطلب إجابة تكون هي ذنبه الذي يجب أن يُعاقب عليه. فيعاقب من فوره:

- ﴿فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ﴾.

مشدوهًا يغلبه الصمت ويكبله العجز، ناقمًا يرنو نحو آدم بعيون لظية متأججة متغيظة، يكيد له. مكيدته تتطلب زمنًا. على جمراته تنمو فكرته، تتبلور مكيدته، ينحني، ينكمش صاغرًا متشفعًا بمنزلة سابقة وبقرب دام سني عمره المتصرم، يطلب:

- أَنظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ.

بيسر، يؤكد على بساطة حجم المطلب، يقول خالق الكون سبحانه:

- إِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ.

Scanned with CamScanner

يعتدل عزازيل المحترق غضبًا، يشتاط، يلتهب داخله، إلا أن النشوة قد غمرته، يستمد من نيرانه قوة، تحتويه نزعات القوة وحلمه بسلطان دائم، يوارى سعادته الوليدة بمهامه العظيمة ويقول:

- ﴿فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ ۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ﴾.

و مهما كانت أحلامه ومهما كان عدد من تبعه، فإن ذلك لا يعني عند الخالق شيئًا، لكنه سيُعاقب على ما اقترف من اثم، ولن تشفع له سني عمره الماضية:

- ﴿ٱخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا ۖ لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ﴾.

ثم يقول رب العزة إلى آدم وزوجه:

- ﴿وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

يخرج منها ويسكنها آدم وزوجه؟

كلمات ظلت تأكل داخله، تشوى قلبه، لا يستطيع الفكاك من سيطرتها. تُرى كيف يكون السبيل لتحقيق أطماعه؟

لن يتحقق أمله إلا بالقضاء على ذلك الكائن، الذي حل محله ودني قربًا من الخالق، وسكن الأرض التي حلم بها مقرًا لملكه.

ظل يكيد ويدبر ويتحين الفرص، يراقب صابرًا لا يكل، لن يتذوق للفشل مرارة ذات يوم، إن فشل عاود الكرة مرة وألف مرة.

أخيرًا واتته الفرصة، يقترب ناعمًا من آدم وزوجه..

كانا يجلسان في مكان غير بعيد عن تلك الشجرة التي نهاهما عنها رب العزة، يتنسمان العبير، تشدو فوقهما طيور بأعذب الألحان، تمتد إلى ما لا نهاية أنهار من خمر وعسل ولبن، أشجار لها ثمر يكاد يسيل منه الشهد، ينعمان بتلك التفاصيل النابعة من وحي العشق لا يعكر صفوهما شيء.

يقترب منهما هامسًا:

- ﴿مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ﴾؟

أحيانا نرى الصدق كذبًا والكذب صدقًا، تتوقف الرؤية على الموقف ذاته، على طريقة الأداء والتلقي، فإن كان نهاهما رب العزة عن تلك الشجرة ليكونا ملكين أو يكونا من الخالدين، فتلك ليست نقيصة أو عقابًا. فأي روعة هذه أن تكون ملكًا أو خالدًا.

لكن الفاسق الرجيم تحدث بذلك وكأنه نقيصة تحرمهم من متاع لا حدود له، ومن ميزات لا تنتهي. يستعين بما يتملك من قدرات غير محدودة في فن يُتقنه جيدًا، فن هو مؤسسه، إنه فن الإغواء.

الغواية منهجه..

بعد لحظات يبتسم وقد شاهد حواء تعتدل ناظرة نحو الشجرة بعين شغوف، تأرجحت نظراتها بين الشجرة وآدم، تلمع نظراتها، يجرى لعابها، تبث آدم رغبتها تذوق ثمرها، هنا يقترب البائس منكسرًا، مواريًا ما يعتمل في أعماقه الخبيثة، يرسم على وجهه آيات النصح والمحبة، بخشوع لا نظير له يُقسم:

- إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ.

Scanned with CamScanner

يتأرجح الزوج بين النهى والرغبة، بين إرضاء حواء ونزعات داخلية أججها في قلبه البائس الرجيم، على مهل يتقدمان نحو الشجرة، بينما يقف الملعون مشجعًا، لا يزال يُقسم بالوفاء والمحبة مستغلًا كل ما يمتلك من قدرات ومهارت.

قطفا الثمرة..

فلما ذاقاها، سرت بداخليهما ما يشبه الارتجافة، ما لا يعلمون يسرى في عروقهم وثناياهم، لحظات وتتوارى ابتساماتهم التي لم تفارقهم منذ أن خُلقا. بدت لهما أعضاء خجلا منها، ما هذا؟! يا ويلتنا.. ماذا جنينا؟! سوءات يجب أن تُوارى.

طفقا يجمعان من ورق الجنة ليخبئا تلك الأعضاء. تعتريهم حسرة وفزع، ماذا بعد؟! يبحثان عن محرضهم، ماذا يقول الآن؟ لا يجدوه.

ينسحب إبليس، يكاد يرقص طربًا، سعيدًا بذلك النصر الأول الذي حققه، تتضاعف سعادته حينما يستمع إلى قول الخالق:

- ﴿أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾؟

في حالة فزع وضعف وانكسار تنظر حواء نحو زوجها تبحث عن مأمن لها، لا يجد آدم مبررًا ليتحدث به، يعلم مدي شناعة ما ارتكبه، لحظات تمر عليهما دهرًا، يتماسكان لحظة ثم يقولان:

- ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾.

يأتيهما الأمر الإلهي مقررًا ما سيكون عليه مستقبلهما، ليس فقط مستقبليهما وإنما ذريتهما من بعدهما، ينصتان وقد كاد الفزع أن يذهب بروحيهما، لكن الأمر الإلهي كان بهما رحيما:

- ﴿اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾.

بعضكم لبعض عدو؟! يستمع إبليس مسرورًا مبهور الأنفاس، أعداء على الأرض؟! يا لها من مهمة سهلة.. لكن حبل أفكاره الشارد يُقطع مع استماعه لبقية الأمر الإلهي:

- ﴿وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾.

مستقر؟! ومتاع؟!! وليكن.. كلما صَعُبَت المهمة كلما زاد نشاطه. إن كان يكتوى إبليس بنيران طمعه التي أعمته عن منزلته الأولى، فها هي علامات سعادة حارقة تعتليه. إنه يقترب مما يريد، سيهبطان إلى الأرض، سوف يفعل ما يستطيع من أجل أن يسير آدم وبنيه في طريقه الذي رسمه هو لهم، إنه طريق الضلال، الحقد، الحسد، الطمع.. لن يهنأ حتى يخطئوا الخطيئة الأولى التي أجْلت بني الجن عن تلك الأرض، يفسدوا، يقتلوا، يسفكوا فيها الدماء. ذلك دينه، يعمل عليه هو وأتباعه إلى يوم لا يعلمه إلا العلى.

■■■

Scanned with CamScanner

(ب)

الجريمة

بعد عشرات السنين..

بالقرب من جبل قاسيون (شمال دمشق الحالية)(*)..

يا لها من جميلة.. تعشق العين النظر إليها، وجهها الساحر وعينيها النجلاوتين، شفتيها المكتنزتين، جسدها الممشوق الفاتن، تضاريسه ساحرة تفتك بقلبه ليل نهار، يكاد يذوب فيها غرامًا، تزداد نيرانه لتأكل قلبه العاشق كلما تذكر أنها لن تكون له، ذلك ما تربى عليه منذ أن أدرك تفاصيل الحياة الأولى.

إنها توأمه.. شقيقته «إقليما» الجميلة لن تكون من نصيبه، ستكون من نصيب أخيه هابيل.

ماذا عنه؟.. سوف يتزوج من «لِوذا» أخت هابيل، لم تكن على ما يتمناه المرء، خاصة إذا كان مفتونًا بالجمال، نَهِم لملاذ الحياة، يتبعه الفاسق الرجيم منذ أن شب ليغويه. إقليما الجميلة هي توأمه وهو أحق بها.

(*) اختلفت الروايات في ذكر أحداث قصة قابيل وهابيل، بل اختلفت في أسماء شقيقان كل منهم وعلى ذلك فإن كل ما يرد في هذا الفصل من الرواية هو مجرد أحداث أدبية على سبيل التقديم وليست أحداث تاريخية (المؤلف).

يجلس مهموما شاردًا، يترك رعاية زرعه، الأرض تموج بأعواد القمح كصفحة نهر، تتماوج أعواد الزرع مع رياح خفيفة تهب على المكان، تجول فوقه الطيور مغردة بألحان عِذاب، لكنه تائه، شاردًا سابحًا في بحور لحظيَّ «إقليما» الجميلة.

يا لجمالها.. به تكتمل ملاذ الحياة.

لم يدرك قابيل وهو يجلس هكذا وحيدًا أن هناك، على مقربة منه، يجلس من يوسوس له، يُزيد أمام ناظريه محاسن إقليما ويُقبح لِوذا، يؤجج مشاعره، يُشعل نيران قلبه، يلقى بآمال لا نهاية لها لتشتعل في صدره، يُرشده إلى طريق المتعة وحياة لا تعب فيها ولا شقاء، يوحى له بعشق لا تنتهي متعته، ولكل عشقه الخاص عليه أن يسود قومه بأولاد حِسان يكونون له نعم السند، يتوكأ عليهم في نهاية العمر، يتوارثون من بعده تلك الأرض التي لا نهاية لها.

تلك الحياة لن تكون إلا بصحبة الجميلة إقليما.

ذات يوم يستشعر والده أنه يخفى عنه أمرًا، من نظراته الباسمة التي تتبع إقليما والمتجهمة لحظة أن يرى لِوذا، يدرك آدم أنه آن له أن يُزوِّج ولديه. لم يكد يبدأ حديثه حتى تتغير ملامح قابيل، تعتليها قسوة لم يعهدها فيه من قبل، يقف منفعلًا ليقول:

- إقليما أختى، ولدت معي، وهي أحسن من أخت هابيل، وأنا أحق بها.

يسود صمت لم يعهدوه من قبل، تلك هي المرة الأولى التي تتنازعهم الرغبات وتعكر صفوهم، تتوارى الأم خشية من غضبتهم، عيناها معلقتان بالأب. عهدته حكيما عطوفًا، تمنت لو أنصفها عقلها

Scanned with CamScanner

بحيلة ترتق بها الخيوط الآخذة في التمزق خيطًا بعد خيط. وكأن عقلها قد أصابه العطب، رأسها يكاد ينفجر كثمرات الأشجار الضخمة التي تتساقط بعد نضجها لتتناثر أشلاءها في كل مكان، تخلق ابتسامة ثكلى لتزين بها ملامحها وهي ترنو نحو زوجها لتحثه على التصرف.

بعد طول تفكير يهتدي الأب إلى رأى، فيجمع بين بنيه ويقول:

- إن كنت ترفض يا قابيل أن تزوج أختك إقليما إلى هابيل، فلتُقربا إلى الله قربانا.. فمن يُتقبل قربانه، تكن له إقليما زوجة.

تعتمل في قلب قابيل مشاعر مضطربة، أمواج هائجة لا تجد شاطئًا لترسو عليه، لكنه لم يجد مبررًا للرفض، بعد مدة يوافق.

يأتيه الأمر من السماء لزيارة بيت الله الذي بمكة، لكنه يخشى على بنيه من فتنة هو أول من فُتن بها من قبل، يخشى عليهم من أن يوسوس لهما الشيطان بأمر سوء. يرنو نحو السماء خاشعًا، طالبًا منها أن ترعي أسرته حتى يعود:

- أيتها السماء احفظي أهلي بالأمانة.

ترفض.. السماء أبت أن تحمل الأمانة. رفضها يزيده جزعا وشفقة على بنيه، حريصا محبًا عطوفًا، بقلب خاشع ومشاعر ملتهبة ينظر نحو الأرض ويسألها أن تحمل الأمانة، لكن الأرض أبت، ومن بعد الأرض أبت الجبال أن تحمل الأمانة، فما كان أمامه إلا أن يتوجه إلى قابيل أكبر أولاده، فقبل الأمانة وحملها.

يرحل الأب لزيارة بيت الله، تاركًا ولديه ليقربا قربانهما. يحمل قابيل من حقل قمحه حزمة من سنابله، وبينما كان يسير نظر إلى الحزمة في

يده، وجد فيها سنابل ممتلئة جميلة المنظر ومؤكد لذيذة الطعم، فركها وأكلها.

أما هابيل فتحرك كثيرًا بين غنمه التي يرعاها حتى يختار أحسنها، يحمل من بينها كبشا مليحا.

يتقابل الأخوان ويُقربا قربانهما إلى الله تعالى، لم ينتظرا غير هنيهة حتى تنزل نارٌ عظيمة أكلت جَذَعَة هابيل المليحة وتركت سنابل قابيل، نارٌ سيعبدها نفر من بنيهم بعد آلاف السنين.

يقف قابيل مذهولًا، لقد تهاوت أحلامه المعلقة بطرف خيط أخير، يعتمل داخله كإبريق فوق نار به ماء يغلى، كركرة الغليان تنفضه من مكانه، تتقلص عضلاته وتتكور قبضته ملوحًا بها في الهواء تعبيرًا عن داخل ثائر كالبركان.

لقد اتخذ قراره ولن يترك حيلة لتنفيذ ما انتواه، تخرج منه كلمات هامسة وكأنها نيران تسرى أسفل جبل من هشيم:

- مؤكد أنها دعوة أبينا أن يُتقبل منك وأنا لا..

يرحل تاركًا المكان غاضبًا، خلفه كظله جسد من نار، يُلقى على نار قلبه زيتًا ليزيدها تأججًا، لن يتركه يهنأ بصفاء حال، هي فرصته وقد أتته، لقد أخذ على نفسه الوعد ﴿فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾﴾ ذلك ما عزم عليه ولن يعود عنه أبدا.

تمر الأيام وقلب قابيل يزداد احتراقًا بما يفكر فيه ويدبر له، يهمل زرعه وينظر نحو تفاصيل الحياة بازدراء. يعود الأب من زيارته لبيت الله.

Scanned with CamScanner

لا ينشغل هابيل بإعراض أخيه كثيرًا، مؤكد هي غضبة عابرة وسوف تنتهي على أية حال. يخرج خلف أغنامه ليرعاها الكلأ المتناثر بين سهل الجبل القريب، جبل قاسيون. يتفرق القطيع جماعات يأتنسون بالقرب وينعمون بالزرع، يتهامسون فيما بينهم بثغاء وأنين، يتناطحون في ود خشية أن يصيب أحدهم الأخر فيؤذيه، تطوف طيور مغردة لتضيف إلى اللحن عزفًا جديدًا. يتأمل هابيل تلك التفاصيل وهو ممددٌ في ظل شجيرات ونتوءات الجبل، يشاهد عنزة صغيرة حديثة العهد بالدنيا تناطح كبشًا، يبتسم سعيدًا مرتاح البال، يرتخي جسده ويسري فيه خدر لذيذ، يذهب في نوم هادئ وعلى وجهه لا تزال الابتسامة ترفرف.

تجلس الأم وعيناها معلقتان بالطريق، تنتظر الابن الذي تأخر عن موعده كثيرًا، ينتقل قلقها إلى الأب، يتوجه إلى قابيل طالبًا منه الخروج ليبحث عن أخيه، ربما يكون قد أصابه مكروه.

يخرج قابيل، لا يزال يحمل بين جنباته غضبًا يشتعل مع الأيام، لم يحقق مبتغاه بعد، لم ينل إقليما الجميلة. يسير ضاربًا الأرض بقدميه والهواء بقبضتيه، وخلفه خفيًا ينطلق الفاسق موسوسًا بأن اللحظة قد حانت. الصبر على الثمر الناضج يُفسده، وها هي الثمرة نضجت وآن جنيها.

بعد بحث دام وقتًا يصل إلى مسامعه ثغاء الخراف، يسير على هديه، يجد هابيل جالسًا متأملًا، قام لتوه من نومه، ها هو يتمطع متثاءبًا.

يتأمله قابيل وعلى وجهه رغبات قاسية لا حدود لها، يهز هابيل رأسه مبتسما، يود لو يسأله:

- فيما تفكر يا أخي؟!

لكنه يبقى على صمته، يقترب قابيل أكثر، يُشيح بيديه في الهواء نحو السماء قائلا:

- لقد قُبل قربانك وتُرك قرباني؟

- ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾.

- لأقتلنك حتى لا تنكح أختي إقليما.

و بهدوء يبتسم له هابيل قائلا:

- ﴿لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِى مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِىَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

- فلتصارعني.. ولسوف أنتصر عليك.

- لن أصارعك ولن أسير خلف شيطانك يا أخي..

- أنت ضعيف وتخشاني. تحرك.. لماذا تقف صامتًا.

- ﴿إِنِّىٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثْمِى وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ ۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

يتردد في الأفق نعيق غربان تقترب، ترفع الخراف رأسها ناظرة نحوهما متوجسة وقد صمتت حتى إن أحدها فغر فاهه، تستشعر الخطر، ترتد فزعة عندما يحمل قابيل صخرة كبيرة، وكأنه مدفوع بقوى غيبية يلقيها على رأس أخيه الذي يتأوه متألمًا، يتلوى لحظات حتى يسكن الجسد تحوطة بركة من دمه تتوقف حركته، يصمت كما الصخور من حوله. يقف قابيل مذهولًا وكأنه يرى ما حدث للمرة الأولى. يشعر بخواء رهيب وأقدام لا تقوى على حمله فيتهاوى على ركبتيه بجوار جثة أخيه منتحبًا.

Scanned with CamScanner

لا يعلم كم من الوقت مر عليه وهو ذاهلٌ لا يدرى ماذا يفعل، يستفيق على نعيق غرابين يقتتلان، فيقتل أحدهما الأخر، تمر لحظات يتأمل فيها القاتـل ضحيته، بقدميه يحفر في الأرض حفرة ثم يجذب الغراب القتيل بمنقاره ليُلقيه فيها، يُهيل على جسده التراب ليواريه. باكيًا يقول قابيل:

- ﴿يَٰوَيۡلَتَىٰٓ أَعَجَزۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِثۡلَ هَٰذَا ٱلۡغُرَابِ فَأُوَٰرِيَ سَوۡءَةَ أَخِيۖ﴾.

هنـاك.. على قمة الجبل، يجلس الملعون سـعيدًا منتشيًا بهذا النصر الجديد الذي حققه على بني آدم. لن تخمد نيران حسـده وطمعه، فكلما زاد أوارهـا زاد جشـعها ونهمهـا، فتقـول هـل من مزيـد، لقد خُلـق منها ويحمل كل صفاتها.

■■■

(1)

الحادث

الحادية عشر مساءً

عادل..

فجأة وبدون سابق إنذار تغيرت حياتى، من الهدوء والابتسامة التي لا تكاد تفارقني أنا وأفراد أسرتي، إلى عذاب وآلام. أُلقى بنا إلى قلب آتون مشـتعل، كدنـا نفقد الأمل فـي الحياة، تمر علينا لحظات نسـتعطف فيها عزرائيل كي يأتي ليضع حدًا لما يحدث، بأن يُنهى حياتنا.

قديمًـا لم أكن أصـدق حكايا الجدة عن شـخص انقلب فجأة لينهش يـد صديق، تلك اليد التي مُـدت بالخير من قبل، كنت أقف لجدتى بعناد وأتهمهـا بالكذب، فليس من المنطقى أبـدًا أن يتحول الفرد فجأة ليعض يـد صاحبـه، أو ينقلب الأميـن خائنًا، والصـادق كاذبًا، والطيب شـريرًا، ولما لم تجد جدتى إجابة شـافية كانـت تزغدني في كتفى معلقة بصوتها المتهـدج الـذي يحاكى تجاعيـد وجهها الكثيفـة، ونبراتهـا التي لم تكن تخلو من رنة الإعجاب:

- هذا كلام حواديت يا ولد يا عادل.. أي كلام.

Scanned with CamScanner

أسمع نباح كلب في الخارج مختلطًا بمواء عنيف لقطة، يبدو أنها تكشر عن أنيابها بينما عينيها تبحث عن مهرب. أهز رأسي فتتساقط تفاصيل إنفعالي وتعود لي ابتسامتي وأنا أعلق:

- خلاص يا ستي، طالما كلام حواديت.. اكذبي براحتك..

تضحك جدتي، وخلفها نضحك جميعا، أنا وأخي فؤاد وهدي ابنة عمنا وسعاد ابنة عمتي ليلى التي تأتي لزيارتنا في بيت العائلة وتظل معنا بالأسابيع خلال شهور الإجازة الصيفية، حيث تضمنا الجدة تحت جناحيها لتبث فينا دفء سنوات عمرها المنصرم. لا يزال الكلب ينبح مختلطًا بصوت بائع خضروات ينادي على بضاعته واصفًا معظمها بأنه مانجو وتفاح، بينما يتلاشى مواء القطة تمامًا، يكاد يغلب.

كنتُ أشعر بأن عاطفة جدتي نحونا، نحن أحفادها، تفوق عاطفتها نحو أبنائها. يبدو أن العاطفة تتخذ أشكالا مختلفة على مدار العمر، فيتعلق قلب الابن بوالديه، بينما يتعلق أكثر قلب الوالدين بأولادهم، حتى ينمو الأولاد ويتزوجون ثم ينجبون، فتنتقل عاطفتهم إلى زوجاتهم وأولادهم، تاركين الأباء، فهل يظل الأباء، أو الأجداد الآن، ما تبقى لهم من حياة حيرى؟ هل تظل قلوبهم تنفطر على أولادهم الذين بذلوا كل شيء من أجلهم وها هم الأولاد ينتقلون بتدفق مشاعرهم إلى آخرين؟! لا.. لن تظل عاطفة الأجداد حيرى، إنما تنشأ في قلوبهم محبة الأحفاد، تلك المحبة التي تفوق محبتهم لأولادهم، نعم هي تبدو كذلك، لكنها ليست الحقيقة، هي تبدو كذلك لأن الأجداد يمتلكون أنهارًا من العاطفة المتراكمة والحنين إلى الحياة المنسحبة من بين أيديهم، ويمتلكون الوقت الكافي للتعبير عن ذلك، لكن لمن؟ إن أبنائهم مشغولون الآن بتفاصيل حياة لا ترحم، بينما الأحفاد لا تلهيهم تلك التفاصيل، فالأحفاد

أرض خصبة الآن لتلقى كنوز عاطفة الأجداد، هنا تنشأ الرابطة الجميلة التي تكاد تتماثل صفاتها بين الأجداد والحفدة، عقول صافية أدركت معني الحياة على مدار عمر كامل، وأنفت ذلك التكالب على أمر فانٍ، فأصبحت كما الثوب الأبيض، وعقول طفولية لم تعي بعد كم العقبات الدنيوية ولم تصل بعد إلى أنها خدعة كبرى، فتتعانق قلوب شارفت مفارقة الحياة مع قلوب تطرق أبواب تلك الحياة.

لم أدرك تلك العلاقة مع الجدة الحنون، ولم يدركها مثلي كثير، إلا بعد أن رحلت بسنوات، وعلى وجه الدقة حينما قست الحياة عليّ وأقعدتني لأفكر في أيامي التي تسيل من قبضتي كمن يقبض على حفنة ماء.

أتذكر أنني كنتُ أرفض بعناد هذا التحول المفاجئ في حكايا جدتي، لكنه أصبح اليوم حقيقة، ومعي أنا بشكل مباشر وليس في الحكايا التي أمتلك أمامها رفاهية الاختيار، أتقبلها أو أرفضها.

في هذا التوقيت من إحدي ليالي بداية فصل الصيف، المُلطفة قليلا بنسمات ناعمة بعد نهار حار نسبيًا، كنتُ أقود سيارتي بهدوئي المعتاد على الطريق الدائري، يملأ صدري خليط روائح، أحيانًا أميز منها دخان منبعث من حرق أكوام القامة التي غالبًا ما تكون على جانب الطريق، وأحيانًا تصلني رائحة مخدر البانجو منبعثة من نافذة سيارة نقل أو حافلة خاصة لنقل الركاب، لكني في الواقع كنت أبحث بأنفي في هذا التوقيت عن أي رائحة لزهور الربيع.

في المقعد المجاور تجلس زوجتي إيمان، في المقعد الخلفي أولادنا صفاء وباسم يلعبون، يدور بيننا حوار عائلي غلبت عليه نزعة

Scanned with CamScanner

ضيق وتوتر، زاد منها أنني لم أعثر بعد على رائحة واحدة من روائح الربيع.

يبدو أن ذلك التوتر كان يترسب بداخلنا طبقات لأسباب كثيرة منها ذلك الزحام، الاختناقات المرورية التي مررنا بها طوال رحلة عودتنا من الإسكندرية حتى اقتربنا من القاهرة، متخذا طريقي إلى شقتنا في نهاية شارع فيصل.

ثمة سبب آخر في حالة الضيق التي أمر بها في تلك اللحظات، ذلك الخدر الذي يسرى في جسدي، تنميل وخمول رهيب، ثقل في جفوني وكأنه معلق بها حجر يزن خمسة كيلوجرامات. أرجعتُ الأمر لطول المسافة وجلوسي في مكاني لعدة ساعات، لكن ذلك الثقل في ذراعاى والشاؤب المستمر جعلني أرتاب في الأمر، حاولت تذكر الأطعمة والمشروبات التي تناولتها قبل بداية رحلتنا هذة، فشلتُ في التذكر، يبدو أن الثقل وصل إلى تفكيرى أيضًا، فأمسيت كتلميذ بليد الفكر لا يعي ما يراه مهما قام معلمه بالتبسيط، أو كقعيد شُل، يرى ساقيه ولا يشعر بهما، سجين مكتوف الأيدي لا أستطيع الخروج من تلك الغرفة المحدودة الصماء التي لا يتغير هواءها. الضيق ينمو بسرعة ويتكاثر بلا حدود. أحاول الهروب من ذلك التوتر المقيت من خلال هواية أمارسها حال سفرى، إنها التركيز على ذلك المشهد الحى الذي يسير في اتجاه مضاد لاتجاهى، أشاهد تفاصيل الحياة تمر على جانبيّ الطريق بسرعة، أحاول التقاط اللمحات واستنبط الكلمات من حركات اليد، لوحات متتابعة وكأنني أفر كتاب مصور، تُقلب صفحاته بسرعة فائقة. أحاول البحث فيما خلف تلك الوجوه، فيما تفكر وكيف تعيش؟

أتابع رفقاء الطريق في سياراتهم، هذا يتودد، وآخر يُهدد، وطفلة صغيرة تشارك الجميع فرحتها وهي تحاول جاهدة الانتصار على الهواء الذي يضغط كف يدها الصغير بشدة. تلك الصور التي كثيرًا ما جذبتني وجعلتني لا أشعر بطول الطريق أفتقدها الآن وأعجز عن تحديد سبب الفقد.

رغم محبتى لإيمان زوجتى، فلا أستطيع تخيل العيش بدونها، إلا أننا كثيرًا ما نختلف وعلى أتفه الأمور، تتمسك برأيها، عنيدة كطفلة وحيدة مدللة أتت بعد طول انتظار، تحقق ما تريد بهدوء، تستغل جل إمكانياتها العقلية والجسدية في تحقيق ذلك، أحيانًا تنفعل، كثيرًا تبكى، وأحيانًا تستغل ابتسامتها الحلوة حينما تُدلى شفتها السفلى قليلًا وترفع عينيها لأعلى فتزيد المساحة البيضاء بريقًا ولمعانًا، تملأ صدرها بالهواء فينفر ثدياها ليُظهرا تفاصيل شقية لعوب عبر بلوزتها المصنوعة من الحرير الأزرق أو الأحمر وهما لوناها المفضلان. تلك أسلحتها وبها تنتصر عليّ. إحدي ملحوظاتى في الحياة: كلنا يعلم أن دقة حركة سكان الأرض تُمسك بها المرأة، وكلنا لا يُفصح عن ذلك تشبثًا بأحد أهم صفات الرجولة وهي القيادة.

منذ أن تزوجنا وإيمان تمتلك تفاصيل تسيطر بها عليّ، فلا تتركني أبتعد عنها على الإطلاق، خاصة في تلك السنوات الأخيرة، كنتُ أخشى نفورها من أي شيء، أود رؤيتها سعيدة باستمرار، عصفور يلهو بجناحيه مغردًا في فضاء الكون، يهبط ليلتقط الحب وقطرات الماء برفق ثم يعلو مرات ومرات مصافحًا ترقرقات الهواء.

تلك كانت طبيعتنا معًا، فإذا ما ظهرت أزمة، مهما كان حجمها، كنتُ أحاول بقدر الإمكان ألا أقف أمامها كي تمر بهدوء حتى لا أكدر صفونا

Scanned with CamScanner

لحظة، لكن بعد ما حدث لي في السنوات الأخيرة والأزمات التي تعرضتُ لها الواحدة تلو الأخرى، بدأت أفقد أعصابي سريعًا، النقاش مع إيمان يزداد حدة مع الأيام، لكنه لم يصل أبدًا إلى حد النزاع الذي يجعل إيمان تترك المنزل كما يحدث في الكثير من الأسر المصرية، فنحن نمتلك من الحكمة والعقل ما يجعلنا نتخطى الأزمات، كثيرًا ما كنا نتخطاها بالصمت، ثم بالتجاهل، ثم بالنسيان، رغبة في عدم الابتعاد عن بعضنا البعض، توتر وإنفعال لا يعني رغبة حقيقية في الابتعاد أو لا يحمل، داخليا، رغبة حقيقية في ذلك، إنما نحن وليفان، يرفضان الافتراق مهما كانت المنغصات.

الليل أسدل ستائره الصماء على كل شيء، أعمدة الطريق فقدت مصدر طاقتها مقهورة أمام جيوش الظلام الشرسة، عربات قليلة تلك التي تمر في الجوار وهي عادة حركة المرور أيام الجمعة التي اشتهرت بالتظاهرات وقطع الطرق فآثرت الجماهير البقاء في منازلها، لا تخرج إلا للضرورة القصوى.

فجأة.. حدث كل شيء بمنتهى السرعة.. هزة عنيفة.. صراخ إيمان بجوارى وأطفالي في المقعد الخلفي للسيارة، عجلة القيادة تدور بقوة من يدي يمينًا ويسارًا وأنا أحاول إحكام قبضتي عليها.. تنطلق السيارة بسرعة رهيبة رغم تعلقي في عجلة القيادة لتصطدم بجانب الطريق الأيمن ثم تعود إلى الطريق مرة أخرى، اختلستُ النظر نحو زوجتي فوجدتها تتأملني دَهِشة فَزِعَة تتلاحق أنفاسها، ينتفض صدرها مع صراخها.

بكل ما أوتيتُ من قوة دفعت مسند مقعدي بظهري وضغطتُ بقدمي اليمني كباحة السيارة فأطلقت العجلات صريرها الذي امتزج مع صراخ زوجتي وبكاء أطفالي.

لحظة واحدة.. لحظة واحدة تمالكتُ فيها أعصابي ونظرتُ في المرآة العاكسة لأشاهد قائد السيارة النقل التي صدمت سيارتى ولا تزال تتبعني في إصرار وعناد ظهرا بشراسة على وجه قائدها الذي لم أشاهده وجهًا بشريًا في تلك اللحظة.

لم أشاهد الشيطان من قبل ولم أهتم بمعرفة على أي صورة يكون، لكنني في تلك اللحظة شعرتُ به متجسدًا في ذلك الرجل الذي يقود السيارة النقل، الرجل الذي أتى، كما شعرت، ليقوم بمهمة واحدة وهي القضاء علينا. أعلى هذه الصورة تكون نهايتنا.. ومَن القائم على مهمة التنفيذ؟! هذا الشخص الذي هو عبارة عن صورة كربونية للشيطان!! كان يبتسم في إصرار وقد فغر فاهه وأدلى لسانه.

كانت هذه اللحظة التي شاهدتُ فيها السيارة النقل وسائقها هي اللحظة الأخيرة قبل أن تنقلب بنا سيارتنا وأترك عالم الوعي إلى اللاوعي، ولم أعد أميز أي رائحة على الطريق.

■■■

Scanned with CamScanner

(2)
الـــولـــــي

حاتم فكري..

يعلو رنيـن الهاتف الخلوى الخاص بحاتم فكري، يتناوله في هدوء، بعيـن ثاقبـة يتفحص رقـم المتصل، يفتـح الخط، يُنصت قليـلًا بدون أن يتحـدث بأي كلمـة، فقط إيماءات خفيفة، بصوت هـادئ خفيض كي لا يسمعه أحد رغم خلو الشركة من الموظفين في هذا التوقيت، يقول:

- تمام.. تابعهم حتى تنفيذ باقي الاتفاق.

يثرثر المتحدث على الطرف الآخر ممتدحًا ذاته وقدراته و...، لا يهتم حاتـم، إحدي نظرياته فـي الحياة: مَـن يتحدث عن نفسـه وقدراته كثيرًا يعمل قليلًا. لحظات ويُنهى المكالمة.

يزفـر كمن ينهى عمـلا لا يرضى عنه لكن عليه تنفيذه، يعبث بأصابعه علـى شاشـة هاتفه الحديـث، يمحو ذلك الرقم الأخيـر، لا يريد أن يترك خلفـه أي أثـر، يضـع تليفونه فوق سـطح المكتـب، يقف بهـدوء، يدور حول مقعده ليواجه النافذة العريضة المشـرعة خلـف مكتبه، يتأمل تلك الصـورة المترامـيـة الأطراف، غصون الأشـجار الخضـراء الصاعدة إلى السـماء يظهر من خلالها عددٌ من النجوم المبتهجة على الخلفية السوداء

اللامعـة، يتوارى شـق القمر خلف سـحابة صغيـرة رمادية اللـون، تأتيه روائح منبعثة من أشجار الريحان وزهور التمر حنة المنتشرة في أكثر من مـكان بين عنابر التصنيـع ومبني الإدارة الذي يضـم مكتبه وعدة مكاتب أخرى للمحاسبين ورؤسـاء الأقسـام وحجرة خاصة برؤسـاء ورديات العمـال، وهـؤلاء كان لهـم علاقـة خاصة بحاتـم فكري، إنهـم المحرك الأساسـي للعمال، تتوقف علي قدراتهم الطاقة الإنتاجية للمصنع، كلما قربهـم وأجـزل لهم العطاء ضمن إنتاجًا وفيـرًا، وضمن أيضًا، وهذا مهم جدًّا، ولاء كافة العمال له، فطالما ملك القيادات ملك باقي القطيع.

يملأ صدره بالهواء النقي المفلتر عبر أوراق الأشـجار الكثيفة القريبة من شرفته، يشرد عبر الزمن متذكرا أيامه الأولى.

فيمـا مضـى، لـم يكن حاتـم فكـري ذلك الرجـل الممتلئ صاحب الكرش وعلامة الصلاة التي تتوسـط جبهته، ولا تلك اللحية الأنيقة التي لا يزيد طولها على مليمترات، إنما كان شـابًا ثلاثينيا متسق القوام، دهني البشـرة، فاحـم الشـعر، جبهة بيضاء عريضـة، نظرات ثاقبـه تخترق تلك الجدران العازلة التي تحيط بالشخصيات التي يتحدث إليها.

أحيانًا يسـعي البعـض للوصول إلى أماكن تتطلـب مؤهلات خاصة، يعلمـون مسـبقا أنهم لا يمتلكون تلـك المؤهـلات. إذًا.. لماذا الإصرار على احتلال أماكن هم غير مؤهلين لها؟!

الإجابـه بمنتهـى البسـاطة هـي أنهـم يبحثون عـن مكاسـب ونفوذ، الوصول لتلك المرتبة غاية في حد ذاته، المؤهلات العلمية للوصول إلى تلك الدرجة لم تعد مقياسًـا، ثمة حيل وآلاعيـب يُتقنها المحتالون حتى يصلـوا إلى مـا يريدون، ولو ضربنـا مثالًا لتوضيح الصـورة، نجد أنه من

Scanned with CamScanner

الطبيعي أن يكون مدير الإدارة الهندسية في شركة ما هو أكفأ المهندسين فيها إدارة وعملا.

لكن ذلك أصبح أمرًا لا يُعتد به على الإطلاق، فمَن يمتلك الحيل هو من يستطيع الوصول إلى المنصب وليس صاحب الكفاءة. تلك الحيل والألاعيب، قد تنجح في تمرير شخص لا يستحق. قد يحدث ذلك في أمور دنيوية، لكن منتهى الغرابة أن تجد أناسا يحتالون على الله.. يترسمون خطى التقى والصلاح، يرتدون ملابسه، ملابس التقى، وفي أيديهم مسبحة يلهجون عليها بأصابعهم وألسنتهم تباعًا بلا كلل أو ملل. كثيرًا ما تنجح تلك الطريقة بين البشر فتجد كثير يبجلونهم ويتخذونهم مثلًا أعلى، بل ويأتمرون بأمرهم بدون أي إعمال للعقل. لكن هل تنجح تلك الحيل أمام الله؟ الغريب أن تلك الفئة التي تنهج ذلك تحسب أن ما يفعلونه سيجدي نفعًا أمام الله كما أجدي أمام البشر، وإلا ما وفقهم الله في دنياهم التي هي الطريق المؤدي إلى الآخرة، فإن كانت تلك الطريق خيرًا فخير وإن كانت شرًا فشر.

لكن إذا كان الله عز وجل عادلًا، فلماذا ينجح هؤلاء المحتالون في الحياة الدنيا ويرتقون درجات عليا ويعيشون في بحبوحة من العيش، فتجدهم يسكنون الشقق الفاخرة، أو الفيلات الأنيقة، يركبون سيارات أحدث موديل، لديهم في البنوك الإسلامية، أرصدة كثيرة الأصفار؟!

يحدث ذلك بالضبط لأن الله «عادل» ويعطى هؤلاء الثواب على أعمال الخير التي يقومون، دعك من أهدافهم الكامنة خلف تلك الأفعال، وانظر معي إلى الأفعال نفسها، هي أعمال يُثاب عليها المرء، ينال ثوابه ويرتقى درجات، ولأن الله عادل يعطى كل فرد مهما كانت ديانته وإن كان كافرًا، يعطيه أجر أي فعل خير يفعله.

يؤمن حاتم بذلك منذ أن تفتحت مداركه في سني شبابة الأولى، وفي داخله يؤمن تمامًا بأنه ما يفعل الخير إلا للخير، سعيه لتحقيق صالحه هو سعي لرفعة شأن الفرد المؤمن بالله وبالتالى رفعة شأن الأمة الإسلامية ورفع راية الإسلام خفاقة. الحقيقة أن أهم ما كان يتميز به حاتم فكري هو طموحه الذي لا حدود له.

جزئية أخرى كان يتميز بها، إنها إيمانه العميق بأن هناك طريقان قد يسلكهما المرء في هذه الحياة الدنيا، الطريق الأول وهو سهل ومتاح وهو «طريق الشيطان» والطريق الثاني «طريق الله» وتلك الطريق لابد لها من الالتزام والاجتهاد والتعب المضني إن أردنا الدقة، لكنه طريق الانتصار الدائم والذي يضمن النجاح في الدنيا والآخرة.

يقرر حاتم فكري أن ينطلق في طريق الله ليحصد الحُسنيين معًا، أما عن كيف يسير في هذه الطريق فذاك شأن آخر. ما كان يشغله في البداية هو أن تطأ قدمه هذه الطريق، بعدها يقرر كيف يكون.

الخطوة الأولى كانت «المعية» عملا بقول الرسول الكريم **«المرء على دين خليله فلينظر أحدكم من يخالل»**.

يبحث عمَن يخالل، يحدد أهم شخصية في محيط منطقته التي يسكنها في حى المعادي. إنه الشيخ شوقي فهيم إمام وخطيب مسجد الريان الذي يصلى فيه حاتم فكري.

مسجد الريان عبارة عن الدور الأول في بناية من ست طوابق، تلك البناية التي تحتل ناصية تقاطع شارع أبو بكر الصديق مع شارع النصر، ولتسمية الشارع الأول باسم أبو بكر الصديق أصل بُذل فيه جهد واضح من الشيخ شوقي فهيم، حينما لمع نجمه في المنطقة أراد أن يأتي بعمل

Scanned with CamScanner

يلفت الأنظار، ويختبر به قوته أمام الجهات الحكومية المسئولة في الحى، وأخيرًا يبتغى به مرضاة الله، فقد كان الشارع يطلق عليه شارع يوسف وهبي، وفي اليوم الموعود يذهب الشيخ شوقي إلى الحى وقد أستعان بكل ما يختزن من قوة وجرأة وطلب مقابلة رئيس الحى ناعتًا نفسه امام السكرتيرة البدينة بأنه إمام وخطيب مسجد الريان أكبر واهم مسجد في المنطقة، لم تهتم السكرتيرة بما تحدث به، أشارت نحو باب جانبي علامة الدخول، بينما يدها الأخرى تُخرج من أحد الأدراج طبق زجاجى يحتوى على جبن وشرائح خيار ونصف رغيف بقايا وجبة الإفطار، قررتُ أن تلتهمهم قبل أن تعد كوب شاى رابع خلال الثلاث ساعات المنقضية منذ أن وصلت صباحًا.

يتجهم شوقي في وجه رئيس الحى وهو يقول:

- لا ينقصنا غير المشخصاتية ليحتلوا أسماء الشوارع.. يكفينا احتلالهم الشاشات رغم رحيلهم، لتكن أسماء شوراعنا على أسم عظماء الإسلام.

بعد جدال استمر نصف ساعة، يعلل رئيس الحى بأن تسمية الشارع باسم الفنان يوسف وهبي أمر يخص المحافظة ولا دخل له به، ويستعين الشيخ شوقي بكل ما يحفظ من آيات قرآنية وأحاديث نبوية شريفة، ويلمح بطرف خفى إلى أنصاره وأتباعه وما يمتلكونه من قوة.

يخرج الشيخ شوقي فهيم منتصرًا، يلقى نظرة على السكرتيرة البدينة، يود لو يخبرها بتحقيق مأربه، لكنه ألفاها تذيب السكر في كوب الشاى بملعقة تصدر رنينًا رتيبًا بينما فمها لا يزال يمضغ الطعام، يلاحظ أمامها

طبقًا فارغًا ورائحة غبار مخلوطًا بعادم سيارات تأتي من الشباك المفتوح لتملأ المكان.

في اليوم التالى تُنزع اللافتة الصغيرة التي تحمل اسم الفنان يوسف وهبي ليحل محلها لافتة أخرى تحمل اسم أبو بكر الصديق وفي أسفل اللافتة وبخط أقل حجمًا كُتب: رضى الله عنه.

يتفاخر بذلك الشيخ شوقي فهيم لمدة طويلة، ويذكر تفاصيل الواقعة على المنبر أكثر من مرة، يذكرها ساخرًا: قدوتنا الصحابة وليس المشخصاتية. وتمنى لو أن شارع النصر كان يحمل اسمًا آخر حتى يطلب تغييره أيضًا، لكن كلمة النصر لم تكن مشينة لدرجة تستدعي تغييرها وإن تساءل بنفس الأسلوب الساخر ذات يوم على المنبر: عن أي نصر يتحدثون؟

الحقيقة التي لا مراء فيها أن الشيخ شوقي فهيم رجل جرئ، مقدام، لا يترك في الحى كله أحدًا إلا وله معه موقف ما، يؤكد من خلاله أن المؤمن الحق هو من كان في عون أخيه، لذا كان شوقي محبوبًا ومحل ثقة الجميع. يتلقى الزكاة والصدقات من أصحابها ليقوم بتوزيعها في أماكنها، إنه أدرى بها وأعلم بمن يستحقها، لم يكن يسأله أحد مطلقا: كيف قام بتوزيعها ولا لمن!!

بالنسبة للشيخ، أهم جزء في الزكاة والصدقات التي يتسلمها هو نصيب «و العاملين عليها». فيستخرج نصيبه ونصيب أسرته فردًا فردًا، بصفتهم من العاملين عليها أيضًا، يدخره في حسابه الخاص، يقوم بتوزيع الأجزاء المتبقية على مَن يريد، وغالبا ما كانوا من أتباعه، ومريديه، ومعارفهم، وأقاربهم.

Scanned with CamScanner

يكتسب الشيخ شوقي فهيم شعبية في منطقة المعادي بأكملها. في المناسبات الدينية على وجه الخصوص يزداد رواد المسجد ليحصلوا على النفحات المادية تارة والمعبأة في كراتين تارة أخرى. أضحى مصدرًا للخير، ترتجى العامة رضاه كي يُصيبهم عطائه وينالوا عطفه، بينما تزداد سطوته، فمَن يمتلك مفتاح باب العطاء يمتلك قياد القلوب.

إذا سار في الطريق تراه يُسرع الخطى، لحيته محناة مدلاة على صدره، ينطلق بجلبابه الأبيض القصير صيفًا، والبني أو الأزرق الغامق وعليه البالطو الأسود شتاءً، حذاؤه الأسود بمقدمته العريضة لا تتغير لمعته صيف شتاء. يُلقى السلام فيجيبه العشرات، لا تنقطع الدعوات له بالخير وطول العمر.

يجذبه هذا أو ذاك، تبركًا، أو دعوة لتناول الشاى، يتعفف باستمرار عن تلك الصغائر. لديه قناعة بنظرية يرتاح لها والتي تقضى بأنه إذا كان المرء واضحًا مقروءًا قلت هيبته لدي الآخر، وكلما كان غامضا زاد تقديسه، فجعل دائرة معارفه المقربة جدًا، عددًا قليلًا من المريدين الذين يضعونه في منطقة عليا، لا يناقشونه في أي شأن، يتقبلون كلماته كأوامر واجبة التنفيذ، سلطان يجلس على عرش مملكته الخاصة، ولكل من هؤلاء مملكته.

واقع الأمر أن الشيخ شوقي فهيم كان يختارهم بعنايه، شخصيات محدودة الفكر، حادة الطباع، قناعتها بأن طريق الله المؤدي إلى جنته، هو طريق صعب يجتازه المؤمن القوى، والمؤمن القوى خير من المؤمن الضعيف.

المعني الوحيد لكلمة «القوى» لدي هؤلاء، هو القوة البدنية، ومن هذه العقيدة يملئون البطون، ولتجميل تلك القوة مارسوا بعد صلاة فجر كل جمعة رياضة الجرى، والوثب، وحمل الأثقال، ومنهم مَن تدرب على كيفية استخدام الأسلاحة النارية، مَن يدرى فقد يأتي اليوم الذي تظهر فيه دولة الإسلام إلى الوجود ويحارب جيشها الكفار، إذن عليهم الاستعداد لمثل هذا اليوم، إنه يوم الجهاد، وفي هذا اليوم إما النصر وإما الشهادة. وتلك نصر أعظم.

لم يقرأ أحدهم يومًا كتابًا غير تلك الكتيبات الصغيرة التي يكتبها الشيخ شوقي فهيم وأمثاله، منها: كيف تصلى، عذاب القبر، فتنة المسيخ الدجال، أبواب السعير، المرأة في الإسلام، الربا، الزاني والزانية.. وغيرها من الموضوعات التي تحمل ترهيبًا لا ترغيبًا، الموضوعات التي تضفى على القلوب قسوة، لا ترققها.

الخلاصة أن شوقي فيهم وأتباعه كانوا يمتلكون المال والسمعة الطيبة في الحى، والأهم من ذلك كانوا يمتلكون القوة.

كان هذا هو الرجل الذي تقرب منه حاتم فكري، وذلك من خلال الحفاظ على الصلاة جماعة في المسجد الذي يؤم فيه المصلون، في البداية وبفراسة حاتم يدرك أن هناك سمة واحدة تجمع بين أتباع الشيخ شوقي، إنها التفكير المحدود والطاعة بلا نقاش.

لم تكن تلك طبيعة حاتم أبدًا، لم يكن محدود التفكير، الحقيقة أن حاتم صاحب عقل يُشهد له بالكفاءة، لكن ذلك لن يظهره في تلك الأيام وإنما سوف يظهره في المستقبل، فهو إن لم يكن صاحب تلك الرؤية الثاقبة لترك المسجد، وشيخه، وأتباعه ورحل، لكنه درس الوضع جيدًا

Scanned with CamScanner

واتخذ قراره بأنه يجب عليه أن يتسم بسيماهم ويترسم خطاهم ليحصل على ما يريد، لا غرابة في أن يرتدي ثيابهم، لقد أنزل الله عز وجل تلك الغريزة في الحيوان لتفادي المخاطر والنجاة بالذات، فالحرباء تتلون بلون المكان الذي تتواجد فيه.

تمر الأيام والشهور وحاتم يتتبع الرجل، وفي أيام عمله الشاق في مصنع الألبان يعود من عمله قبيل صلاة المغرب فيستقر في المسجد ليصلي صلاة المغرب ويجالس الشيخ حتى صلاة العشاء، يجالسه وحيدًا أو بين الأتباع، يتغلب على مجهود اليوم بماء الوضوء يغمر به رأسه فينعشه، وتركيز كبير لكل كلمة يتفوه بها شيخه.

كانت خطة حاتم فكري تقضي بأن يتقرب من الشيخ، بحيث يُعرف عنه في الحي كله أنه من الأفاضل أتباع الرجل التقي والولي الورع الشيخ شوقي فهيم. هذه الدرجة التي يصبوا إليها ستكون بالنسبة له صك مرور يستخدمه وقتما يشاء. خطته تقضي أيضًا إدخار عدة آلاف من الجنيهات، وبمعاونة الشيخ يحصل على أحد المحلات المميزة، ليُنشئ فيه تجارة ألبان، وإذا لمعت سيرته في الحي حال تبعيته للشيخ، فإن نسبة مبيعاته سوف ترتفع بطبيعة الحال. لكن الريح قد هبت وأتت بأكثر مما تشتهي السفن.

فقد حدث ذات يوم أن تطرق الحديث، بين حاتم فكري والشيخ شوقي فهيم، إلى عمل حاتم، يتحدثه حاتم عن كم المجهود الذي يبذله وضآلة الأجر الذي يتقاضاه نهاية كل شهر.

أفاض حاتم في شرحه لشيخه بأن هذا العمل المجهد المرهق يحول بينه وبين المشاركة في الدعوة إلى طريق الله، إنه يرغب أن يبذل جهدًا أكبر، تحت إشراف وتوجيهات الشيخ شوقي فهيم. يتحدث حاتم بذلك

وعلى ملامحة علامات أسى استطاع أن يرسمها بمهارة وصدق، فتغلبت مهارته على فراسة الشيخ شوقي فهيم، وهي فراسة حادة ومشهود لها.

يكتفي حاتم اليوم، لا يجب أن يُخرج كل ما في جعبته في لقاء واحد، وكأنه يعيش الأزمة ولا يعلم ما الحل، هو لا يجب أن يظهر بأنه يمتلك العقل ويفكر ويدبر، تلك الجزئية يتميز بها الشيخ وحده، الذي يحمل على عاتقه مسئولية إنقاذ أحد أتباعه، وإن لم يأتي في اللقاء التالي بالحل المناسب، يُلمح حاتم من بعيد إلى مشكلته مرة ومرة، ولقاء بعد لقاء.

يرتب حاتم تفاصيل اللقاء القادم، ينسج كلماته في خياله، يعد إجابات أي سؤال قد يطرحه الشيخ، يجب دائما أن تكون كلماته على قدر من البساطة أو السذاجة، لكنها لا تغلق الحديث أبدًا، بل تنقل الشيخ إلى طريق ما، يحقق صالح فتاه. يقرر محادثة شيخه عن مشروعه.

أن تُشعر مَن أمامك بأنه أفطن الناس وأكثرهم رحمة وعطفًا، أن تُشعره بأنه المُخلص والمنقذ، أن تُشعره بأنك مسئوليته، وعليه أن يحقق لك ما تريد، فإن نجحتَ فينسب نجاحك له، أن تجعله يصل إلى هذه المرحلة أمر جد صعب، لكن حاتم فكري أتقنه.

و لأن حاتم فكري شخص محظوظ، تأتي الخطوة التالية من الشيخ بعد ثلاثة أيام، ففي اليوم الثاني وبعد صلاة العشاء، يميل الشيخ على الدكتور جمال عبد النعيم صاحب مؤسسة «النعيم» لتجارة وتوزيع اللحوم المستوردة.

الدكتور جمال عبد النعيم مليونير، استطاع خلال عدة سنوات أن يصنع مجدًا في عالم استيراد اللحوم، نال البركة من الشيخ شوقي وأمثاله بعدما أجزل لهم العطاء، مالًا على أكثر من صورة، ولحمًا مختلف ألوانه. اتخذت

Scanned with CamScanner

سلسلة محلاته ومنافذ توزيعه طابع التقى والورع، خاصة وأنه كان حريصا على اختيار مَن يعمل معه من تلك النوعية من البشر، أمثال أتباع الشيخ شوقي. منهم من يعمل سائقًا أو موزعًا أو بائعًا، إنهم الفاترينه التي يعرض بضاعته من خلالها، يتمتمون باستمرار بذكر الله، ألسنتهم تُقدم المشيئة وتوزع الثناء الإلهي والابتسامات على وجوههم مطبوعة. لن تستطيع يومًا أن تُشكك في هؤلاء وتقول إنهم يبيعون للناس لحوما فاسدة. وقد كانت، وإن كانوا لا يعلمون، نعم لا يعلمون ولن يصدق أحدهم يومًا مهما قدمتَ له الأدله، أنه كان كان يحمل ويوزع لحومًا فاسدة.

الحقيقة أن هناك شريحة من البشر، وهي شريحة عريضة بطبيعة الحال، تضع على عقولها أقفال غليظة لا مفاتيح لها، تلك الشريحة برمجتْ عقولها، قبل أن تغلقها بالأقفال الغليظة التي لا مفاتيح لها، على أن هناك ثوابت لا تتغير أبدًا، فلن يأتي رجل تقي ورع «يعرف ربنا» مثل الدكتور جمال عبدالنعيم أو الشيخ شوقي فهيم بأي فعل يخالف شرع الله، متناسين تمامًا أن هؤلاء بشرًا يصيبون ويخطئون فيتبعونهم كما تتبع الخراف راعيها. ومن ضمن الجزئيات التي أغلقوا عقولهم عليها، أنهم يرافقهم الصواب في أي فكر أو معتقد، وما سواهم مخطئون. من تلك العقيدة الفكرية ينطلقون بثقة تضفى على أي فعل مصداقية وقوة. وهم فعلًا صادقون ويصدقهم أقوياء، وبقوتهم يحققون نجاحات كثيرة، فيعلو شأنهم وهم يحملون فوق أعناقهم رجالهم أمثال شوقي فهيم وجمال عبد النعيم.

بعد الانتهاء من صلاة العشاء، يميل الشيخ شوقي نحو الدكتور جمال، الرجل التقى الذي أكرمه الله بهذا المال الوفير لورعه، يطلب منه أن يوفر فرصة عمل مناسبة وبمرتب مجزى، للأخ الفاضل، والشاب المجتهد في طريق الله، حاتم فكري.

- يا سلام يا مولانا. يزيدني شرفًا، أن أجد شابًا بهذه المواصفات وتكون أنت راضى عنه، ليعمل معي.

لم يكن الدكتور جمال لينافق شيخه حينما تظهر السعادة على ملامحه وهو ينطق بهذه الكلمات، لقد سرت بداخله سعادة حقيقية، توفير فرصة عمل في شركاته أمر يسير، فهو إن لم يكن إضافة إلى الشركة فإنه سيكون همزة وصل دائمه بينه وبين الشيخ إذا استدعت الظروف ذلك. أمثال جمال عبد النعيم في حاجة دائمة إلى قوة تحميهم، والقوة إما الدولة وإما تكتلات أخرى كتلك الذي يمثل إحداها الشيخ شوقي ورجاله، ولن تكون الدولة هي القوة الحامية للدكتور جمال، وإن اظهر بعض رجالها حماية اليوم، فلن يستمر الأمر على الدوام، قد يأتي اليوم الذي تنكشف فيه بعض أساليبه، لذا وجب عليه استقطاب قوة أخرى.

في اليوم التالى يتسلم حاتم العمل وبمرتب لم يكن يحلم به يوما.

تغيرت خطة حاتم، إلى الأفضل بالطبع، فما حدث هو منحة إلهية أثابه الله بها لنقاء نفسه وقوة إيمانه. بذلك أقنع حاتم نفسه.

عمل حاتم كان خفيفًا، فقد عقب الشيخ شوقي فهيم بأن العمل يجب أن يترك لحاتم الفرصة كي يجد فسحة من الوقت للعمل في طريق الدعوة، يوافقه الدكتور جمال على الفور.

بعد أيام قليلة يستطيع حاتم فكري التسلل إلى قلب الدكتور جمال عبد النعيم. كان الرجل في البداية حريصا بشكل لا إرادي، طبيعته حريصة بدون تدبير، إن كان في حاجة فعلا لقوة تكتل تحميه وقت الحاجة، فذلك لا يعني أبدًا ألا يتدبر أمره، أن يعي مع مَن يتعامل. لكنه ما أن يدرس الأمر قليلًا، يقلبه على أكثر من وجه، حتى يبتسم. لم يصل

Scanned with CamScanner

الدكتور جمال إلى تلك المكانة من فراغ، إنه رجل حصيف، يمتلك مكرًا ودهاءً، وقدرة رهيبة على تفسير كافة الأمور وتطويعها لتصب في صالحه الخاص. رجل في العقد السادس من عمره، بشرته بيضاء تميل إلى الحمرة في بعض المواضع كأرنبة أنفه وقمم وجنتاه وجزء يسير من صلعته المحاطة بشعر فضي ناعم، يتدلى كرشه فوق حزام البنطلون الذي يبدو وكأنه يفصل بين منطقتين لا يتماثلان أبدًا، ساقيه كانتا رفيعتان، قدماه صغيرتان مقاس أربعين، على ظهر كفاه تبدو آثار بسيطة لبرص أصابه منذ سنوات، بقع حمراء متناثرة لا تبدو إلا لمدقق. هو رجل صموت، يفكر كثيرًا ولا يتكلم إلا وقت الضرورة، استطاع خلال سنوات طويلة أن يطبع الابتسامة على وجهه لتصبح إحدي ميزاته.

يدرك جمال أن حاتم فكري من تلك الفئة التي يفهمها جيدًا، أتباع الشيخ شوقي فهيم، تفكيرهم محدود وطموحاتهم محدودة أيضًا. حاتم يفطن لمكانته الجديدة، يترسم خطاها بدقة ومهارة، يبذل ما يملك لاظهار الطاعة العمياء في خدمة الرجل، يمارس تفاصيل تعلمها منذ الصغر من خلال الدراما «لا أسمع. لا أرى. لا أتكلم».. اتفق الطرفان وسرت بينهما وشائج نفعية بحتة بلا إعلان.

في البداية يترك له أعمالًا خفيفة. بعد عدة شهور يترك له أحد الفروع ليُشرف عليها إشرافًا كاملا.

لم يمر العام الثاني على عمله حتى صعده الدكتور جمال ليحل محله في تسلم شحنات مستورده ويقوم بالتخليص الجمركى من خلال توكيل خاص حرره له. هنا كانت بداية معرفة حاتم فكري بالتواريخ الحقيقية لصلاحية هذه اللحوم المستوردة وكيف كانت تلك التواريخ تتبدل بسحر الهدايا.

لم يُصدم حاتم بتلك المعلومات، إن كانت اللحوم تدخل البلاد، ويلتهما الناس بنهم، ولم يشكو أحدهم ذات يوم، فلا داعي للقلق مطلقا، كما أن ما يعود من ربحها خير وفير، ويصرف منه الكثير في سبيل الدعوة. أوصل بنفسه، أكثر من مرة، رزم المال في شنطة بلاسيكية إلى الشيخ شوقي.

قديمًا كان اللحم يؤكل بأي شكل، الرفاهية التي يعيش فيها إنسان العصر لا يجب أن تسيطر لدرجة إتلاف هذه الأطنان من اللحوم، بل هو إسراف وتبذير، ثمة شعوب لا تجد حتى كسرات الخبز العفنة لتأكلها، لا ضير مطلقًا في أن يُعاد تصنيع هذه اللحوم في أشكال جديدة تُقبل عليها المطاعم ومن خلال عروض تخفيضات الأسعار يتقاتل عليها المواطنين، خاصة وأن ماركة لحوم عبد النعيم أصبحت علامة مميزة ومحل ثقة من الجميع.

يرتفع أجر حاتم أضعافًا مضاعفة، يرتقى درجات الشركة. خلسة يقوم بعقد صفقات صغيرة لحسابه الخاص، يعلم بشأنها الدكتور جمال عبد النعيم ولم يهتم طالما كانت تلك الصفقات تساعد في التخلص من بضاعة انتهت، أو أوشكت على الانتهاء، مدة صلاحيتها. الحقيقة أن أمثال الدكتور جمال يحتاجون إلى موزعين وإن كانوا لصوصًا أمثال حاتم فكري، المهم هو سرعة التوزيع وجني الأرباح، لكن السؤال: هل الدكتور جمال وأمثاله سيظلون على نهجهم في ترك حاتم وفئته يتلاعبون في الظل؟

في يوم ما سيسمن الفأر ويخرج من جحره وخلفه قطيع، ولن يستطع أحدهم وقتها التصدي لهم، هذا ما يشغل بال الدكتور جمال الآن. يقرر مراقبة حاتم من بعيد وإذا حدث وانسل من قبضة يده، انقض عليه بلا رحمة ولا هوادة.

■■■

Scanned with CamScanner

(3)
المفاجأة

عادل..

تألمتُ بشدة وأنا أحاول رفع يدي، نظرتُ حولي، تفاصيل المكان توحي بأنه غرفة في مستشفى. ساقي اليمني معلقة في حامل، مكسورة مثل يدي المعلقة هي الأخرى في حامل عن يميني، بيدي اليسرى تحسست رأسي فإذا به هو الآخر ملفوف بأربطة سميكة. أصوات متباينة تأتي من بعيد، ضحكات فتيات، سارينة إسعاف، تأوهات مريض يعبر أمام الباب ويبدو أن سيدة تخفف عنه. شعرت بجفاف في حلقي، بحثتُ عن ماء إلى جواري، لم أجد.

لحظات قليلة، مرت ثقيلة، أحاول فيها التركيز واسترجاع تفاصيل الحادث. يُفتح الباب لتظهر ممرضة شقراء برداء أبيض، تقف لحظات في إطار الباب كأنها مرسومة داخل لوحة، من خلفها ينساب الضوء ليرسم ظلها أمامها على الأرض. أول ما يلفت النظر نحوها، عيونها الواسعة التي ترسل الكثير من العبارات والمعاني دون حروف، ابتسمتْ وهي تقترب بهدوء حتى تضع يدها على خدي الأيمن لتتعرف على حرارة جسدي، حاولت قراءة الانطباع الذي سوف يظهر على وجهها، لكنها لم تُظهر أي انفعال، مؤكد أنها فعلت ذلك آلاف المرات، تمد يدها بحقنة

لتغرس سنها في زجاجة المحلول المعلقة عن يميني والتي لم ألحظها إلا في تلك اللحظة، تزم شفتيها ثم تتركها لتنبسط مع دفق السائل، تُنهي ما تقوم به ثم تتوجه ناحيتي بابتسامتها العريضة قائلة:

- حمدا لله على سلامتك يا أستاذ.. عادل.. صح؟

أومأت لها بالإيجاب محاولًا أن أقول أي كلمه فخرجت الحروف واهنة ضعيفة:

- صـــ.. ح..

- مكتوب لك عمر جديد.. إن لم ينقذوك.. لصفى دمك.. جروحك كثيرة.

حاولت أن أبتسم لها تعبيرًا عن امتناني فشعرت أن خلايا وجهي مشدودة وصَعُب عليّ تحريكها فاستسلمت، وفي رأسي تدور كلماتها حول العمر الجديد الذي كُتب لي، العمر واحد، فلا أحد يأخذ عمر آخر ليضاف إلى عمره، توجهتُ نحوها بنفس الضعف، سألتها:

- إيمان.. والأولاد.. أين هم؟

نظرتُ في عيني مباشرة، عيونها واسعة، سوداء لامعة في بحر ناصع البياض، مطت شفتيها بدهشة وهي تقول:

- أي إيمان؟ وأي أولاد؟!

ارتعتُ لحظة ثم تماسكتُ، من فتحة الشباك الجانبي يصك أذني صوت أحد العمال ينادي على زميل له يدعي «عبده» يطلب منه أن يأتي ليحتسى الشاى، سألتها بوضوح أكثر:

- إيمان.. زوجتي.. وأولادي صفاء وباسم؟

Scanned with CamScanner

لم تجب مباشرة، تماوجت ملامحها بين الحيرة والشفقة، حاولتُ أن أستشف من لحظة صمتها ما تحاول أن تخفيه عني، لم أستطع، تحركتْ حركة واحدة بشكل لا إرادي، بحثتْ بعينيها في الحجرة وكأنها تطلعني على عدم وجود أحد هنا، ثم عادت بنظراتها إليّ قائلة:

- زوجتك وأولادك؟ مؤكد لم يصلهم الخبر. ممكن أكلمهم في التـ..

لم أتركها تكمل، صرختُ فيها بكل ما أملك من قوة، خرجت الحروف مبعثرة والكلمات متداخلة:

- تكلمي مَن؟!.. زوجتي وأولادي.. كانوا.. معي في السيارة وقت الحادث!!

ظهرت على وجهها علامات كثيرة متداخلة من الحيرة والتوتر، صعدت الدماء إلى وجنتيها فتوهجتا وكأنهما ثمار اقتربت من النضج فجأة، يبدو أنها وجدت تفسيرًا لحالتي فعادت إلى طبيعتها، زفرت لتُهدأ داخلها، قالت بعد لحظة:

- حضرتك كنت في السيارة بمفردك وقت الحادث. مَن عثروا عليك وحملوك إلى هنا قالوا هذا.

صرختُ بشدة وحاولت الحركة، تمنعني قيودي، تكبلني آلام رهيبة سرت في جسدي مثل سكاكين وأعواد حديد خارجة لتوها من آتون مشتعل. لم تجد الممرضة ما تواجه به حالة الانفعال التي انتابتني، خرجت مسرعة. سمعت العامل من النافذة ينادي على «عبده» مرة أخرى، تتسلل من النافذة رائحة غريبة، بدا لي أنها رائحة مخدر البانجو، لم أهتم، فقد كنتُ كصريع يلفظ أنفاسه الأخيرة، ينتفض مكانة ثم يهدأ ثم ينتفض.

يمر وقت لا أعلمه وأنا على ذلك الوضع، يتفصد عرقي غزيرًا، أشعر بقلبي كقطعة لهب مشتعلة تتأرجح تارة يمينًا وأخرى يسارًا.

يُفتح باب الغرفة، تظهر الممرضة الشقراء ذات العيون الواسعة والجسد الممشوق، وخلفها ثلاثة أطباء، إثنان يتميزان بالطول والصحة والشباب، والثالث بينهما نحيف يتوارى معظم وجهه خلف نظارة طبية سميكة، إنهم أشبه برجل أعمال تعلبي النظرة وإلى جانبيه البودي جارد. لا أدري أيضًا لماذا تذكرتُ بوقفتهم هذه العملية الحسابية واحد زائد واحد (1 + 1).

اصطفوا، الثلاثة، إلى جانب السرير، على وجوههم نفس العلامات التي خرجت بها الممرضة منذ لحظات، علامات دهشة. يبرود تحدث كبيرهم من موقعه بين البودي جارد:

- أتقول أن زوجتك وأولادك.. كانوا معك في السيارة؟

- أرجوك يا دكتور.. لا تخفي عني الحقيقة.. هل أصابهم مكروه؟

- لا يوجد لديّ ما أخفيه عنك، مَن حملوك إلى هنا قالوا بأنك كنت وحيدًا في السيارة.

تهز الممرضة رأسها مؤكدة عبارات الطبيب، بينما الطبيبان الآخران لا تظهر على ملامحهما أي تعبيرات، يبدو أن كبيرهم قد أتى بهم عنوة ليُظهر قدراته أمامهم.

يتزايد الصداع، آلاف الأصوات كانت تعتمل داخل رأسي في تلك اللحظات، تضاعفت تلك الحالة بعد ما فاه به الطبيب، الذي ما إن أنهى جملته حتى التفت نحو أحد معاونيه وأمره بأن يعطيني حقنة مُهدئة مع حبوب مسكنة كي أرتاح قليلًا، وقبل أن يخرج نظر نحوي للحظات

Scanned with CamScanner

لاحظتُ فيها أرنبة أنفه القائمة فوق فتحتين يبرز منهما شعر أصفر كثيف، يبدو أنه كان مداومًا على قصه كي لا يتدلى مثل فرشاة، كثافة شعيرات أنفه كانت فيما يبدو هي السبب في طريقة نطقة للحروف والكلمات، فكنتَ تشعر أنه مصاب بالزكام. بنفس الكلمات المزكومة يلتفت إلى الممرضة طالبًا منها أن تأخذ مني رقم هاتف زوجتي لتتصل بها، أو أحد أقاربي. يخرج تاركًا الغرفة بنفس بروده الذي دخل به، ودتُ لو لكمته لأهشم أنفه وأرى كيف ستمنع الشعيرات الكثيفة الدماء من التدفق، لكني كنتُ مشغول بما هو أجل.

كأن حجر يزن ألف كيلوجرام معلق بلساني، حاولتُ مرارًا التفوه بكلمة واحدة لكني فشلت، ماذا يقول هؤلاء؟! لم يكن أحد في السيارة غيري!! أين زوجتي وأولادي؟ كانوا معي. هل ماتوا جميعًا وقررت إدارة المستشفى إخفاء الخبر عني؟ تزايدت الرائحة الآتية من النافذة الجانبية التي تجاور على مايبدو المساحة الخلفية للمستشفى. حاولت النظر نحوها، شاهدتُ، بعين يثقل جفنها تدريجيًا، أطراف غصون شجرة فيكس ذات أوراق لونها أخضر قاتم، معلق عليها، أو بالأدق ملقى عليها من الطوابق الأعلى قطع شاش ملطخة ببقع حمراء داكنة وخرطوم رفيع في نهايته زجاجة محلول بلاستيكية.

هل يخفون عني شيئًا مريعًا؟ يبدو الأمر كذلك.. ارتعت.. شعرت بخدر رهيب في أطرافي، تداخلت الألوان وغابت الأصوات، كأني أسقط في دوامة، أصارع لفاتها، تتزايد سرعتها آلاف المرات.. لم أعد أرى شيئًا محددًا، أجدني فجأة في داخل سيارتي.. صدمة عنيفة.. ثم.. ثم لا شيء.

■■■

(4)

الزوجـــة

أمل يوسف..

هبط الليل بصمته الرهيب، ليزيد من حيرتي وتوتري. أخشاه باستمرار وأنتظر خيوط الفجر الأولى، لتعود معها آمالي من جديد، فإذا ما أتى الليل عادت حيرتي.

ليل هذا اليوم يختلف عما قبله، كان الصمت فيه مضاعفًا لدرجة أنه له صدي يصم أذني. شعرتُ وللمرة الأولى تقريبًا منذ زواجنا بخوف حقيقي، فقد كنتُ قلقة بطبيعة الحال طوال الساعات الماضية. أنظر إلى الأبواب والنوافذ كي أتأكدت من أنها موصدة بإحكام. رغم كل ما بيننا من توتر إلا أنه، وفي نهاية الأمر، يعد حاميًا لي، أشعر في وجوده بنوع من الطمأنينة وإن كانت مضطربة.

كعادته يتأخر حاتم في العودة إلى المنزل، أو قد لا يعود إلا بعد مرور عدة أيام، يتصل ليطمئن عليَّ ولا يخبرني هل سيعود أم لا. سَئِمتُ سؤاله، وسئِمت مراوغاته المستمرة، لا أخرج منه بإجابة شافية أبدًا.

Scanned with CamScanner

يخرج هذا اليوم وقد علته دهشة وفزع، زال ذلك الهدوء الذي كان يحتويه كعادته، بعد أن تلقى اتصالًا أخيرًا، لم يتحدث كثيرًا، هي جملة واحدة قالها بانفعال لم ينجح في كبحه:

- ماذا؟! كيف لم تعثروا عليهم؟!

تحاول التنصت أكثر لدرجة شعرتَ معها بأن أذنها اليمنى قد استطالت قليلًا، لكنه أنهى الاتصال فجأة مهمهما بكلمات غير مفهومة، تستشعر منها مدي ضيقه وحنقه على شيء ما قد تم على غير رغبته. بعدها بلحظات يخرج على الفور من حجرته وقد ارتدي ثياب الخروج، وجهه مكفهر وأقترب من اللون الأسود، لاحظت تشعث لحيته على غير عادته من تمشيطها بعناية، بدت شفتاه جافة من أثر انفعاله، تود لو ينتظر لحظة حتى تأتيه بكوب ماء، لكنه لا ينظر نحوها، يخرج مسرعًا، لم تعلم عنه شيئًا حتى الآن.

عبثًا حاولت الاتصال به، أخبرها كثيرًا بأنه لا يفضل أن تتصل به وتشغل فكره بأمور تحتمل الانتظار حتى يعود. في يوم سابق، وفي موقف مشابه نصحها بأن تحدثه بما تريد قبل خروجه أو تنتظر حتى يعود. انتوت أن تسأله بلطف عن حاله وتشد من أزره وتخفف عنه، قد يكون في أزمة ويحتاج إليها، هذا واجبها نحوه كزوجة، لم يهتم بإلحاحها المتواصل عبر الهاتف.

تضع أمل هاتفها على المنضدة بيأس، تضم روبها الأزرق الداكن على صدرها، تملأ صدرها بالهواء دفعة واحدة ثم تزفره على دفعات، تقف متوجهة إلى فاطمة في غرفتها، تود مناقشة الأمر معها، بعد ثلاث خطوات تقف مكانها وهي تتساءل بصوت مسموع:

- هل ستفهمني فاطمة؟ أعتقد أنها سوف تأخذ الموضوع على محمل آخر!! لأصبر قليلًا ولأدع فاطمة.. أقله.. لغاية ما أمسك شيئًا في يديَّ.

تخشى على فاطمة كخشية الأم على طفلها الوحيد. إنها الجانب المشرق في حياتها، لقد أتتها على غير رغبة منها وبدلًا من أن يحدث الطبيعي وتنفر منها، احتوتها وأحبتها.

الحقيقة أن فاطمة لم تكن في ذلك التوقيت على استعداد للدخول في خضم أحداث جديدة، يكفيها ما مرت به خلال الأيام الماضية، ثم إن هي علمت بهذه الشكوك الآن فسوف تزداد معاناتها وقد تصل إلى مرحلة نفسية صعبة، إلى هوة سحيقة يصعب إعادتها منها.

تجلس أمل في شرفتها في تلك الليلة المظلمة تسيطر عليها الكآبة، فما تعيش فيه منذ أن تزوجت لا يختلف عما تعيشه اليوم، منحني حياتها آخذ في الانحدار، كل يوم يمر كانت تمني نفسها بأن غدها يحمل بشرى وإشراقًا، لكن ها هي الحياة تأتي كل يوم بمنغصات جديدة، تمنت لو لم تولد مرهفة، لو كانت أحاسيسها أكثر تبلدًا، تمنت لو أن اهتماماتها كانت كغيرها من الفتيات.

تزفر بشدة مستعيذة بالله من الوساس الخناس، مؤكد أن الله عز وجل خلقها على تلك الشاكلة لحكمة لا يعلمها سواه، لم تكن أمل من تلك النوعية التي تعترض يومًا على تفاصيل القدر، مجرد الأمنية التي تخالف ما يحدث تعتبرها رجسًا. لقد خلقت هكذا وسوف تعيش على نفس المنوال.

لكن هل أتى عليها يومًا تخيلت فيه أن تصل إلى تلك المرحلة؟ لا.. لم يجمح خيالها ذات يوم إلى تلك التفاصيل التي تعيشها الآن.. إذن ما الذي حدث؟ لا تعلم!!

Scanned with CamScanner

و كأن همسًا يأتي من أعماق الزمن، وحفيف شيء ينزلق على جدران الشرفة وأرضيتها، هواء ساخن يندفع ليمس وجنتيها ويتخلل أذنيها، كأن أحدهم يجلس إلى جوارها ولا تراه، تتأمل المكان فَزِعَة، فلا تجد شيئًا، تنقبض أحشائها، يضيق صدرها، تنفست بصعوبة لتملأ صدرها بالهواء، تحاول الهروب من اللحظة فتعود بذاكرتها إلى تلك اللحظة التي قذفت بها إلى هذه النيران المستعرة.

لم تكن أمل يوسف تحلم يوما أن تكون زوجة لرجل تقي، ورع، صاحب سمعة طيبة، مثل حاتم فكري، كانت سعادتها لا توصف يوم أن تقدم للزواج بها بلا مقدمات.

وقتها كانت في السنة الثالثة بكلية دار العلوم، ترفض بشكل قاطع تلك العلاقات «المحرمة» بين الطلبة والطالبات، هكذا كانت تنعت تلك اللقاءات والتجمعات بينهم.

تعتليها الدهشة من ملابس الفتيات المنتشرة في الجامعة، وقفت يوما مذهولة حينما شاهدتْ إحدي الطالبات ترتدي البنطلون الجينز وقد شمرت ساقه اليسرى إلى ما أسفل الركبة قليلًا، بدت ساقها ملفوفة بيضاء متنافرة مع البنطلون الأسود، وحذاءها الأسود بسيوره الرقيقة، في البداية تخيلت أنها قد وقعت في حفرة أو ما شابه، لكن الفتاة كانت تسير بين أفراد شلتها ضاحكة، راقصة إن أردنا الدقة، ما أكد أنها فعلت ذلك عن عمد ما سمعته أمل من تعليق شباب في الجوار «يا سيدي على القشطة أموت أنا..» وتضحك الفتاة وهي تسدير نحو الشاب وتخرج لسانها له، علامة رفضها لمعاكسته وإن كانت ملامحها تنضح بسعادة لا توصف كلما لفتت الكثير من الأنظار.

تصم أمل أُذنيها عن باقي العبارات، كانت لا تصدق، ترى قمة التدني الأخلاقي، بل وصل الأمر إلى عبارات جنسية صريحة تخجل منها الزوجات لا العذارى!! إلا أن فتاة الجينز ضحكت واستمرت في طريقها بين شلتها.

أمل يوسف ممتلئة الجسد ولكن ليس ذلك الامتلاء المنفر، إنه إمتلاء جذاب، كل جزء من جسدها في حد ذاته له سماته الخاصة، له عبقه، له سحره، لو تأملت صدرها المشدود المتوارى خلف ملابسها الفضفاضة لتخيلت له ألف طعم، وإن نظرت في عينيها النجلاوتين لسبحت في بحورهما ولن تجد شطآن لترسو عليها، أما إن امتلكت خيالًا لا حدود له وتخيلتها عاريه الجسد فلن تعود كما كنت من قبل أبدًا.

رغم كل ما تمتلكه أمل من إمكانيات إلا أنها كانت لا تدرك شيئا من تلك الامكانيات حتى شاهدها حاتم فكري ذات يوم، الحقيقة أنها كانت مصادفة غير طبيعية بالمرة.

تعود أمل بصحبة صديقتها «حسنية» من الجامعة، على ناصية شارع أبو بكر الصديق وبالتحديد أمام مسجد الريان في منطقة المعادي تقف السيارة الميكروباص، تهبط الفتاتان، تعلو وجه أمل علامات ضيق وانفعال شديدين بسبب حوار وتطاول من سائق السيارة لحظة نزولهما، دائمًا سائقو سيارات الأجرة يتعجلون الهابط ويتحركون بسياراتهم لحثه على الإسراع بالنزول حتى يكاد يتعثر حال نزوله، أما إذا كان هناك من يريد الركوب فلا ضير مطلقا من انتظارة، فهو مال آت، أما وقد تسلم السائق ماله، فلا داعي للتعامل الحسن مع الركاب بعدها.

تهبط أمل أرض الشارع متجهمة، تتبادل مع صديقتها حسنية عبارات مفعمة بنبرات مغتاظة. ثانية واحدة تلتفت فيها أمل نحو صديقتها بشكل لا إرادي لترى ملامح وجهها وانفعالها، تلك الثانية كانت كافية لأن

Scanned with CamScanner

يحدث فيها الكثير جدًّا من الأحداث، ففي الجزء الأول من الثانية تسمع صراخ إطارات سيارة تلتهم أسفلت الطريق، تلتفت أمل بسرعة رهيبة لتشاهد سيارة سوداء فارهة تقترب نحوهما بشدة، وقفتْ مشدوهة لا تبدي أي رد فعل. إن سُئلت عن تلك اللحظة في المستقبل سوف تقول بأنها كانت ترى جسدها وقد تسمر على أرض الطريق، شاهدته من مكان بعيد وكأن روحها تركت جسدها في تلك اللحظة وجلست أعلى غصن الشجرة الضخمة التي تحتل ناصية شارعهم الجانبي. حتى صرختها رفضت الخروج إلى فضاء الكون الرحب، حُبست بداخلها خوفًا وجزعًا، أو ضعفًا أمام صرخات إطارات السيارة المتلاحقة وشهقات الفزع من المارة وتحذيراتهم. في الجزء الثاني من الثانية تدرك أن صديقتها حسنية تقبض على زراعها بشدة، لا تدري إن كانت تمتص فزعها أم تبثها رعبها. في الجزء الثالث من الثانية تلاحظ ذلك الدخان الناتج عن احتكاك إطارات السيارة بأسفلت الطريق، فقد تطوحت السيارة يسارًا تاركة خلفها خطان كقضبان قطار، ينبعث منهما الدخان. أما في الجزء الرابع من الثانية فتشاهد فيه سائق السيارة الذي ينكفئ على عجلة القيادة وكأنه يحتويها بجسده كله كي لا تفلت منه. أما في الجزء الخامس من تلك الثانية التي لا تريد أن تنقضي فقد لاحظت أمل، وكأنها تشاهد لقطة حية للمكان، رجل يخرج من باب المسجد وقد ألقى فردة حذاء على الأرض ويمد يده ليلقى الثانية لكن ما يحدث جعل يده تثبت في الهواء كأن يد خفية علقتها. وعلى بُعد مترات تقف السيارة الميكروباص، التي نزلت منها أمل وصديقتها، وقد أخرج سائقها رأسه من الشباك وارتد بجذعه إلى الخلف ليشاهد ما يحدث. وقبل أن تنتهي تلك الثانية تلاحظ سيدة على جانب الطريق تنحني على طفلها لتحمله وقد علا وجهها رعب حقيقي.

تنتهي الثانية بتوقف السيارة السوداء الفارهة على مسافة سنتيمترات من أمل وصديقتها حسنية التي كادت تسقط مغشيا عليها.

يتجمع المارة ما بين معنف لسائق السيارة المتهور، وبين مشفق على الفتاتين، يهبط من السيارة شاب تتنازع على وجهه إمارات الفزع والقسوة، يُهاجم بشكل مباشر:

- أيوجد مَن يعبر الطريق بهذا الشكل..؟ ألا تمتلكين عقلًا؟!

لا يعلم لماذا توجه بالحديث إلى أمل وتحدث بصيغة المفرد!!

تعلو الدهشة وجه أمل، كان آخر شيء تتوقعه هو أن يهاجمها السائق المتهور، تنظر نحوه بغضب، أرادت أن تُخرج فزعها حممًا لتصهره، لكنها لم تفعل، ولم تجد تفسيرًا منطقيًا لصمتها. فجأة يتلاشى الصمت الذي حل على المكان، تنطلق العبارات من المجتمعين:

- الحمد لله.. سليمه.

- لكن احذروا في المرات القادمة.

- و إنت ياعم «الجينتل».. سوق على مهلك.. أتركبون السيارات لتدهسون الخلق!!

ينفض الجمع بعد لحظات، تعبر أمل بصحبة زميلتها الطريق بعد أن تطوع أحدهم باعتراض حركة المرور بشكل كامل كي يتيح لهما عبورًا آمنًا، فقد أكسبه الموقف قوة لحظية لم يتخيلها من قبل.

يتشبث صاحب السيارة بتلك الفرصة، إنه حاتم فكري قناص الفرص. يعترف لأمل، فيما بعد، بأنه ما إن شاهد عينيها حتى تملكته حالة لم يعرف طبيعتها، كان كما المسحور. ومضت في عقله جملة واحدة، ومضتْ كضوء يُبهر فجأة، قال في نفسه وبسرعة البرق «هذه هي

Scanned with CamScanner

فتاتي التي أبحث عنها» يرقص داخله طربًا بينما كان لسانه في الحقيقة ينطق بكلمات قيل له أنها كانت توبيخا لأمل وصديقتها.

يجلس في سيارته كمن يستعيد رابطة جأشة بعد هذا التوتر، لكنه في الواقع كان يعيد ترتيب أفكاره، ثم يتخذ قراره بمتابعة أمل من بعيد حتى دلفت إلى بناية متوسطة من أربعة طوابق.

بهدوء شديد، يستطيع حاتم جمع بعض المعلومات عنها من صاحب محل في البناية المقابلة، في مجتمعنا وبقليل من المال تشترى الكثير من المعلومات وكلمات تهنئة في النهاية، مع ابتسامة وتنهيدة تؤكد أن المتطوع بنقل كل تلك المعلومات، يود لو يقول للعالم: كم أنا سعيد وهانئ القلب لأني أسهمتُ في الجمع بين شخصين.

في تتابع سريع تجرى الأيام التالية، تتم تفاصيل الخطبة والتجهيزات المعروفة لزواج حاتم فكري بأمل يوسف.

أكثر ما كان يُسعد أمل هو تدين حاتم فكري، إنه أحد أهم أتباع الشيخ شوقي فهيم، أيضًا يعمل في مجموعة شركات الرجل التقي الدكتور جمال عبدالنعيم، يلي ذلك مستواه المادي المتميز، لباقته، يغض بصره، وفي النهاية هيئته وبنيانه الجسدي المقبول جدًّا.

تمت الخطبة، شهور قليلة يتم بعدها الزواج قبيل بداية العام الدراسي الجديد والأخير لأمل في كلية دار العلوم.

بعد الزواج يُظهر حاتم فكري جانبًا جديدًا من شخصيته لم تكن تعلم عنه أمل شيئا، ولم يكن جانبًا إيجابيا بطبيعة الحال، فقد تحولت حياتها منذ تلك الأيام إلى جحيم مستمر.

■■■

(5)
التيـــه

عادل..

كهابط من الفضاء، تلامس قدماه الأرض، يتأملها لحظات، يفاجئ، بأنه هبط بين تجمع بشرى، ينظر إليهم بدهشة وينظرون نحوه بذعر.

عندما عدتُ من أعماق اللاوعي إلى الحياة كانت الغرفة مليئة، والدا زوجتي إيمان، أخي فؤاد وزوجته، الممرضة التي يبدو أنها أصبحت مسئولة عن رعايتي، الطبيب القصير النحيف صاحب النظرات الباردة الراكدة خلف عوينات ضخمة.

على الوجوه اختلطت المعاني ما بين فرحة بعضهم بعودتي وجزع البعض الآخر على فقد زوجتي وأولادي، لم أكمل جولتي على وجوههم حتى بادرتني حماتي بلهفة جزعة:

- أين إيمان يا عادل؟

في هذه اللحظة بالذات، تبددت كل الشكوك وانقشعت كدخان يذوب في الهواء بعد أن طفئت ناره بدفقة ماء. تأكدتُ بأن في الأمر شيئًا مريبًا.. ماذا يحدث؟ تجولتُ بناظريّ على وجوه مَن حولي عَلّي أجد إجابة شافية لسؤالي. الطامة الكبرى أني وجدتُ نظراتهم تحمل أسئلة

Scanned with CamScanner

تكاد تعادل ما بداخلي من أسئلة. أشرتُ نحو فؤاد علامة أن يقترب.. سألته هامسًا:

- إيمان والأولاد ماتوا يا فؤاد؟

اعتدل واقفا، ينظر نحو الجميع، ثم ينحني مرة أخرى نحوى هامسا:

- كلنا منتظرين الإجابة منك يا عادل؟!

بشكل فجائي ومفزع، تصرخ في الخارج سارينة سيارة الإسعاف المقتربة، يختلط صوتها بصراخ سيدة وبكاء طفلة، لقد حدث لهم أمر جلل. من النافذة الجانبية أشاهد الظلام حالك وسماء بلا نجوم.

■■■

عدتُ إلى شقتى، أسير على عكازين، عاد ذراعي إلى طبيعته، أما ساقى اليمني لا زلت أعاني آلامها، المسامير والشرائح الموجودة بها لإعادتها إلى سيرتها الأولى تؤلمني باستمرار، لها وخز كذلك الذي أشعر به في قلبي.

أخبرني الطبيب، القصير نحيف الجسد صاحب النظرات الباردة، بأنني سوف أظل معتمدًا على العكازين ثلاثة شهور، بعدها أنتقل إلى مرحلة العلاج الطبيعي، غمزتُ لي الممرضة صاحبة العيون الواسعة التي تتحدث بلا كلمات، بعدما ترك الطبيب الحجرة، ثم مالت نحوى تهمس بأنفاسها الحارة التي شعرتُ بها في أذني:

- الدكتور يمتلك مركز علاج طبيعي.. سوف تدفع له دم قلبك.. لكن أنا ممكن أعمل جلسات العلاج الطبيعي، في بيتك، وبربع ما ستدفعه في مركز العلاج الطبيعي.

- عندما نصل للعلاج الطبيعي يحلها الحلال.

قامت الشرطة بتحرير محضر الحادث، كاتب المحضر يكتب بيده بحركات آلية وذهن مشغول بكافة التفاصيل من حولنا. رغم عدم اقتناعهم بأقوالى، كتبوا على مضض أن زوجتى وأولادي كانوا معي وقت الحادث. بغطرسة لا أعلم سببها، يخبرني أمين الشرطة أن الأمر عندما وصل للبيه رئيس المباحث علق ساخرا:

- ينقصنا هذا.. يكفينا الإنفلات الأمني وأعمال البلطجة.

لم أفهم إلى ماذا يرمى رئيس المباحث، نظرتُ نحو أمين الشرطة مستفهمًا، يبتسم وقد مد يده أمامه بلا إرادية، ثم ينظر نحوها ويسحبها ليضعها في جيبه وهو يقول:

- لا تؤاخذني يا أستاذ عادل، فيه أولويات.. مطلوب إعادة الأمن.

- و ما حدث معي؟

- مجرد حادثة طريق مثل آلاف الحوادث..عادي يعني.

- مجرد حادث؟! وزوجتى وأولادي؟

وضع يده على كتفى وصعدني بنظراته قائلا:

- إحنا مقدرين الموقف.. بعد إذنك.

يتركني غارقا في حيرتى وينصرف. شعرتُ بأنني أغوص في قلب مستنقع بلا ماء، خانق الرائحة، يشل حركتى.

ماذا يقصد؟ هل تكفى عبارات التهدئة؟ هل تكفى غمزات وإيحاءات لفظية لتهدئتى وإن كانت في جوهرها تشير بيد اتهام خفية نحوى؟!

Scanned with CamScanner

إنه بالفعل لم يكن مجرد حادث سير عادي، سائق السيارة النقل ترك الطريق كاملًا ليصدم سيارتى من الخلف، الطريق في تلك اللحظات كان خاليًا، لا توجد سيارات على ما أذكر، رغم ذلك تبعني بمنتهى القسوة والشراسة. واستمر في الملاحقة حتى انقلبت السيارة ولا أعلم ما حدث بعد ذلك. حاولت أن أفهم لماذا امتدت يد أمين الشرطة إلى الأمام قليلا ثم سحبها بينما ملامح وجهه كانت صماء كجدار أسمنتى؟! لم أجد تفسيرًا.

خلال الفترة الماضية، تابع أخى فؤاد وحماى، تحركات الشرطة للعثور على زوجتى وأولادي، استمعوا إلى نفس الإجابة في كل مرة، وكأنها مسجلة على جهاز يتم تشغيله عند السؤال:

- لا يافندم.. لا جديد.. وقت ظهور أي شيئ سوف نتصل بك.

رافقني الصمت طوال الأيام الماضية، بماذا سأتحدث؟ لا أمتلك أي إجابات على عشرات الأسئلة التي ترد على خاطرى قبل أن يسألها أحدهم. كنت كتائه في قلب صحراء مترامية الأطراف لا يعلم أين جهة الخلاص، أو كغريق لا يتقن السباحة غرقت سفينته في قلب المحيط.

تصب حماتى جام غضبها على صمتى وترحل بلا عودة لتبحث بطريقتها الخاصة بعد يئسها. لم تمر أيام حتى أعلم، من خلال صفحات الحوادث، أنها ذهبت إلى أحد المحامين، اتفقتْ معه كي يرفع قضية ضدي أمام القضاء، تتهمني فيها باختطاف ابنتها!! سوف يستشهد المحامى، الذي يود لو يجعلها قضية رأى عام ويكون بطلها، بالكثير من الجرائم التي ثبت فيها أن رب الأسرة قد قتل زوجته وأطفاله، أو تعمد

الانتحار وهم معه للتخلص من أعباء الحياة، تلك الجرائم التي تلوكها وسائل الإعلام المختلفة هي دليله على اتهامى.

لم أكن في حالة تسمح لي بالتفكير في الرد على تلك الخزعبلات، إنني المصاب الذي يجهل سبب علته، المريض الذي يتعثر الأطباء في تشخيص مرضه فلا يصفون له علاجًا. جهلى يزيد تعبي ومأساتى.

كنت لا شيء في تلك الأيام، للمرة الأولى في حياتى التي أشعر فيها بالعجز التام وبشلل حقيقى يشمل تفكيرى. كل المعلومات المتوفرة لديّ أخبرتها للجميع وبمنتهى الوضوح وأعلم أنها قليلة جدًا، لكني لا أملك غيرها، ولماذا أخفى بعضها وأنا أكثركم تضررًا بالفعل.

أريد أولادي وزوجتى.. أريد حياتى كاملة.

■■■

جلستُ بصعوبة في شرفة شقتى، تركتُ العكازين يسقطان على الأرض محدثان ضوضاء تكسر الصمت، رفعتُ ساقيّ على مقعد أمامى، أتأمل الظلام باحثًا عن شعاع من نور. ضوضاء المقهى أمام البناية توحى بزحام المكان، أغنية رديئة تتردد في المكان في خلفيتها طبول تدق بعنف حتى إن ذبذباتها تحرك زجاج النافذة ليصدر صوتًا رديئًا مع كل ارتعاشة. نفير سيارات يتداخل داعيًا لإخلاء الطريق وكأنهم يعالجون حكة جلد كيًا بالنار.

أحتاج إلى انتشال ذهني من قلب هذه الفوضى، يجب أن أفكر بهدوء، أنبش الماضى عَلّى أجد سببًا واحدًا يُفسر ما حدث لي مؤخرًا. لا مراء في أن سائق السيارة النقل شخص غريب تمامًا، فأنا لم أره في حياتى. أهو مأجور؟.. ربما.. وقد يكون مخمورًا.. أو مجنونًا.. آه..

Scanned with CamScanner

أكاد أجن. تتصاعد أدخنة من المقهى لتملأ روائحها المكان، خليط من روائح الفواكه مع مخدر البانجو، تهب نسمة خفيفة تحمل رائحة أميزها بصعوبة، إنها رائحة شجيرات الريحان التي كانت تعتني بها إيمان في شرفتنا، تعجبت من كونها لا تزال خضراء رغم غيابنا تلك الفترة عن الشقة، بعد لحظات تذكرتُ أن حماتي وأخي فؤاد قد أتوا إلى الشقة وقت مكوثي في المستشفى.

أتنفس بصعوبة لحظات ثم أتماسك، أحاول بقدر الإمكان تهدئة داخلي المرتجف كورقة خريفية هشه فوق سطح ماء متماوج.. أسحب شهيقا وأتركه في داخلي لحظات ثم أخرجه على دفعات.

و كأني أهرب من من تلك الأصوات والروائح، أخطو بصعوبة إلى غرفة أطفالي، أخشى الدخول إليها منذ عودتي من المستشفى، فتحتُ بابها متوجسًا كأني أعلم أن بها شيئًا مؤلمًا مفزعًا أو كأني سوف أتلقى ضربة من مطرقة حديدية على قمة رأسي. دلفتُ أجر قدمًا خلف الأخرى، آلام مبرحة تنتشر في جسدي مهرولة خلف توتري وانفعالي.

وقفتُ في منتصف الحجرة أتأمل كل شيء فيها بينما تتصاعد الحرارة إلى رأسي ويكاد الطنين في أذني يفجر فيها الدماء، سرير صفاء منظم باستمرار، يتفصد جبيني عن حبات عرق، سرير باسم بملائته التي حاول ترتيبها ففشل قبل أن نسافر إلى الإسكندرية، تنزف عيناى الدمع، إيمان كانت تعلمهم الاعتماد على الذات، وأن ذلك يبدأ من اهتمامهم بغرفتهم وترتيب ملابسهم في دولاب الملابس. تخور قواى وأتمني أن يتلقفني أحد قبل السقوط.

على سرير صفاء عروسة كبيرة من تلك التي تصلنا من الصين، محشوة بقطن صناعي، بجوارها كراسة رسم موضوعة بعناية فوق وسادتها الصغيرة، أعلاها حزمة أقلام ألوان خشبية ومبراة وممحاة على شكل أرنب. صفاء تحب الرسم، دائما تحاول محاكاة الوجوه والحيوانات على مختلف أنواعها، من التكرار أتقنت رسم الكلب.

جلستُ على حافة سرير باسم أتحسسه براحتي، وصلت يدي إلى مكان رأسه المطبوع في المخدة، لم أتمالك نفسي، تنهمر دموعي خلف آهاتي التي خرجت من صدرى كألسنة لهيب صادرة عن ديناصورات خرافية كتلك المنتشرة في الأفلام الخيالية التي يتابعها أولادي.

بعد لحظات أفقت على تشيجي المستمر، رعشة أطرافي وجسدي يهتز بكامله، كم هي قليلة تلك اللحظات التي نستطيع فيها أن نترك داخلنا يتصرف كيفما يشاء، أن يُعبر عن نفسه كما يحلو له، يبكى.. يصرخ.. يضحك.. يقف على رأسه.. يرقص مثل القرود.. يصهل كفرس جامح أو حتى ينهق كحمار حَرِن.. يقلد صوت القطة الشرسة وقد قوست ظهرها وفردت أظفارها وماءت بأصوات ملتهبة وأمامها كلبًا يظهر شراسة وإن لم يستطع أن يوارى بداخله جبنًا فيجرى في المكان لا يتقدم خطوة. و..

يرن هاتفي المحمول، انتفضُ في مكاني فإذا بي أصدر صوت الكلب الذي يجرى في المكان ولا يتقدم خطوة، هزة عنيفة أعود بعدها إلى اللحظة، أتنفس بصعوبة محاولًا سحب أكبر كمية من الهواء إلى صدرى الخالى الذي يؤلمني فراغه. رغم ذلك شعرت بنوع من الهدوء وإن عجزت عن تفسيره. أتوكأ على عصاى حتى أصل إلى التليفون في الصالة، ينتهى الرنين فتهدأ خطاى، لحظة ويعاود النداء، إنها الممرضة

Scanned with CamScanner

ذات العيون الواسعة، اسمها هدي، تبادلنا الأرقام قبل خروجي من المستشفى، مؤكد أنها تسعى لنيل جلسات العلاج الطبيعي، لم أكن في حالة مزاجية تسمح لي بالرد عليها، لكن مع إصرار الرنين يخامرني شك بأنها تريدني في أمر مهم، هل وصلت إلى معلومة ما؟ هل وصلتهم زوجتي أو أحد أولادي مصابا مثلًا؟ أسندتُ العكازين إلى حافة المنضدة ثم جلستُ، ضغطت زر فتح الخط، سمعت صوتها الأنثوي وأنفاسها المتلاحقة:

- ألو.. أخبار حضرتك يا أستاذ عادل.. تمام؟

- أهلا يا هدي.. أنا بخير..

- قلت أطمئن عليك.. فيه جديد؟

- لا يا هدي.. لا جديد..

زفرتُ بشدة بعد تلك الجملة، صمتتُ الفتاة لحظات لتترك لي مساحة العودة بعد تلك الزفرة، ثم قالت:

- ألا تحتاج مني شيئًا.. أنا تحت أمرك..

- شكرًا يا هدي.. أنا مستمر على العلاج.. مع السلامة.

- مع السلامة.. سوف أتصل بك من آن لآخر.

- تمام.. سلام.

يبدو أن الحديث القليل قد أذهب عني الحنق الذي يغمرني ويكاد يفتك بي، ويزيل جزءً من حالة العجز التي تحتويني. شعرتُ بهدوء كالذي يصيبنا بعد أن يتوقف صوت مزعج استمر إلى جانبا لدقائق.

تحاملتُ على ذراعيَّ حتى وقفت، سحبت العكازين، بخطى ثقيلة توجهت نحو المطبخ لأعد فنجان قهوة، أشعلت النار، وضعت الكنكة فوق النار بمحتويات صنع فنجان قهوة مركز. المشكلة التي أعلمها مسبقا هي أنني لن أستطيع الوصول بفنجان القهوة إلى البلكونة وهو لا يزال محتفظا بـ «الوش» الذي أعشقه، تذكرتُ إيمان، وقتما أجلس في مكاني المفضل بين شجيراتها المتناثرة تفوح منها روائح مختلفة لريحان وكف مريم وياسمين، أغوص في مقعدي الوثير الذي يحتل مكانًا مميزًا مطلًا على الشارع، أتابع حركة الناس والآلات وأحيانًا الطيور، أتابع زحام المقهى وتجذبني أصواته المختلفة، ونكات زبائنه وقفشاتهم، حتى تأتيني إيمان حاملة الصينية عليها فنجان القهوة المحوج وكوب الماء، كانت تصل لي بالفنجان بالضبط كما أعشقه، الآن يستحيل الوصول بالفنجان إلى نفس المكان، ليتني طلبت من هدي أن تأتي لتصنع لي فنجان القهوة وتأتيني به في البلكونة، هدي.. الممرضة ذات العيون الواسعة والنظرات الجريئة.. ترى ماذا تريد مني هذه الفتاة؟! أحقيقي تشفق عليّ.. أم تبحث عن مكسب مادي.. أم ترغب في أمر آخر؟! لا أمتلك الذهن الصافي أو المزاج الرائق لأبحث خلف رغباتها.. يكفيني ما أنا فيه من هموم..

صحوت من شرودي على القهوة تفور على النار.. رفعت الكنكة على عجل وعلى حوافها تسيل القهوة صانعة ممرات بنية اللون سريعًا ما تجف بسبب الحرارة. صببتُ ما تبقى بها في الفنجان، طبعا بلا وش.

يا لخيبتي.. لقد فشلتُ في صناعة فنجان قهوة!! صرخت بشدة وأنا أقذف الفنجان في الهواء، يصطدم في جزء المطبخ العلوي المصنوع من الخشب محدثًا صوت مكتوم ويرتد ليسقط على حاملة البصل والثوم

Scanned with CamScanner

البلاستيكية، ثم يستقر على الأرض أمامي، تأملته صامتًا وكأني أرى أمامي شخص عنيد يرغب في إظهار ضعفي، الفنجان لم يُكسر، تأملته دهشًا، كيف لم يكسر؟ أحيانًا تميل زجاجة فتُكسر، يُكسر الفنجان ونحن نصب فيه القهوة.. وهذا يتعرض للقذف والاصطدام والسقوط ولا يزال سليمًا، تأملته أكثر، انحنيت لألتقطه وأتأمله عن قرب، فعلًا.. الفنجان سليم.. حتى يده كما هي، رغم أن أضعف جزء في فناجين القهوة هي أياديها، كثيرًا ما شاهدتُ فناجين قهوة بلا يد في منزل العائلة، فنجان قهوة جدتي كان بلا يد.

عادة شرب القهوة ورثتها عن جدتي، كانت تجلس بجسدها الضئيل، المتبقي من عمر مديد ظل ينحتها العام تلو الآخر، أمامها صينية عليها السبرتاية والكنكة النحاس ذات اليد الخشبية وبرطمان البن وبرطمان السكر، تصنع القهوة وتصبها في فنجانها المزين برسوم ونقوش دقيقة، أتذكر أنها كانت زهورًا بنفسجية صغيرة وفراشة ذهبية اللون على الجانب الآخر، تحتفظ جدتي بفنجان بلا يد وترفض نصف دستة فناجين أتى بها والدي من أجلها، وعندما أصر، أخذتها منه واحتفظت بها في دولاب ملابسها ولم تترك فنجانها. صممتُ في يوم على معرفة سبب تمسكها بهذا الفنجان، بعد محاولات عديدة جذبتني جدتي واحتضنتني وهي تهمس في شرود:

- هذا آخر فنجان من شواري.. جدك الله يرحمه.. كان دائما يشرب القهوة فيه.

وقتها لم أفهم تلك الروح التي نبعت منها تلك الكلمات، الآن أتذكر ذلك ذاهلًا، كانوا يتمسكون بتفاصيل الوفاء حتى وإن كانت فنجانًا بلا يد. مؤكد.. كانت تلك التفاصيل تضفي عليهم سعادة.. نعم.. لاحظت

ذلك في نبرات جدتي وملامح وجهها التي غطتها تجاعيد الزمان، شعرتُ وقتها بشجنها وكأنها ترغب في البكاء لكنها تماسكت من أجلي.

آه يا جدتي.. كم أحبك.. تمنيت لو عاد بي الزمن لاحتضنك كثيرًا.. كنتُ ألعب بين يديك وكأنك شيء عادي، بل وأغضب حينما تنادين عليّ لأترك ألعابي وأجالسك. كنتُ أفضل ألعابي ولهوى على الجلوس معكِ!! أي هراء يتملك الأطفال؟! يبدو أن ذلك يحدث حتى نجد في المستقبل ما نشعر نحوه بالندم ونتمني أن يعود الماضي بحنينه.

قررتُ أن أصنع فنجان قهوة آخر بوش وأن أذهب به إلى البلكونة، سوف أتحدي كل شيء الآن.

وضعت البن والسكر والماء في الكنكة، قلبت المكونات بملعقة صغيرة وبحركة دائرية وكأنني أؤكد إلتزامي بالتفاصيل الدقيقة لصناعة القهوة، أشعلت نار البوتجاز، احتوت النار الكنكة بلهيبها الأحمر المنتي بأطراف زرقاء. عليَّ الآن التركيز ومتابعة قلب الكنكة، لا يجب أن أذهب خلف أفكاري..

لحظات.. تذكرت صفاء وباسم.. أولادي.. ارتعشت يدي بقوة.. كنتُ أتحدث مع باسم كرجل رغم أنه لم يتعد الرابعة، أحب ملامحه وقت التفكير واتخاذه سيماء الجدية، أجاريه كرجل ناضج وأحدثه بكلمات ومصطلحات كبيرة، لم يقل أنه يجهلها، إنما يفكر ويفكر حتى أشفق عليه وأحمله لأضمه إلى صدري وأنا أشرح له ما يستعصى عليه فهمه.

صفاء سوف تبدأ عامها السابع بعد أيام، ابنتي، التي لا أعلم أحية هي أم ميته، تمتلك عاطفة وحنينًا لا ينضب، تتأملني بحب وإعجاب لا ينتهي، آه يا أولادي.. أين أنتم.. أين أنتم؟؟

Scanned with CamScanner

كدت أصرخ للمرة الثانية من فرط الألم الذي يجتاحني، لكنني تماسكت، هززت رأسي بشدة وعدتُ إلى التركيز في القهوة، لحقتها قبل أن تفور.. ارتسمت على وجهي سعادة لحظية. صببت القهوة في نفس الفنجان الذي صمد أمام انفعالي الأول. قهوة بوش ثقيل هذه المرة، حملت الفنجان وتوجهت نحو البلكونة. أريد أن أرتشف القهوة وأنا جالس هناك أتأمل كما كنت أفعل من قبل.

كم هي كثيرة لحظات السعادة في حياتنا، لكننا لا نشعر بكمها أو بقيمتها إلا بعد فقدها. تركتُ عكازًا وتحاملت على الثاني تحت إبطي الأيسر، حملتُ الفنجان بيدي اليمني وتوجهت حجلًا نحو البلكونة. في كل خطوة أو بالأحرى بعد كل قفزة كنت أتوقف وأركز بشدة كي أفصل حركة جسدي كاملة عن حركة يدي التي تحمل الفنجان حتى لا يهتز وأفقد طبقة الوش. بعد محاولات رهيبة، واستخدام أكثر من مكان لأضع عليه الفنجان حتى أنتقل بجسدي، وصلت.

جلستُ أتصبب عرقًا مبهور الأنفاس من فرط المجهود المبذول، لكن لحظة انتصار منكسرة تراقصت بداخلي تاركة إبتسامة باهتة لتطفو على وجهي. مددت ساقي اليمني ووضعتها على المقعد، مسحت قطرات العرق بكمي وقلبي لا يزال يدق بشدة، أخرجت سيجارة من العلبة الملقاة على الترابيزة، أشعلتها، سحبتُ منها نفسًا طويلًا زفرته على دفعات، بدأتُ أرشف قهوتي في هدوء مستجديًا لحظة استقرار واحدة، لم أشعر بها منذ الحادث وحتى الآن.

تنفست بهدوء، أصوات الشارع وروائحه لم تعد تثير أعصابي كما كانت منذ قليل، رغبتي في الهدوء فاقت أي مثير خارجي. وضعت الفنجان فوق حافة المنضدة الصغيرة.. هدأتْ نبضات قلبي حتى نسيتها،

يبدو أن لحظة الاستقرار قد أتت، يجب أن أستغلها بأي شكل، يجب أن أرتب أفكاري، ثمة خطوات عليّ أن أقوم بها. لابد من كشف غموض ذلك الأمر، وأعرف أين زوجتي وأولادي!!

يرد على خاطري سؤال: هل أهل المتوفى أكثر راحة من أهل المفقود؟

لا أعلم.. نعم لا أعلم.. رغم أني عشت الحالتين.. يوم أن توفى والدي ومن بعده بأعوام والدتي، واليوم فقدتُ زوجتي وأولادي.

يبدو أن لكل وضع حزنه الخاص به، لا يتشابه مع الحزن الآخر.. هه.. كلها أحزان تحرقنا بنارها.

هناك فرضان، الأول أن يكون سائق سيارة النقل مخمورًا، أو مجنونًا، وهنا يكون ارتكابه للجريمة بلا دافع.. فأين زوجتي وأطفالي؟!

الفرض الثاني: اختفاؤهم يعني أن هناك دافعًا لارتكاب الحادث، وهذا ما شاهدته في عيني السائق لحظة الحادث. طيب.. إذا كان هناك دافع لارتكاب الحادث يجب أن يكون هناك عداء ما، بيني وبين مرتكب الحادث، مَن هو إذن ذلك الشخص، وماذا حدث بيننا لينتقم؟!

■■■

Scanned with CamScanner

(6)

الصفـــقـــة

حاتم فكري..

رغـم مرور ما يقرب من الشـهر على الحادث، لـم يهدأ حاتم فكري، لقد كان قاب قوسين أو أدني من تحقيق هدفه، تحولت الأمور إلى طريق غير الذي رسمه، نعم هو لم يخسر شيئًا وهو بعيد تماما عن دائرة الاتهام.

موجـة حارة تصيـب البلاد، يتنفـس الأفـراد بصعوبة، مـن يمتلكون الرفاهيـة لا يفارقـون غرفهـم المكيفـة، بينمـا تمتلـئ الشـوارع بأنـاس أجبرتهـم ظروف عملهـم إلى النزول في هـذا التوقيت، وأيضـا بالفقراء تلهـب ظهورهم الشـمس التي اقتربـت جدًّا من الأرض فـي ذلك اليوم، لهيب الشمس أخف وطأة من سياط الجوع.

لـم يشـعر حاتم فكري بهـذا اللهيب وهـو يترك غرفة مكتبـه المكيفة قائمًا بجولة في عنابر مصنعه، ثم لا يشـعر بنفسـه إلا وهو يسـير مترجلًا خارجًـا من المصنـع، بعد فترة من الزمن لا يعلمها يسـتفيق فيجد نفسـه قد ابتعد كثيرًا، يسـتقل سـيارة أجرة ليعود بها إلى مصنعه، يتأمل موجات السراب اللامعة التي تعكس الصور كصفحة النهر.

يزفر بشـدة، لم يجني ما كان يحلم به وخطط له بحرفية عالية. أشـعل نيرانه وانتظر حتى نضج طعامه، في لحظة يختطفه آخر ويرحل، تاركًا في قلبه نارًا لا يتحمل بعضها.

الحقيقة أن حاتم لا يعلم كيف انسـاق خلف عاطفته إلى هذه الدرجة وكيف أصبح أسيرًا لهواه، وهو الشخص التقي الورع؟! لكنه يعود فيقرر أنه ما سعي مسعاه هذا إلا للحصول على نعمة قد أنعم الله بها عليه.

لقد أحبها منذ اللحظة الأولى التي شـاهدها فيها، نعم أحبها بجنون، تَحُـول بينهما تفاصيـل الحياة المعقدة، تختفى مـن حياته فجأة، يمارس تفاصيل جديدة هي أقرب لشخص يسير بلا إحساس، بلا مشاعر، ينطلق وفقًـا لأطماع وملذات ورغبات بعيـدة كل البعد عما يرغبه قلبه، لكن يد القدر تحنو عليه مرة أخرى وتضعها في طريقه.

مـرت ثلاث سـنوات تقريبًـا منذ أن شـاهدها عن طريـق الصدفة مرة ثانية، لكنها كانت غير تلك التي فقدها من سـنوات طويلة، وهو أيضًا قد تغير، أضحى أقوى بكثير.

فـي لحظات يتوقف ليسـأل نفسـه: هل ينطلق فـي الطريق الصواب؟ يجـب ألا يضعـف أمام رغبته التي يراها نزوة، يشـعلها في قلبه شـيطانه. إلا أنـه ضعُف وانهارت حصونة، الحصن تلو الآخر، حتى أضحى قطعة بشرية هشة لا تقوى على الاستقامة والاعتدال.

كعادتـه يلجأ إلى شـيخه شـوقي فهيـم ليسـتعين برأيـه، أو بالأحرى بفتـواه، يجيبه بكلمـات من رحم ابتسـامته العريضة، بأن ما يشـعر به هو منحه إلهية ويجب ألا يرفضها.

Scanned with CamScanner

منحة إلهية؟! يندهش حاتم لحظات، بينما تأتيه دفقات هواء مروحة معلقة على جدار جانبي في المسجد، قبل أن يسأل:

– و إن كانت هناك عقبات يا مولانا؟

– كل عقده ولها حلال.. ونحن بعون الله نمتلك القدرة على حل أي عقده.

يبتسم حاتم، لقد هُزم قلقه ورحلت فلوله بعد دعم شيخه، يمد ساقيه على طولهما ويقرر الانطلاق في طريق تحقيق مآربه. يبدأ في إزالة العقبات الواحدة تلو الأخرى، متعاملًا بمنطقه الخاص الذي لم ولن يحيد عنه أبدًا، وهو منطق الصفقة.

أمثال حاتم فكري لهم منطق يسيطر عليهم، طريقة تحدد سلوكهم ومعيشتهم بوجه عام، إنه منطق الصفقة، كل شيء في الوجود ما هو إلا صفقة، تحتمل المكسب والخسارة، رجل الأعمال الحقيقي هو الذي يسعى إلى تحقيق النجاح باستمرار، كلمة الخسارة لا محل لها في قاموس حياتهم.

في تلك اللحظة التي شاهد فيها حاتم فكري أمل يوسف، الفتاة الدرعمية، تقف مذهولة مشدوهة في وسط الطريق، مبهورة الأنفاس وكأن أرنبان شقيان يلهثان في صدرها، فتاة كلثومية، تبدو نضارتها قوية بجسدها الطويل، في تلك اللحظة تسرى بداخله رعشة كمن مسه تيار كهربائي وإن كان قليل القوة. جملة تراقصت بداخله:

– هذه مَن ستنسيني ما مضى.

يتأملها، يتبعها، يتقدم لخطبتها، يتزوجها ولم يفكر لحظة واحدة في أن تلك الصورة التي شاهدها عليها لحظة فزعها، هي طبيعتها وليست رد فعل لهذا الموقف.

في الأيام الأولى يتقبل تحفظها ويقابله بتحفظ آخر كان لابد منه، لا ينفرد بها مطلقًا، وجود مِحرم شرط يسأل عنه تليفونيا قبل أن يحدد موعد الزيارة، كلمات قليلة يتبادلها معها.

الحقيقة أن ما جذب حاتم إلى أمل يوسف هو جسدها، لم يكن يهمه ما تفكر فيه ولا ما تعتقده بقدر ما اهتم بتفاصيل هذا الجسد الشهي. يكفيه فقط أنها فتاة محجبة وتحافظ على الصلاة وبعد تحريات سريعة علم أن لا علاقات عاطفية لها، بل ترفضها بشدة، أفاضت صديقتها حسنية في وصف محاسنها.

طبيعتها الفزعة القلقة لم تتغير بعد الزواج. كانت صدمتها شديدة عندما أخبرها بأنها لن تكمل دراستها الجامعية، فلا داعي لمثل تلك الشهادة وقد تغيرت حياتها وأصبحت زوجة لرجل أعمال يحتاج رعاية مستمرة. صفقاته المستقبلية لن تدع له فرصة لمتابعة زوجته الطالبه، كيف ذهبت، كيف عادت، المحاضرات، المذاكرة، الامتحانات، طلبة يفترسونها بأعينهم، هو في غني عن كل ذلك، بعد حوار وجدل يخبرها بمنتهى الهدوء:

– لن تكملي الجامعة يا أمل.

بهذا ينهي حاتم حديثة وبشكل قاطع لا يقبل المجادلة، هول الصدمة يكبل لسانها لحظات، شاهدتُ في عينيه المشبحة باللون الأحمر نظرات شرسة، خلايا وجهه تنز شرارًا، ترسل كراهية، ناباه برزا قليلًا، تحول في

Scanned with CamScanner

لحظات إلى كائن لم تعرفه من قبل، للمرة الأولى في حياتها تشعر بمثل هذا الضعف والتضاؤل، جسدها الممشوق تهاوى فجأة، قوتها أصبحت سراب، تنهار باكية:

– لم نتفق على هذا يا حاتم.. وإلا كنتُ رفضت الزواج حتى أنهى دراستي.

– لم أكن لأنتظر.. مثلك آلاف..

يتركها تأكلها نار غضبها، لا تدرى ماذا تفعل، كطفل يقف عاجزًا أمام حجر ضخم يقطع عليه طريقه. تتصل بوالديها. يستطيع حاتم أن يضمهما إلى جانبه بسهولة، لم لا وهو يمتلك الحجة والقدرة على الإقناع. تستخدم معه كل ما تمتلكه من مهارات كي يُعدل عن رأيه، القوة والرقة، العنف والدلال، التهديد والاستعطاف.. كافة السبل.. في النهاية تفشل في إقناعه. لقد خُدعت فيه، لكن الأكثر إيلامًا هو اكتشافها أنها خُدعت في قدراتها، كانت تعتقد أنها أقوى من ذلك بكثير، لم تتخيل يومًا أنها ستقف مكتوفة الأيدي هكذا، لا تمتلك القدرة على التحرك واتخاذ موقف، كرهت الاستسلام الذي تذوقت مرارته للمرة الأولى.

شخص عنيد مثل حاتم فكري لم يكن ليعدل عن رأيه بسبب بضعة أفعال تقوم بها زوجته التي يأمرها دينها بطاعة زوجها. لم تجد بداخلها قدرة على أن تجيبه بأنه قبل أن يأمرها دينها بطاعة زوجها، فإن هذا الدين أمر بتحرى الصدق وعدم الحنث بالوعد. لم تجد الجرأة لتقول له ذلك، فآثرت السكينة. مستقبلًا سوف تتمرد على هذا الضعف وتنطلق من أسره.

ظلت فترة طويلة من الزمن حزينة شاعرة بانكسار شيء ما بداخلها، أتسعت بينهما الفجوة التي كان من المقرر أن تتلاشى بعد الزواج تدريجيا.

لا يهتم حاتم كثيرًا بتلك الحالة التي وصلت إليها زوجته الشابة أمل يوسف، فقد ارتوى خلال الأشهر الأولى من زواجه بها، بل وشبع إن أردنا الدقة من جسدها.

ما شغله أكثر، هو بقاءه على حاله بعد الزواج، فلم يتغير كما كان يعتقد مسبقًا، فكرته تقرر بضرورة أن يطرأ على حياته تغيير جذرى، إن كان مهذارًا تحول إلى ذلك الشخص الصموت الجاد، وإن كان سباحًا ماهرًا في بحر العلاقات الغرامية يرسو على شاطئ، تاركًا خلفه غرامياته، وإن كان عاطلًا بلا عمل يبحث عن أي عمل ويهتم به كثيرًا، بل ويتحدث عنه وعن انشغاله الدائم به، وعن كون مديرة لا يستطيع الاستغناء عنه، لأنه يستعين به في كل صغيرة وكبيرة. إنها نقطة عبور إلى مرحلة جديدة، يدركها البعض ويتغير، منهم من يستمر ومنهم من يعود إلى سيرته الأولى.

عمومًا يدرك حاتم أن عليه الانتقال إلى مرحلة جديدة بعد زواجه، فتراه يستعين بشيخه شوقي فهيم، يجالسه بعد صلاة العشاء في المسجد وثالثهم الدكتور جمال عبدالنعيم، يبدأ الشيخ شوقي حديثه:

– كان الله في عون العبد ما دام العبد في عون أخيه، والأخ الفاضل حاتم بعون الله وتوفيقة ينتوى إقامة شركة خاصة به.. ولن نجد مَن يساعده ويقف بجانبه غير الأخ الفاضل الدكتور جمال عبدالنعيم.

Scanned with CamScanner

جمال يعلم تفاصيل إستعداد حاتم لتوفير المكان وعقد الصفقات من خلال الاتصال ببعض العملاء الذين يتعاملون معه هو شخصيا. يعلم أيضًا أن حاتما سوف يحقق ما يريد سواء بمساعدته أو بدونها ما دام يقف خلفه الشيخ شوقي فهيم ورجاله.

إنها دائرة.. عجلة الزمن التي تدور بنفس التفاصيل. ما يمر به اليوم، شاهده بوضوح من قبل، بل عاشه وقت بدايته هو، لكن ما يحدث اليوم عمل درامي من بطولة حاتم فكري. من الأفضل له أن يوافق وأن يعمل حاتم تحت رعايته، فهذا أفضل من أن يخلق منافسًا جديدًا له.

يبدأ حاتم مشروعه الجديد بحفل افتتاح يحضره الشيخ شوقي فهيم والدكتور جمال نعيم وعدد من الأفاضل، يدعمونه بتواجدهم ويضمنون ولاءه لهم وهداياه في المستقبل.

لم يخبر زوجته أمل بأي تفاصيل، فقط هو مشغول، العمل ثم العمل طوال أيام الأسبوع. وماذا عن يوم أجازته؟ إنه يوم الجمعة، أجازته الأسبوعية، يستيقظ من نومه ويأخذ حمامًا دافئًا، يرتدي جلبابه الأبيض القصير قليلًا والشال الأبيض أيضًا، يتعطر بالمسك، يتناول مسبحته ويخرج لصلاة الجمعة.

لا يعود حاتم إلا مع انتصاف الليل متخمًا لينام. يبدو عليه الامتلاء بالفعل،هذه الساعات يقضيها في توطيد علاقاته بالمشايخ الأفاضل، يتناولون معًا طعام الغذاء، حيث تُمد أمامهم مائدة طويلة تحمل ما لذ وطاب من لحم الضأن المغمور في أرز الكبسة والتيس المشوى مع السلطات والمقبلات الكثيرة، بين أصناف الطعام تشكيلة من العصائر والمرطبات، يأكلون بنهم يشجع بعضهم بعضًا، وعلى ألسنتهم عبارات الحمد والشكر والدعوات التي لا تنتهي بأن يُطعم الله من أطعمهم من

طعام الجنة وأن يسقيه من شرابها. يتنقلون إلى مكان آخر وأمامهم مائدة عامرة بالشاى الفاخر مع أعواد النعناع الأخضر التي تزين المكان وتنتشر رائحتها لتمتزج بمختلف أنواع المسك والعطور التي نثروها على أنفسهم بكثرة قبل خروجهم إلى صلاة الجمعة، تسيطر على المكان تلك رائحة، تتخلل صدورهم فتنعشها، توقظ النائم منهم والخامل، يتناقشون في أمور الدعوة ونشر الإسلام عن طريق افتتاح جمعيات جديدة، مشروعات تخصهم، تشكيلات سرية تكون خط دفاع ثاني وثالث ورابع إن تطلب الأمر، إنهم يتعاملون مع كافة الأمور على أنها عمليات لها مقدمات وأهداف ونتائج منتظرة، كل شيء يجب أن يتم الترتيب له، يتم حسابه بمنتهى الدقة. في هذا اليوم أيضًا تحظى التوصيات بتشغيل وإتاحة فرص العمل بالكثير من الوقت.

أخيرًا.. لا يخلو اللقاء من الحديث عن النساء واللطائف منهن والجديد في سوق الجنس، فلا حياء في الدين.

هنا يتمتم حاتم شاخصًا ببصره نحو صفحة السماء الزرقاء التي تضفي الكثير من الهواء على خضرة الحديقة الغناء التي يجلسون بين زهورها، ينعمون بجمالها وبعطرها، فيقول:

الجنس منحة ونفحة إلهية من بين نعم الجنة التي لا تحصى، أنعم الله بها على بني البشر، كي يتذوقوا بعض ذلك النعيم الأبدي.. هي لحظات من وحي العشق تهبط علينا مباشرة من الجنة كي نعيشها على الأرض.

بعد تفاصيل كثيرة يعود حاتم إلى أمل شرسًا، يفرغ طاقته، يذهب في نوم عميق ليبدأ أسبوع عمل جديد ملئ بالصفقات.

هكذا كانت تسير به تفاصيل الحياة، حتى يأتي اليوم الذي يشاهد فيه «إيمان» ليتذكر ما مضى وينتفض قلبه في صدره كذئب حبيس، لن

Scanned with CamScanner

يتركها بعد اليوم. إنه كما الظمآن الجائع الذي ظل يتعلق بأهداب أحلام وردية حول الإقامة بجوار نبع الماء تحت ظلال فواكه متعددة الألوان.

أخيرًا يتحول حلمه إلى واقع.. يراها.. لكنها على بُعد خطوات.

حاول الهرب من نفسه الأمارة بالسوء، يوبخه شيخه ويصفه بالضعيف، ذلك ما يتعارض مع المؤمن القوى، عليه أن يبذل الكثير من الجهد حتى يقتنص حلمه، فإن حصل على ما يريد وهدأ قلبه، كان ذلك أنفع وأصلح له ولطريق الدعوة. كلمات شيخه حُفرت بين ثنايا ذاكرته وهي التي يقول فيها:

- لا تدع نفسك يا حاتم أسيرة أي رغبة..

يخفت صوته لحظات يذكر فيها كلمات التسبيح والحوقلة، فتلك كانت عادته في تطعيم حواره، وإن كان في الحقيقة يعمد إلى ذلك في لحظات بعينها يكون مَن أمامه في قمة شوقه للمزيد، بعضهم كان يستحثه على المضى في حديثه، لكن حاتم فكري لم يكن ليمتلك القدرة على أن يسأله استكمال حديثه، يحترم صمته بقلب مشتعل، حتى يكمل الشيخ كلماته قائلًا:

- عليك الاختيار بين أمرين: إما نسيان الرغبة، أو تحقيقها والشبع منها.. أعتقد في مثل حالتك، تحقيق الرغبة أسهل من نسيانها.

- قُلت لك يا شيخنا.. أنها متزوجة وعندها بنت وولد.

- و لو.. ياما متزوجين.. إنفصلوا بالطلاق.. أو.... ترملوا..

يلقى الشيخ شوقي جملته الأخيرة بقوة وإصرار مع تعبيرات على الوجه تحمل أكثر من معني، لم يفهم حاتم ما يرمى إليه شيخه في تلك اللحظات التي تعثر فيها فكره بشكل كبير.

يعود إلى بيته مشغولًا مهمومًا، لا تستطيع أمل يوسف أن تنتشله من بئر التيه، رغم ما تبذله من جهد وعناء حتى تكون تلك الزوجة الصالحة التي أمرها دينها أن تكونها، لكنها كانت لا تجد في حاتم ما تريد، وإن وجدت جسدًا فلن تجد روحًا. تجلس صامته تلاحظ شروده، تشعر به غريبًا عنها، كل يوم يمر عليهما معًا تزيد المسافة التي تفصلهما، وكأن الأيام بأحداثها الثقال، ماء ينهمر ناحتًا بين ضفتين، كلما كثر نحته كلما تباعد شاطئاه.

تمر الأيام متعاقبة متشابهة يسيطر عليها لون واحد قاتم. هل كُتب علينا الشقاء؟! تسأل أمل نفسها، لا تجد إجابة. تنظر نحو زوجها تستجيبه، يزم شفتيه ويرنو بلا حراك نحو مرآة عريضة معلقة على الجدار المواجه، محاطة بإطار من خشب الأبنوس البني اللون، المحفور على هيئة عرائس صغيرة تزدان رؤوسها بتيجان من أغصان وورود لها ألوان زاهية.

يزم شفتيه، أسفل الملاءة، التي تواري جسده العارى، تنقبض يده اليمني بقوة، لقد اتخذ قرارة. في الأيام القادمة سوف يُبرم صفقة لم يكن يتخيلها من قبل.

■■■

Scanned with CamScanner

(7)
الضحية

أمل يوسف..

بصعوبة بالغة أحصل على سويعات من النوم المتقطع المليئ بالأحلام المفزعة والكوابيس إن أردنا الدقة، أضحيت أخشى قدوم الليل بستائرة الحالكة، يغلب صمته وتسود وحشته، ينقبض قلبي، لا سبيل إلى الخلاص، أستغفر ربي وأطلب الصفح، لعلى خاطئة، لعل شيطاني يهيج نفسي الأمارة بالسوء، لكني لم أكن لأهدأ، ولم تذهب عني أحلامي المفزعة، ولم يخفت نباح الكلاب في الجوار، أو عواء الذئاب في أعماقي.

على هذه الوتيرة، تنطلق بي أيامي مع حاتم فكري، من خلال ثقافتي وقدرتي على تحديد في أي مياه تسير مركبي، أستطيع أن أقول أن حاتم فكري يتعامل معي كجارية له عليها كل الواجبات ولا حقوق لها.

سألته يوما عن حقوقي التي يمليها عليه الشرع، مط شفتيه وقال باستهانه وسخرية مقيته قضت على جزء كبير من تواجده بداخلي:

– أعلم واجباتي الشرعية جيدًا يا أمل.. واعلمي أن كثيرات غيرك يتمنين جزء مما تعيشين فيه من رغد العيش.

ثم يفيض في الحديث عن واجبه الشرعي، مؤيدًا كلامه بالأيات القرآنية والأحاديث النبوية الشريفة. أما عن الواجبات التي تحدث عنها هي منزل الزوجية المجهز بكل ما ترغبه أنثى، وتوفيره للملبس باهظ الثمن،و المأكل الذي لا تخلو منه الثلاجة الواسعة، بل إنه قد تفضل علىّ بتوفيره وسائل الرفاهية مثل جهاز التلفزيون المتصل بجهاز استقبال للقنوات الفضائية.

لم يعقب أنه قام عن طريق أحد الفنيين المتخصصين ببرمجة الجهاز على ثلة القنوات الدينية فقط. كنتُ في البداية سعيدة بذلك، لكني في الحقيقة، مع مرور الوقت، بدأت أشعر بملل فظيع، خاصة وأنني لم أجد فيها قضايا تعمل الفكر وتزكى الروح، إنما هي أوامر يجب أن تطاع بلا نقاش.

يزيد الأمر مللًا، اعتبار حاتم نفسه على طريق الحق يسير. وتأكيده على أنه ليس من حقى على الإطلاق أن أستمر في طلب حقوقي واصفًا ما أفكر فيه بأنها وساوس شيطانية، فلو تركت الفكر، وقرأتُ في كتاب الله، أو كتب التفاسير التي تملأ المكتبة، ما كنت نهبًا لضربات الإفساد الشيطانية.

دُهشت.. أين يجلس الملعون المفسد ليوسوس؟! بحثتُ عنه، نظرت عن يسارى، لم يتملكني من قبل كما يفعل منذ أن اقترنت بك يا حاتم، أحسب الملعون يجلس خلفك أيها الحاتم. أسمع نعيق غراب يحلق في مكان قريب.

لم أتحدث بذلك بشكل مباشر، لم أفصح عما يعتمل بداخلي، عدتُ إلى قراءة القرآن، فكان لي منه ورد يومى، تلك عادتى حتى قبل زواجنا. تجولتُ بين كتب التفسير،أمهات الكتب. أمضيت أسابيع تلو الأخرى في قراءة هذه الكتب، معظمها، بل أغلبها كانت تفسر القرآن والأحاديث

Scanned with CamScanner

بتفاصيل ولغة ومصطلحات زمانها، وعليّ أن أقوم أنا بالقياس على ما نعيشه اليوم حتى تستقيم الفكرة. أشفقتُ يومًا على مَن لا يستطيع القياس أو المقارنة أو الموائمة، فأنا فتاة درست سنوات في كلية دار العلوم وأعي ذلك جيدًا.

ارتحت إلى فكرة أن مشايخنا الأفاضل يبذلون جهودًا غير عادية في تثقيف العامة الثقافة الدينية المنتظرة، ذلك من خلال برامجهم المستمرة على القنوات الفضائية، قبل أن يتحول الإعلام كله إلى ساحة حرب يستغلها كل فريق ليشن منها على غريمة هجمات شعواء مستعرة.

كانت تلك الكتب التي أتجول بين دفاتها خلال صمتي وانتظاري المقيت لعودة حاتم، هي نفس الكتب التي يستعين بها مشايخنا الأفاضل في حلقات دروسهم وفي برامجهم. في أوقات أخرى كنت أشغل نفسي بالاتصال التليفوني بهم وأسألهم أسئلة أعلم إجابتها مسبقًا. فأصنع لنفسي رسالة وهدف يساعدني على انقضاء الوقت، أتقرب من العلماء الأجلاء، أساهم في البرنامج من خلال إثرائه بالأسئلة وبالدعم المادي ثمن المكالمة الهاتفية.

حقيقة لها مذاق المر، توصلت إليها بعد معاناة وألم «حاتم فكري الذي أراه في هذه الأيام ليس هو ذلك الشخص الذي شاهدته في البداية» أشعر بغريزتي أن ثمة إمرأة أخرى في حياته. جزء مؤلم بداخلي يؤكد لي أنه لن يأتي بالمنكر، فإن كانت إمرأة أخرى في حياته فسوف يتزوجها، وإن انتوى الزواج بها لأخبرني مباشرة، طبيعته كانت تؤكد ذلك، أما وقد شُغل باله فذاك يعني وجود إمرأة بالفعل، وأما أنه لم يخبرني فذاك يعني وجود أمرًا مريبًا.

هناك عقدة ما.. عقبة تسد عليه طريقه.. ما هي..؟ لا أعلم..

في لحظات هدوء، كان يتحدث خلالها معي على الهاتف، طلبتُ منه أن يسمح لي بزيارته في المصنع، فأنا أشعر بثقل على قلبي. لم يكن متاح لي أن أستخدم أمامه ألفاظًا مثل الملل، الشعور بالوحدة، اليأس، الضيق، الانفعال.. وغيرها من تلك المصطلحات التي تدور في هذا الإطار. يوافق على زيارتي للمصنع على أن يأتي هو ليصطحبني، فلا يأمن عليّ مع آخر.

شمس ساطعة، تغرق المصنع بأشعتها الذهبية، حرارتها مرتفعة بعض الشيء بشكل يجعل لمناطق الظل روعة خاصة، حتى النسمات كانت تاوى إلى الظل. الفتيات المنتشرات في المصنع يتهامسن وهن ينظرن نحوى بابتسامات رائعة، وددتُ لو اتخذتُ منهن صديقات، كدتُ أطلب من حاتم أن يتركني أعمل معهن، لكن نظراته الصارمة ألجمتني. تستمر النظرات المصوبة من كافة العاملين، يبدو أنهم بلا استثناء علموا في لحظات أنني زوجة صاحب المصنع، لا يشاهدون مني غير عينيّ، فقد انتقبت بعد الزواج، لا أخرج بغير النقاب، وافقتُ حاتمًا على ذلك الطلب رغم إني كنت أرتدي الخمار وأحبه ولم أفكر في هجره يوما، أما النقاب فكان لي معه لحظات تفكير وتردد، لكنها لم تستمر طويلا أمام رغبة حاتم التي لم تترك لي فرصة للتفكير. النساء لا يرتدين النقاب في فريضة الحج؟!

من خلال أحاديث سابقة لحاتم أمامي علمتُ أن هناك عمال يرعاهم، يتعاملون معه بشكل مباشر بدون وسطاء، علمتُ أن هؤلاء عمال عنبر رقم (1) وعندما وصلتُ إلى المصنع طلبت الدخول إلى هذا العنبر، منعني حاتم من ذلك قائلًا بأنه يلزم تعقيمات وترتيبات مسبقة، وانتقل بي إلى العنابر التالية. وقتها لم أهتم، لكن مستقبلا وعندما تشتعل

Scanned with CamScanner

الأحداث وتنتشر الأخبار في الصحف، أعلم لماذا منعني حاتم من دخول هذا العنبر.

كانت عيناى تجول بين الفتيات، لا أعلم لماذا خامرني شعور بأن مَن يحبها زوجي موجودة بينهن، تلك الفتاة التي تذهب بروحه بعيدًا عن أرض الواقع تاركة جسدًا شاردًا باستمرار. تمنى أن أعرف فقط: لماذا استعصت عليه؟

عدنا بعد يوم شعرتُ فيه أنه بذل مجهودًا خرافيًا كي يكون طبيعيًا، حتى إنه يبتسم على غير عادته ويضحك قليلًا. في حجرة نومنا مارسنا الجنس الذي كنت قد اقتربت على نسيانه وإن كنا نفعله كل اثنين وخميس.

تحتوى كل الأفعال والتفاصيل من حولنا على نفس القدر من اللذة، المتحكم في استشعار هذه اللذة، حالتنا الداخلية، التركيبة الخاصة بكل منا، شفيراتنا، هل تتوافق أم لا.. هل تتذوق أم لا؟ الملايين يمارسون الجنس يوميًا.. لكن مَن يستشعره بكل خلاياه، مَن يذوب فيه عشقًا وهيامًا، مَن يرتشفه كشهد، مَن يتنسمه قوة للروح؟ إنهم المحبون.

لسنا أحباء.

لم يكن يعلم أنني أتناول حبوب منع الحمل. كان الحمل قد تاخر بطبيعة الحال في الأشهر الثلاثة الأولى، انتويت تأجيلة حتى انتهى من دراستى الجامعية، فتأخر، ويبدو أنه رضخ لرغبتى. وما أن يرفض حاتم عودتى للدراسة حتى تتغير نظرتى للأمور، كرهت لحظات اللقاء التي قد تكون سببًا في خلق روحًا جديدة تعاني بعضًا مما أعانيه، لجأت للحبوب. أصبح يحتويني كجسد. بعد شهور ذهبتْ روحه بعيدًا، ذهب الوئام المنتظر، ومع الأيام تغير حاتم، لم يعد لي سكنا ولم أعد له سكنا،

كنا زوجين بلا رباط مقدس، فكيف أنجب منه أولادًا؟! تناولت حبوب منع الحمل، لأنني أشعر بأن النهاية باتت قريبة، فلا يجب أن أنجب منه أطفالًا يعانون بين زوجين تعيسين.

أعلم أني أغضب الله، لذا كنت أصلى وأبتهل كي يغفر لي وأعده بأنني سوف أفعل ما يريد عندما تستقر الأوضاع ويعود لي حاتم زوجًا حقيقيًا.

الغريب أن حاتم نفسه رغم مرور الوقت لم يحدثني بشأن الحمل والإنجاب على الإطلاق، ولا أعلم أكان يدرك أمر حبوب منع الحمل، أم أنه يترك الأمر إلى المشيئة الإلهية ويأتى الولد وقتما يريد الله عز وجل، أم أنه استطاب ذلك وكان يريده هو الآخر؟!

بعد التغيير الذي طرأ عليه بعدة أيام وقد علت ملامحة نظرات ساهمة باستمرار، سمعته يتحدث إلى أحدهم في تليفونه المحمول قائلًا:

– أريده ليعمل عندي في الشركة بأي شكل.. ماذا؟ يعمل بالسياحه؟ وأين السياحه؟! ابحث عن نقطة ضعفه وعمولتك عندي.

علتني الدهشة، من هذا الذي يبذل زوجى مجهودًا كي يعمل في شركته؟! يبدو من حديثه أنه ليس خبيرًا كي يسعي خلفه بهذا الشكل، فقد سمعته يقول بأنه كان يعمل في السياحه!! ترى من هو؟ ولماذا يسعي إليه بهذا الشكل؟ تذكرتُ ما قاله من قبل بانفعال شديد «ماذا؟! كيف لم تعثروا عليهم؟!» ثمة أمور غريبة تحدث ولا يظهر لي حتى بعضها. زادت حيرتى.

أسئلة كثيرة تكاد تفتك برأسى.. لذا قررت البحث عن إجابات لها في المرحلة القادمة.

■■■

Scanned with CamScanner

(8)
العاصفة

تريزة..

لـم تتماسـك أمل، لقد غلبهـا انفعالها وتأثرهـا، تحركت نحو حجرة فاطمـة، تتقـدم خطوة وتتوقـف لحظات، في لحظة اضطـراب وتيه تقرر مشـاركة فاطمة هواجسها ومخاوفها، تتحرك بقوة، تطرق بابها ثم تنتظر، يطـول الانتظـار، تعلم أن فاطمة لابد في حالة خشـوع وسكينة، تتعبد.. فاطمـة تعشـق السـجود مبتهلة إلـى الله بكلمـات ترويها بدمـوع الحب والخشية.

فـي صمـت تنصـت فاطمـة، بألـم تتحـدث أمـل، تهـب مـن النافذة المفتوحـة نسـمات تحرك السـتائر الرقيقة، تغزو تفاصيـل الحادث قلب فاطمة، تلتهب مشاعرها. في الشارع يتغني في ميكرفون بصوت مشروخ جامـع الروبابيكيـا. تتحرك فاطمة جيئـة وذهابًا غاضبة كنمرة متوحشـة. يأتيهمـا صوت سـيدة فـي الجوار تنـادي على جامـع الروبابيكيـا قائلة: تعالـى.. عندنا كراكيـب كثيرة. لا تخفض أمل عينيهـا عن فاطمة لحظة، يبدو على فاطمة أن في عقلها عواصف تضرب بشـدة فتقصف وتحطم، يتماوج وجهها بتعاريج وألوان، يتحرك جسـدها بأكمله في حركات غير متسـقة لتعبر عن داخـل غير متجانس، بـدا وان كل علامات الاسـتفهام

تتصارع بداخلها!! جامع الروبابيكيا يجيب السـيدة في ميكرفونه بصوته المشـروخ بأنـه سـيصعد حالًا لكـن بعـد أن ينتهى مـن جار فـي الطابق السـفلى، ثـم يغني مقطع من أغنية شـعبية وكأنه على مسـرح لاكتشـاف المواهـب الشـابة. تجلس فاطمة على حافة سـريرها وقـد اتخذت قرارًا لن تحيد عنه أبدًا.

لقـد اعتبرته مُخلصها مما كانت فيه، اعتبرته حبيبًا يعوضها عن سـني الحرمـان، وهبته نفسـها جسـدًا وروحًا. لـم تتخيل يومًـا أن يفعل ذلك. حقيقى أن الأمر يمسـها بشـكل كبير كزوجة يشرد زوجها، لكنها لم تكن غاضبـة كل هـذا الغضب على مـا آل إليه حالهـا، إنما كانـت غاضبة من أجلها هي، من أجل إنسانة أخرى تحولت حياتها إلى جحيم بسبب نزوة من نزوات حاتم. لا تعلم كيف يفعل ذلك؟

تخـرج أمل وقـد هـدأت قليلًا بعدمـا شـاركت فاطمـة معتقدها عن مسـاوئ زوجها، فهى شريكتها فيه، ولا غرابة في أن تتشارك معها وجهه القبيـح الذي يخفيه باسـتمرار، لكنه ظهر، بالرغم مـن حرصه، بعد تلك المكالمة التي استمعت أمل إلى بعضها.

تزفر فاطمة بشـدة ويدها مطبقة بقوة على لا شـيء، باحثة عن طريقة لإنهـاء تلك الأزمة، تـود الوصول إلى باب القفص لتُخرج طيره الحبيس المكلوم. فماذا قالت لها أمل ؟! هذا ما سيظهر مع الأيام القليلة القادمة.

تجولت بلا هدف ما بين الصالة والبلكون والمطبخ، تمنت لو حملت معها عودها القديم الذي اقتنته من محل آلات موسـيقية في وسط البلد، تعلمت العزف عليه خلال فترة الجامعة، اتقنت عزف بعض المقطوعات الحزينة، تعشـق فريد الأطرش وعزفـه الرائع على العود في أغنية الربيع،

Scanned with CamScanner

لكنها وللأسف لم تحمله معها، فلم تترك لها الأحداث وسخونتها حرية حمله معها، رغبتها في العزف على العود تعادل رغبة عاشق يتمني ضم معشوقته التي رحلت عن عالمه.

تصنع مشروبًا دافئًا لم تتذوقه، تنقلت بين قنوات التليفزيون بدون أن تشاهد أو تسمع، تود الذهاب لمناقشة أمل في غرفتها بشكل أكثر تفصيلًا لكنها تعود، كانت في حاجة إلى تركيز شديد.

تتمدد على شيزلونج يتيح لها رؤية الأطراف العليا لغصون أشجار الطريق التي تتماوج خضرتها تحت الأنوار المتباينة صانعة ظلالًا، تتقاذفها نسمات الهواء التي تهب بين الحين والآخر، تشعر بها وإن كانت مجهولة المصدر، الأغصان تتمايل ولا تنكسر. يجب ألا تنكسر فاطمة، لقد مرت بما هو أعظم من ذلك وأفظع إن شئنا الدقة. تشرد.. تتذكر بدايتها معه، كيف كانت وكيف كان؟!

تتذكر هذا اليوم الذي لم تظهر فيه الشمس وإن اقتربت الساعة من الحادية عشرة صباحا، ظلتْ السماء ملبدة بالغيوم، تتعاقب زخات المطر لتغسل الأشجار المغسولة مسبقا وتزيد برك الطريق، تأوى الطيور إلى أوكارها وتأبي العامة من الناس الخروج في هذا الطقس الغير مستقر.

تسير تريزة على أطراف قدميها، خشية وصول أسفل بنطلونها إلى ماء الطريق. تتوقف لحظات تحتمي، أسفل مظلة من حديد بال، من قطرات المطر. تبحث عن تاكسي لينقلها إلى مقر شركة «الخير خيرك» للمواد الغذائية.

إعلان صغير في صحيفة الأهرام يطلب موظفات «متابعة تجميع وتغليف» الشروط شهادة متوسطة أو عليا.

تعاني تريزة، مثل الملايين، من الانتظار في طابور البطالة. أسرة فقيرة وشهادة جامعية وعيون ساحرة ضمن تفاصيل جسد رائع.. كل ذلك لا يشفع لها، لم تحلم يوما بأكثر من فرصة عمل حقيقية وزوج يحتويها، يحبها.

يعتصرها الألم والأمل كلما شاهدت عشيقين، محيط دائرة حياتها صغير جدًا، عدد الشباب فيه قليل، لا ترى فيهم عشيقًا، كونها مسيحية أبعد عنها العيون العاشقة. ترى في العيون، في الجامعة أو في الطريق، نظرات الإعجاب، تتلاشى لحظة أن تهبط تلك النظرات الفاحصة من على وجنتيها متدحرجة تمس رقبتها راغبة في التخلل إلى صدرها لتنام بين نهديها، فإذا بها ترتد سريعا عند رؤيتها الصليب الفضى الذي يزين صدرها.

قليلة هي نظرات الهوى من الشباب المسيحي الذي إن رغب المتعة غض البصر عنها ورفعه ليغوص في أعماق المحترفات. لم تجد صاحب مشاعر حقيقية.

من أين لها بذاك العشيق؟! هل تتزوج كما تزوجت صديقاتها وقريباتها؟! زواج أسرى من أجل استكمال طقوس الحياة وفقط؟!

تنتظر كثيرًا، ربما يأتي فتى يعلق صليبا على صدره لينتشلها من تلك الدوامة ويملأ قلبها الخفوق برياحين الحب ومخمليات العشق. تنتهى من دراستها الثانوية وتنتظره في الجامعة، بحثتْ عنه في المدرجات، في قاعات الموسيقى وقت تعلمها العزف على ألة العود، في الكافتيريات، تبحث عنه كمن يبحث عن ماء الحياه، لم تجده، لم تصادف حتى

Scanned with CamScanner

طيفه، صورته في خيالها كانت تتلاشى يومًا بعد يوم كجسد تأكله نيران الحرمان.

تنهى دراستها الجامعية، وها هي تدور بين الهيئات والشركات باحثة عن عمل، عام كامل مر، بلى حذاؤها واستبدلته بآخر قبل الموعد المنتظر له بست شهور، تلهبها نظرات أمها وشفقة وضعف والدها. كانت تحبهما وتلقى بنقمتها على الزمن الذي بخل عليها بأب ثرى وبعشيق بهى. لكنها لم تدرك حتى تلك اللحظة أن ذلك الزمن الذي تحمله نقمتها باستمرار قد أنعم عليها بشئ آخر تحسدها عليه الآخريات، جسد قُد من تراب العشق وعُجن بماء الورد، عينان زرقاوتان هما أقرب لسماء صافية تهبط برفق على صفحة الماء الممتدة إلى ما لانهاية، أنف صغير يحمل شموخًا عظيمًا، يترك بداخلك ارتعاشة خفيفة قبل أن تتزايد لحظة رؤية شفتيها فتتحول تلك الارتعاشة إلى انقباضة تحتويك.

لو تحدثت يومًا إلى تريزة فلن تسمع من حديثها الكثير، سوف تأخذك شفتاها إلى عالم سحرى خاص، فكل خلية من خلايا شفتها السفلى تحتاج إلى تأمل دقيق، فقد صُفت كأنها خلايا مخملية لورقة زهرة البنفسج. لا توارى شفتاها، رغما عنها، صفَّ أسنان بيضاء لهما بريق ولمعان لا يشوبهما شائبة، وسوف ينسيك طرف لسانها، الذي يتحرك في رشاقة لحظة تحدثها، أن للسان مهام أخرى غير المتعة.

رغم كل ما تمتلكه تريزة كامل عبد المسيح من كنوز، إلا أنها في واقع الأمر كانت تجهلها تمامًا، فلم يقترب أحدهم ذات يوم لإزالة ذلك التراب العالق فوق صفحتها، المصوغة من ذهب، بيده الحانية.

تزفر بشدة عندما تشاهد سيارة أجرة تقترب، تميل لتحدث السائق عن وجهتها، يوافقها ويمد يده ليفتح باب سيارته ليجلسها بجواره، تتحرك للخلف خطوة وتمد يدها وتفتح الباب الخلفى وتركب متصنعة أنها لم تشاهده، ينطلق بشدة معبرًا عن انفعاله فور انهيار حلمة الوليد بلحظات دفء في ذلك البرد الشديد.

تصل تريزة إلى شركة «الخير خيرك» على أطراف مدينة القاهرة، بالتحديد على مشارف مدينة قليوب. لم يكن الأمر كما تخيلت من قبل، فذلك الطقس البارد والسماء الملبدة بالغيوم لم يمنعا المئات من التوجه إلى مقر الشركة لشغل الوظائف المعلن عنها. ما لفت انتباهها هو التواجد الملحوظ لفتيات مختمرات ومنتقبات وفتية ذوى لحى خفيفة وكثيفة، فكانت كشئ غريب بين المجموع، نغمة شاذة بين عزف جماعي موحد.

إضطراب خفيف يسرى في جسد تريزة، شعور بالوحدة ينتابها، لم تشاهد فتاة مكشوفة الرأس أو شابًا من بني دينها، فكرت في مغادرة المكان، إحساس أن تكون منبوذًا أمر لا يحتمل، لكن أحدًا لم ينبذها، تقول لنفسها، ولم ينظر نحوها أحدهم نظرة واحدة تحمل أحد معاني الاستغراب من تواجدها بينهم. توترها طغى عليها، وغلبها إنفعالها فزادت حيرتها وتهيجت أعصابها، كادت تصل إلى لحظة تكرهها في نفسها، لحظة أن تنعزل عن العالم وتشرد بعيدًا، وتقضم أظفارها.

لكنها هزت رأسها بشدة كمن ينفض عنه أثقال، رفضت رغبتها في مغادرة المكان، ابتسمت لحظة وهي تُحدث نفسها قائلة «أحلل بأجر التاكسي» فلم تبرد نار المبلغ الذي حصل عليه سائق التاكسي مغاليًا فيه، في محاولة لصب غضبه منها عليها.

Scanned with CamScanner

أحيانا يوظف أصحاب الشركات، ولاسيما التي تتعامل مع الجماهير، مسيحيين للتأكيد على الوحدة الوطنية والتي تضمن لهم عدم المقاطعة. يحدث ذلك أيضًا في شركات أصحابها مسيحيون، فيتشدقون بأن العمالة لديهم تضم الكثير من المسلمين. الواقع يؤكد أن ذلك لا يقتصر على الشركات فقط، بل تعدي لينطبق على الأحزاب السياسية، ابتسمت حينما شبهت الأحزاب السياسية بالشركات، لكن ابتسامتها زالت حينما عادت إلى لحظة النفاق التي يرتكبها هؤلاء، نعم.. قالت هو نفاق جمعي، يفعلون ذلك ويعلمون أنهم ليسوا بأصفياء أو أنقياء السريرة، وأن لهم أهدافًا كامنة خلف هذا الفعل، والأسوأ هو أن الجميع يعلم ذاك الإفك ويتغاضى، تنطلق عجلة الحياة، لكن «اللي في القلب في القلب يا كنيسة» كما يقول أبوها كامل عبد المسيح.

لكن لحظة يا تريزة، توبخ نفسها وقد ظهر على وجهها طيف تأنيب ولوم، ماذا تريدين أن يفعلون؟ أيعلنون ما في القلب وتنشأ صراعات؟! أن يكذبوا لتنطلق بنا المركب التي تحملنا جميعًا أفضل ألف مرة من مصارحة لن تفضي إلا لدمار وغرق لتلك المركب، ثم ماذا في كذب يترتب عليه الخير؟!

السؤال يا تريزة الآن، هل تشعرين بداخل قلبك الحنون بشيء مما ذكره والدكِ من قبل؟ للمرة الثانية تسأل نفسها بلوم، ثم تجيب بابتسامة عذبة قائلة بلا كلمات: الحقيقة لا أشعر بأي شيء من هذا، لم أنظر يومًا لأي شخص على أساس دينه أو مستواه المادي، كلنا بشر، وكلنا نمتلك نفس الكم من المشاعر والأحاسيس، الاختلاف في توظيفها.

لم تكن تريزة متدينة يومًا ما، لم تذهب إلى الكنيسة إلا في المناسبات، غالبًا ما تكون حفلات الزواج، تشاهد تلك السعادة المزيفة المرسومة

على الوجوه، لا تدرى لماذا ترى ابتسامة العروسين مزيفة!! قد يكون لعنصر الإجبار فيها نصيب كبير.

كلما قلت دائرة الاختيار كلما قلت معها دائرة الحرية. ففي الدين الإسلامي يحق للرجل أن يتزوج من أي فتاة على وجه الأرض مهما كانت ديانتها، أما عندنا في المسيحية فلا، بذلك يقل لدينا محيط الدائرة بشكل كبير جدًا.

هناك أيضًا في الدين الإسلامي فرصة الزواج بأكثر من واحدة حتى الرابعة، ثم تظهر حرية الطلاق لديهم فتعطيهم حرية أكثر وأكثر، أما لدينا فلا طلاق إلا بشروط قاسية، أيسرها الوفاة. كانت تشاهد السعادة المرسومة على الوجوه في حفلات الزواج التي تحضرها في الكنيسة سعادة مزيفة، لا تعبر أبدًا عن أنها ضمت قلبين عاشقين بحق.

الحقيقة التي لم تدركها تريزة جيدًا لأنها لم تفكر، أو لم تتعمق فيها فكريًا من قبل، هي أنها مهتمة جدًا بأمر دينها، لكنها لم تجد في داخلها تلك القناعة المستقرة في القلب وتجبرها على مداومة الذهاب إلى الكنيسة، وممارسة الطقوس الدينية التي يمارسها العديد من بني ديانتها. لم تفكر يومًا في ذلك الجفاء الذي يحتل قلبها بديلا عن الإيمان، أشياء كانت تخشى الإفصاح عنها حتى لنفسها ولو للحظة واحدة، مجرد التفكير في تلك الأمور هو كفر بالرب وبكل المعتقدات الدينية، الكفر يقابل الإيمان، هي لا تجد ما تؤمن به، لم تجد بداخلها القناعة.. فهل هي على الطرف الآخر؟! هل تقف في منطقة الكفر؟ لا تعلم.. لم تجتهد لتقييم وضعها، تعيش هكذا مثل الكثير ممن تعرفهم. لكن.. هناك.. في أعماق ذاتها.. لحظة صدق واحدة تشع بضيائها في قلب الظلام الدامس، تشعر بها وإن كانت لا تعرف كنهها، تحس بها

Scanned with CamScanner

مستقرة في قلبها، هي ليست بالكافرة، هي لا تمارس الطقوس فعلًا، لكنها لا تقف في المنطقة المقابلة للإيمان. إنها تعشق جل شيء جميل، تحب ابتسامة أختها نورا، تنتظر في لهفة صوت كروان الليل، بل تجد في ألوان كافة المخلوقات لوحات فنية رائعة، تعجز عن صياغتها يد بشرية. تتنسم روائح الزهور لتستقر في قلبها وتسرى في خلاياها. تلك السماء الزرقاء الممتدة المزينة بصفاء، أو سحب نهارًا، أو نجوم وقمر ليلًا، هذه الأرض المنبسطة.. ساحرة إن كانت خضراء.. رائعة لو صفراء جبلية. تتغني مع شدو عصفور يسبح بجناحيه على صفحات الهواء منتشيًا. تأخذها نظرات قطة بائسة. تغلبها لحظة ضعف في عين طفلة أجبرتها عائلتها على التسول. تهزمها صرخة طمع وجشع. تشبعها روعة لحظة عشق حقيقية بين اثنين، بين قطرة ندي على ورقة شجر، بين عاشقين تتعانق أيديهما بينما يشردان في عالم رقيق لا يراه غيرهما، بين أم تداعب طفلها، بين أب وإبن مريض. كيف لمثل هذا القلب أن يُقال عنه أنه قلب كافر لمجرد أنه لا يمارس بعض التقاليد أو الطقوس.. كيـ..

- تريزة كامل عبد المسيح.

ينادي أحدهم من كشف يحمله في يده، كشف تم كتابته منذ عدة أيام بعد الاتصال بالشركة لحجز موعد في المقابلة المقامة لاختيار العناصر المناسبة لشغل الوظائف المعلن عنها.

تتعثر تريزة قليلًا أمام النظرات التي سُلطت عليها لحظة أن أعلن المنادي اسمها، وكأنهم لم يدركوا أنها مسيحية إلا من إسمها، تتماسك حتى تعتدل في مشيتها، تملأ رئتيها بالهواء، يتعثر تفكيرها ملقيًا على قسماتها نضارة مصاحبة لابتسامة خجلى، تنجح في تثبيتها لحظة دخولها المكتب الفخم الذي يجلس فيه بمفرده حاتم فكري، صاحب الشركة.

في اللحظة الأولى استشعرت تريزة نظرة ذات معنى، ظهر وإن حاول حاتم أن يخفيه، مدت يدها قليلا لتسلم، تعلم أنه لم يكن ينتوى مصافحتها، لكنها همت لتشجيعه. لا تعلم لماذا أتت بتلك الخطوة!! لم تفكر فيها من قبل ولا خططت لها.

كيلا يحرجها، ومن علياء القادر المتحكم، يمد حاتم يده ليصافحها، ناظرًا في عينيها مباشرة، ينازع رغبة حقيقية في ضغط يدها الرقيقة قليلًا، لم يخطط لاحتواء يدها، لا يعلم أن خلفه يتربع الملعون سعيدًا وينفخ نيرانه في قلبه.

لا يزال حاتم ينازع رغبة احتواء يد تريزة، ولا تزال تتابع نظراته في صمت.

■■■

Scanned with CamScanner

(9)

البدايـــــة

عادل..

شـخص مسـالم، لا أعداء لي، حاليًا أعمل في شركة تعمل في مجال الأغذيـة، تخرجت في كلية التجارة جامعـة حلوان، أمضيت عامًا واحدًا في الخدمة العسكرية خرجت بعدها لحياتى العملية.

التحقـت بأكثـر مـن عمـل، عملـت فترة فـي سلسـلة مطاعـم الفول الشـهيرة، لكنـي لم أحب هـذا العمل فتركتـه والتحقت بعمـل في فندق شهير على النيل، من هذا الفندق كانت انطلاقة عملى التي غيرت حياتى وقتها حتى قامت ثورة يناير 2011، تعرفت على إيمان وتزوجنا وأنجبنا طفلينا..

كنـا نمـارس تفاصيل حياتنا مثل أي زوجين، همنـا هو تربية الأولاد. بقـدر الإمكان كنت أحاول الترفيه عنهـم، أخرج بهم في رحلات قصيرة أو حتى طويلة في الصيف، يوم الحادث كنا عائدين من الإسكندرية بعد قضاء أسـبوع في شاليه يمتلكه صديقى حسـين منصور، أعطاني مفتاحه وأخبرني بصدق بأن أعتبر الشالية ملكا لي.

مؤكد أن ثمة دافعًا حقيقيًا لارتكاب هذه الجريمة.. لا.. لا.. يجب أن أعـود بالذاكرة أكثر وأبحث في التفاصيل مهما كانت صغيرة، لعلى أعثر بين تلك التفاصيل على الفاعل.

■■■

لـم يكن العمل في سلسـلة مطاعم الفول هـو حلمى الخاص أو حلم أي شاب بطبيعة الحال، لكنها مرحلة مفيده في بداية الطريق في وقت لا تتوافر فيه فرص العمل المناسبة والمرموقة اجتماعيًا. عمومًا كان العمل في مطعم الفول أفضل من الوقوف في ذلك الطابور الطويل من العاطلين ورواد المقاهى التي تسد شوارع القاهرة.

التحقت بالعمل في المطعم للعمل ككاشير، في يومى الأول يرمقني المسـئول عن الفـرع بنظراته التي يمزجها بريبـة لا أعلم مصدرها، طلب مني أن أتوجه إلى قسـم تعبئة السندوتشـات. طبيعة عملى في هذا القسم تتلخص في تسلم الأرغفة من زميل وأمامى إناء ضخم ملئ بالفول وآنية أخرى بهـا السـلطات والمقبلات الأخرى، أقـوم بتعبئة السندوتشـات. يراقبني مدير الفرع كثيـرًا، ملاحظته الوحيدة والتي لم يمل من تكرارها، كانـت حول وجوب تقليل كميـة الفول في الرغيف، وهـو رغيف قزمى بطبيعـة الحال، ينصحنـي مدير الفرع بأن أقوم بتوزيـع كمية الفول لحظة وضعها لتظهر كبيرة قدر الامكان. يجب أن أدرب يدي على ذلك الفعل، كلما قلت كمية الفول في الرغيف وزادت المساحة الموضوعة فيها كان ذلك سببًا في سعادة مدير الفرع.

ينادي زميلى المسئول عن تسليم الطلبات بصوت جهورى:

- ثلاثه فول.. ستة بالزبده...

Scanned with CamScanner

تدربت يدي وأصبحت تتحرك بشكل آلي، لحظات ويكون المطلوب جاهزًا، أضعه بجواره ليقوم بتعبئته في الأكياس وتسليمه للزبون. لحظة مناداة زميلي بالمطلوب تذهب عيني بلا إراديه ناحية الزبون الموجود أمامه، أشعر أن عليّ رؤية مَن سيأكل من يدي بعد لحظات، كثيرًا ما كنت أشاهد فتيات جميلات يتسلمن ما صنعت يداى. في بداية عملى كنت أقول في داخلي «بالهناء والشفاء يا قمر» أعلم أنهن لا يتذكرن أبدًا مَن صنع هذه السندوتشات ولا أي جُهد بُذِلَ فيها. صنعها شباب يمتلك مشاعر فياضه، تمني لو سمع كلمة رقيقة تنبت من بين تلك الشفاة التي تقضم اللقيمات برقة.

مع مرور الأيام بدأ شيء صغير ينمو بداخلي، بدأتُ أنفر من هذا العمل، تهتز بداخلي تلك الصفات الذكورية الشرقية التي تقضى بأن الأنثى هي التي تصنع الطعام ويأكله الرجل. هذه الجزئية بالذات، هي التي جعلتني غير راض عن عملى هذا، لم تمر عدة شهور حتى قررت ترك المطعم، لن أعيش في هذا الوضع المقلوب أكثر من ذلك، داخلي يزداد احتقانا وكراهية وأنا أشاهد فتاة تتسلم ما صنعته يداى من طعام. يلاحظ زميل ضيقى المستمر الذي يبدو بوضوح عند ظهور أي فتاة خاصة الجميلات منهن، تختفى ابتسامتى أو تعليقاتى الساخرة، سألني زميلى عن سبب ضيقي هذا، أخبرته بأن عمل إعداد الطعام يخص المرأة لا الرجل، يعلق ضاحكًا ساخرًا:

– على أساس كان معروض علينا شغل في بنك أو في السفارة ورفضنا!!.. ثم يا عادل أفضل طباخين في البلد.. لأ في العالم كله.. من الرجال.. وإن كنت في ضيق بسبب بكالوريوس التجارة.. فأنا يا زميلى خريج اقتصاد وعلوم سياسية.. اشتغل وقول يا باسط.

ثم يضحك أكثر ناظرًا لأعلى مقلدًا عبدالسلام النابلسى وهو يقول «ما تبسطهاش أكتر من كدا» نضحك قليلا لكن داخلي لا يزال يسيطر عليه حزن وكآبة، لم أشعر براحة لتلك الفلسفة الجبرية التي تنتج عن الرضاء القهرى بالأمر الواقع.

لا أعود إلى منزلى بعد نهاية فترة عملى في المطعم، أبحث عن عمل مناسب، أسأل كل من أتوسم فيهم ملامح القدرة على المساعدة. هؤلاء تبدو على وجوههم تعبيرات خاصة، أحيانا أتعرف عليها بسهولة وأحيانًا أخرى أخدع في تلك الملامح، بسهولة أيضًا.

بعد فترة وعن طريق أحدهم، كان قد أفاض في سؤالى عن طبيعة دراستى، التحقت بالعمل في فندق شهير على النيل. الراتب غير مغر بالمقارنة بطبيعة المكان أو رواده، لكنه كان عملًا أفضل اجتماعيًا من عملى السابق، على الأقل بالنسبة لي.

طبيعة عملى الجديد كانت «مشرف متابعة» في الطابق الخامس عشر، طوال ساعات العمل أجلس على مكتب يتوسط البهو الواسع الذي يواجه الأسانسير، أستقبل الوافد بابتسامة عريضة. إذا كان وافدًا جديدًا أسير أمامه كي أرشده إلى غرفته، أوجه العامل الذي يحمل الحقائب إلى وضعها بهدوء ونظام بالقرب من دولاب الملابس، فلا يجب أن يبذل النزيل مجهودًا في حمل حقائبه وإن كانت داخل نفس الحجرة. هكذا تعلمت في أول ايامى في هذا العمل وهذا ما يعلمه العامل حامل الحقائب جيدًا لكن كان يجب عليّ أن ألقى أي تعليمات وعلى العامل أن يتقبلها بابتسامة المطيع لأوامر رئيسه. بهذا الحوار وتلك الحركات نظهر أمام النزيل بأننا نعمل ونقوم بمجهود يجب أن يقابله «تيبس» محترم.

Scanned with CamScanner

نفس التفاصيل تقريبا نقوم بها عند مغادرة النزيل للفندق، يخبرني النزيل بأنه انتهى من تجهيز حقائبه، أستدعي العامل لحملها، أوجهه وأعطى تعليماتي بأن يتعامل مع الحقائب برفق وأن يكون حريصا عليها حتى توضع في السيارة بسلام. أقوم بتوديع الراحل بابتسامة عريضه تحمل لمحات من حزن على فراقه الذي سوف يؤثر فينا وأننا في انتظاره مرة أخرى حتى نسعد به، فقد ترك فينا بطيبة قلبه انطباعًا جميلًا.. كانت تلك العبارات كافية لأن تجعل تيبس الوداع مبلغا قيمًا.

في هذا المكان في الطابق الخامس عشر في هذا الفندق المقام على ضفاف نهر النيل العظيم قضيت أوقاتًا طويلة في حالة صمت وتأمل، أعلم أن هناك كاميرات مراقبة منتشرة في المكان تعد علىّ أنفاسي، لذا كنت أجلس متنبها طوال الوقت، غير مسموح بأن أتصفح جريدة أو كتابا، المتاح لي فقط هو تناول عدد قليل من المشروبات تساعدني على اليقظة ويجب ألا تظهر هذه المشروبات أمام النزلاء.

عندما أشرد لحظات أو يتخللني دبيب النمل الذي يؤدي إلى النوم، أقوم مباشرة للسير في الطرقة الطويلة المؤدية إلى غرف الطابق وكأنني أطمئن على هدوء الأوضاع.

في جولاتي تلك كنت أستمع إلى الكثير من العبارات ذات المعاني الكثيرة، لكنني لم أكن أستطيع متابعة الحوار حتى أتفهم الموضوع كاملًا وإلا شاهدني مراقب الشاشة عبر الكاميرات، لا يصح مطلقا أن أتنصت على النزلاء، لكن متاح أن تصلني بعض العبارات. أحيانًا ضحكات ماجنة، أحيانًا أهات ملتهبة، كثيرًا ما وصلتني عبارات نزاع وتهديد ووعيد حيث فقد أصحابها أعصابهم وارتفعت أصواتهم، وهذه

غالبًا ما كانت تحدث في الليل بعد العودة من بار الفندق وشرب بعض الكئوس التي تذيب الوقار والصمت والحرص في نفس الوقت.

بالإضافة إلى تلك الحصيلة التي أمتلكها من اللغة الانجليزية المترسبة في الذاكرة من سني الدراسة، اكتسبت كلمات وجمل جديدة أملتها ظروف عملي هذا، فمن بديهيات التعامل في مثل هذه الأماكن تطعيم الجمل بكلمات إنجليزية، يساعد على ذلك أيضًا أن هناك عددًا ليس بالقليل من النزلاء هم من الأجانب، واللغة الإنجليزية هي اللغة الوحيدة المشتركة بين شعوب العالم، لذا لم أكن أعاني وقت التعامل مع أي نزيل أجنبي، خاصة وأن الكلمات الأساسية الخاصة بالترحيب والاستقبال وتوجيه النزيل إلى غرفته، هي كلمات ثابتة تتكرر مع كل وافد، مع الأيام زادت الحصيلة وانتعشت الذاكرة بالكثير من الكلمات والجمل التي كانت مختزنة منذ الدراسة وعلى وجه التحديد في الثانوية العامة، تلك السنة الوحيدة التي أذكر اني اجتهدتُ فيها بالفعل. عموما كانت هذه الحصيلة من اللغة الانجليزية على قلتها سوف تكون معينًا لي في الأيام القادمة عندما تجبرني الظروف على التعامل المباشر مع....

لا.. لا.. لنترك المستقبل ولنعد إلى عملي في الفندق، أسير على مهل في الممر الطويل بين الغرف.

من المواقف التي أتذكرها جيدا الآن، ذلك الموقف الذي حدث بعد فترة من التحاقي بالعمل، في يوم هادئ، الإضاءة خافتة وكأنها من يد بخيل، يطبق الصمت على المكان حتى يكاد طنينه يفتك برأسي، أمد بصري أمامي، أشاهد الطرقة حتى نهايتها والتي تصب فيها الحجرات بداية من 1501 وحتى الغرفة 1520، عشرون غرفة، عشرة يمينًا وأخرى

Scanned with CamScanner

يسارًا. لا أعلم لماذا شاهدتُ أشباح ساكني الغرف يقفون أمام أبوابها، جميعهم بملابس نومهم ينظرون نحوى في صمت ودهشة.

في هذا المساء الذي أتذكره جيدًا كنا في فصل الشتاء وبالتحديد في منتصف فبراير، الوقت بعد منتصف الليل وزخات المطر في تتابعها تدق النوافذ من خلفي، من بعيد جدًّا تأتي بقايا أبواق السيارات أو سارينات الاسعاف التي تمر من المكان في طريقها إلى مستشفى قصر العيني القريب من الفندق، الأمور هادئة ولا شيء يستدعي القلق، فقد استقر النزلاء في غرفهم، الفندق في هذه الشهور الشتوية من العام كومبليت، في هذه اللحظات كنت شاردا في مشاهدة منحني طريق حياتى متسائلا في حسرة:

– هل ستبقى طوال عمرك هكذا يا عادل؟!

لم أتخيل مطلقا أني سأظل طيلة حياتى أمارس هذا العمل الممل جدًّا، كنت أحسد من يعملون في بار الفندق أو في الكافيه أو في المطعم، إنهم على الأقل يتحركون، يتعاملون مع النزلاء ورواد المكان باستمرار، يتناقشون معهم، يُدونون المطلوب، يقدمون مشروبات أو مأكولات ثم يحملون الأطباق فارغة، إنها حركة مستمرة، يالها من متعة أن تتحرك وتشاهد وتناقش، متعة أفتقدها تمامًا. ماذا أفعل؟! أتابع وأبتسم في صمت مهما كان داخلي، هي ساعة اختلاط وقت رحيل نزيل أو قدوم آخر، ساعة تنتصف النهار، غالبًا ما تكون بداية الشيفت وأنا أمتلك كل يقظتى ونشاطى، ليت ساعة العمل تلك تنتصف الشيفت فتخرجني ولو قليلًا من كآبتى.

في هذه اللحظات يخرجني من شرودي حركة فتح باب إحدي الغرف، انتبهت فإذا به باب الغرفة رقم (1507) وفي لحظة واحدة خرجت السيدة «البني عابدين» ترتدي روبًا حريريًا أحمر مطرز بكرانيش مصنوعة من الحرير الأبيض على شكل ريش كثيف، رغم الإضاءة الخافتة التي تضفى على المكان هدوءًا وسكينة إلا أنني استطعت رؤية جسدها عاريا تماما أسفل الروب، فقد أولتني ظهرها لتخطو ثلاث خطوات، كانت كافية لمشاهدة جسدها الأملس أسفل الروب، فلا توجد أي نتوءات أو حزوز لتفاصيل ملابس داخلية، حتى إن عجيزتيها كانتا متكورتان أسفل الروب المتزلق بشكل مثير، وصلت بعد الخطوات الثلاث إلى باب الغرفة رقم (1509)، يُفتح الباب مباشرة دون أن تطرقه، تدلف إلى داخل الغرفة، يغلق الباب بهدوء وتعود السكينة لتلف المكان.

وقفت مشدوهًا لحظات لا أدرى ماذا أفعل..

لكن..

■■■

Scanned with CamScanner

(10)
العشق

حاتم..

في تلك اللحظة التي دلفت فيها تريزة عبد المسيح إلى مكتبي للمرة الأولى، ورغم كل ما مررتُ به في ذلك اليوم من أحداث، فقد شعرت بشئ غريب يسرى في جسدي. شيء في مجمله لذيذ، نشاط مفاجئ، رغبة في نسيان كل الأحداث والتفرغ التام لهذه الوافدة.

الحقيقة أني كنت مهموما بعشقى الذي ذهب بكل قوتى، كنتُ في تلك الأيام أتعرض إلى نوبة تفكير، من تلك التي تلازمنا وتلح علينا ليل نهار، في محبوبتى بشكل غير عادي. سيطرتُ على تفكيرى بعدما شجعني الشيخ شوقي فهيم على تحقيق مأربي، يجب أن أتخلص من شرور نفسى بإشباع رغباتها حتى لا أكون فريسة لها، لا يجب أن أترك تلك الرغبات تتنازعني وتفصلني عن رسالتى الحقيقية، كيف لجائع أن يفكر، كنت حقًا جائعًا وإيمان طعامى الوحيد الذي يحمل نجاتى. لا أنفك أتذكر زوجها الشاب وأطفالهما فأعود أدراجى أكتوى بنارى، حتى دخلتَ علىّ تريزة، لولا كونها مسيحية لاتخذت من رضابها ماء يُطفئ نيراني فورًا.

فجأة هزني ذلك الشيء الذي يسرى في جسدي، وكأن سحابة بيضاء كثيفة حجبت الرؤية تمامًا تنقشع فجأة، كأنها منحة ربانية منحني إياها المولى عز وجل. في لحظة واحدة تكشفت لي الصورة وبانت تفاصيل جديدة، وهاكم الصورة كاملة: في أعلى الصورة شمس ذهبية ترسل أشعتها لتحتوى الجميع. من بين تفاصيلها أشاهد ابتسامة جميلة خجلى تتماوج على وجه تريزة عبد المسيح، حائرة في صورة ملاك ما بين مئذنتين، إحداهما تحمل هلالًا والأخرى صليبًا.

و كأن أحدهم يسألني، صوته يسرى في جسدي: ماذا يضيرك في كونها مسيحية يا حاتم؟ على العكس تمامًا.. لو احتويتها وجعلتها تعلن إسلامها لصرفتَ عن نفسك همومك واكتسبتَ ثواب الدنيا بفتاة في جمالها، وإثابة الآخرة بإسلامها.

انتفض مكاني، تحتويني رعدة كالتى تتبع التثاؤب، وكأنني رأيتها الآن، الضوء منهمرًا من النافذة خلفى ليتعكس على صفحة وجهها، للمرة الأولى أتنسم عبير الفواحة الموجودة بشكل دائم في حجرة مكتبي ترسل زخات الياسمين. ابتسمت لها وتحولت أسئلتى التي كانت تدور في محيط العمل إلى أسئلة في أمور لا تخص العمل.

ألفيتني أسألها عن طبيعة عمل والديها، عدد أفراد أسرتها، هل هناك مشروع زواج؟ فلم ألحظ في يدها دبلة، كانت تجيبني متلعثمة مرتابة في البداية. ابتسمت لأنثر حولها وريقات من بستان الطمأنينة. هدأتْ قليلًا، تركتْ جسدها يرتخى فوق المقعد، ترتسم على على ملامحها ابتسامة طفولية، بدا أنها شعرت بأن جمالها قد تغلغل في تفاصيل المكان زخات ممتزجًا برائحة الياسمين. ارتحتُ لتغذية هذا الشعور، فأطريت جمالها بشكل مباشر:

Scanned with CamScanner

– أليس غريبا أن تظل واحدة في مثل جمالك حتى الآن من غير زواج؟

أعلم أن سؤالي كان تقليديا وإجابته معروفة مسبقا. لكني أردتُ أن يستمر الحديث بيننا أطول مدة ممكنة. إن كانت تلك رغبتي فهي رغبتها أيضًا، إجاباتها على أسئلتي كانت إجابات مفتوحة غير حاسمة، تتطلب مني استفسارًا وأسئلة أخرى تتولد من بعضها البعض. تمر الدقائق والحديث بيننا موصول، لقد جذبتني مرة أخرى بابتسامتها العذبة ونبرة صوتها التي تحمل رنة شبيهة بتلك التي تتميز بها مذيعات الإذاعة.

لو أغمضتُ عيني برهة وأنصتُ إليها لعشقتها من مجرد سماعي صوتها، رؤيتها جعلت ذلك الصليب المتدلي على صدرها سيفًا يقطع أهداب الهوى النابتة، كنت قد قررت منذ اللحظة الأولى أني سوف أقبلها في العمل، لا لشيء إلا لكونها فتاة مسيحية، ذاك يفيد كثيرًا، وقد رأيته من قبل في مجموعة شركات الدكتور جمال عبد النعيم. سألتها بشكل مباشر وبدون تركيز أو أهداف تكمن خلف السؤال:

– أنتِ سعيدة في الديانة المسيحية يا تريزة؟

تلعثمت، توردت وجنتاها، بدا أنها فوجئت بالسؤال، الحقيقة أنني فوجئت بنفسي ألقي عليها هذا السؤال، الأغرب من ذلك إجابتها، كانت آخر شيء أتوقع سماعه منها. مجرد أن انتهيت من سؤالي تخيلتها سوف تقف منفعلة تاركة المكان مستغلة الموقف لإثارة قضية من تلك القضايا التي يستغلها أحفاد نافخي الكير لإشعال النيران. وبسرعة خاطفة تخيلتها تبتسم وتجيب على سؤالي بسؤال مماثل: وأنت سعيد في دينك

الإسلامي؟ لكن لم يحدث هذا أو ذاك. لقد تنفستْ بهدوء، ثم زفرت بينما يداها قد تشابكتا في حركة لا إرادية وهي تجيب:

– يعني.. لقد وجدتُ نفسي على ذلك.

في تلك اللحظة انتابتني مشاعر مختلطة، أحاسيس لم أستطع تسميتها، لكني قررت فورًا الانتقال إلى الخطوة التالية التي فرضتها عليّ الظروف، والتي أعتقدتُ أنها رسالة حقيقية موجهة لي، تحتوي على أوامر واجبة التنفيذ.

■■■

Scanned with CamScanner

(11)
ذات الجسدين

عادل..

مدام لبني عابدين سيدة مجتمع شهيرة، معروف عنها أنها تقضى أوقاتًا طويلة من العام خارج البلاد، عندما تعود تُمضّى أغلب وقتها بين الفنادق الشهيرة، في القاهرة، شرم الشيخ، أو في منتجعات الساحل الشمالى. تظهر باستمرار في الحفلات والندوات التي تدور حول رعاية الفقراء والأيتام وذوى الاحتياجات الخاصة، ضيفة دائمة في البرامج التلفزيونية تتحدث عن دور الدولة المفقود في رعاية أبنائها من الفقراء وذوى الإعاقة والأيتام وأطفال الشوارع، عضوة في أكثر من جمعية لرعاية هذه الفئات وتحصل على دعم كبير من رجال الأعمال.

آخر حدث علمته عن لبني عابدين أنها قامت بتوفير عشرة آلاف بطانية، لتوزيعها على عشرة آلاف أسرة من فقراء الصعيد في هذا البرد الشديد الذي تمر به البلاد، أعلنتْ ذلك على الهواء في برنامج توك شو وتم كتابة رقم الحساب على الشاشة، قيل إن التبرعات التي دخلت هذا الحساب في الأيام التالية تخطت الملايين الثلاثة.

تتقدم لبني عابدين القافلة بابتسامتها العريضة وملامحها الجريئة التي تحمل جمالًا غير عادي وجسدًا هو أمل الفقراء وليست تلك البطاطين التي تحملها عدة سيارات. تقوم لبني بتوزيع حمولة السيارات في عدد من قرى الصعيد أمام كاميرات التليفزيون وعدسات الصحافة، صرحت بأن التبرعات كانت أكثر مما كان متوقعًا، وعلى ذلك زاد عدد البطاطين ليصل إلى هذا الكم، فهى لن تُبقى جنيها واحدًا من أموال المتبرعين دون أن يُصرف فيما تم التبرع به له، وعلى ذلك فإن الملايين الثلاثة التي تم تجميعها اشترت بها 30 ألف بطانية، وها هي تقوم بتوزيعها.

أخبرني صديق، يعمل في مجال تسويق منتجات شركات المحلة من الأقمشة والمفروشات لمحلات وسط البلد في القاهرة، أن البطانية الواحدة تخرج من المصنع بسعر الجملة 25 جنيها وعلى ذلك فإن المدفوع بالفعل كثمن لهذه البطاطين التي تم توزيعها سبعمائة وخمسون ألف جنيهًا فقط لا غير، وعن باقى الملايين الثلاثة التي تم تجميعها فقد دخلت في جيوب هذه السيده ومَن معها وأن العملية برمتها كاموفلاج، خدعة، تزييف ونصب. أبديتُ دهشتى، أخبرت صديقى بأن سعر البطانية التي تم توزيعها على الفقراء هو مائة جنيه كما قيل، يبتسم قائلًا:

– ما يقولونه ويكتبونه في الفواتير شيء والحقيقة شيء آخر يا عادل وعملية صغيرة مثل هذه يتربحون منها بحوالى اثنين مليون جنيه.. يسهل عليهم إن وزعوا ربع أو نصف مليون.. أن يقولوا ما يشاءون..

– يا ولاد الكـ..

هززت رأسى بسرعة، يجب أن أتدبر أمرى لأرى ما علىّ فعله الآن حيال لبني عابدين نصيرة الغلابة، تُرى من هو نزيل الغرفة (1509)؟

Scanned with CamScanner

سألت نفسي!! سريعًا عدتُ إلى دوسية كشف نزلاء الطابق، استخرجته من درج مكتبي الصغير، تفحصته.. أوه.. أيعقل هذا..؟!!

نزيل الغرفة رقم (1509) هو رجل الأعمال والملياردير حلمى عز الدين والذي تبرع لحملة جمع البطاطين للفقراء بمبلغ مليون جنيه، تحدثتُ عنه أيضًا برامج التوك شو والصحافة تمجيدًا.

حلمى عز الدين يدفع مليونًا، ليس من أجل فقراء الصعيد، إنما قربانا للسيدة لبني عابدين!!

ألفيتني أتوجه مباشرة إلى الغرفة (1509) أدق بابها عدة دقات منتظمة تؤكد أدب واحترام صاحبها، انتظرتُ دقيقة تقريبا استمعت فيها إلى حركة بسيطة، أعلم تمامًا أن حلمى عز الدين ينظر عبر العين السحرية ممتعضا لرؤيتي في هذا التوقيت، وأعلم أنه يحكم من وضع الروب على جسده العارى ويربطه، ثم يسحب شعيرات رأسه القليلة إلى الجانب الأيمن، ثم يفتح الباب متصنعًا النوم وقد يتثاءب. لن يجدي ذلك معي نفعًا يا حلمى، فقد قررتُ أن أواجهك وبمنتهى الحزم والأدب.

يفتح الباب، يتأملني لحظات مستفسرًا بلا كلمات، متعاليًا متكبرًا، يصعدني بنظراته دون أن يحرك رأسه أو يتفوه بكلمة ليسألني عن مطلبي، حملتْ نظراته الكثير من الاحتقار بشكل أشعل داخلي غيظًا، كظمتُ غضبي ورسمت ابتسامة على وجهي وأنا أقول في همس:

– نظام الفندق يمنع زيارات الليل يا حلمى بيه.

و كأني أطلقت قذيفة من مدفع هاون لتنسف وقار الرجل وثباته، تعلو الدماء وجهه، تنتفض عروقه فيحمر وجهه أكثر ويلمع جلد رأسه البادي من بين شعيراته القليله، ألاحظ بقع بنية متناثرة على جلد رأسه، يكاد يصرخ بعبارات التهديد، لكنه يخفض صوته وهو يقول:

– ماذا تقول يا حيوان..؟!

ثم نظر يمينًا ويسارًا، يتماسك بسرعة رهيبة، يخفض صوته أكثر، يحاول الابتسام فخرجت ابتسامته صفراء باهتة، حينما استكمل كلماته:

– انظر بما تتحدث ومع مَن تتكلم يا ولد.. ارجع مكانك ولا تتحرك إلا بأمرى.

أنهى جملته وهو يشير بسبابته نحو مكتبي ويهم بأن يلتفت ليدخل ويصفق الباب، لكنني وبمنتهى الثبات والهدوء الظاهرى، الذي يتنافى تمامًا مع تلك النيران المشتعلة بداخلي تحدثت:

– لا أتلقى أوامر من حضرتك، المطلوب منك أن تخبر مدام لبني بالعودة إلى حجرتها حالاً، أنتم في غني عن أي شوشرة.

– أتهددني يا ولد؟

– العفو يا حلمى بك.. لكن هذه لوائح الفندق وممكن أترفد فيها.

– طيب.. دقيقة واحدة.

يدخل إلى الحجرة ويغلق الباب بشدة في وجهى، بقيتُ مكاني لحظات أنتظر خروج السيدة لبني عابدين، قررتُ أن أعطيها ثلاث دقائق، يخبرها فيها حلمى عز الدين بما حدث، ثم تقوم من رقدتها العارية تاركة السرير، ترتدي الروب، تقف أمام المرآة لحظات لتعدل من شعرها وتهدأ من روعها، ثم تخرج لتعود في هدوء إلى حجرتها.

لم تمر سوى دقيقتين.. و..

و لم يفتح باب الغرفة رقم (1509) وإنما فُتح باب الأسانسير ليظهر منه مستر إيهاب علوى المشرف العام على مشرفى الطوابق، والذي أتبعه إداريا في عملى، بدون أن يتفوه بحرف واحد يقترب مني وقد تغيرت

Scanned with CamScanner

ملامحه، عدتُ إلى الخلف خطوة كي أفسح له المجال ليطرق باب الغرفة ويستدعي لبني عابدين، مؤكد أنه شاهد ما حدث عبر كاميرات المراقبة. لكنه وقف أمامي بحيث جعل ظهره إلى باب الغرفة (1509) وكأنه يحول بيني وبينها، يضع يده اليمني على كتفي الأيسر ثم يتركها تنزلق حتى يُمسك بذراعي الأيسر، يدفعني برفق أمامه، نظرتُ نحوه بدهشة ثم نظرت بشكل عفوي نحو باب الغرفة الذي يحجب عنا ما يدور بين سيدة المجتمع لبني عابدين ورجل الأعمال حلمي عزالدين.

جذبني مستر إيهاب علوي بشدة أكثر وهز رأسه من أعلى إلى أسفل مرتين ثم أشار برأسه ناحية الأسانسير.. توجهت أمامه صامتًا. يهبط بنا الأسانسير حتى الطابق الأول، سرتُ خلفه معتقدًا أننا متوجهين إلى مكتبه، لكنه جلس إلى ترابيزة خالية في الكافية مشيرًا إلى سيد، عامل تقديم الطلبات، بأن يأتي بكأسي ليمون، يعبث في تليفونه المحمول لحظات، بعدها يتحدث إلى أحدهم عبر الهاتف قائلًا:

- يا عماد.. امسك إشراف في الدور الخامس عشر.. لا.. عادل مجهد ولن يكمل.. على فكره.. توجد شخصية مهمة في غرفة (1509) أتركها على راحتها.. أيوه.. سلام.

في لحظة واحدة تهب ريح قوية فتحمل تلك الملاءة التي تغطي الصورة لتلقي بها بعيدًا وتبقى الصورة واضحة تمامًا. صورة مؤطرة بنقوش غريبة وحروف دموية ونقش على بروازها صور صغيرة لرؤوس بشعة ذات قرون طويلة وأسنان حادة ودماء تقطر على جوانب الأفواه، شياطين تحوطها من كل جانب، تبث فيها من سمومها كي تدب فيها تلك الأرواح النهمة الشرسة.

الآن فقط فهمت أن هناك الكثير يحدث داخل تلك الأبنية الفخمة، يحدث برعاية من يرتدون تلك الملابس الفاخرة، ويركبون السيارات الفارهة، ويسيرون في الشوارع يتعالون على البشر لأنهم فيما يبدو خلقوا من كريمة الصلصال، أي أوجه قبيحة تحملها هذه الأجساد؟ بأي منطق يرون أنفسهم؟ تتضح الصورة، لم يعد أمامي إلا الاستقالة من هذا المكان فورًا.

يبدو أن رغبتي ظهرت على ملامح وجهي، يعتدل إيهاب في جلسته في اللحظة التي يصل فيها سيد حاملًا الليمون فوق صينية على راحة يده اليمنى، سريعا يترك الأكواب ويرحل، يتناول إيهاب الليمون وبحركة خفيفة يشير نحوي كي أحتسي المشروب، ثم يتحدث بشكل تلقائي قائلًا:

- اسمعني يا عادل.. وظيفتك في الفندق كمشرف دور هي متابعة الحالة الأمنية. يعني أي خروج ممكن يعمل مشاكل لازم تتصدي له فورًا، لكن في حالة مثل ما يحدث في الأعلى الآن.. الدنيا قشطة.. لا توجد مشاكل.. فلا داعي لافتعالها يا عادل؟

- بهذا المنطق.. لسنا في فندق محترم.. إنه وكر دعارة يا مستر إيهاب.

امتعض قليلًا ثم قضى على ما تبقى في كأسه قائلًا:

- لا يجب أن نستخدم مثل هذه المصطلحات الضخمة يا عادل.. أنا أقدر موقفك.. لأنها المرة الأولى.

تملكتني الدهشة، صعدته بنظراتي مندهشًا، ماذا يقول؟! أتحدث عن المبادئ ويحدثني عن المرة الأولى!! يا لهول ما قال. أنا منفعل لأنها المرة الأولى التي أشاهد فيها ذلك، فهذا يعني أنه يحدث هنا كثيرًا، وأنا

Scanned with CamScanner

منفعل لأنني لم أتعود على الوضع بعد، أي أنني سوف أتغير مع تكراره، وليس مستبعدًا أن أشارك فيه بأي نصيب، حتى لو بغلق الأعين وصم الأذن. قبل أن أصرخ فيه لأخبره بأن موقفي لن يتغير حتى ولو كانت المرة الألف، يقول:

– الفندق هنا فندق محترم. تذكر منذ متى وأنت تعمل.. الأوضاع عادية جدًا.. ولا تنسى أن لكل قاعدة شواذ.. وحلمي عز الدين رجل أعمال كبير، يده واصله لأعلى حتى الكبار، في الداخلية والسياسة، له معارف كثيرة ينصحهم باستمرار في النزول في فندقنا هذا.. هل نخسر مثل هذا العميل؟!

– ليفعل رذائله في أي مكان.

– يبدو أنه يشتهي لبني عابدين من فترة.. لأنه بمجرد أن علم بنزولها هنا.. حتى حجز أقرب غرفة خالية بالقرب منها، مؤكد حدثها في التليفون ورتب معها. على العموم هذا ليس موضوعنا يا عادل.. كما أخبرتك.. عملنا منع القلق وفقط، إن وقفنا في طريق حلمي سيفعل ما نكره.. حلمي لن يؤذيك وحدك، إنما الفندق بأكملة.. يشتريه ويأتي بغيرنا إن أراد. تخيل موقفك هذا من الممكن أن يضر كم فرد، وخلفهم كم أسرة ستشقى؟!

– لن أستطيع الصمت مستر إيهاب.

– ماذا تعني يا عادل؟!

■■■

(12)

الحب

«كَمَا يَشْتَاقُ الإِبِلُ إِلَى جَدَاوِلِ الْمِيَاهِ،

هكَذَا تَشْتَاقُ نَفْسِي إِلَيْكَ يَا اللهُ»

سفر المزامير..

تريزة..

كل منا يحلم بألف حلم ويتخيل نفسه في ألف صورة، ولكني لم أتخيل نفسي ذات يوم وقد خرجتُ من ديانتي المسيحية واعتنقتُ الدين الإسلامي.

لم يأتي ذلك على تفكيري مطلقا، لا لأنه أمر صعب أو مستحيل، أو لكونه أمرًا يُعد مغامرة سوف يترتب عليها الكثير من المشكلات والعقبات في حياتي، إنما لم يرد لأنه ببساطة ليس ضمن أحلامي أو مشروعاتي. يبدو أن أحلامنا تتحرك داخل دوائرنا التي نعيش فيها وتربينا عليها.

لماذا مثلًا، وأنا الفتاة الفقيرة، أحلم بثراء عظيم، أو بزوج من نجوم المجتمع؟ أو أحلم بأني أمتطي ذلك الجواد الأبيض المجنح ليطير بي

Scanned with CamScanner

في عنان السماء يسابق الريح؟ لماذا أحلم بأنني أمتلك جزيرة صغيرة عليها فاكهة ألوان، ماء عيونه عذبة تتهادي منها أنهارًا، طيورها ملونة تغرد لتعزف أعظم سيمفونية، وعلى هذه الجزيرة رجل واحد فقط صنعته في خيالي ليمتعني بأسمى وأرق ألحان الحب في أي وقت وفي أي مكان، فقد تخيلت الجزيرة كلها سريرًا أبيض مفروش بخمائل وردية محفوف بوسائد خضراء وحمراء، سرير أسطوري أتقلب عليه كيفما أشاء مع حبيبي نرتشف كئوس النشوى، بينما ترفرف فوقنا الطيور مغردة وتهب النسمات المحملة بالأريج. لماذا تخيلت كل هذا وغيره، ولم أتخيل يومًا نفسي وقد تركت ديني واعتنقت الدين الإسلامي؟!

لا أعلم.. لا امتلك إجابة على هذا السؤال، لكن هذا ما أعيشه الآن.

لم يحدثني حاتم فكري عن تركي لديني واعتناقي لديانته، إنما كان ذلك بالتلميح من خلال سؤاله عن ارتياحي في المسيحية. الأغرب كانت إجابتي على سؤاله التي أكدت على أنني في هذا الوضع الذي ولدت عليه وليس لأنني أرغبه. حدثني عن أن كل إنسان يولد على الفطرة وأن الفطرة هي الدين الإسلامي «كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه». أفاض في هذه الجزئية مستشهدًا بالكثير من آيات القرآن التي تؤكد أن كل الأنبياء كانوا مسلمين وأن الاختلاف كان في الشرائع فقط.

يبارك لي الوظيفة وأخرج عائدة إلى بيتي، لم أستمع إلى الكثير من حديثه الأخير، فقد ذهبت لأبحث داخل أعماقي عن سبب تلك الكلمات التي أجبته بها، هل حقًا أنا أعتنق الدين المسيحي لأني ترعرعت فألفيت نفسي مسيحية وفقط؟!

الحقيقة التي أعترف بها وللمرة الأولى، أمام نفسي فقط، في هذه اللحظات، أنني لم أجد بداخلي ذات يوم ذلك التدين الذي يجذبني، يخلق بداخلي ذلك الانفعال بأن هذا ديني، وذاك دينك، لم أفكر يوما بهذه الطريقة.

نظرتي الفطرية للأمور كانت أننا نعبد الله خالق الكون، لكل فرد طريقته الخاصة في عبادة خالقه، له الحرية المطلقة في اختيار الطريقة التي تناسبه في عبادته تلك. أما عن كون هذه الطريقة مناسبه أم مخالفة لتلك القواعد التي تحدث بها الرب لأنبيائه ليخبروا بها عباده، فهذا أمر يحدده الرب وحده، ذلك ببساطه لأنه مَن يُثيب ومَن يُعاقب، وذلك أيضًا لأن من يُثاب أو يُعاقب هو الفرد نفسه، لا أحد يحمل عنه وزره، لذا فليفعل ما يشاء بمنتهى الحرية ليحصل على نتيجة أفعاله تلك بمنتهى العدل. أبغض باستمرار من يسألني عن ديانتي أو تتغير طريقته معي لمجرد رؤيته الصليب على صدري. ديانتي شأني وديانتك شأنك. إنما تقديم النصح، بدون ضغط أو تعصب، واجب. لماذا أضع الصليب على صدري إذن؟ إنها رغبة أمي المتعصبة لأقصى درجة، كانت في البداية تريد نقش الصليب كوشم على يدي وعندما رفضتُ متذرعة بخوفي من ماكينة الوشم ألبستني تلك السلسلة التي يتدلى منها الصليب، تحزن جدًا بل وتعنفني إن رأته مختفيًا بين ثنايا ثيابي، لعدم إثارتها كنتُ أفعل ما تريده، لكن قلبي يظل مستكينًا إلى محبة الله والزهد في باقي التفاصيل الشكلية التي يتمسك بها المتعصبون أمثال أمي.

أتذكر تلك اللحظات بوضوح وأنا عائدة من الشركة عن طريق الأتوبيس، ترجلت من المحطة القريبة من منزلي، أسير ولا أشعر بذاتي، خلايا جسدي لا تزال متصلة مستقيمة مشكلة جسدًا رائعًا، لكنه جسد

Scanned with CamScanner

يشعر بخواء رهيب، هلاميًا كان، أو اسفنجيًا تستطيع تكويرة وضغطه وتشكيلة في أي صورة شئت.

غاصت قدماى في بركة ماء متبقية من أمطار الصباح، فما أكثر الحفر في شوارعنا وفي الشتاء ما أكثر البرك، ظلت قطرات الماء تنسال من حذائى لعدة خطوات، لم أبالى، لم أشعر بذاتى، أراها فقط جسدًا يخطو.

إلى أين؟

لا أعلم...

لم تكن كلمات السيد حاتم فكري بحال من الأحوال هي سبب تلك الدوامة التي تتقاذفني أمواجها الآن، إنها فقط كانت مجرد إشارة نحو الطريق. حجرًا صغيرًا ألقى على صفحة الماء محدثًا دوامات متتالية.

الهواء مشبع بالماء الذي تجده في كل مكان، البرودة تتخلل عظامى، ثيابي الداخلية خفيفة، أرفض ارتداء ملابس داخلية شتوية ثقيلة، إنها تشعرني بأنني كرة تتدحرج على الأرض، تقيد كثير من حريتى وهي تمسك بجسدي، قطع ملابسى الداخلية الخفيفة الرقيقة تشعرني بانطلاق رائع، بالكاد أرتدي معطف ثقيل تحاول أمى أن تغلق كافة أزراره، فأتحول إلى كائن أشبه بالبطريق الذي يتعثر فوق الجليد، ما أن أخرج إلى الشارع حتى أحرر أزار المعطف وأبعد جناحيه يمينًا ويسارًا لأتخفف منه بعض الشيء، البنطلون واسع من قماش الكتان الداكن، أسفلة «أندرويير» خفيف وجزء منه شبكى، حاولتُ أن أتذكر لونه ففشلت، وكأن اللون سوف يساعد في اتقاء البرودة، الحقيقة أني كنت أشغل تفكيرى بأي شيء. شعرت بالبرودة فضممتُ جناحى معطفى،

أصابع قدمى فقدتْ الإحساس بالحرارة بعدما تسرب الماء إليها فبللها ومع البرودة يتحول قلب حذائى إلى ديب فريزر.

يبدو أن داخلي كان يعتمل بأشياء كثيرة، منذ فترة طويلة، في هذا الشأن ولكني لم أكن على علم بها، وإلا لماذا ظهرت فجأة مثل بركان يقذف بحممه ليقضى على كل ما حوله في لحظات؟!

من المفترض أن أكون عائدة إلى بيتى، وقد ظفرت بالوظيفة، وأنا في حالة من السرور، سعيدة بصيدي الثمين الذي عدت به من صحراء جدباء وعلى باب الكوخ تنتظرني العائلة وترقص فرحًا حينما ترى صيدي. صيد أحسد عليه من آلاف غيرى يبحثون عن مثله، لكني في الحقيقة كنتُ شاردة. الأغرب أنني ذهبت خلف أفكارى، باحثة في منعطفات عدة، حتى وصلت إلى مرحلة أنْ يعمل فيها ذهني نشطًا: لماذا أفكر، وكيف أفكر، وفيما أفكر؟

حينما وصلت إلى السؤال: فيما أفكر؟ كانت الإجابة واضحة ومفزعة في آن واحد وهي: هل أنا حقا فتاة مسيحية؟ وثمة سؤال آخر: لماذا الآن بالذات؟

لم يطرق هذا السؤال بابي من قبل، أنا أحب الرب وفقط، يقولون مسيحية، مسلمة، يهودية.. إنما هي مسميات، تلك كانت قناعاتى لذا لم أنفعل بها يومًا، ولم أتطرق إليها ضمن أي أحاديث سابقة، قناعاتى تخصني وقناعات غيرى تخصهم. لماذا إذًا أفكر في ذلك الآن؟ لماذا لم أخبر حاتم فكري بأنني أحب الرب وفقط ولم أفكر يومًا في كوني مسيحية من عدمه؟!

لا أعلم..!!

Scanned with CamScanner

وصلت بيتي، خلعت حذائي أمام الباب بحركة لا إرادية إتقاءً لغضب أمي التي تحذرنا باستمرار كي نحافظ على نظافة شقتنا المتواضعة، إن كانت صغيرة وحالتها لا تسر فعلينا أن نحافظ عليها وألا نزيدها سوءًا، لديها كل الحق في ذلك، قليل نحترمه أفضل من كثير لا نُجله.

دخلت إلى غرفتي بعد أن بشرتهم بخبر الوظيفة، وأنني سوف أتسلم عملي مع بداية الأسبوع القادم وأخبرتهم عن الراتب المميز الذي أخبرني به حاتم فكري في لفته منه إلى أن هناك تقديرًا لشخصي بهذا الراتب الغير منتظر. تُسر به أمي أيما سرور وتباركني. شعرتُ بأنفاسها الدافئة تتعانق مع آهة راحة وطمأنينة خرجت من أبي وكأنه يقول «أخيرًا»، أخوتي الصغار يسعدون بذلك وتقفز نورا الصغيرة من فرحتها من فوق المقعد إلى الأرض عدة مرات متتالية، بدا لي في تلك اللحظة أن الأمر أكبر مما كنت أشعر به، إنها أسرة تعيش ما بين النجاة والغرق، تنتظر طوق نجاة بدون أن تُفصح يومًا عن دنو غرقها.

دخلتُ حجرتي وأغلقت عليّ بابي، حائرة أتخبط، نظرتُ نحو أيقونة السيدة العذراء التي تصر أمي على وضعها في حجرتي تبركًا، رنوتُ نحوها مستغيثة، حدثتها بكلمات بلا حروف، طلبتُ منها وللمرة الأولى في حياتي أن تباركني وأن تهديني إلى الطريق، يطول صمتها. تأملتُ التمثال، حملته بين يدي كي ألاحظ ملامح صاحبته، خف التمثال في يدي، وكأن صخره تحول إلى شيء طري، أو دبت فيه الروح، أسأل عينيها العون لعلها تجيب، ملامح السيدة العذراء بين يدي تحاكي ملامحها في لوحة ليوناردو دافنشي «العذراء فوق الصخر» لكن من أين أتى دافنشي بتلك الملامح؟ ومن أين أتى المثّال بتلك الملامح بين

يديَّ؟! هل هذه فعلًا صورة العذراء أم هي مجرد خيال لأحدهم؟! من يدري أين تكمن حقيقة الأمر!!

لم يُترك لنا من التاريخ إلا ما يوافق هوى من بيده الأمر، في تلك الفترة أو ذاك المكان، المتحكم يسمح بمرور ما يريد ويقضي على ما يشاء. إن كنا لا نعلم حقيقة ما حدث ونسير خلف ترهات ترضي غرور البعض، كيف يمكننا التأكد من تلك الصور التي تركها لنا الرسامون على الجدران أو في لوحاتهم؟!

غريب أمر بني البشر، كل منهم يرى ما يتفق مع داخله بأنه الصدق الكامل، وما يختلف مع داخله إفكًا وإن كانت عقيدة آخر يؤمن بها.

ما دمت لا أهتم بأي دين أكون عليه، وأني أحب الرب وأقدسه في سماواته العليا، أو أينما كان، فلا ضير أن أظل على ديني بين أفراد أسرتي الذين أحبهم ويحبونني، فأنا غصن يتدلى من شجرة.

لا ضير أيضًا في أن أنتقل إلى ديانة أخرى كالدين الإسلامي..!! ينتقل الغصن من شجرته ليصبح شجرة جديدة بصفات أخرى، العلم يتطور بشكل مخيف.

وضعت الأيقونة في مكانها الأثير وأنا اهمهم بكلمات رقيقة لا تتفق أبدًا مع داخلي الشارد، استبدلتُ ثيابي وخرجت إلى الصالة.

تناولت طعامي سريعًا،تجمعت الأسرة على الكنبة والمقعدين في الصالة وتوزع البعض على الأرض يسحبون على أقدامهم بطانية قديمة إتقاءً لموجة البرد التي تعم البلاد ويتابع بعضهم مسلسل تلفزيوني مدبلج. ضيق شقتنا وكثرة عددنا مع غلق كافة النوافذ باستمرار، جعلنا

Scanned with CamScanner

لا نفكر يومًا في اقتناء دفاية، لكن الأرجح أن ثمن الدفاية وما ستستهلكه من كهرباء هو ما جعلنا نعزف عن شراؤها.

تحدثتُ مع والدي حول تفاصيل لقاء اليوم وما وجهه إليّ صاحب الشركة من أسئلة. لم أحدثهم بالطبع عن أسئلته التي دارت حول شئوني الخاصة وحول ديانتي، أعلم أن أمي كانت سترفض هذه الوظيفة تمامًا إذا اشتمت رائحة حديث في الدين.

أتذكر حديثها المستمر، لي في الماضي ولأخوتي البنات الصغار حاليا (نحن خمس فتيات ليس لنا أخ ولد) حول البتول وطهارتها وحفاظها على عذريتها، وما يجب علينا أن نفعله في حياتنا كي نحافظ على تلك الطهارة، أجسادنا ليست ملكا لنا، إنما هي ملك للرب يسوع يهبها لمن يشاء من الرجال برباط مقدس يسمى الزواج.

يباركني والدي بعبارته القليلة وصوته الهادئ الحنون، نظراته الدافئة تحتويني. لم يرفع صوته في وجهي يومًا، أو هو لم يرفع صوته على الإطلاق يومًا ما، يحنو علينا بقدر ما تقسو علينا أمنا. يبدو أن الرب يوزع الصفات على الأسر بالتساوي، لكن الآباء لا يتقاسمونها بالعدل، فإن يحنو الوالد (كما أسرتنا) تقسو الأم، وإن كانت قسوة ظاهرية، فلا أم تقسو على أولادها قسوة حقيقية تصل إلى درجة الكراهية مثلًا، وإن بخل الأب أسرفت الأم، حتى إن خفض أحدهم صوته رفع الآخر، وهكذا في باقي الصفات.

عدتُ إلى غرفتي وأغلقت بابي، جلستُ أمام المرآة أحدث نفسي همسًا، ما هو الرباط الحقيقي الذي يربطني بهذه العائلة؟ بعد دقائق غيرت السؤال فأصبح: ما هو الرباط الحقيقي الذي يربطني بهذه الديانه؟

سؤال فظيع ظل يراودني، يدق بشدة في أذنيّ كطبل حرب حتى كاد يفتك بهما. حملت ألتي الموسيقية الأثيرة، ألة العود، جلستُ أعزف بعض الألحان التي أتقنها، خرجتْ النغمات نشاذ لا روح فيها، حاولتُ عزف مقطوعة ثانية، لكنها كانت جافة كأعواد حطب تتكسر إن حركها أحد من مكانها. تركتُ العود في مكانه بضيق وأنا أهز رأسي في محاولة للهروب من هذا السؤال الذي ينخر في رأسي كنخر السوس في خشب المقاعد القديمة الموجودة في الصالة.

تذكرتُ حاتم فكري وحديثه الهادئ عن جمالى، أكان يتحدث عن جمالى تغزلًا أم محاولة منه لإغرائى كي أتقرب منه ومن دينه؟ لا أعلم..

تأملتُ نفسي دَهِشة.. لقد نطقت بـ «لا أعلم» كثيرًا جدًّا في تلك الساعات القليلة الماضية.. لماذا هي كثيرة هكذا؟

أيضًا.. لا أعلم..

قررتُ فجأة ألا أترك نفسي فريسة تلك الهواجس الخطيرة، نعم هي خطيرة لأنها تمس أهم شيء في حياتى وهو ديني.

أتيتُ بكتاب الانجيل لأقرأ فيه علىّ أهدأ قليلًا، بحثتُ عنه بعض الوقت لأجده بين ثلة كتب قديمة في حقيبة بلاستيكية أسفل السرير، أخرجته ونفضت عنه التراب براحتيّ، جلستُ على حافة السرير، فتحته بشكل عشوائى، قلت في نفسي أن الصفحة التي سوف يُفتح عندها ستحمل لي رسالة ما. قرأت:

«عنايتك أيها الآب هي التي تدبره، لأنك أنت الذي فتحت في البحر طريقًا، وفي الأمواج مسلكًا آمِنًا، وبيّنت أنك قادرٌ أن تُخَلِّصَ مِنْ كل خطر» سفر الحكمة

Scanned with CamScanner

قرأتُ تلك الكلمات أكثر من مرة، أغلقتُ الكتاب، تمددتُ فوق سريري، أضم الانجيل إلى صدري، لا تزال الكلمات تتخللني، تدور حولي في دوائر بسرعات متفاوتة، أتأملها وهي تصعد حتى تصطدم بسقف الغرفة، وكأنها تتكسر، فتتساقط حروفها زخات لتغمرني، تلهب جوارحي، تتضاعف أهاتي.. أيها الرب، أنت القادر على أن تخلصني من كل خطر.

أعتدل مكاني فجأة، تذكرتُ مجدي فؤاد فتى الجامعة الأشقر، صاحب الجسد الممشوق والعيون الزرقاء، الوحيد الذي اضطربت أحشائي عندما تلاقت نظراتنا ذات يوم، لا أعلم لماذا اعتقدتُ أنه مسيحي!! قد يكون بسبب اسمه، أو بسبب شعوري بأنه قريب مني؟! ربما.. لكني بعد لحظات علمتُ أنه شاب مسلم، فتهبط سريعًا تلك الستارة السميكة القاتمة، التي يجب أن تحجب عن أعيننا أي شيء له علاقة بديننا وإن كان فيه صفاء قلوبنا وجنة لمشاعرنا، تمنيتُ لو أحرقت تلك الستارة السميكة وكل الستائر السميكة الموجودة على سطح الأرض، لماذا نتفنن في صنع الستائر السميكة القاتمة؟ لماذا نود باستمرار إقامة الحواجز؟ يكفينا ما يكبلنا به الآخرون برغباتهم.

تحتويني الآن، ولا أعلم أيضًا لماذا الآن، كرة سحرية، تحملني إلى عالم آخر، أجد نفسي فيه متسائلة: إذا كان الله محبه فلماذا يجب أن نغلق أعيننا عن الحب أيًا كان المحبوب؟! إذا كان الرب يأمرنا بأن نُحب، فلماذا يعود فيضع شروطًا جبرية على اختيار المحبوب؟!

ألم يقل لنا الرب «وَصِيَّةً جَدِيدَةً أَنَا أُعْطِيكُمْ: أَنْ تُحِبُّوا بَعْضُكُمْ بَعْضًا. كَمَا أَحْبَبْتُكُمْ أَنَا، تُحِبُّونَ أَنْتُمْ أَيْضًا بَعْضُكُمْ بَعْضًا». إنجيل يوحنا

هل كان حديث الرب موجه لأتباعه أم للبشرية كلها؟ أكان يُقصر المحبة بين أتباعه فقط؟ لو أراد ذلك لأوضح الأمر ولأخبرنا بأن تكون المحبة بيننا نحن أتباعه، وقساوة القلوب والعداوة يتم توجيهها لغير أولاده. لا أحسبه يقصد ذلك، إنه المحبة كاملة، لا تخصيص ولا احتكار، كيف يأتي البشر ليحرفوا كلامه ويجرموا مَن أحب؟! يشترطون عليه أن ينتقى من يحب، كيف ذاك والحب قدرًا، يأتي ويحتوى ويوجه كيفما يشاء.

هززتُ رأسي بعنف، إلى أين ذهبتُ بأفكاري؟ لماذا وصلت إلى تلك الجزئية؟ من الأصل لم يقرع الحب بابي بعد، فلماذا أتساءل عنه!!

الحقيقة التي لم تدركها تريزة والتي تستقر في أعماقها، أنها كانت تبحث عن الحب بكل ما تملك من قوة، هي صاحبة جسد صُنع من الحب وللحب، فكيف له أن يظل حتى هذه السن بلا حب، بلا آهات، بلا دموع، بلا افتراس؟!

لقد أحبت.. مَن ومتى؟ لا تعلم.. لكنها أحبت نموذج في خيالها، عشقته، ذابت فيه حتى تلاشت تمامًا، مؤكد سوف يأتي اليوم الذي يتجسد فيه النموذج الخيالي ويتحول إلى حقيقة. تنسال دموعها على وجنتيها رقراقة حانية حتى تتذوقها بطرف لسانها على شفتيها، تنشج بآهات مكتومة، يكتوى قلبها بين ضلوعها، تخور قواها، تتمدد فوق سريرها مرة أخرى وقد ضمت يدها بالإنجيل على صدرها، عيناها معلقتان على بقعة بنية في سقف الحجرة من أثر الرشح، بقعة كبيرة كسحابة شتوية، ترى نفسها خفيفة كقطع السحاب مرتدية روبًا حريريًا أبيض، يشف عن جسدها النابض بالحياة، على رأسها إكليل من زهور الياسمين والفل مزين بزهرات البنفسج تموج بين وريقات خضراء،

Scanned with CamScanner

شعرها يتدلى على وجنتيها وكتفيها حتى منتصف الظهر تداعبه ريح ضاحكة، تضحك كما يغرد الطير، يجيبها فضاء الكون بألف ضحكة يتردد صداها، كانت خفيفة كريشة، كنسمات تملأ الكون. تتهادى على صفحات بيضاء تتخللها زرقة البحار في نهار ربيعي هادئ، من بعيد ترى نقطة سوداء، تقترب منها بلا خطوات، ليست نقطة سوداء، إنه قلب دامي يئن، يا لعجبها..!! لقد سمعته يهمس مناجيا: *الله محبة.. ليكون فيهم الحب الذي أحببتني به وأكون أنا فيهم.. الله محبة.. الله محبة*.

تقترب من القلب الباكي، فجأة تحول إلى طفلة صغيرة خمرية ترتدي وشاحًا أبيض موشى بقطع فيروزية صغيرة، تضحك.. تلهو.. تداعبني في أنفي.. تناديني: تريزة.. تريزة.. تهزني بيديها الحانية.. تريزة..

أفقت.. فإذا بي أنام على سريرى وعلى صدرى الكتاب المقدس، وعن يميني أختي الصغيرة نورا، آخر العنقود، توقظني لأجلس معهم في الصالة، نزلتُ من فوق السرير بهدوء لأتبعها ولا يزال الحلم الذي كنت أسبح بداخله يحتويني، أفقت جسدًا لا روحا، كانت روحى لا تزال مشبعة بذلك الفضاء الواسع، بذلك الكون الذي يملأ كياني، وضعت الإنجيل على المنضدة وتحركت خطوة، ثم طرأت على ذهني أن أخاطب الإنجيل مرة أخرى بأن أفتحه بشكل عشوائى، لأرى بماذا سيجيبني، مددتُ يدي برفق وحذر، أفتح صفحاته مترقبة، نظرتُ نحو الكلمات الأولى فإذا بها:

«الرَّبُّ يَحْفَظُكَ مِنْ كُلِّ سُوءٍ. يَحْفَظُ نَفْسَكَ. الرَّبُّ يَحْفَظُ خُرُوجَكَ وَدُخُولَكَ مِنَ الآنَ وَإِلَى الدَّهْرِ» سفر المزامير

■■■

(13)
المرشد

عادل..

بعد أن تفوهت بكلماتي الأخيرة (التي أعلنت فيها عن رغبتي في تقديم استقالتي، إن لم تخرج لبني عابدين من غرفة حلمي عز الدين، وأن يعتذر الأخير عن تلك الإهانة التي وجهها لي، وهي من الأصل تعد إهانة للفندق كله) لم أتوقع أن يكون رد مستر إيهاب بمثل هذا الهدوء، لا أعلم لماذا يتبسم في هدوء وهو يمد يده حاملًا الكوب الليمون الخاص بي كي أشربه، أخذته من يده ووضعته مرة أخرى على المنضدة التي تتوسطنا، بغضتُ كل شيء ولم أعد أشعر بأي رغبة في الاستمرار في التواجد بمكان أعلم علم اليقين بأن الرذيلة تمارس بداخله تحت أعيننا وفي حمايتنا. يصمت قليلًا لكن تعبيرات وجهه قالت بأن مطلبي محال تحقيقه.

رائحة نفاذة جميلة تغمر المكان، دخلت إلى القاعة فتاة في كامل زينتها، تتعلق بها كافة الأنظار، ألاحظها رغم توترى. استقالتي هي الحل الوحيد، وقفتُ لأرحل، لكن مستر إيهاب يمسك بيدي وبرفق يجذبني لأسفل كي أجلس مستخدمًا نظرة حاول جعلها حنونة، لكني لم أكن مؤهلًا لتلقى أي شيء يُهدأ من روعي.

Scanned with CamScanner

جلست مرة أخرى وقد قررتُ أن أصم أذني، سوف أجلس ككتلة صماء كي لا أكون فظًا مع هذا الرجل الذي تبدو على ملامحه أنه يريد أن يحتويني خشية أن أخرج وأفضح ما يدور بداخل الفندق، الحقيقة أنني لم يخطر ببالي مطلقا أن أتحدث عما شاهدته. ليس من خصالي التشهير بأحد. يبتسم إيهاب لحظة قبل أن يقول:

– عملك يا عادل، البقشيش السخي الذي تناله.. يتمناهم آلاف الشباب.. لا تقطع رزقك بيدك.

– أي رزق يا مستر إيهاب؟! أتسمي تركيب القرون.. رزق؟

– لا داعي للتهويل.. كن صريحًا مع ذاتك.

يقول ذلك ويجول بناظريه في المكان، على وجهه ترتسم علامات الاستمتاع بتلك الفخامة التي تسود الأرجاء، يستعذب الألحان الرقيقة التي تسيل في المكان رقراقة هادئة، يملأ صدره بالهواء المشبع بالعطور من كل الماركات،يغوص قليلًا في مقعده، يمد ساقيه على طولهما.

– صريح مع ذاتي؟ إذن.. أترك المكان.. ويا دار ما دخلك شر..

ابتلعتُ لعابي القليل، أخذتُ شهيقًا زفرته بهدوء ثم تحدثتُ بذلك. يقترب بنصف جسده العلوي فيغطي نصف المنضدة، قائلًا:

– تريد الرحيل يا عادل؟..(يمط شفتيه باشمئزاز) لن يمنعك أحد، لكني أشفق عليك، خسارتك لعملك هنا يعني أنك لن تجد عملًا آخر.

حاول أن يضفي على جملته الأخيرة جانبًا من مشاعر الأخوة والصداقة، لكني لم اتقبل ذلك، وإنما أخذت المعني الحقيقي الذي آراده، أجبته بسؤال:

– هل أعتبر ذلك تهديدًا يا مستر إيهاب؟

– لا يا عادل.. هذا نظام عمل.. أظنك تفهمني، إهدأ.. وإن كنت مصممًا على ترك وظيفة «مشرف طابق» ممكن أدبر لك عمل آخر.

– عمل آخر.. مثل ماذا؟

استبشر من سؤالي خيرًا، فقد بدأتُ ألين معه وأتراجع عن موقفي الصلب، الحقيقة أنني كنت كذلك، ففي الفترة القليلة التي عملت فيها في هذا الفندق، شاهدتُ نظرات الحسد في أعين الزملاء القدامى الذين أقابلهم في الشوارع، أو في المترو، أو في يوم الأجازة في مقاهي وسط البلد، ثم إنني إن فقدت العمل الآن فهل أستطيع الحصول على غيره وقد حصلتُ عليه بعد عناء؟ حتى العودة إلى مطعم الفول باتت مستحيلة بعدما تركتهم بلا مقدمات،غير آبه للترتيبات التي من المفترض أن تتم في مثل هذه الظروف، كما علمت من الزملاء أن انقطاعي المفاجئ عن العمل سبب ارتباكًا في المطعم لمدة يومين حتى استطاع مدير الفرع إلحاق آخر بالعمل بديلا عني.

نقر إيهاب بسبابته على حافة المنضدة ليخرجني من شرودي وأعود إلى المكان والزمان، انتبهت، نظرت نحوه، قال:

– الوظائف كثيرة، لكن أنت بثقافتك، شكلك المقبول، جسمك الرياضي، يناسبك عمل واحد، هو متعب بعض الشيء.. لكنك ستوفر منه مبالغ مالية متميزة.

– أي عمل؟

– مرافق جيست.. سوف تستقبل السائح منذ لحظة وصوله المطار وحتى مغادرته البلاد.

– شاهدتُ بعض المرشدين يرافقون الأفواج هنا في الفندق.

Scanned with CamScanner

– هناك سُيّاح سنجل، يفضلون التحرك بصحبة شاب مصرى محل ثقة، يكرهون نظام الفوج.. يعتبرونه انتهاك للخصوصية، غير تقلص حرية التحرك فيه.

يلفني صمتٌ بعض الوقت، بدأت عضلات وجهى المتقلصة في الانبساط، فبدت على ملامح إيهاب الراحة، يبدو حقًا أنه لا يريدني أن أترك المكان، لقد علمتُ بعض أسراره، فإن تركتهم وأفضيتُ بما لدي من معلومات، سيكون ذلك أمر سيئ بطبيعة الحال، وإن وصل الوضع لانتقام حلمى، فمن الممكن أن تحدث أزمة، تصل تفاصيلها إلى وسائل الإعلام، في كل الأوضاع خروجى من هذا المكان سيكون ضار للطرفين، لهم كإساءة سمعة ولى كفقد مصدر دخل. إذن وظيفة أخرى محترمة تتبع نفس المكان بنفس الولاء، هي الحل الأمثل للجميع، ارتحتُ لذلك، استشعر هدوئى فسألني:

– قرارك النهائى يا عادل؟

سألته تأكيدًا على نزاهة عملى القادم:

– أكون مرشد للسائح فقط؟

– سوف تكون له.. كل شيء.

– ماذا؟!

■■■

كان الأمر يتطلب وجود سيارة، تحدثت مع مستر إيهاب في ذلك طمعًا في أن يوفر لي سيارة من السيارات التابعة للفندق، لكنه أشار علىّ بأن أشترى سيارة بالتقسيط على أن أسدد قسطها مما أحصل عليه من أجر السيارة اليومى.

الفكرة كانت قيمة ولكنها تحتاج إلى روح المغامرة وهذه أفتقدها، أو بالأدق أفتقد جزءا كبيرًا منها، فإذا تعرضتُ السيارة لأي حادث على الطريق سوف تكون نهايتى في السجن بسبب تلك الكمبيالات التي وقعت عليها عند الشراء، يضحك إيهاب وهو يربت على كتفى معلقًا:

– أوفر لك فرصة عمرك.. تحدثني عن حادثه!!

– وارد؟

– وارد طبعًا.. وسهل تتغلب عليه.

– كيف؟

– تأمن على السيارة.. ولا تخشى شيئًا.. ما تكسبه سيكون أضعاف قسطها وتأمينها، فقط عليك التحرك.

تحركتُ، توجهتُ إلى إحدي الشركات التي تنشر إعلانات بيع السيارات بالتقسيط في كل مكان. بعد أيام قليلة تسلمت السيارة، بدأتُ العمل ونسيت حلمى عز الدين ولبني عابدين.

طبيعة عملى كانت الذهاب إلى الفندق ومقابلة مسئول العلاقات العامة، أحصل منه على بيانات الجيست الذي سوف يصل اليوم، أتوجه إلى المطار في موعد وصول طائرته، في صالة الاستقبال، أقف قبل الموعد بدقائق، هادئ، مبتسم، أنيق قدر استطاعتى، لا يجب أن تظهر على ملامحى أي علامات كردود أفعال لمسائل شخصية أو معوقات صادفتها في يومى، السائح لا علاقة له بأي شيء من هذا القبيل.

أحمل لافتة عليها اسمه، عبارات ترحيب قليلة، أتوجه بعدها لحمل حقائبه إلى السيارة. أفتح باب المقعد الخلفى للسيارة وأشير إلى

Scanned with CamScanner

الجيست بالركوب، بعضهم يركب في المقعد الخلفي وبعضهم يفضل الجلوس في المقعد المجاور لي.

منذ اللحظة التي أقابل فيها السائح في المطار يبدأ عملي الذي يقابله حساب متعارف عليه، هناك أجر السيارة الخاصة بالاستقبال في المطار والتوصيل حتى الفندق وهذه لها تسعيرة معروفة، فإن كان أجر التاكسي في توصيلة مثل هذه مائة جنيه يكون أجر السيارة الخاصة مائتان وخمسون جنيها.

تعلمتُ أن أحاسب الجيست على كل خطوة يخطوها، إنهم أناس يتبعون المنهج العملي باستمرار ولا مجال لتلك العواطف التي تفقدنا في مجتمعاتنا الكثير من الوقت والجهد والمال وتفقدنا النجاح أيضًا. لا أتحدث عن المشاعر والعواطف النبيلة، إنهم يمتلكونها مثلنا تمامًا، لكن يجب الفصل بينها وبين الحقوق والواجبات. فتلك العواطف الخاصة بقبول الأعذار وتقبل أخطاء الآخر لا محل لها من الإعراب لدي هؤلاء. مَن أخطأ يتحمل النتيجة وبالتالي لن يكرر الخطأ مرة أخرى.

لا يعلمون شيئا عن النظرية الفلسفية الشهيرة المعروفة في العامية المصرية بـ«نظرية معلشي» وهذه النظرية منتشرة في مجتمعنا ومستخدمة على أوسع نطاق ويتبعها عدة أذناب ملتصقة بها التصاقًا تامًا، من هذه الأذناب:

- معلشي.. غلبان..
- معلشي.. آخر مرة..
- معلشي.. عنده أولاد..
- معلشي.. مريض..

- معلشي.. يا سيدي جل من لا يسهو..
- معلشي.. دا حبيبك. أم نسيت قعدات الأُنس..
- معلشي.... إنه قريب الأســ..

و كلمة «معلشي» إن دققنا فيها النظر لوجدناها اختصار لجملة «ما عليه شيء» ولو كنا شعبًا عمليًا ونخشى ضياع الوقت في نطق كلمات الجملة كلها، فتم اختصارها، لكان ذلك أمرًا رائعًا، إنما تم الاختصار لكثرة الاستخدام!!

في العالم الآخر، الذي يأتي منه السائح، لا يعلمون شيئًا عن هذه النظرية المصرية الخالصة، لذا نحيتُها جانبًا منذ أول أيامي في هذا المجال.

في الطريق، من المطار وحتى الفندق، تبدأ مرحلة التعارف مع الجيست، الاسم وحالته الاجتماعية، بأسلوب لطيف بالطبع. إن كان رجلًا وحيدًا، أتصنع الأسي لأنه لم يأتِ بأسرته معه، إنها بلا شك سوف تُحرم من متعة رؤية الآثار المصرية العظيمة، وسوف يُحرمون من الاستمتاع بشمس مصر الرائعة في هذا الوقت من العام (أقول ذلك في أي وقت من العام) ثم أعقب سريعا بأنه يجب عليه أن يصطحبهم في رحلته القادمة، خاصة وأنه سوف يدرس المكان جيدا هذه المرة، سوف يرى بعينيه أن الرحلة لدينا بالإضافة إلى أنها ممتعة جدًا، فهي غير مكلفة ماديا على الإطلاق.

أصمتُ قليلًا، ثم أبدأ مرحلة جديدة أتحدث فيها عن الشخصية المصرية المتفردة بطابعها الخاص على المستوى العالمي، كلمات قليلة في البداية، فإذا لاحظتُ اهتمام الجيست، أجزلت العطاء. نادرًا ما كنت

Scanned with CamScanner

أقابل مَن يفضل الصمت على الثرثرة. غالبيتهم يفضلون الثرثرة معي عن مصر وآثارها وطبيعتها وأهلها، فقد أتوا من أجل ذلك.

بمجرد وصول السائح إلى الفندق، وقبل أن يغادر السيارة، يكون قد أخرج المبلغ الذي أطلبه منه بلا نقاش، فما أقوله لا رجعة فيه، لأنني المندوب الذي سوف يرافقه طوال رحلته، أيضًا هو يعلم جيدًا أنني قائم على راحته، متعته، حمايته من الاستغلال والجشع الذي قد يتعرض له إن هو سار وحيدًا.

إن نحن أعملنا الفكر لحظات، لنعقد مقارنة بسيطة، سنجد الأمور تقريبًا معتدلة، فإنني مثلًا إن طلبتُ من الجيست خمسين دولارًا مقابل توصيله من المطار وحتى الفندق على شاطئ النيل وهي رحلة قد تستغرق ما يزيد على الساعة، فهذا أمر عادي جدًّا، بل إن أحدهم نظر في ساعة يده يومًا ليحسب الوقت، الذي كان ساعة ونصفًا تقريبا، وقال بأن خمسين دولارًا في ساعة ونصف أمر جيد ومط شفتيه علامة الاستحسان. هذه بداية موفقة بلا شك مادام ما نطلبه، وإن كنا مغالين فيه، يقابل ما يدفعونه في بلادهم، وأحيانًا أقل.

بالنسبة لنا فإن الخمسين دولارًا تعادل أربعة أضعاف أجر التاكسي العادي لو قطع نفس هذه المسافة لنفس السائح، علمًا بأن سائق التاكسي يضاعف من أجره مرات، إذا كان الراكب أجنبي.

في أول يوم تسلمتُ فيه أجر التوصيلة، وضعته في جيبي منتشيًا تلك النشوة المضطربة التي تلازم غير الواثق، وكأن السائح سوف يعلم الحقيقة بعد لحظات ويعود ليطالبني بماله وهو هائج مشيرًا نحوي بأنني لص، أو كان الجميع من حولي يعلمون حقيقة المبلغ الذي تقاضيته

فينظرون نحوي، بعضهم مشمئزًا ويقول في داخله أن مثل استغلالي هذا للسائح هو ما يجعلهم لا يفضلون السفر إلى مصر، وبعضهم ينقم عليَّ ويقول كيف أتقاضى مثل هذا المبلغ مقابل ذلك العمل اليسير متمنيًا أن يحل محلي.

في تلك اللحظات، تحسستُ المبلغ في جيبي أكثر من مرة، محاولًا أن أخفي مشاعر المبتدئ في أعماقي. توجهتُ لأنتظر الجيست في الريسبشن، لقد طلب مني الانتظار مدة ساعة، ليرتاح قليلًا ثم يأخذ دشًا منعشًا، على حد قوله، ثم نبدأ الرحلة في قاهرة المعز.

كنتُ جالسًا مسترخيًا محاولًا التلذذ قدر الإمكان بمقعدي الوثير، أعب من الروائح المختلفة التي تملأ المكان، أستقي النغمات الموسيقية الرقيقة المنسابة في المكان والتي لا تستطيع تحديد مصدرها. أمضى وقتي في تأمل حركة الرواد.

كنتُ أنتظر، بشكل لا إرادي، رؤية لبني عابدين أو حلمي عز الدين. أن ترى السيدة أو الرجل بصورة ما، يكون إطارها الاحترام والتقدير، وبعدها تراهم في صورة أخرى، صورة عارية تمامًا، أمر يجعلك تكتم في داخلك ضحكات ساخرة، أمر يُسقط، بل يحطم ذلك الإطار الذي قوامه الاحترام والتقدير، مهما كان يرتدي حلمي عز الدين الآن، أو مهما كانت ترتدي لبني عابدين الآن، فسوف أراهم بملابس تلك الليلة، الروب الرقراق على جسد عار. لكن القدر لم يمنحني الفرصة لمشاهدتهم في تلك الصورة.

لم تمر خمس عشرة دقيقة، حتى يستدعيني موظف العلاقات العامة، بادرني بتلقائية قائلًا:

Scanned with CamScanner

– ماذا يا عادل.. ألن تورد نسبة الفندق من التوصيله؟

بُهتُّ لحظة، أي نسبة أقوم بتوريدها؟! هل يتقاسم الفندق معي ما أقوم بتحصيله من السائح نظير عملي؟! وجدتُ الإجابة بداخلي تتبلور في لحظات، هل يتركون لك السائح بلا مقابل يا عادل؟! إنهم يتقاضون منه مقابل الإقامة، المأكولات، المشروبات، داخل الفندق، أما خارج الفندق فأنا يدهم الجابية، نعم.. هذا هو الوضع. يخرج السؤال مني بلا تركيز:

– النسبة كام يا فندم وأدفعهم لمَن؟

– 20 ٪ يا عادل.. تدفعهم هناك.

يشير بيده نحو حجرة صغيرة، معلق على بابها لافتة صغيرة، مكتوب عليها «التوريدات»، شاهدتُها من قبل كثيرًا ولم أكن أعلم أن كلمة التوريدات تعني ما يحدث لي الآن، تخيلتها دالة على المعني الطبيعي المتعارف عليه، حيث تختص بما يتم توريده إلى الفندق من سلع.

طرقتُ باب الغرفة، دخلت لأجد فتاة شقراء ترتدي اليونيفورم الخاص بالعاملين في الفندق، تجلس خلف مكتب أنيق، تقابلني بابتسامة ساحرة مرحبة يبدو أنها تجيد تجميل وجهها بها على الدوام، تخرجني من ذلك الذهول الذي كان لا يزال يسيطر على ملامحي وهي تقول:

– أهلا يا أستاذ عادل.. عشرين في المائة من خمسين دولار.. عشرة دولار.. تفضل الإيصال.

أخرجتُ الدولارات العشرة من جيبي، وقد زادت حالة الانفصال عن المكان وأنا أبحث في داخلي عن إجابة لذلك السؤال البديهي: من أين علموا أنني تقاضيت خمسين دولارًا؟ أعطيتها الورقة المالية

وأخذت الإيصال، نظرتُ فيه لأقرأ الصيغة المستخدمة في هذا الأمر الغريب، مكتوب:

تسلمت أنا / سهام وديع مبلغ 10 دولار من السيد / عادل عبدالرحيم. نسبة خدمة توصيل سائح من المطار وحتى الفندق.

هذا هو كل المكتوب، لا شعار، لا أختام، لا توجد أي إشارة لاسم الفندق أو اسم السائح وجنسيته. علمتُ بعد ذلك أن تلك الورقة لا قيمة لها غير أنها إشارة إلى أن عملية مشاركة الفندق وحصوله على نصيبه من توصيل الجيست قد وصلته، وفي نهاية اليوم يُنهى قسم التوريدات تحصيل كافة المبالغ المستحقة عليّ وعلى أمثالي ثم تدخل تلك المبالغ خزينة الفندق وفي الغد يبدأ يوم جديد وهكذا.

خرجتُ من مكتب التوريدات، والحيرة لا تزال بحرًا تتقاذفني أمواجه، فجأة وجدت طوق النجاة واقفًا أمامي مبتسمًا ابتسامته العريضة، مستر إيهاب علوى، قبل أن ينطق بكلمة واحدة تذكرت عبارته التي قالها لي منذ أيام بين طيات حديثه وقت أن كان يوجهني لشراء السيارة، قال:

– الطريق من المطار للفندق خمسين دولار، طلعة سقارة 100 دولار، لفة البازارات 100 دولار، السهرة 100 دولار.

يبدو أن تركيزي وقتها كان مسلطًا على اتجاه السيارة الجديدة، ومغامرة الشراء بنظام التقسيط الذي أبغضه تماما. إذًا أنت مستر إيهاب من أخبرتهم بأنني تقاضيت في توصيلة المطار مبلغ خمسين دولارًا؟

مد إيهاب يده مصافحًا، أخرجني سريعًا من شرودي، صافحته، سألني على عجل:

– مبروك.. عرفت أنك بدأت الشغل الجديد اليوم.

Scanned with CamScanner

– يا مسهل.. أول مشوار.

تركني وانصرف، فهو من تلك النوعية التي لا تفضل الجلوس في مكان، دائمًا في حالة حركة ونشاط، قبل أن يغيب عن عيني قال:

– من الغد لن تنام يا مان.. والنسبه حق الفندق عليك.. توردها وحدك يا عادل.

ابتلعه الأسانسير الذي هبط منه الجيست الذي أتيت به من المطار منذ دقائق. لم يستقر الرجل أكثر من نصف ساعة، توجه ناحيتي مبتسما:

– نبدأ الرحلة حالًا.. أنا هنا للفسحة، وليس للنوم.

و بدأتُ الرحلة، وبدأتُ اكتشاف عالم جديد تمامًا. «طلعة سقارة» التي أتقاضى فيها من السائح مائة دولار، منها عشرون دولارًا للفندق. في سقارة أتوجه بالجيست إلى الخيالة، لا يتفاوض مع أحدهم إلا بعد أن ينظر نحوى متسائلًا، أشير نحو أحدهم، يتفاهم معه حول الرحلة على ظهر الحصان أو الجمل، وفقًا لهواه، من حيث المدة والأماكن التي سوف يزورها والصور التذكارية، في النهاية يتفقون على مبلغ ما والذي غالبًا ما مغاليًا فيه، أتدخل لخصم جزء منه، بعد جدال ممل يبدأه الشباب بمنتهى الحماس حالفًا باسم كل مقدس، بأن المبلغ الذي يطلبه هو أقل مبلغ يتقاضاه طوال حياته وأن ذلك لم يحدث له من قبل،و بعد قليل ينتهى الجدل بموافقتهم على المبلغ الذي حددتُه أنا وهو أقل من ربع ما كان يتمسك به ويقسم عليه منذ لحظات.

الغريب أن حماسهم وحلفهم لا يتغير وإن تكرر الأمر في اليوم الواحد مائة مرة ومع نفس الشخص، جبلوا على ذلك.

كانت الرحلة التي تصل إلى الساعتين تقريبا، تُكلف الجيست في ذلك التوقيت مائة وخمسين دولارًا، يدفعهم ويمتطى جواده لينطلق خلف حصان آخر يمتطيه أحد الصبية الذين ينتشرون هناك ويجيدون تحدث عدة لغات. منهم أيضًا تعلمتُ بعض الكلمات من مختلف اللغات.

أجلس في سيارتى أو أي مقهى قريب في انتظار عودة السائح، يقترب مني «المعلم» صاحب الخيل ويعطيني ستين دولارًا هي حصتى فيما دفعه الجيست مقابل رحلة الخيل، النسبة محددة سلفا ومتعارف عليها 40 ٪ مما يدفعه أيًا كان.

يعود السائح سعيدًا، رغم الإرهاق البادي على ملامحه والرمال الناعمة الملتصقة على وجهه، يدلف إلى سيارتى منتشيًا. نترك منطقة سقارة، بعدها يطلب الذهاب إلى مطعم يقدم مأكولات شرقية.

في بداية عملى كنتُ أتصل بـ مستر إيهاب علوى، أخبرة عن مكاني وعن مطلبي، يوجهني بكلمات قليلة. أتوجه بعدها إلى أقرب مطعم يتوافق مع رغبة الجيست. عدة مطاعم شرقية منتشرة في منطقة الأهرامات، أتقدم الجيست إلى الداخل حتى أجد له منضدة مناسبة من حيث الموقع. بينما أتركه لأعود إلى سيارتى، يأتيني موظف الاستقبال في المطعم ليرشدني إلى المكان الذي يجب عليّ أن أنتظر فيه.

تمر لحظات قبل أن يتقدم نحوى أحد العمال حاملًا صينية عليها وجبة طعام فاخرة من الدجاج المشوى والأرز والسلطات ومشروب مثلج، قبل أن أنتهى من تناول الوجبة يأتيني نفس الموظف يدس في يدي مبلغًا من المال قائلًا:

– الثلاثون في المائة.

Scanned with CamScanner

يرحل، أتابع الشمس الغاربة بلونها الذهبي المائل إلى الاحمرار قليلًا، أود لو أتابع تشكيلات الظلال المصنوعة، على الواجهات الزجاجية، على هيئة أشجار ومبان، لكني أغادر روعة المكان لأفحص المبلغ الذي دسه موظف المطعم في يدي، فإذا به ثلاثون دولارًا، إذن تكلفة طعام الجيست ومشروباته هي مائة دولار.

بعد انقضاء ساعة تقريبًا وقد اختفت الشمس تمامًا لتبدأ رحلتها الليلية في العالم الآخر، يخرج الجيست وقد استرد نشاطه، أقود السيارة في اتجاه الفندق فإذا به يطلب مني التوجه في جولة لزيارة البازارات المنتشرة في المنطقة.

أراقبه في المرآة العاكسة وأتابع سعادته بكل ما يراه، يتأمل كثيرًا الوجوه، خاصة تلك المنتشرة للتسول، في إشارات المرور أو عند المطبات الصناعية التي تصنع تكدسًا مروريًا، ينتشرون بين السيارات، يشيرون بأيديهم نحو أفواههم علامة الرغبة في تناول الطعام، يرسمون على وجوههم علامات الضعف والمهانة وكأنهم سيلاقون حتفهم نتيجة الجوع الرهيب، أتعجب.. في بلدنا رغيف خبز بخمسة قروش يكفي لإطفاء جمرة هذا الجوع وهؤلاء يتسولون عشرات الجنيهات يوميًا. كنتُ أشعر بالضيق والخزى من تلك الصورة القبيحة التي تتصدر المشهد أمام الأجانب. بعد مدة تعودتُ على ذلك مع الوقت فلم أعد أهتم.

أتوقف أمام البازار، يتجول بداخله كما يحلو له، يشترى ما يشاء من الهدايا التذكارية، يدفع ثمنها، ينتظر حتى يقوم العمال في البازار بوضعها في الأكياس أو العلب الكرتونية المناسبة لها، في تلك اللحظات يأتيني أحد العاملين في البازار ويعطيني مبلغًا من المال قائلًا عبارته التي أصبحت فيما بعد لحنًا له إيقاعًا جميلًا:

- تفضل.. 30 $.

في منطقة خان الخليلي، في البارات، السهرات على المراكب السياحية، المطاعم الفاخرة. في كل مكان، يخرج إليّ أحدهم ويعطيني النسبة المتعارف عليها، في نهاية اليوم أعود بالجيست المتنشى إلى الفندق، يصعد غرفته بينما أتوجه أنا إلى غرفة التوريدات، أفصل بين المبالغ المستحقة للسيارة وبين كل ما حصلت عليه طوال اليوم من عمولات، نسبة الفندق فيما يتعلق بأجر السيارة عشرون بالمائة، فيما يخص باقي ما حصلت عليه خمسون بالمائة، أدفعهم إلى الموظفة المسئولة وأحصل على الإيصال الوهمي وأرحل.

أعود إلى منزلي في انتظار رحلة الغد، حصيلة اليوم بعد كل الخصومات وتكلفة السيارة مائتى دولار، تزيد أو تقل في الأيام التالية وفقا للسائح ومصروفاته.

المال بعد العمل يذهب بالتعب والإرهاق، كنتُ أنتظر الغد كي أبدأ رحلة جديدة، رحلة أستمتع فيها بالتجول في الأماكن السياحية والمطاعم الفاخرة وفي النهاية أحصل على مبلغ محترم لا يقل عن الألف جنيه يوميا.

تغيرت حياتى تمامًا، أصبح لي حساب بنكى وفيزا كارد. شهور مرت على هذا المنوال، ذهبتُ بعدها إلى معرض السيارات، دفعتُ كل ما تبقى على السيارة من أقساط بعد تنزيل نسبة كبيرة من الأرباح التي كانت مستحقة على نظام التقسيط.

ذات يوم سألني صديق يعمل مدرسًا لمادة التاريخ حينما علم ما أتقضاه:

- كثير يا عادل؟

Scanned with CamScanner

أجبته بهدوء المعتاد:

– في بلادهم ينفقون أضعاف ما ينفقونه هنا.

لم يمر العام التالى حتى أنهيتُ أقساط الشقة، التي حجزتها في عمارة جديدة، في الامتداد العمراني الجديد لشارع فيصل، ثم بدأت مرحلة التشطيب. فلم يكن لي نصيب يذكر في بيت العائلة ليسمح لي بالإقامة فيه حال زواجي. في هذا التوقيت تعرفت على إيمان زوجتي.

زوجتي التي لا أعلم عنها شيئًا الآن.. حية هي أم فارقت الحياة؟

أطفالي.. أين هم الآن؟؟

ما تذكرته حتى الآن من حياتي السابقة أراه طبيعيًا جدًّا، لا يوجد ما يدعو للشك في أحدهم كي يرتكب مثل هذه الجريمة ويقوم باختطاف زوجتي وأولادي. توقفت كثيرًا أمام المليونير حلمي عز الدين ولبني عابدين، لكني استبعدت ذلك الهاجس، رغم سطوتهم وسهولة انتقامهم مني إلا أن تلك الفئة لها منطقها الخاص في الانتقام وهو التجاهل التام، التعالي اللانهائي، يرتكبون أخس وأحقر الجرائم ويتعاملون بمنطق علية القوم، لا مجال لديهم للأخلاق، المصلحة الخاصة فوق أي شيء، لا يمكن أن يخاطر حلمي عز الدين بسمعته بالانتقام من ولد صغير مثلي، خاصة وأن الأمر انتهى بالفعل بانتصاره حال تركي لمكان عملي واستدعاء آخر ليحل محلي، مؤكد أنهم اعتذروا له، أخبروه بأنهم عاقبوني على تطاولي عليه بالطرد من الفندق.

لأنتقل إذن إلى المرحلة التالية من حياتي، وهي الأكثر إثارة، علها تحتوي على ما يكشف ذلك الغموض الرهيب.

■■■

(14)

آهـــات

حاتم..

لا أعلم لماذا كانت صورة إيمان تطاردني باستمرار في تلك الفترة من حياتي، لقد تزوجت بأمل يوسف، أصبحتُ صاحب شركة مرموقة، معارفي في تزايد ملحوظ، ننطلق معًا على طريق الدعوة، نحصد خيرى الدنيا والآخرة، لكن صورة إيمان لم تفارق خيالي قط، وحي عشقها يلازمني ليل نهار.

إيمان..

مر على ذلك سنوات، منذ أن كانت إيمان طالبة في الثانوية العامة، كنتُ،وقتها، طالبًا في الجامعة. تسكن الشقة المواجهة الكائنة في البناية المقابلة لنا. أراقبها بالساعات من لحظة عودتها بملابسها الزرقاء على بشرتها البيضاء، يهفهف شعرها كأهداب شجر الصفصاف في الربيع، عيناها ساحرتان، يمتزج سوادهما ببياضهما في تناسق ساحر، نمتْ فجأة، تحولت من طفلة تلهو، إلى فتاة صاحبة جسد ساحر في شهور قليلة. هي البكارة التي هبطت على الأرض، هي أول كل شيء جميل. لابتسامتها طعم، لنظرتها ألف معني، لكل جزء في جسدها ألف لسان

Scanned with CamScanner

ينطـق بكلمة واحدة «ضمني». كنتُ أود أن أضمها إلى قلبي، كأنها نمت فجأة من أجلي.

أجلـس بالسـاعات في غرفتي وحيـدًا، معللًا خلوتـي بالمذاكرة. في تلك السـن كانت إيمان جسـدًا رائعًا وعقلًا لا يعي قدسـية هذا الجسـد. أراهـا ترتـدي البيجامـة التي تكشـف عـن جزء مـن صدرهـا أو ذراعيها الرائعين، ألتهمها في كل لحظة من خلف ثقوب نافذتي، تتساقط نظراتي على جسـدها نهمة، يتسـاقط مائي متشـيًا بلذات لا حدود لها، تحتويني رعشة اللحظات الأسطورية، ثم أهدأ، بعدها أتوجه إلى الحمام لاستحم ثـم أصلي ركعـات، لا أعي عددها، أسـتغفر ربي علـى خطيئتي، فالعين تزني وزناها النظر، هكذا يحدثني زملاء الجامعة خصوصًا أعضاء أسـرة «اليقيـن» التـي تلقفنـي شـبابها فـي أول أيامي فـي الجامعة. كنـتُ طوع أمرهـم، لِـمَ لا وقـد سـاعدوني بالكثير مـن المعلومات، الكتـب، توفير مكان للإقامة، الخروج معهم في رحلات ومعسـكرات لم أكن أسـتطيع المشـاركة فيها إلا عن طريق عضوية هذه الأسـرة، كانوا يسـيطرون على اتحـاد الطلبـة في الكليـة بالكامل وعلـى الأغلبية في اتحـاد الطلبة على مستوى الجامعة.

أعضاء أسـرة «اليقين» ثلة من الشـباب، لا يريدون من الدنيا شيئًا غير طاعـة اللـه، خلقنـا لنعبده، وها هم يسـيرون بـي في هذا الطريـق، نلتقى لنتناقش في كافة أمور الدولة الفاسـدة، التبرج في كل مكان، أولى الأمر يسـرقون، ينهبون، يمتصون دماء الفقـراء، يتباهون في كل مكان، يتبعهم كل أفـاق آثم، يعيش بأموالهم، يحتمى بظلالهـم، هؤلاء أذنابهم التي لن تفارقهم يومًا ما، هذه الأذناب آثمة وإن كان منهم أهل بيتى. إنهم يقترفون الرذيلة بقلب باسم، اعتادوا فعلها فأضحت عادة لا تنكرها قلوبهم.

حقًا.. إن لم تستح فاصنع ما شئت..!!

أنتهـى مـن صلاتى وقـد غمرني طيـف من هـدوء، أعود لكتبـي أقرأ فيهـا، أتعلم منها صحيـح الدين، الإمام ابن القيم، الشـوكاني، الزرقاني، الشـنقيطى، الدارمـى، الدارقطنـي وغيرهـم مـن كتـب التفاسـير وكتب الحديث الشريف وعلومه، نهاية بمجموعة كتب العلامة سيد قطب التي أعطانيها أعضاء أسـرة «اليقين». تمر السـاعات، أقـرأ.. لا أفهم معظم ما قرأته.

أجدني مرة أخرى أدنو من نافذتى أبحث عن معشوقتى، أراها تتهادي مع اخوتها الصغار، أو تجلس بين زهور الشـرفة وكأنها زهرة تتوسـطها، أتنسـم عبيرها مع كل حركة تقوم بها، أعـاود اعتصار ذاتى متلذذًا بها في أحضاني.

كثيرًا ما تبعتها في الشـوارع، حينما تذهب إلى دروسـها الخصوصية وعنـد عودتهـا منها، كنـت أحفظ مواعيـد تحركها أكثر مـن والديها، بل إني كنت أحفظ طبيعتها أكثر منها هي، التأمل فيها بالسـاعات مع اعتمال داخلي وتأجج نيران الهـوى في قلبي جعلني أحتويها، أمتلكها، أقرر في نفسى أنها لي.. مهما حدث.

لقـد خلـق أحدنا للآخر، بـه يكتمل، وبه يعيش. أعلـم من خفق قلبي أن ذاك هو الحب،لكني خشـيتُ أن أعترف بذلك، فما الحب إلا ضعف ووحى شـيطاني يجب ألا أقع فريسـة له. في النهاية أرتكن إلى فكرة أنها ملك لي، ولم أتعود من قبل أن أفرط فيما أمتلكه.

لم أستطع الإفصاح عما يدور بداخلي، لمن حولى، لعدة أسباب منها ظـروف عائلتى المادية وهي ظروف صعبة جعلتنـي غالبًا عبدًا للحاجة،

Scanned with CamScanner

أيضًا عدم إحساسها بمشاعري، يضاف إلى ذلك خشيتي من أن يعلم أحد الزملاء في أسرة «اليقين» بما يدور في داخلي فأكون من المارقين. أما ما جعل الأمر مستحيلًا هو رحيلهم فجأة.

ظلت النافذة مغلقة طوال اليوم واليوم التالي، في البداية تخيلتُ أنهم في الخارج لأي ظرف عائلي، لما استمر الوضع حتى نهاية اليوم الثاني، تصنعتُ حيلة كي أعلم منها أين هم؟ قيل لي لقد رحلوا.

في الأيام التالية على رحيلهم بذلت قصارى جهدي لأعرف إلى أين رحلوا؟! لكنني فشلت. رحلت عن المدينة فجأة وتركتني أعاني ألم الفقد، ليتني تحدثتُ إليها، ليتها علمتْ ما في قلبي قبل رحيلها، كنتُ أكتوى بنار حبها ولا أجد في نفسي جرأة للتحدث معها، ثم إنني لم أكن لأتحدث معها وهي من المحرمات عليّ، يمنعني تديني من ذلك، كنتُ أنتظر اليوم الذي تسمح فيه ظروفي بأن أتقدم وأتزوجها على سنة الله ورسوله، لكنها رحلت. آه.. كم هو مُر طعم فراق الحبيب.

عشت الأيام والشهور والسنوات التالية أتخيلها في كل حركة، أضمها إلى صدري، ألهو معها في سريري، انتشى مرات ومرات بين تفاصيلها الرائعة.. أحبها.. أحبها.

إن الأمل الذي لم أفقده يومًا في أن ألتقى بها هو الذي ظل يربط قلبي بنبض الحياة، أعيش جسدًا بلا روح منذ رحيلها آخذة معها روحي.

مهما قيل عن عيوب الحب الأول (وها أنا أعترف الآن بأن ما بيني وبين إيمان هو الحب الأول) ومدي تهور المحبين فيه، وغشاوة الرؤية، إلا أنه يظل الحب الأول، يبقى هو البصمة الأولى والشفرة التي يفتح بها القلب مباشرة، الحب الأول هو الذي يهتك أغشية القلب ليتفتح لرؤية

متاع الدنيا وروعتها، ليرى العالم الحقيقي الكامن خلف العالم المرئي، فكل ما في الوجود يكمن خلفه شيء لا يراه إلا المحبين، متى انقشعت تفاصيل ذلك الحب تلاشت جزئيات ذلك العالم الحقيقي الكامن خلف العالم المرئي.

لن ينسى قلبي إيمان وإن تزوجتُ بأمل الجميلة. أو بعد مرور مدة طويلة واجتذبتني نحوها تريزة الرائعة.. آه يا إيمان.

إيمان..

أين أنتِ الآن..؟

■■■

Scanned with CamScanner

(15)
الخبير

عادل..

قبل أن أترك ذكرياتي حول الجيست المختلفين، أتذكر جيدًا السائح الألماني الذي ترك أثرًا كبيرًا في نفسي، لثقافته ودماثة خلقة، إنه مستر «هارولد وايز». كنت أناديه باستمرار مستر وايز.

أتذكر أيضًا الجميلة «چينا» البيروفية، من دولة بيرو من أمريكا الجنوبية.

غالبية الجيست الذين أتعامل معهم، هم عمال في بلادهم، ميكانيكي، كهربائي، نجار في ورشة، نوعية محدودة الثقافة باحثة عن المتعة بكل أنواعها، والارتحال ورؤية العالم كانت متعة لا تقاوم، آخر ما كان يشغل قلوبهم تلك القضايا الفكرية التي عثرتُ عليها مع مستر وايز.

تعاملي مع الجيست باحترام، وحمايته من الأطماع والاستغلال، كان يترك لديهم انطباعًا حسنًا، حتى إن بعضهم أوصى أصدقاءه أن يطلبوني بالاسم حال نزولهم مصر، وقد كان.

الحقيقة أني لم أكن لأترك الجيست كي يتعرض لعمليات الاستغلال والمغالاة، أو السرقة بمعني أدق.

مستقبلا سوف يخطر على ذهني أننا كنا نحمي الجيست كي نستغله نحن.. خاصة بعد أن تذهب تلك الأموال بسهولة كما أتت (الحادث).

أيضًا لم ألاحظ وقتها أني بدأت ألين تدريجيًا، حتى إن مستر إيهاب علوى كاد ينفجر ضحكا حينما تعلقت في ذراعي إحدي السائحات ذات يوم ونحن في طريقنا للخروج من الفندق.

لنعد إلى مستر وايز ويومه الأول في مصر. أنهيتُ له تفاصيل رحلة الخيل في منطقة سقارة بأقل الأسعار وانتظرت عودته. لم تتخطى الساعة الثانية عشرة ظهرًا، يعود من جولته سعيدًا نشطًا كمن خرج لتوه بعد حمام منعش، أتعجب.. فقد تملكني الإرهاق وأنا جالس في انتظاره، أما هو فأراه متحمسًا بشكل لا يتناسب مع ساعتين على حصان يتجول به في الصحراء ولا يتناسب مع سنوات عمره التي تخطت الستين.

وقفتُ لأتوجه ناحية السيارة، لكنه أخبرني بالعربية، بل وبالعامية المصرية التي وضح أنها يتقنها:

- دعنا نمضى باقى اليوم هنا في الأهرامات يا عادل.

- كما ما تحب يا مستر وايز.

يخبرني أن هذه ليست الزيارة الأولى له لمصر، أتى من قبل في رحلات إلى الأقصر وأسوان ومرة ثانية إلى شرم الشيخ، لكنها المرة الأولى التي يقرر فيها أن يزور القاهرة التي كان يرفض زيارتها للتكدس والزحام الرهيب المعروف عنها عالميا، لكنه لم يستطع أن يقاوم ذلك النداء الذي تطلقة قاهرتنا الساحرة لكل قلوب العالم، لم يعد يمتلك قوة ليقاوم بها تلك الرغبة الملحة في الذوبان بين النسيج البشرى في تلك المدينة العريقة، فقرر زيارتها أخيرًا.

Scanned with CamScanner

عـن إتقانـه للعربيـة يخبرنـي بـأن ذلك يعـود إلى دراسـاته منذ سـن الشباب واحتكاكه بالكثير من العرب بوجه عام والمصريين بوجه خاص فـي ألمانيـا، إنه يتقن أيضًا مـع الألمانية والانجليزية والعربية، الاسـبانية والفرنسـية. قضى معظم سـنوات حياتـه رحالة في معظم بلـدان العالم، يحفـظ عن ظهر قلـب معظم تاريـخ الحضـارات القديمة وعلى رأسـها الفرعونية.

كنا نسـير بجـوار الهرم الأكبر في تلـك اللحظات، يقف مسـتر وايز، يرفع رأسـه إلى أعلى، يتأمل الهرم المرتفع، صخوره الضخمة المتراصة في تناسـق هندسي عجيب، يشـير بيده عاليا، ثم يتوجه نحوى بالحديث قائلاً:

– العمـال المصريين أتموا بناء الهرم الأكبر في عشـرين سـنه، الهرم بُنـي كمقبرة للملـك خوفو، لكن الحقيقـة أن الملك خوفو بنـاه للتدليل على العبقرية التي وصلت إليها الحضارة المصرية القديمة.

– عندك حق.

– تعالى لندخل الهرم..(ينطلق نحو السـلالم المؤدية إلى باب الهرم وأنـا خلفه أنصت لحديثه) العمال عندما بنوا الهرم كانوا يعملون بمنتهى الحماس لأنهم كانوا يعتقدون أنهم يخدمون الإله؟!

يصمت لحظة يملأ صدره فيها بالهواء كأنه يعب التاريخ، ثم يكمل:

– مع الشعوب قليلة الثقافة، وباسم الدين.. يستطيع أي حاكم تحقيق أهدافه، وإن كانت مخالفة لهذا الدين..

كنتُ أنتظر أي جيسـت في الخارج، لكني في هذه اللحظات شعرتُ بأن انتظارى في الخارج، وترك مسـتر وايز وحيدًا، يعد نوعًا من الهروب

الـذي يؤكد الجهل أمام ذلك الفيض من العلـم، وكأني أُبعد تلك التهمة بعيدًا، وافقته على الصعود. أيضًا لم أكن أريد أن أتركه وحيدًا خوفًا عليه، لا أدرى لماذا شعرتُ نحوه براحة نفسية واعتبرت نفسى حارسًا شخصيًا له.

نصعد بهدوء شـديد كي لا نفقد قوتنا ونشـعر بالتعب والإرهاق. كان مسـتر وايز يتحـدث وهو يصعد، يتوقف أحيانًا ليشـرح، مسـتخدمًا يديه في الإشـارات للإيضاح، يتحدث وكأنه ابن من أبناء المنطقة، عاش فيها طوال حياته، واجهني هذه المرة قائلاً:

– منطقة سقارة يا عادل كتاب مفتوح، يحكى قصة الحضارة المصرية القديمـة، سـقارة هي الجبانة الوحيدة في مصر كلهـا التي تضم مقابر من بدايـة التاريـخ حتـى نهاية عصـر الفراعنـة، وأيضا فيهـا مقابـر وأثار من العصرين اليوناني والروماني.

علقتُ ساخرًا:

– و فيهـا مقابر من العصر الحديث.. سـكان المنطقة بنوا مدافن لهم في المنطقة يا مستر وايز.. كل يوم تلاقى جنازة.

– أنا قرأت هذا الخبر فعلًا.. شـيء مؤسـف.. لأن المكان الذي بُني فيه حديثًا.. مؤكد يتواجد أسفله أثار عظيمة.

كان عليّ أن أشـارك بأي معلومة، تذكرت سـبب تسمية منطقة سقارة بهذا الاسم، تحدثت على الفور:

– اسـم منطقة سـقارة مشـتق من اسـم إله الجبانة عند الفراعنة.. كان اسمه الإله سُكِر..

Scanned with CamScanner

يبتسم مستر وايز بشكل أعاد لي شيئًا من الثقة. في اللحظة التي وصلنا فيها إلى حجرة الدفن ألفينا سيدة خليجية تجلس برفقة زوجها، ما إن رأتنا حتى أسدلت على وجهها نقابها لتخفيه، بعدها وقفت علامة الانصراف، يقف خلفها الرجل بجلبابه وشاله الأبيضين بياضًا ناصعًا يلفت الأنظار ورحلا عن المكان. يبدو أن حركة السيدة لاخفاء وجهها قد لفتت إنتباه مستر وايز فبدأ حديثًا عن المرأة في العالم العربي.

تعلمتُ ألا أختلف مع الجيست، خاصة في قضايا الرأى، وألا نتحدث في أمور الدين، لا يجب أن أقف أمامه موقف الند للند، أنا مجرد رفيق رحلة لعدة أيام، أتى فيها كي يستمتع، وهذا واجبي. يجب أيضًا أن أشعره بأنه هو السيد، وأنه صاحب رؤية وبصيرة نافذة، هذا كله يرتد نحوى على هيئة هبات مادية مضاعفة.

أحيانًا يُصادف أن أتقابل مع جيست كريه الطباع، كريه الصفات. صاحب شخصية منفرة، شخصية سادية. وقتها كنتُ أعد الدقائق حتى ينتهى برنامجه ويرحل. في بعض الأحيان أبحث عن زميل بدون جيست، ونادرا ما كنت أجده – السياحة في تلك الفترة كانت منتعشة وكنا نعمل ليل نهار – فإن عثرتُ علي هذا الزميل طلبت منه إكمال الرحلة مع هذا الجيست متعللا بمرض ما.

من ذلك ما حدث مع أحدهم ويدعي «إبرام حاييم»، علمتُ أنه يهودي بريطاني، لم يكن ذلك هو الأمر الذي جعلني أنفر منه، برغم بغضى له منذ اللحظة الأولى، لكنني كنت أمارس تفاصيل عملى.

بعد أن انتهينا من رحلة سقارة وذهبنا للغذاء على سطح باخرة نيلية ترسو في ضاحية المعادي، يقف حاييم متأملًا نهر النيل العظيم بإعجاب شديد ويهمس كأنه يتحدث من قلب حلم قائلًا:

– عظيم نهرنا هذا..

فوجئت بكلماته، وقفتُ مشدوهًا لحظة، لكني هدأتُ عندما اعتقدتُ أن التعبير خانه، فتحدثت بهدوء معقبًا:

– تقصد أن تقول: عظيم نهركم هذا..!!

ضغطتُ على حرف (الكاف) في كلمة (نهركم) كي ألفت إنتباهه لذلك الخطأ الذي وقع فيه دون قصد، لكنه وبمنتهى البرود قال:

– لا.. أقصد ما ذكرته بالضبط.. نهرنا.. نهر النيل نهرنا..

كان أمامى حلان، أولهما أن أخرج تلك النيران التي تعتمل في داخلي وأضربه بمنتهى العنف، وثانيهما الرحيل من المكان بسرعة.

اخترت الحل الثاني خشية حدوث أزمة سياسية إن ضربته، وأحسب أن هذا ما كان يريده، صعدته بنظراتى الغاضبة وألهبته بكلماتى قبل أن أترك المكان:

– ما ذكرته أحلام في خيالكم المريض.. ولن تحصلوا من نيلنا هذا على نقطة مياه واحدة.. ليتكم تعلمون حجمكم.. أمريكا التي تتحامون بها، وتستقووا بها على العالم، مؤكد سيأتى اليوم الذي ستقع فيه.

التفتُ كي أترك المكان لكنه مد يده ووضعها على كتفى فأبعدتها بعنف، ارتبك لحظة ثم ابتسم نفس الابتسامة الباردة وهو يقول:

Scanned with CamScanner

– أمريكا ما هي إلا عقل ومال يهودي يا عادل.. نحركها كما نريد وفي الوقت الذي نحدده.. مجرد إشارة نحو الهدف.. تنطلق أمريكا مزمجرة بلا وعي لتفترسه.. ولا تنسى أفغانستان.. العراق.. وما سيأتي أكثر.

انصرفتُ قبل أن يزداد غضبي ويصل إلى مرحلة تفقدني القدرة على التحكم في أعصابي، أي غطرسة تلك التي يتحدث بها هذا الرجل؟

وقتها فهمتُ الأمر في البداية على أنه رجل يحلم أو يهذي، ثم فهمت حديثه على أنها غطرسة يهودية. لم أكن أعلم وقتها أنهم يكيدون ويخططون ويدبرون ما سوف يحدث مستقبلًا ومررنا به في السنوات الأخيرة مما قيل عنه الفوضى الخلاقة والربيع العربي وما عشنا فيه من أحداث جسام تم خلالها استغلال المارد العربي الغاضب وتوجيهه نحو تحقيق أهدافهم الخاصة.

تلك الفوضى التي خلقت حالة الانفلات والبلطجة وعانيتُ منها الكثير والكثير حتى وصلت المعاناة إلى تلك اللحظات التي أفقدتني زوجتي وأولادي وجعلتني أسير على عكازين. آه..

شعرت بدفء دموعي تنسال على وجهي المجهد، حاولت نفض رأسي والخلود إلى النوم قليلًا، لكني لم أستطع الفرار من هذا الكم الهائل من الذكريات.

لندع الأحداث في تسلسلها الطبيعي..

تذكرت موقف حاييم اليهودي الأمريكي وأنا أجلس مع مستر وايز في حجرة الدفن بداخل الهرم الأكبر لنستريح قليلًا قبل رحلة الهبوط، يبدو أنه كان قد انتهى من حديثه عن المرأة العربية وعن كونها مهانة

ولا تعيش حريتها، وانتقل إلى الحديث عن كون الدين لهداية البشر، لا لاقتيادهم إلى خلافات ونزاعات مستمرة. يذكر الكثير من المعلومات في هذا الشأن والأسماء أيضًا، أذكر منها ذلك الاسم الذي سوف يصادفني مرة أخرى مستقبلًا وهو القديس نسطورس المدافع الأول عن الإيمان والذي ظلمه العالم في القرون الوسطى ويظلمه الآن الذين ليس لهم أي معرفة بحقيقة المسيح.

هذا ما قاله مستر وايز ولم أجد ما أعقب به، فقلت:

– عليه السلام.

ثم لزمت الصمت. تركت الرجل يتحدث وأنا أتابعه باهتمام تارة، ومتصنعًا الاهتمام تارات أخرى، معلقًا ببعض الكلمات القليلة ومبديًا اعجابي باستمرار.

أحيانا يسرقنا الشرود في أمر ما، فيجعلنا نتذكر أمر ثان، ومنه ننفذ إلى أمر ثالث وهكذا تستمر نوبة الشرود حتى يكاد الشخص منا أن ينسى فيما بدأ تفكيره وشروده. هذا ما حدث بالفعل مع مستر وايز وحديثه الذي أخذ يتشعب من قضية إلى أخرى حتى وصل إلى العقلية التي شاهدها في الكثير من الدول العربية والإسلامية وهي قبول النص على علاته ما دام كان نصًا ذا صبغة إسلامية.

يذكر حادثة شهيرة قرأ عنها في بعض كتب المستشرقين. حيث يُحكى أن مالك بن دينار مر يومًا في السوق فرأى بائع تين، فتاقت نفسه إلى تناول التين، لم يكن يملك ثمنه فطلب إلى البائع أن يأخذ التين ويدفع الثمن في وقت آخر، يرفض البائع، فيعرض مالك بن دينار على البائع أن يرهن عنده حذائه مقابل هذا التين، فيرفض الرجل ثانية. ينصرف مالك

Scanned with CamScanner

ويُقبل الناس على البائع وهم في غاية الدهشة من تجاهل البائع لشخصية مالك وأخبروه عن هويته ومبلغ قدره. فلما يعلم البائع أن هذا الرجل هو العلامة مالك بن دينار يُرسل غلامه بعربة التين كلها إلى مالك بن دينار قائلًا له:

- إن قبلها منك أيها الغلام، فأنت حر لوجه الله.

يذهب الغلام إلى مالك واضعًا في باله أن يبذل قصارى جهده من أجل إقناع مالك أن يأخذ عربة التين كلها حتى ينال حريته. فإذا بمالك يقول له:

- اذهب إلى سيدك وقل له: إن مالك بن دينار لا يأكل التين بالدين وإن مالك بن دينار حرم على نفسه أكل التين إلى يوم الدين.

- يا سيدي خذها فإن فيها عتقي.

- إن كان فيها عتقك فإن فيها رقي. فقد أذلتني شهوتي وأهانتني بطني فحرمت عليها أكل التين تهذيبا لها.

كثيرًا ما سمعتُ هذه القصة فوق المنابر على لسان خطباء الجمعة، يتحدثون بها دليلًا على كسر شوكة النفس ورغباتها، يستشهدون بعبقرية الرجل الذي يحرم على نفسه ما تشتهيها تأديبًا وزهدًا.

بعدما ينتهي مستر وايز من سرد هذه القصة ينتظر لحظات، مدققًا نظره نحوي وكأنه ينتظر رد فعلي، طال صمتي فأكمل حديثه:

- هل تتخيل أن الناس تسمع مثل هذا الكلام وهي في منتهى الإعجاب بمالك ابن دينار الذي رفض حمولة التين اللذيذ التي كان يشتهيها، رفضها وهي هديه كي يذل بطنه؟!

- هو طبعا موقف يعلمنا الزهد وعدم الجرى خلف الشهوات يا مستر وايز.

نظر الرجل بدهشة لحظات ثم قال:

- هل من الطبيعي، أن يزهد المرء في شيء لدرجة أن يحرم على نفسه شيء أحله الله؟ وهل من الطبيعي أنه عندما يزهد في أكل التين أن يحرِم العبد من العتق؟!

نظرتُ نحوه بتأمل لحظات أستحثه على الاستطراد، فقال:

- في أوائل الإسلام كانوا يفعلوا المستحيل كي يشتروا العبيد ليحرروهم يا عادل. والإسلام لم يأمر بالأنانية.. يعني مالك بن دينار يُفضل الزهد في التين كي يبذل شهوته ويتجاهل تحرير إنسان من العبودية.. أين الإيثار؟

كانت كلمات الرجل بسيطة وغاية في الإقناع، لم ننظر من قبل إلى هذه الأقصوصة وغيرها من أقاصيص التراث بهذه النظرة، نندهش من أفعال ونثمن أخرى بلا مناقشة لنتائجها.

قبل أن أغوص في بحار الذاكرة باحثًا عن أقصوصة أخرى كي أحاول النظر إليها بهذا المنظار الجديد الذي أرشدني إليه مستر وايز، يكمل الرجل قائلًا:

- مشكلة كبيرة يا عادل في العالم الإسلامي.

- ماذا تقصد؟

- أقصد أنهم أخذوا كلام فقهاء عاشوا بعد الرسول محمد..

فقلت مقاطعًا بصوت مرتفع وكأنني أؤكد ولائي لديانتي:

Scanned with CamScanner

– عليه الصلاة وأفضل التسليمات.

يكمل الرجل بهدوء وكأنه لم يفهم تأكيدي، أو لم يهتم:

– عاشوا بعد الرسول بقرنين أو أكثر من الزمان.. وهذا موجود في المسيحية واليهودية أيضًا يا عادل. رجال دين تصدروا المشهد الديني بعد الرسل بقرن أو أكثر من الزمان وفسروا الدين حسب أهوائهم وميولهم وحسب مقتضيات عصرهم.. ما الداعي أن يأخذ مسلم اليوم، أو مسيحي أو يهودي اليوم، بتفسير أو شرح فقيه عاش بعد الرسول بقرنين من الزمان؟ هل أجدبت البشرية عن إنتاج عقليات جديدة تفسر النصوص الأصلية حسب العصر الحديث الذي نعيشه؟

تأثرتُ بحديث مستر وايز، لم أكن متفقها في الدين بشكل يجعلني أمتلك ناصية الجدال، حتى وإن كنت أمتلك فلم أكن أجادل، كلمات الرجل واقعية ونحن بالفعل نعيش مبالغات كثيرة بدون أن نُعمل فيها العقل. ما الضرر فعلًا من تفسير القرآن والأحاديث النبوية بلغة العصر؟! فجأة تذكرت الشيخ محمد متولى الشعراوى رحمه الله، وكأنه طوق النجاة، تحدثت سريعًا:

– عندنا.. الله يرحمه فضيلة الشيخ محمد متولى الشعراوى.

– طبعا هناك أفراد كما تقول.. لكن الأغلبية الحالية التي تطفو على السطح هم الذين يغالون في الدين، هؤلاء أخذوا علمهم كله من فقهاء العصور الماضية.. مشايخ هذه الأيام، مَن تجدهم يرتدون ملابس بعينها، مطلقين عليها اسم «الزي الإسلامي» الإسلام ليس زيًا!! الزى شيء مرتبط بالعصر ولا علاقه له بالدين.

– يعني العصر يقول إن البنت تمشى من غير ملابس ونقول: الدين لا علاقة له؟

– بلاطبع لا.. أنا أقصد شكل الملبس، وليس تغطية الجسد أو تعريته. ولا يوجد دين يقول أن النساء يرتدين ملابس تكشف عن أجسادهن.. الراهبات في الكنيسة يرتدين ملابس تغطى أجسادهن كاملة عدا الوجه والكفين والإسلام يقول بذلك.. لكني أقصد نوع الملبس وخصوصا بالنسبة للرجل. لا فرق بين بنطال أو جلباب أو قميص طويل أو قصير.. فتراهم يرتدون جلباب قصير ويقولون إسلامى، في الوقت الذي يركبون فيه سيارات بمبالغ خرافية.

ضحكت لأوارى تأملى كلماته، الأمور تبدو واضحة بالفعل ولستُ في حاجة لن أتعرف عليها من سائح أجنبي ويعتنق ديانة أخرى، أنهيتُ ضحكتى سريعًا وأنا أعقب:

– عندك حق.. الأصل في الزى هو عدم الافتخار به أمام العامة، أليست السيارة الفارهة افتخار وإذلال للفقراء؟!

– تمام.

– لكننا غير ذلك.. لعلك ترى الناس في الشوارع.. مَن يسير على هذا النهج المتشدد قليل بالمقارنة بالأغلبية.

– وهذا القليل جدا يتعامل مع الأكثرية على أنهم جهله ولابد أن يكونوا تحت سطوتهم، يأتمرون بأمرهم مهما كان، وهنا تكمن الكارثة.

يصمت لحظات متأملًا المكان من حوله وكأنه يبحث عن لحظة يُرتب فيها أفكاره المتداخلة، يهم ليتحدث طويلًا، فقد أخذ شهيقًا، لكنه عدل عن حديثه الطويل، اكتفى بأن قال:

Scanned with CamScanner

– نحن نراهم جيدًا يا عادل.

– تقصد مَن بـ «نحن» مستر وايز؟

– نحن الغرب يا عادل.. الغرب يراكم بعين فاحصة غير تلك التي ترون بها أنفسكم والتي تصور لكم باستمرار أنكم على صواب وأنكم مضطهدون. نراكم أكثر مما ترون أنفسكم يا عادل.

– الغرب يتعالى.. باستمرار يرى نفسه أفضل منا.

هبوط سلالم الهرم أسهل كثيرًا من صعودها، كنا نتكلم بلا عناء.. نصمت وقت مقابلة أحدهم صاعدًا. يتفرع الحوار ويستمر أوقات دامت طوال اليوم والسهرة الليلية في بار الفندق. لا أتذكر الكثير من التفاصيل إلا أن الرجل كان يتحدث بقلب دافئ، لا يتعالى في حواره، حتى وصل إلى ما أعتقد أنه فلسفته في الحياة:

– كل البشر اخوه.. أبناء آدم وحواء يا عادل.. وهذا أمر متفق عليه في كل الديانات والنظريات الفكرية أو الدينية البشرية.. لكن المشكلة في العقلية التي تتخيل نفسها أفضل المخلوقات، بينما كل العالم عدو لها.

– هذا ينطبق على اليهود..

– ينطبق على كل الشعوب.. للأسف كل شعب يعتقد أنه هو شعب الله وأن باقي البشر فاسدين وكفرة، يعتقد أنه مَن سيدخل الجنة وباقي البشر مقرهم الأخير جهنم.

نظرتُ نحوه علامة أن أكمل، فأنا أنصت لكل حرف تقوله، يُكمل باهتمام بالغ وتأثر بدا على خلايا وجهه:

– كثير من البشر يتعاملون بالنظرية التعلبية في التفكير، المكر والدهاء، تحقيق الأطماع الشخصية، ثم المؤسسية، بعدها الدولية وهكذا..

تأملتُ المكان من حولي لحظات وكأني أستمد القوة التي أدفع بها تلك الكلمات لتستقر في أعماقي، ثم نظرتُ نحوه مستفسرًا، فأكمل:

– الواقع أثبت أن هدف كل شخص هو تحقيق مصلحته هو، وعندما يتحقق ذلك الهدف، ينتقل ذلك الفرد إلى تحقيق صالح مؤسسته، وهذه لابد أن تكون متوافقة مع مصلحته الشخصية.. ثم يخرج منها لتحقيق مصلحة دولته. يستخدم أي أسلوب من أساليب المكر والدهاء والتموية والخداع، إنه الزيف كاملًا يا عادل. كثير جدًّا من البشر يعيشون كاموفلاج.

تستمر الأيام القليلة المتبقية في رحلة مستر وايز على هذا المنوال من الحديث، الحقيقة أن الرجل كان يسعد بهذا الحوار بشكل يقارب سعادته بمشاهدة المناطق الأثرية، أكثر ما أمتعه هو جولته في خان الخليلي والغورية وشارع الأزهر وباقي شوارع وأحياء مصر القديمة، يتأمل الملامح بمنتهى السعادة، يكاد يستوقف طفلًا، أو سيدة ترتدي «عباءة» سوداء أو رجل يرتدي «الجلابية» وتظهر أصابع قدميه من شبشب مهترئ، ليطلب التقاط صورة للذكرى.

في نهاية رحلته، يوم مغادرته البلاد، دعاني بصدق إلى زيارته في ألمانيا على نفقته الخاصه، شكرته معللًا رفضي بأن ثمة أمورًا كثيرة علىّ الاهتمام بها في الفترة الحالية، تمنيتُ أن يحدث ذلك في المستقبل. شد على يدي وهو يصافحني لحظة الوداع قائلًا بتأثر:

Scanned with CamScanner

– أنا سعيد بصداقتك يا عادل لأنك شخص واضح.. لتظل مسلمًا معتدلًا، كما أنا مسيحي معتدل. ولنترك تقييم صحة عقيدتنا لخالقنا.. وإياك والكاموفلاج.

استمعتُ إلى حديثه وقتها ولم أهتم بالكلمة الأخيرة «كاموفلاج» لكنني تذكرتها الآن، ترن في أذني بشدة.. أليس من الوارد أن يكون ذلك الحادث الذي تعرضتُ له واختفاء زوجتي وأولادي ما هو إلا «كاموفلاج»؟

الكلمة التي تحدث بها مستر وايز كان يقصد بها أن البشرية تعيش حالة خداع مستمر وتزييف للحقائق من أجل تحقيق مصالح خاصة.

كلمة كاموفلاج تعني بالفعل التمويه أو الخداع، عندما يفعل أحدهم فعل يلفت به الأنظار وهو ينتوى فعلًا آخر في مكان آخر يقول: كاموفلاج.

هل حدث في توقيت الحادث واختفاء زوجتي وأولادي شيء آخر؟ لا أعلم.. فقد أمضيت مدة طويلة في المستشفى. يجب أن أبحث في صحف يوم الحادث والأيام التالية.

توجهت ناحية جهاز الكمبيوتر، لحظات تمر ثقيلة، بحثتُ في المواقع الإلكترونية لعدد من الصحف في يوم الحادث، أكثر المواقع مواكبة للحدث في هذه الأيام كان الموقع الإلكتروني لجريدة اليوم السابع، تفحصته بهدوء. قرأت عدة موضوعات وحوادث كان أهمها:

– سطو مسلح منذ لحظات على مكتب بريد حلوان.

– أمن جامعة القاهرة يضبط قنبلة «نترات فضة» بساحة كلية الحقوق.

– مدير إدارة أبو كبير التعليمية: وكيل النيابة سبني لرفضي حشد موظفين.

– يديعوت أحرونوت: كبير خدم نتنياهو يقاضيه لأنه كان يعامله كـ العبيد.

– رئيس حزب النور: الحزب به أعضاء مسيحيون ويوجد تعاون بيننا.

– إبطال مفعول عبوتين ناسفتين خلف كلية الآداب بجامعة القاهرة.

– وفد من رئاسة الجمهورية والخارجية يصل هولندا لحضور القمة النووية.

كانت هذه أهم العناوين التي طفت على السطح في ذلك التوقيت، أكثر ما لفت نظري فيها تلك القنابل التي تم العثور عليها داخل جامعة القاهرة، لكن كما يبدو لا علاقة بين هذه القنابل والحادث الذي تعرضت له، فقد كان الحادث بعيدًا عن الجامعة، فلو كان قريبا لفسرنا الحادث بأنه تم لتحويل الأنظار بعيدًا عن بوابات وأسوار الجامعة. كذلك كان الخبر الخاص بالسطو المسلح على مكتب بريد حلوان.. بحثت بين أخبار الأيام الثلاثة التالية فلم أجد أي شيء ملفتًا للأنظار في تلك المنطقة التي وقع فيها الحادث.

أوف.. فشلت النظرية. أغلقت جهاز الكمبيوتر، توجهت متألمًا نحو المطبخ. في أحيان كثيرة نفتح الثلاجة ونقف أمامها بلا هدف محدد.

فجأة.. أفزعني رنين المحمول.. الوقت متأخر ولا أنتظر أي اتصالات، مضت الأيام الأولى على الحادث، وقل الحماس فقل التعاطف وعادوا جميعا إلى ممارسة تفاصيل حياتهم بشكل طبيعي.

وصلت إلى المنضدة في الصالة، بهدوء حملت التليفون، نظرت لأشاهد المتصل. رقم غريب، لا يوجد اسم، هززت رأسي بشدة لأنفض

Scanned with CamScanner

عشرات الأسئلة، ضغطتُ زر الاستقبال، لم أتحدث، إنها لحظة التوتر التي تتبع الدهشة وتسبق الرهبة، على الطرف الآخر صوت سيدة تصرخ:

- عادل.. إلحقنا يا عادل.. إحنـــ.....

بُترت الكلمات، سمعت صوت صراخ وحالة من الهرج وصوت يصرخ قائلًا:

- خاينه..

مشدوهًا وقفتُ أنتفض مكاني، إنها إيمان.. زوجتي.

■■■

(16)
الخشوع

تريزة..

أن ترى في عين، كل من يتحدث إليك، نظرات إنتظار مرصعة بابتسامات رشيقة، مُشجعة، تدفعك إلى تحقيق شيء ما، وإن كنت لا تدرى ما هو، فإن ذلك يدفعك لفعل هذا الشيء، لكن في البداية عليك أن تحدده وتعلم ما هو، ثم تتشربه خلاياك وتقنع به، ثم تفعله عن طيب خاطر.

السؤال هو: كيف تحدد هذا الشيء؟

سوف يكشفه لك العالم.. ستنقشع عنه الطبيعة كما تنقشع السحب عن قرص الشمس فترسل أشعتها قوية تبهر البصر. فقط عليك أن تحتوى بداخلك الرغبة الحقيقية في المعرفة، معرفة هذا الشيء وغيره، سوف يأتي إليك جسدًا ينبض بتفاصيل الحياة. وقتها، حين يتحقق هدفك، سوف تشعر بروعة الكون من حولك، وقتها فقط تدرك أن كل شيء، كل تفصيلة من تفاصيل الكون مهما صَغرت، خُلق لهدف يحققه قبل أن يتلاشى من الوجود. وقتها سوف تحقق ما حملته نظرات الآخر نحوك بدون أن يعبر عما بداخله بالكلمات، تلك التي لم ولن تكون منفذًا حقيقيًا يتسع لم تعتمل به النفس البشرية.

Scanned with CamScanner

التحقتُ بالعمل في شركة حاتم فكري، شعرتُ منذ يومي الأول في العمل بأن الجميع يتعاملون معي معاملة خاصة، يكسوها الحذر أحيانا والأمل أحيان أخرى، الحذر أعلمه وصادفته كثيرًا في حياتي السابقة وقد تعودتُ عليه، أما الأمل فكان جديدًا.

ذلك الشيء الذي شعرتُ أن الجميع يدفعونني إليه بنظراتهم، ظهر جليًا بعد أيام قليلة، إنه بلا شك رغبتهم في أن أدين بدينهم، أن أعلن إسلامي. عَبرتَ سماح، زميلتي في العمل، عن ذلك يومًا، حينما قابلتني صباح يوم السبت بابتسامة واسعة، بعدها عانقتني مرحبة وهي تقول:

- تريزة.. أفتقدكِ كثيرًا..

- و أنتِ يا سماح..

- و الله أنتِ خسارة في الـ...

ثم بترت كلمتها الأخيرة ولم تكملها، بدا الارتباك على ملامحها لحظة، حاولتُ استشفاف ما خلفها، لكنها سارعت بتغيير تلك التعبيرات منتقلة إلى موضوع آخر حدثتني فيه.

كلمتها المبتورة كانت تحتمل الكثير، فقد كان من الممكن أن تكون: والله أنتِ خسارة في العنوسة. ففي مجتمعنا، مَن أنهت تعليمها ومرت عليها سنة أو أكثر بلا زواج فقد دلفت إلى أرض العنوسة.

أو قد تكون جملتها: والله أنتِ خسارة في العمل. نظراتها المفعمة بآيات الإعجاب توحي بأنها قد تقول ذلك فعلًا، لأن مثلي يجب أن تعيش حياة رفاهية مليئة بأسباب الراحة، فقط أشير عندما أريد.

و من الجائز أن تكون جملتها: والله أنتِ خسارة في المسيحية. قد تكون تلك الجملة ما كانت تنتوى سماح قولها.

لا أعلم لماذا ارتحت إلى ذلك الاعتقاد الأخير.

الحقيقة التي لن أستطيع إغفالها، أنني كنتُ أجد بداخلي ما يدفعني في هذا الاتجاه باستمرار، فقد همستُ لنفسي، لحظة أن تقبلتُ جملتها على المحمل الأخير، قائلة «إنتِ بتتلككي ولا أيه يا تريزة.. ما تعقلي يا بنت».. نعم.. سألتُ نفسي هذا السؤال، ووبخت نفسي بهذا التوبيخ.

لم يحدثني حاتم فكري بأي شيء يحثني فيه على ترك المسيحية والانتقال إلى الدين الإسلامي، رغم ذلك وخلال الأيام التالية لسؤاله (أنتِ سعيدة في الديانة المسيحية يا تريزة؟) تألمتُ على نيران الشك، لا أعلم لماذا لازمتني صورة سمكة حية تتنفض فوق صاج ملتهب لحظة شواءها، تألمتُ باحثة عن لحظة صفاء نفسي وروحي.

دفعني ذلك الشيء بداخلي للتفكير في إشكالية ترك المسيحية واعتناق الإسلام. هل أفهم سؤال حاتم فكري على أنه توجيه لذلك الاتجاه؟! كان من الممكن أن أجيبه وبمنتهى البساطة قائلة «نعم سعيدة.. كما أنت سعيد في الإسلام بالضبط». إن تحدثت بذلك لانتهى الأمر وسارت حياتي في مسارها الطبيعي بلا ألم، لكني لم أقل له ذلك، لأنني في الحقيقة كنتُ لا أشعر بأي سعادة.

بغض النظر عن أن عدم الشعور بالسعادة هذا، قد يكون منبعه أي أمر آخر، لكنني أتحدث عما أشعر به الآن «أيوه.. أنا فعلًا باتلكك» ذكرتها في نفسي عندما جمح بي تفكيري. ذكرتها لنفسي حينما تقبلتُ جملة زميلتي في العمل وأكملتها أنا وكأنني أكمل حرفًا ناقصًا في الكلمات المتقاطعة وجعلت جملتها: والله أنتِ خسارة في الـ.. مسيحية.

إكمال الحروف الناقصة لا ينبع من الذات لأن ثمة شروطًا وإجبارًا على اختيار شيء بعينه، وأنا الآن أختار وبمنتهى الحرية بلا شرط أو

Scanned with CamScanner

قيد، إذًا هي ليست كلمات متقاطعة، لكن.. هناك أسرتي.. أهل ديني.. هناك إطار عام ولدتُ لأجد نفسي أسبح في نهره، هذا الإطار له ألف قيد يكبلني، فلا حرية أمامي إن أردنا الدقة.. لكن الله نفسه لم يفرض على البشر أي قيد لاعتناق هذا الدين أو ذاك.. فقط يوضح الإيجابيات والسلبيات وعلى كل فرد أن يختار.. الاختيار هو الأصل.. والاختيار يعني وجود الحرية.. وهنا تكمن العدالة، فمن يختار ينال جزاء اختياره، إن خير فخير، وإن شر فشر.. سوف أختار لأنني أملك حرية الاختيار ولن تمنعني أي شروط أو قيود، لأنه لا توجد قيود.. نحن نصنعها ثم نخشاها، بل نرتعب من مجرد التفكير فيها.. أوف.. ما هذا الهراء الذي أهذي به؟! هل حقًا لا يوجد شرط أو قيد؟! ماذا إذًا عن تلك القيود الحديدية الملتهبة التي أخشاها؟ لماذا يتهاوى داخلي لحظة التفكير في ذلك الأمر؟ لماذا يتملكني رعب لا نهاية له؟!

هل أمتلك الحرية المطلقة في أن أترك المسيحية وأعتنق الإسلام؟!

أعتقد..

نعم..

كنت في غرفتي وحيدة بعد عودتي من يوم عمل غير شاق، جالسة على سريري مرتدية قميص نوم خفيف ناعم، بعد دش بارد، فقد كانت تعم البلاد موجة حارة متربة. شاهدتُ تريزة أخرى تجلس أمامي، تناقشني، كانت جسدًا حقيقيًا، لدرجة أني شاهدتها بملابس أخرى، لكنها أنا، لم تدعني أكمل جملتي في داخلي لحظة أن قلت «أعتقد». فقاطعتني بوضوح قائلة: نعم..

اندهشتُ وتأملتها.. كيف نعم؟ الحقيقة إنني لا أمتلك الحرية، قبل أن أنطق بتلك الكلمات وكأنها سمعتُ حروفها وهي تأتي من مكانها السحيق في ذاكرتي لتكوّن الكلمات، قالت «لِمَ الأزمة يا فاطمه؟» صُعقت، صرخ داخلي بدهشة ولم تخرج كلماتي إلى الوجود «مَن أنتِ؟ ومَن فاطمة هذه؟!».

تأملتُ غرفتي كلها مرة واحدة ثم تأملتها بالتدريج، شاهدتُ تفاصيلها وكأني أراها للمرة الأولى، كل شيء فيها يحدثني بكلمات أخرى، لقد ابتسمت مرآتي وهمستْ، تحركت الطيور المحفورة على خشب برواز الدولاب تزقزق في رشاقة بلحن عذب، نظرتُ بدهشة أتأملها وأفرك عينيّ بشدة، ضحكت الدمى المعلقة على الحائط المواجه لسريري، التفتُ بسرعة نحو أيقونة السيدة العذراء، كانت ملتزمة بالصمت وإن رفعت رأسها قليلًا وزينت وجهها بابتسامة رائعة وهي تتأملني، ثم همستْ برفق: أنتِ حرة.

كدتُ أصرخ فزعًا.

ما يحدث لا يتخيله عقل، أين أنا وكيف يتحدث الجماد ويتحرك؟! ينحشر صوتي في حلقي ويأبى صراخي الميلاد. شعرتُ بغصة وجفاف يتبعه عطش رهيب، مددتُ يدي نحو كوب الماء فوق المنضدة الصغيرة بجوار السرير، لم أجد الكوب، اندهشتُ أكثر، نظرتُ لأبحث عنه، عله سقط، صُعقتُ، لم أجد المنضدة نفسها، لم أجد أي شيء من حجرتي. شَخصتُ في كل الاتجاهات ذاهلة، فإذا بي أجلس على سريري وسط صحراء مترامية الأطراف، رمالها ناعمة بيضاء وعلى الأطراف صخور بلون اللهب. المشهد لم يكن مفزعًا، كانت تهب عليه نسمة هادئة عطرة تحرك قميصي الأبيض الشفاف على جسدي، نزلتُ من فوق السرير

Scanned with CamScanner

بهدوء، انغمست قدماى في الرمال البيضاء الناعمة، سرت في جسدي برودتها الحانية. أين أنا؟ يتردد في الأفق صوت لا أعلم من أين يأتي، ولا أعلم لمن هو:

- مرحبًا يا فاطمة.

صوت مزيج بين أنثى رقيقة وذكر حازم، بحثتُ عن مصدره في كل اتجاه، حتى استقرت عيناى على طيور بيضاء تحلق في السماء الزرقاء. تذكرتُ.. فاطمة!!

مرة أخرى أسمع أحدًا يناديني بـ«فاطمة».. أنا تريزة.. تريزة كامل عبدالمسيح. هتفتُ بذلك غير صارخة، كأني لا أريد أن أؤكد ذلك، كأني أدفع ضررًا جميلًا، كأني أتملص من تهمة عشق أعيش فيها بكل خلاياى، كأني أحب فاطمة ولا أريد رحيلها. لكن هناك ذلك الجزء الصغير جدًّا بداخلي لا يزال يهمس: أنا تريزة كامل عبد المسيح.. تريزة..

- تريزة.. تريزة.

مرة أخرى توقظني نورا، أختي الصغيرة لتعود بي إلى أرض الواقع.. توقظني ولازلت شاردة مأخوذة.. وسأظل هكذا في الأيام القادمة، قبل أن أتحرك إلى الخطوة التي لم أتوقع يومًا أن أخطوها.

■■■

(17)
الباشا

عادل..

بعدما أُغلق الخط وانقطع الاتصال، تملكتني دهشة ويحتويني فزع، إيمان حيه، قالت «إلحقنا» تقصد هي والأولاد. حمدًا لك يا إلهي. لاحظتُ أن يديَّ ترتعشان وجسدي كله ينتفض، لا أدرى ماذا أفعل!!

التليفون في يدي أتأمله مذهولًا، بحثتُ عن رقم المتصل الأخير كي أتصل به، تصك أذني تلك الرسالة المقيتة «هذا الهاتف ربما يكون مغلقًا. حاول الاتصال به في وقت...» أنهى الاتصال ثم أعاود.. مرات ومرات.. ولا مجيب غير تلك الرسالة.

تهاويتُ على أقرب مقعد وأنا لا أدرى ماذا أفعل!! تذكرتُ الصوت الخشن الذي سمعته عبر الهاتف، ميزت كلمته «خاينه» بوضوح. ماذا يعني بتلك الكلمة؟ أي خيانة يقصد؟!

اتصلت بأخي فؤاد، لا أعلم ماذا أفعل.. أجابني بصوت ناعس، قصصتُ عليه ما حدث، نشط صوته، بل تحمس جدًّا، يصل صوته سعيدًا وهو يقول:

- الآن علمنا أنهم على قيد الحياة.. مؤكد مخطوفون.. وخاطفهم سيطلب فدية، باكر آتيك لنرتب ما سنفعله.

Scanned with CamScanner

أنهيتُ المكالمة وذهبتُ خلف أفكاري، بداخلي قلق وتوتر شديدين يتصارعان ويمزقان صدري ألمًا. لم أنم تلك الليلة إلا قليلًا، غفوات كما الذاهب في غيبوبة، أحلم فيها بأولادي فأصحو فزعًا.

في الصباح يأتي فؤاد. بعد ساعة من المعاناة نصل إلى قسم الشرطة، أسير بصعوبة مرتكزًا على العكازين، أشعر بكل الأنظار تتابعني، كأنهم جميعا يعرفون مأساتي، يعلمون تفاصيل ضعفي وعجزي. نظرات شفقة في أعين بعضهم تتابع ذلك العرق الذي تتساقط قطراته على وجهي.

كثيرة هي الممرات والحجرات في المصالح الحكومية، الأسوأ أنها مكتظة بالموظفين، تفوح منها روائح العطونة المختلطة بأدخنة السجائر الملتصقة بالجدران، بصقاتهم تترك أثرًا على الأرض وفي الزوايا.

في قسم الشرطة حركة مستمرة، أصداء أصوات تتردد في المكان، مواطنون ينهون أوراق ثبوتية أو محاضر، تبدو على الوجوه علامات تستطيع منها أن تفرق بين من تعود على هذا المكان ومَن يدخله للمرة الأولى، تتماوج تلك العلامات بين الانبساط والترقب.

وصلنا إلى حجرة ضابط المباحث، في هدوء يشعل سيجارته، يتفحصني ثم يطلب مني أن أذكره بقضيتي، على ملامحه ظهرت تفاصيل كذبته، فقد لمعت عيناه وحاول إخفاء إعجابه بذاته وهو يؤدي ذلك الدور. إنه يتذكرها كاملة، نوع من إضفاء الهيبة على ذاته، هو الرجل المشغول لدرجة ألا يتذكر مثل هذه الصغائر، أو هو نوع من الهجوم علىّ شخصيا، فإن لم يكن يتذكر قضيتي فمن البديهي ألا يكون لديه جديد بشأنها وبذلك يقتل هجومي على تكاسلهم ومقتي ضعفهم.

بعد لحظة وكأنه تذكر الحادثه يعلق:

– آه.. افتكرت.. نحن نعمل.. وأنت.. ألم يتصل بك أحد؟

– أتينا من أجل ذلك.

لم يعتدل في جلسته، ظل ظهره ملقى على مسند مقعده وقدميه على طولهما تبدوان من أسفل المكتب بلا حذاء، لم يهتم الضابط بنظراتي نحو الحذاء الذي يبدو جديدًا.

ذكرت له كل ما سمعته أثناء المكالمة الهاتفية، ينتظر أن أزيد لكني توقفت، نفد ما لدي، مط شفتيه وحرك يديه في الهواء قائلًا:

– و بعدين؟

– مطلوب حضرتك تعملوا تحريات مع شركة المحمول للكشف عمن اتصل بي و..

وقف مكانه ضاحكًا بسخرية، تمنيت لو لكمته، بقدر حنقي، في فكيه اللذين يخرجان هذه الضحكات الساخرة، تحرك خطوة واحدة ثم عاد إلى مكانه، يبدو أنه تذكر أنه حافي، ينشغل لحظة في دوسية على جانب المكتب ليبرر حركته الأخيرة يجلس مكانه معلقًا:

– أتشاهد أفلام كثيرًا أستاذ عادل، أي شركة وأي مراقبة التي تتحدث عنها؟

– ماذا؟!

– عد إلى بيتك وانتظر اتصال آخر من المختطف حول الفدية، وقتها نرتب أمورنا ونقبض عليه وقت التسليم.

– إن كان يريد فدية لطلبها من يوم الحادث.

– أخبرني يا عادل.. «مراتك حلوه»؟

– نعم؟!

بانفعال وعصبية مكبوتة خرجت الكلمة الأخيرة مني وأنا أنظر نحو فؤاد أخي دهشا..!! لا أدري بالضبط أي حال تملكتني فوقفت مكاني،

Scanned with CamScanner

تتنازعني رغبات الهجوم عليه والانصراف من المكان، يلاحظ انفعالي، يمد يده بهدوء مسموم ليشعل سيجارة بفلتر أحمر ملقيا بالولاعة في جانب وهو يقول:

- لا داعي للانفعال. أنا أقصد.. أهى من ذلك النوع الذي يطمع فيه البعض لـ..

يصمت لحظة بينما تغمز عينه اليسرى علامة معني سيئ لا يريد أن يُفصح عنه بالكلمات، لكن المعني المقصود وصل. تحدث بكلمات أخرى بأنه أجل الحديث في هذا الاتجاه نظرًا لظروفى الصحية.

لم أجلس، لم أنبس بحرف واحد. كالمسوق بقوى خفيه توجهت ناحية الباب، خلفى يتحرك فؤاد أخى بلا كلمات، شعرتُ بنظرات الضابط تلاحقني وابتسامته الساخرة سهامًا تصيب ظهرى. صمت رهيب يتملكني، ثقل يصيب لساني. للعجز ألف سوط يلهب بها الضعفاء.

أعادني فؤاد إلى شقتى، حاول معي كثيرًا كي أتناول الطعام الجاهز الذي اشتراه ونحن في طريق عودتنا، حاول أن يسرى عني بالكثير من العبارات:

- بعد الانفلات الأمني وانتشار البلطجة، القضايا أصبحت كثيرة أمام الشرطة يا عادل، ومع الوقت يتحول الكثير إلى عادي مهما كانت صعوبته، الجريمة عندنا تكون شيء فظيع يذهب بكل راحة، لكنها أمام الشرطة.. مجرد شغل، يذهب ويأتى غيره. لقد افتقدنا الكثير مما نشأنا عليه يا أخى، هُدمت الكثير من صروح الهيبة والمحبة والأخلاق أيضًا، جن جنون الشياطين التي نكبتها بداخلنا، خرجت لتعيث فسادًا، نحتاج إلى مدة طويلة حتى ندرك قيمة ما افتقدناه ونتمسك به مرة أخرى.

ساعة مرت، تناولتُ فيها بعد إلحاح منه بعض اللقيمات، جلستُ في الشرفة بينما يعيد فؤاد الأمور في المطبخ إلى طبيعتها، من الداخل أتاني صوته مستفسرًا عن رغبتى في شرب الشاى، تذكرت رغبتى في تناول فنجان قهوة بوش في البلكونة، أجبته:

- لا.. أريد قهوة.. بـ«وش» يا فؤاد.

يبدو أنه اعتبر رفضى تناول الشاى وطلبي القهوة، عودة إلى طبيعتى، شعرت بابتسامته محمولة على كلماته الآتية من المطبخ:

- أنت ونصيبك.

يأتي نصيبي هذه المرة متميزًا، فنجان قهوة رائع بالفعل، بن محوج فاتح، وش داكن سميك، تسترخى عضلات وجهى قليلًا، كانت تلك إشارة لانصراف فؤاد الذي تعلل ببعض الأعمال رغم أنني لم أكن أنتظر منه تبريرًا.

جلستُ وحيدًا، أبحث عن تفسير لتلك الكلمات التي وصلتني من زوجتى، أو من ذلك الصوت الأجش الذي يتهمها بالخيانة. تجذبني من بين تلك الأفكار كلمات الضابط الوقحة «مراتك حلوة»؟!

بأي حديث يتحدثون، وبأى عقل يفكرون، وبأى وجه يعيشون؟!

ظلت تلك الأفكار تتقاذفني كالأمواج تتقاذف خرقة بالية، لم أشعر بأي شيء من تفاصيل المكان أو الزمان، تزايدت الأمواج حدة، تلطم جسدي وتلقى به من علٍ. في الأفق البعيد ألمح قطعة خشبية، جذع شجرة، تعتليه إيمان زوجتى محتضنة أطفالى، تهتف بصوت لا أسمعه، رغم الأمواج والرياح وصراخ أطفالى ووزوجتى، إلا أن الصمت هو

Scanned with CamScanner

سيد الموقف. حاولتُ اعتلاء الأمواج، صارعتُ بعضها بقوة، متذكرًا كل ما تعلمته من فنون السباحة قديمًا وحديثًا.

أخبرني صديق ذات يوم أن أفضل وضع لمواجهة الموجة هو المرور من أسفلها وليس من أعلاها، ظللتُ أخترق الأمواج الواحدة تلو الأخرى، صراخ أطفالي يقترب ويقترب، غافلت موجة واعتليتها كي أشير لهم بأني في طريقي إليهم، لكني لم أجدهم، نظرتُ في كل مكان، لا شيء، الماء يمتد إلى مالا نهاية. صرختُ مناديا، لا مجيب، تهاوت قوتي، عدتُ خرقة بالية تتقاذفها الأمواج، يطبق الماء على أنفاسي، رفعتُ يديَّ أبعد بهما الماء عن وجهي باحثًا عن الهواء، بشدة تتلاحق أنفاسي ويتفض قلبي. فجأة عدتُ إلى المكان، ألفيتني لا زلت على مقعدي في الشرفة غارقًا في عرقي.

تأملتُ تفاصيل المكان وكأني مسافر عائد من غربة دامت عشرات السنين، بعد لحظات هدأت أنفاسي وجف العرق، شعرتُ بإرهاق شديد، لا أشعر بنفسي، خلايا جسدي تتألم فرادي وكأنها أجساد منفصلة. لا أدري لماذا تذكرت أحد مشاهد فيلم الرجل الذبابة حينما كانت خلايا جسده تتساقط.

تحاملتُ حتى ذهبت إلى سريري، تمددتُ دقائق أفكر في ذلك الكابوس الذي غرقتُ بين أمواجه. قهرًا تحتل كلمات الضابط الأخيرة تلك المساحة المتبقية في عقلي، أحاول الفرار منها، لكنها تتكرر بإلحاح رهيب وبقوة مثل دقاق الصخور بشكل أرهقني أكثر مما أنا عليه. هل من الممكن أن يكون اختطاف إيمان من أجل جسـ... لا.. لا.. هذا أمر غير طبيعي، فإن كان كذلك، فلماذا تم اختطاف أولادي؟! إنه احتمال غير

قائم على الاطلاق، وليس من الكياسة أو الحصافة أن يرد هذا الاحتمال على خاطر البيه ضابط الشرطة.

الحقيقة أن إيمان زوجتي من تلك النوعية التي يمكن أن يقال عنها أنها سيدة جميلة، منذ أن رأيتها للمرة الأولى جذبتني إليها بعذوبة نظرتها ورقتها البالغة وشفتيها الرائعتين.

تعرفتُ عليها منذ ثماني سنوات، وقتها ودعت سائحًا ماليزيًا كان يميل إلى زيارة الآثار الإسلامية. صاحب ذلك أحداث أخرى مررت بها وكانت في الحقيقة أحداثًا مثيرة جدًا، أبرزها تلك السائحة التي احتلت من حياتي جانبًا لا يمكنني غفله.

كثيرًا ما نصادف شخصًا للمرة الأولى، نشعر بداخلنا أننا تقابلنا معًا من قبل، وأننا تحدثنا، تبادلنا الكثير من الود والحنين. لن أنسى أبدًا نظرات فتاة كانت ضمن فوج من فنزويلا، تلاقت أعيننا في المتحف المصري لحظات ثم انطلقتُ مع فوجها ومرشدها وانطلقتُ أنا مع مرافقي. تمر شهور وسنوات وتلك النظرة التي تبادلناها لا تزال تنبض بالحياة في ذلك القلب الكائن في صدري، لو أننا تحدثنا لحظة أو تبادلنا الأسماء وحددنا وسيلة للتواصل، لو حدث ذلك لكنا حبيبين لا يفترقان أبد الدهر، لكن الفرص تأتي وتتلاشى كومضات، السعيد مَن يتلقفها في لحظتها ولا يتركها أبدًا.

«چينا والتر» كانت من ذلك النوع الذي تربطك به علاقة حميمية قبل أن تراها، فإن رأيتها تعاملتَ معها من خلال مخزون الحميمية لديك، لكن ما فعلته «چينا والتر» معي كان أكثر مما يتخيله عقل وإن كان جامحًا.

■■■

Scanned with CamScanner

(18)
الصحوة

تريزة..

عندما نتأمل القمر في ليل كماله وخلفيته صفحة سماء سوداء لامعة، نشاهد حولة دائرة من الضوء الشفاف تخبو تدريجيا كلما ابتعدنا عن القمر نفسه، دائرة الضوء المحيطة بالقمر تلك يطلقون عليها «هاله».

خلال تلك الفترة، لا أعلم لماذا سيطر عليَّ إحساس أنه تحوطني «هاله» كلما تحركت؟

يدعم هذا الإحساس أسلوب تعامل الزملاء في الشركة. زاد إقبالهم المَرِح وسؤالهم الدائم عني، تعلقتُ بهم بداية من عم صبحى، موظف أمن البوابة، والزميلات سماح.. هدي.. حتى فوزية العاملة، حاتم فكري نفسه تعلقتُ به، لولا أنْ أتاح لي فرصة العمل هذه ما مررتُ بما أمر به، ولَمَا شَعرتُ بتلك المشاعر الرقيقة التي جعلتني أرى كل شيء برؤية جديدة.

قد يكون أحدهم هو شعاع النور الذي يضيئ لك ظلمة طريقك وهو لا يدرى، قد ترى إشارة في ابتسامة طفل تزرع بداخلك الأمل ويذهب الطفل ويظل الأمل.

الكون يحمل من الآيات الكثير ومن الدلائل أكثر، لكن الأزمة فيمن يرى، متى يرى، وكيف يرى، وأحسبني بدأتُ أرى.

تعلقتُ بالمكان الذي توفرت فيه بعض أسباب الاستقرار المادي لي ولأسرتي، بدأتُ أشاهد طيف الراحة على وجه والدي الذي جعدته هموم السنون. في هذا المكان بدأت أبتسم، تسرى في جسدي راحة لا أملك لها وصفًا وأنا أشاهد جميع العاملين يتوقفون عن العمل وقت صلاة الظهر، يتوجهون للصلاة في جماعة في مسجد صغير مقام على جانب المصنع، أجلس في انتظارهم، أتابعهم بشوق لا أدرى منبعه، الوضوء قبل الصلاة، أصوات الماء رقراقة مخلوطة بهمهمات يذكرون فيها اسم الله ورسولهم، يتبعونها بالمضمضة التي تنتج صوتًا مختلفًا كنغمة جديدة في ذلك اللحن الجماعي، يحتفنون الماء وفي حركة بديعة يغمرون به وجوههم ثم تنتظر أكفهم الماء الهابط، حبات كريستالية لامعة، لتحتوي بعضه مرة أخرى وتعاود به غمرًا جديدًا، يشمرون أذرعتهم، يغمرونها بالماء حتى مرافقهم وتتبع اليد الماء ذهابًا وإيابًا على اليد الأخرى لتؤكد وصوله إلى جل خلاياها، أمام صف صنابير الماء في الساحة المجاورة للمسجد أشاهدهم يكررون كل خطوة ثلاثًا، تأكيد لا يترك مجالًا لأي شك في أن هناك شيئًا لم يتم تنفيذه على الوجه الأكمل.

ينبعث صوت إمامهم من مكبر الصوت بالتكبيرات والتسليمات، يخرجون مبتسمين راضين، وجوههم تعلوها إشراقات وابتسامات يُزينها هسيس تسبيحهم واستغفارهم. تعاود العمل كمن يبدأ يومًا جديدًا.

في المدرسة الإبتدائى وبالتحديد في حصة الدين، كما كنا نطلق عليها، كنت أخرج من الفصل، برفقة «ماجدة ملاك» زميلتى المسيحية، نخرج لنلعب في حوش المدرسة مع أي فصل في حصة ألعاب، وإن

Scanned with CamScanner

لم نجد فكنا ننتحى جانبًا أسفل شجيرات الحديقة ونختلق الحواديت والحكايا حتى ينقضي وقت الحصة.

كنا نعلم أنهم يدرسون دينًا غير ديننا، لدينا تحذيرات مسبقة بضرورة الخروج من تلك الحصة وعدم التحدث مع أحد في أمور ديننا. كنا نستقي مادتنا الدينية من المنزل، والكنيسة في أيام الآحاد والأعياد، أو مدرس الدين المسيحي الذي يأتينا ويتم تجميعنا في فصل واحد ليقوم ببعض الشروحات التي لم تكن تختلف كثيرًا عما نستمع إليه من أبينا دانيال في كنيسة مريم العذراء.

في المرحلة الثانوية، وقد بدأنا ندرك الأمور، أظهرنا امتعاضًا من خروجنا المتكرر من الفصل في حصة الدين وإن كانت حصة واحدة في الأسبوع، اختلقنا الأعذار لعدم الخروج وانتحينا جانبًا في مؤخرة الفصل، ننشغل بالقراءة في أي كتاب دراسي.

حقيقة الأمر، كنت أحاول جاهدة عدم التركيز فيما يُقال، لكن معظمه كان يصلني رغمًا عني، خاصة عندما يدور النقاش حول قضايا يتحتم فيها إعمال العقل، فنحن في سن لا تجبرنا على التلقي بلا نقاش، إنها مرحلة المراهقة الأولى التي تتسم بالجدال ومحاولة الظهور وإثبات الذات.

يعلو الحديث بين المدرس وطالب، لن أنسى إسم هذا الطالب، يدعي «حسن»، كنا في فصل مشترك، شاب نحيف صموت، رقيق، عيناه الغائرتان تحتويان على الكثير من الكلمات، يفهمها من يتأمله أكثر ممن يستمع إليه. يسألهم المدرس عن مدي مشروعية الصلاة في مكان ما مفتوح فيه التلفزيون؟ يصمتون بعد همهمات ثم يجيب حسن بأن ذلك

حرام. يبدو أن أستاذ المادة قد فوجئ بإجابة حسن، فقد وقف وتأمله لحظات ثم يبتسم ساخرًا، يلتفت لمواجهة الجميع وهو يقول:

– زميلكم يُحرم بلا علم.. لابد من أن تعوا يا أبنائى أنه ليس من حق أي فرد أن يُحلل أو يُحرم وفقًا لهواه. لابد وأن يكون دارسًا ومتفقهًا على يد علماء. ومَن قال لا أعلم فقد أفتى يا سى حسن.

توجه بجملته الأخيرة إلى حسن ولا تزال سخريته تعلو ملامحه، تتغير ملامح حسن ويتقوس ظهره قليلًا، حتى إنني شَعرتُ بأن أذنيه قد أحمرتا مع أرنبة أنفه من أثر تصاعد الدماء إلى رأسه وقد وقف شعر رأسه كما قط شرس، تنفس بقوة ليملأ صدره، ثم يتحدث بهدوء لا يتناسب مع حالته الانفعاليه وكأنه كظم غيظه في اللحظات الأخيرة، قال:

– المفترض أن الفرد عندما يصلى.. يكون مع الله بكل حواسه.. وبهذا تُحرم الصلاة والتلفزيون مفتوح بجواره على فيلم أو أغاني أو أي شيء يشغل الذهن عن الخشوع.

يتأمله المدرس لحظات، يبدو أن تلك كانت عادته عند الحوار مع أحدهم، ثم يجيبه بثقة:

– تمام.. الواحد يكون مع ربنا بحواسه.. أي يكون معزولًا عن كل شيء حوله.. أناس يتحدثون، تلفزيون مفتوح، لن تؤثر معه.. أما مَن يصلى وتفكيره وتركيزه فيمن حوله أو في أي شيء آخر.. مؤكد أن هذا يؤدي الفرض شكلًا وفقط.

يبدو أن حسن لم يكن من تلك النوعية التي تستسلم بسهولة، فقد أجاب ساخرًا ناظرًا نحو الزملاء ليكتسب منهم الدعم:

Scanned with CamScanner

– القضية ليست فيما يتواجد بجانب المصلى.. القضية في المصلى نفسه.. لابد وأن يختار المكان المناسب للصلاة.. ماذا يعني ترك المكان الهادئ والصلاة بجوار التلفزيون المفتوح؟ وإن لم يجد غير هذا المكان عليه غلق التلفزيون يا سيدي.

لم تكن جملته فكهة، لكنه أداها بشكل خفيف يستدعي من الزملاء الضحك، فضحكوا وكأن الموقف كان يتطلب ذلك، ينسحب المدرس من الجدال، كان مرتبطًا بمنهج دراسي عليه الانتهاء منه والطلبة لا يملون الجدال واستعراض العضلات، لكن رأى حسن ترك في نفسي أثرًا، لماذا بالفعل نختلق لأنفسنا الأعذار؟! لماذا نترك السهل ونلقى بأنفسنا في خضم المشكلات ثم ندعي العجز؟!

في يوم آخر، كنا في الصف الثاني الثانوي، في حصة تاريخ، مدرس المادة يشرح مقتل عثمان بن عفان والفتنة التي تمت في تلك الفترة، أحداث كثيرة ومثيرة. يسأل مدرس التاريخ عن أن قتلة عثمان اختلقوا تلك الأزمة بلا سبب حقيقي وتعاون معهم الكثير حتى كانت النتيجة مقتله رضى الله عنه، هنا يقف حسن قائلًا بلهجة شديدة:

– هو المخطئ من الأصل.. قام بتعيين أقاربه في المناصب المهمة وأغضب الناس.

اندهشنا جميعًا مما يقوله حسن، فلا يجب أن نتحدث عن تلك الشخصيات بهذا الأسلوب الذي قد نتحدث به على أحد معاصرينا. يتسمر مُدرس التاريخ مكانه وهو ينظر نحو حسن ثم تجول عينيه على الجميع ليجني ثمار انفعالاتهم، يشير بغيظ نحو حسن وهو يقول:

– أولا يا «فكيك» إذا أردتَ التحدث يجب أن ترفع يدك، ثم أوافق أنا.

انتظرنا أن يرفع حسن يده طالبا الإذن في التحدث ثم يدلى برأيه، وبهذا يمر الموقف، لكن كانت هناك مفاجأة ثانية بانتظار الجميع، فقد قال حسن ساخرًا:

– أترك الموضوع المهم، واتكلم في رفع اليد و..

لم يكمل جملته، فقد كان المعني واضحًا وليس في حاجة إلى استعمال كلمات أخرى قد تزيد الأمر سوءًا، لا سيما وأن مدرس التاريخ قد وقف مبهوتًا، كانت الضربات متتالية وشديدة كما رأيناها لحظتها، وهو مجبر على استكمال الحوار شارحًا لحسن ولنا جميعا الصواب، مظهرًا خطأ حديث ومنطق حسن. يكظم غيظه للمرة الثانية، يشيح بعينيه عن مواجهة حسن ويستقر بنظرة علىّ أنا فارتبكت، لا أدرى لماذا راودني، وقتها، شعور بأن انفعاله من اتهام عثمان بالخطأ كان منبعه أنه خليفة المسلمين والذي لا يجب أن يوصف بهذا أمامى أنا المسيحية، يشرد قليلًا وكأنه لا يراني أو أنه استبعد أن يراودني هذا الشعور، ثم يعود لمواجهة حسن قائلًا:

– و ما هو الموضوع المهم الذي تركته يا أستاذ حسن؟

– عثمان بن عفان رضى الله عنه.. كان مخطئًا عندما قام بتعيين أقربائه أم لا؟

كأنه الخبير العالم ببواطن الأمور يوارى ابتسامة الثقة، أو كقط يحجز الفأر في زاوية لن يستطيع الفرار منها، يقول مدرس التاريخ:

– ليس مخطئًا بالطبع لأن أقربائه هؤلاء، كانوا أهل علم وخبرة ودراية بالأمور ويستحقون هذه المناصب، وأثبتوا نجاحات عظيمة الشأن.

Scanned with CamScanner

أنهى الأستاذ كلماته بتلك النبرة التي نستخدمها جميعًا في نهاية الحديث كي نُشعر الآخرين بأن ذلك يكفي.

لكن حسن لم يتقبل تلك النهاية، لا أعلم لماذا تحرك خارج التخته مسافة قدم واحدة قبل أن يقول:

- طيب.. لقد قُتل.. بماذا نفعه الأقارب؟ كان عليه أن يتقى شر الشبهات.

ثمة انبعاثات كيميائية، يؤكدها علماء الكيمياء، تخرج من أجسادنا لتصل برسائلنا إلى الأخر حتى قبل أن نتحدث. يبدو أن هذا ما استشعره حسن فتحرك خارج التخته لمسافة قدم كي يستعد لتنفيذ رد فعل سريع.. وسريع جدًا..

ما حدث في اللحظات التالية كان غريبًا، فوجئنا جميعًا به. فقد انطلق مدرس التاريخ بجملته التالية، بعد أن فاض به الكيل، ثم انطلق نحو حسن شاهرًا عصاه في يده كسيف في يد جندي من جنود العصور الوسطى، صارخًا:

- إتأدب يا ابن الـ...

ضاعت باقي حروف كلماته بين الهرج الذي عم المكان، يُطلق حسن ساقيه للريح صاعدًا أعلى التخته ومنها إلى تختة تالية وفي قفزة واحدة كان يمد يده ليفتح باب الفصل، فوجئ مدرس التاريخ برد فعل حسن، لكنه لم يكن في وضعية تسمح له بالتراجع ومن ثم الانهزام أمامنا جميعًا، دار حول صف الديسكات ليلحق بحسن فلم يلحق به، فينطلق خلفه يسبه ويتوعده ويده تتحرك بعصاه في الهواء موجهة ضربات موجعة إلى لا شيء كي يُخرج شحنات غضبه، يزبد ويرغى كثيرًا حتى تناثر من فمه رذاذ شاهده الكثير.

يخرج حسن إلى الطرقة الطويلة أمام الفصول، يجرى برشاقه تتناسب مع جسده وسنه، يتبعه مدرس التاريخ بجسده المترهل لاهثًا، وجميعنا نتبعهم من شباك الفصل وبابه، تعلونا الضحكات والشهقات والصيحات التي كانت سببًا في لفت أنظار طلبة ومدرسى الفصول المجاورة، فتطاولت أعناقهم من الشرفات والأبواب لمتابعة ما يحدث وعلى وجوههم علامات استفهام، زادت ضحكاتنا وسعادتنا لأننا الوحيدون الذين على علم بما يجرى.

ما علمناه بعد ذلك أن مدرس التاريخ جلس في الحديقة لاهثًا من أثر الجرى خلف حسن في الطرقة الطويلة، ثم هبوط سلالم ثلاثة طوابق، تعثر فيها أكثر من مرة وكاد أن يسقط لولا تشبثه في سور السلم اللولبي. كاد يفارق الحياة بعدما تعرض لأزمة، فهو بطبيعة الحال مريض بالضغط والسكر ولا يتحمل مثل ذلك المجهود، أسعفه عدد من زملائه بالماء والمشروبات التي تعادل السكر في دمه، حتى يهدأ ويعود إلى الحياة.

في حجرة مدير المدرسة يتعرض مُدرس التاريخ للتوبيخ لأنه ترك تلميذًا يتلاعب به ويُفقده أعصابه بهذا الشكل أمام الجميع، يرفض مدير المدرسة معاقبة حسن، فهو حتى هذه اللحظة غير مدان بأي شيء، ولن يُعاقب على لهجته الساخرة حال نطقه جملته الأخيرة التي أثارت حفيظة الأستاذ.

أتذكر مثل هذه المواقف المرتبطة بالدين والتاريخ الإسلامي كمن يحصى ما يمتلك من معلومات عن هذا الدين، نعم.. تغيرت حياتى واقتربتُ روحًا من الدين الإسلامي.

Scanned with CamScanner

اتخذت قراري بأن أغوص ولو قليلًا في بحاره. أريد من يعلمني السباحة.

سماح.. زميلتي في العمل، فتاة رقيقة هادئة الطباع، على محياها ابتسامة لا تزول، تنير بين خمارها الزيتوني بشرتها البيضاء. إنتظرتها ذات يوم، خارجة لتوها من المسجد بعد صلاة الظهر، شفتاها تتحركان في انتظام مع حركة الإبهام على باقي أصابع يدها، كل لمسة مع جملة، وكأنها تعزف على أوتار خفيه فينطق لسانها، إنها تختم الصلاة.

ترجلتُ من مكاني فوق حافة سور منخفض يمتد أمام أحد العنابر، كنت أجلس أسفل شجرة تحجب عني أشعة الشمس، قابلتُها، سرتُ إلى جوارها كي ندخل إلى مكان عملنا، لا أدرى لماذا عانقتْ يدي اليمني يدها اليسرى التي كانت تُسبح بها في تلك اللحظات، لا أعلم عن ماذا تبحث يدي؟! لكنها من المؤكد كانت تبحث عن شيء ما.

قبل أن ينتهى اليوم طلبتُ من سماح أن تحدثني عما تشعر به وقت صلاتها، أفاضت في الحديث عن كم الهدوء والسكينة التي تحتويها أثناء الصلاة، ثم تغيرت ملامحها قليلًا وهي تقول بأن الشيطان لا يترك من يصلى، إنما يظل يوسوس له كي يشغله عن صلاته، فيذهب المُصلى ليشرد في أمور دنيوية كثيرة حتى تنتهى الصلاة، لكن هذا الشيطان لا يستطيع ممارسة مهامه تلك، مع أصحاب الإيمان العميق بالله تعالى، فهم ينتصرون على ذلك الوسواس بالتقرب أكثر وأكثر من الله عز وجل. كانت سماح سعيدة وهي تحدثني عن دينها، تعلو مُحياها ابتسامة بيضاء تتزايد كما يفور اللبن ناصع البياض فوق النار.

تستأذن في الغياب عني لحظات، يطول غيابها، حتى وجدتُ من يستدعيني لمقابلة الأستاذ حاتم فكري، لحظتها لم أستطع الربط بين غياب سماح واستدعاء حاتم، لكني ما أن دلفت إلى مكتبه حتى ألفيتُ سماح جالسة أمامه مبتسمة في سعادة لا تقل كثيرًا عن تلك التي تعلو حاتم. يقف لمقابلتى مُرحبًا:

– منذ أن رأيتك يا تريزة وأنا أشعر بشئ غير طبيعي يحوط بكِ.. شيء مثل نور الإيمان.

صُعقت بكلماته، لا أدرى لماذا صُعقت؟! وإن كنتُ قد سلكتُ طريقًا يجعله يقول ذلك وأكثر، أسئلتى لابد أن تلقى بأمور عدة في قلب سماح.

يبدو أن أحاسيسى، مشاعرى، عاطفتى، كانوا يتحركون بدون موافقة عقلى، يتلقون الأوامر من قوة أخرى غير العقل، يقف عقلى مشدوهًا أمام تلك الكلمات التي أفاض بها حاتم فكري، كان يتحدث عن الإسلام وعن النبي محمد خاتم الأنبياء، لم أنصت إلى الكثير مما قاله، ذهبتُ خلف أفكارى في مكان بعيد، عالم آخر لا أعلم عنه شيئًا، حدائق وجنان خُضر، طيور مختلفة ألوانها. أصواتها تشدو بألحان وترانيم عذبة، وكأنني طائر أبيض صغير يحلق بين تلك الطيور، ألفيتني منتشية سعيدة كسعادة طفل يحبو بأولى خطواته، كسعادة طائر يحلق للمرة الأولى، كلما رفرفتُ إلى أعلى كلما زادت نشوتى وبسمتى. تلك الابتسامة التي اتخذ منها حاتم فكري وقودًا كي يزيد ويستفيض في شروحه.. أفاض كثيرًا.

Scanned with CamScanner

لا أعلم متى انتهى حاتم من حديثه ولا كيف خرجتُ من مكتبه، هل عدتُ إلى عملي بصحبة سماح، أم ماذا؟!

فجأة أفقتُ لأجد نفسي في حجرتي، جالسة القرفصاء على سريري. بدهشة أيقنتُ أن نوبة شرود قد أخذتني طويلًا، حاولتُ عبثًا تذكر ما حدث، لكني كنتُ كالمسحورة، لستُ أنا، بحثتُ كثيرًا عن وصف لحالتي أرتاح له.. لم أجد!!

هل أود فعلًا أن أترك ديني وأعتنق دين الإسلام؟؟ سؤال طرحته على نفسي ولم أجد له جوابًا صريحًا، مباشرًا، مختصرًا..!!

كل ما أدركه هو أنني أحب الله...

كيف الطريق إليه؟

لم ولن أبحث عن تلك الطريق، لا أعتقد من الأصل أن محبة الرب تحتاج إلى طريق، الطرق عادة ما تحتمل وجود العقبات تعوق من يسير فيها، وتحتمل أن يكون لها نهاية، أما المحبة الصافية لا تعترف بعقبات، ولا نهاية لها.

إنها تأتي هكذا وتنمو إلى ما لانهاية، تنمو وكأن ثمة اتصالًا مباشرًا دائمًا بين الفرد وربه، بين المخلوق والخالق، فممن يستمد المخلوق أسباب حياة روحه؟ من الخالق بطبيعة الحال، وقتما ينتهي مدد الروح تنتهي مرحلة لتبدأ أخرى. ثمة خيوط غير مرئية مدلاة من الرب في عليائه إلى خلقة على أرضه.

لم أتخيل أن يظهر في حياتي مَن يحاول التعدي على تلك الخيوط، ليقضي على حياتي كاملة، فأنا لم أضمر الشر لأحد، أنا فقط اكتشفت اليوم أني أحب الرب، أحب الرب بلا حدود.

تذكرتُ، من بين حديث حاتم فكري الكثير، سؤال ولما لم أجبه أكمل حديثه، كان سؤاله:

- كيف تقولون على السيد المسيح أنه هو الله.. وهو عليه السلام لم يقل على نفسه هذا؟

فكرتُ في السؤال مليًا محاولة استدعاء أي آيات من الذاكرة تنصفني، لم أجد شيئًا. فتحتُ الانجيل وبدأت البحث، وبعدها ذهبت الى الانترنت، ومن ثم إلى الكتب الشارحة ولم أجد شيئًا أيضًا.

نظرتُ نحو أيقونة العذراء مريم نظرة استغاثة، فتشتُ في سماء الغرفة علىّ أجد إشارة ما، لم أجد شيئًا. تصمت كل الأشياء من حولي في تعنت بليد، تنسحب وكأنها تجبرني على خوض المعركة وحدي، أكون صاحبة الحركة والقرار. ولِمَ لا وأنا أبحث عن ذاتي، مَن سيجني الثمار؟ إنه أنا.. إذًا يجب أن أبذل جهدي قدر استطاعتي للوصول إلى ما أريد.

تدين أمي وارتباطها بالرب أمر يعرفه كل أفراد العائلة، تحافظ على زيارة الكنيسة ولا تمل من سؤال الأب عن كل صغيرة وكبيرة، تُبارك كل شيء في حياتنا، المأكل، الملبس، المشرب، حتى أنا وشقيقاتي تباركنا لحظة خروجنا ولحظة عودتنا، تباركنا عند النوم وعند الصحو.

خرجتُ إليها وعلى ملامحي حيرة لم أفلح في إخفائها، تحتويني بابتسامتها العذبة، تشجعني على الاقتراب.. على السؤال.. تحدثتُ إليها بالقليل المتحفظ، فأجابت بعد لحظة صمت فيها توجس وخيفة:

- على حد علمي يا تريزة لا توجد أية يقول فيها السيد المسيح أنه هو الله، لكنه قال: من رآني فقد رأي الأب.

- ليس جبرًا أن يتشابه الأب والابن.

Scanned with CamScanner

– لهم نفس المستوى في القوة، هذا غير أنهم واحد في الثالوث المقدس:الآب والابن والروح القدس.

شردتُ قليلًا ثم ابتسمت وسألتها عن الطعام. لم أود أن أزرع بذور الشك بداخلها، وأنا من الأصل لم أكن قد اتخذت قرارًا ما.

بعد حوار في أمور المنزل، عدتُ إلى قلبي المشغول، لقد توصلت إذًا إلى أن الجزئية الأولى التي هي عماد يقيننا في المسيحية بأن عيسى هو الله، لا دليل عليها ولا تأكيد، عيسى إذًا هو نبي الله كما يقال عنه في الإسلام. وكأن أمي غاصت بداخلي تقرأ أفكاري، قالت:

– إن لم يكن عيسى هو الرب.. فهو ابن الرب يا تريزة.

صدقتُ على كلامها وانشغلت معها مرة أخرى ببعض الأمور وأنا أتوق للانفراد بذاتي حتى أستكمل بحثي. تحركت الدقائق ثقيلة مثل سيارة بلا إطارات يجبرها سائقها على التحرك، بعدها دخلت حجرتي وأغلقت بابي.. ليس المسيح هو الله.. فهل هو ابن الله؟ تلك كانت قضيتي التالية.

عاودتُ البحث، وجدت أن هناك معادلة مكتوبة في إنجيل يوحنا تقول:

«في البدء كان الكلمة. والكلمة كان عند الله».

حسنًا.. فالكلمة هي «المسيح» الذي خُلق منذ بدء الخليقة، كان عند الله ككلمة، لكن بعدها قرأتُ في نفس الآية «وكان الكلمة الله».. تعجبت أن الله يساوي المسيح وأن الله مع المسيح في نفس الوقت..!!

كيف يكون هذا؟!

هذه معادلة رياضية باطلة، كيف يمكن أن يكون المسيح الله وهو معه في نفس الوقت، هل هو مفصوم الشخصية؟ هذا شيء غير واقعي ولا يمكن أن يتخيله العقل، تركت هذا النص وتوجهت الى نص آخر، إلى رسالة يوحنا الأولى. الإصحاح الخامس، يقول:

«فإن الذين يشهدون في السماء هم ثلاثة الآب والكلمة والروح القدس وهؤلاء الثلاثة هم واحد».

فرحت جدًا لأنني إعتقدتُ أني وجدت الحل، الآب هو الابن وهو الروح القدس وجميعهم واحد.

لكن العدد الذي بعده مباشرة، يقول:

«والذين يشهدون في الأرض هم ثلاثة، الروح والماء والدم، والثلاثة هم في الواحد».

هذا يعني أن الروح هي الروح القدس، والماء هو الآب، والدم هوالابن. فكيف يمكن أن يكون الثلاثة (هم) واحد، وكيف يكون الثلاثة (في) واحد في نفس الوقت، ثمة فرق بين المعنيين.

ثلاثة (هم) واحد، معناها أنهم الثلاثة في نفس المستوى في كل شيء، حتى في القوى والمكونات، مثل الماء يتشكل إلى ثلاثة أشكال: السائل، الصلب، الغاز، ولكنها لا تتأثر كيميائيا فهي تحتوي على الهيدروجين والأوكسجين. أما الثلاثة في (واحد) فانها تشبه ثلاثة إخوة لهم نفس اسم العائلة، ولكنهم ثلاثة شخصيات مختلفة.

بالاضافة إلى أنه إذا اعتقدتُ أن الله ثلاثة، فلِمَ لدينا خليقة واحدة وليست ثلاثة؟ فعلى سبيل المثال لو أحضرنا ثلاثة رسامين ليرسموا لنا شجرة معينة، كل واحد منهم سوف يرسمها بأسلوبه الخاص تبعًا لطريقة

Scanned with CamScanner

تفكيره، وكذلك إذا كانوا الثلاثة في الواحد يخلقون الخليقة، فإن كل واحد منهم سوف يخلقها بطريقة مختلفة عن الآخر، حتى لو كانت بنفس الهدف ولكنها ستكون بأسلوب كل واحد منهم الخاص.

قرأت مثل تلك الشروح على شبكة الإنترنت، لم أفهم الكثير غيرها، لكنها على الإجمال كانت تدفعني في طريقي الذي أنطلق فيه دفعًا، حتى قرأت جملة تقول: إذا كان المسيح قال عن نفسه أنه ابن الله، فإن اليهود أيضًا يطلقون على أنفسهم أولاد الله!!

ثم تلتها جملة أخرى تقول: المسيح كان يصلي، فلمن كان يصلي؟ هل كان يصلي لنفسه؟ مؤكد أنه كان يدعو الله، حتى إن الكتاب المقدس يثبت ذلك في أكثر من موضع:

«في ذلك الوقت أجاب يسوع وقال أحمدك أيها الآب رب السماء والأرض لأنك أخفيت هذه عن الحكماء» متى.

وآية أخرى من إنجيل متى أيضًا:

«ثم تقدمَ قليلا وخرّ على وجهه وكان يصلّي قائلا يا أبتاه إن أمكن فلتعبر عني هذه الكأس.ولكن ليس كما أريد أنا بل كما تريد أنت».

بعدها عثرتُ على آية ثالثة تقول:

«فمضى أيضًا ثانية وصلّى قائلا يا أبتاه إن لم يمكن أن تعبر عني هذه الكأس إلا أن أشربها.. فلتكن مشيئتك» متى.

آيات كثيرة تؤكد أن المسيح كان يصلّي لله «وفي الصبح باكرًا جدًّا قام وخرج ومضى إلى موضع خلاء وكان يصلّي هناك» لوقا.

و غير صلاته التي تؤكد أنه بشر مثلنا يتعبد لخالقه، كان يأكل ويشرب ويمشي بين الناس، وأخيرًا عُذب وصُلب بيد بشر مثله.

لم أذق طعم النوم في ليلتي. قرأتُ كثيرًا عن الاختلافات الموجودة بين الأناجيل، نعم هناك أكثر من كتاب مقدس. من أين أتت تلك الأناجيل إذا كان عيسى نبي الله واحد؟! ولماذا تنكر الأناجيل الأربعة إنجيل برنابا وتعتبره غير شرعي؟! لأنه الإنجيل الوحيد الذي ذكر الآية التي يقول فيها المسيح «سيأتي بعدي نبي اسمه أحمد» ثم يحدثنا إنجيل برنابا عن أن المسيح عليه السلام شبّه به ولم يمت على الصليب، بل ارتفع قبل الإمساك به، تمامًا كما يؤكد قرآن المسلمين.

في هذه اللحظة حدث أمر أعده معجزة بكل المقاييس، حدثت معي وإن شاهدتها في أحد الأعمال الدرامية أو قرأتها في رواية لقلت أن المؤلف جمح بخياله إلى أبعد الحدود، لكنها حدثت، ففي اللحظة التي وصلت فيها بفكري إلى أن السيد المسيح عليه السلام لم يمت على الصليب وإنما شبه لقومه آنذاك.. فإذا بأحد المارة في الشارع يقود سيارة أو دراجة بخارية، لا أعلم، يرتفع منها صوت قارئ القرآن بالآية التي تقول: وقولهم إنا قتلنا المسيح عيسى بن مريم رسول الله وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم وإن الذين اختلفوا فيه لفي شك منه ما لهم به من علم إلا اتباع الظن وما قتلوه يقينا، بل رفعه الله إليه وكان الله عزيزا حكيما.

لم يجمح بي خيالي فيهيئ لي ذلك، كان حقيقيًا، وتلاشى الصوت مع الابتعاد، اعتلتني الدهشة وفغرتُ فاهي وأنا أتأمل فراغ حجرتي ناحية النافذة التي آتاني منها صوت قارئ القرآن، إنها رسالة حقيقية، إشارة لا يجب أن تمر بدون أن أقف أمامها وأتأملها، نعم هي إشارة تؤكد أن هناك استجابة كونية لما أفكر فيه، فقد حركت يد القدر هذا الشخص كي يمر أسفل شرفتي في هذا التوقيت بالذات وينبعث من جهاز آلته

Scanned with CamScanner

الصوتى آيات القرآن التي تدعم أفكارى الجديدة، لم يحدث ذلك بشكل عشوائى.

تقاذفتني الأفكار، وإن كان قلبي فرحًا بتلك الإشارة الكونية، فقد أخذتني إلى قضية أخرى تشغلني منذ الصغر ولا أجد لها تفسيرًا، وهي إن كان السيد المسيح صُلِبَ وعُذِبَ على الصليب بيد اليهود، فهل نتخذ من الصليب الذي عُذِب عليه شعارًا وأيقونة نتبرك بها، نحيط بها أعناقنا، تتدلى فوق صدورنا، نعلقها في كل مكان أحببناه؟! ثم.. لماذا ننقم على النبي محمد أنه أتى برسالة ربه بعد يسوع، وقد عانينا من نفس الفعل حينما نقم اليهود على يسوع عندما أتى برسالة ربه بعد موسى؟ أنفعل ما نعاني منه بنفس المقدار؟! إن ارتضينا رسالة عيسى بعد موسى فما المانع بأن تظهر رسالة محمد بعد عيسى؟!!

أغلقتُ جهاز الكمبيوتر، أغلقت تليفوني، أظلمت حجرتى، ارتميت فوق سريرى أتقلب على جمر شكى بحثًا عن اليقين.

ذهبتُ في النوم، شاهدتُ عشرات المناظر وآلاف الوجوه، مررتُ بطرق، ساحات، حدائق مليئة بأشجار متشابكة الأغصان، شمس حارقة، أمطار تنهمر، طرق مختلفة ألوانها بين الأسود والأحمر والأبيض، بين الطينية والصخرية والرملية، كان هناك شيء مشترك وهو ذلك الصوت، الذي يتردد في الفضاء الشاسع بين السماء الزرقاء المترامية الأطراف والأرض الخضراء المزينة بزهور ملونة، مناديًا: فاطمة.

■■■

(19)

الساحرة

عادل..

لن يراك أحد بعين حسنة في لحظة تراه أنت فيها بعين خبيثة والعكس، طاقة المشاعر تنتقل وكأنها طاقة كهرومغناطيسية، لا حاجة فيها إلى التعبير بالكلمات، أنت ترتاح لهذا الشخص، يرتاح هو لك. أنت تنفر من ذلك، ينفر هو منك.

من الممكن أن نطلق علي ذلك نظرية أو قاعدة القبول، تلك جزئية اقتنعتُ بها في أعماقى، وعملت بها. لكن إن كانت هذه قاعدة أو نظرية آمنتُ بها، فإن لها استثناء بطبيعة الحال، فليست كل القواعد البشرية ثابتة ثباتًا مطلقًا.

كثيرًا ما نُخدع، الخداع مادة متوفرة يُصنع منها الكثير من الأقنعة تُرتدي عند الحاجة، لكن أسفى أني خُدعت ولم أدرك حتمية استثناء قاعدة القبول تلك إلا مؤخرًا. ولكن ليس بعد السقوط، إنما قبيل السقوط بلحظات، ذاك ما حدث بيننا، أنا وجينا والتر.

استقبلتُ «جينا والتر» وابنتها «چوليانا بيدرو» من دولة بيرو في أمريكا الجنوبية. منذ اللحظة الأولى استشعرت أن شيئا ما سيحدث بيني وبين

Scanned with CamScanner

تلك السيدة، المختلفة عن غيرها ممن تعاملتُ معهم طوال المدة التي عملتُ فيها في مجال السياحة، لا أدرى بالضبط لماذا قررتُ أن أقدم لها الكثير وأن أتفاني في تهيئة الأجواء المناسبة لراحتها طوال مدة إقامتها، لكن لا أفعال تتم هكذا بشكل عشوائى، إنما كل شيء يتم بترتيب مسبق ولهدف ما، هذا ما تعلمته مؤخرًا لكني لم أكن أدركه وقتها.

چينا والتر، امرأة أربعينية في الأوراق الرسمية، ابنة العشرين على أرض الواقع، جسد ضئيل، عيون لامعة مزينة بأمل وبريق المراهقة، إبتسامة عذبة لا تفارقها، شفتان يُخرجان حروف الكلمات كسلاسل فضية، وللفضة في بيرو تاريخ طويل حدثتني عنه فيما بعد، أكثر ما جذبني إليها روحها التي تملأ الوجود من حولها ومشاعرها الفياضة.

من أكثر الأمور سوءًا، في مجتمعنا وما نأمل ألا يستمر على هذا المنوال، أسلوب تعامل تلك الفئة التي تسيطر على الأماكن السياحية في طول البلاد وعرضها مع السائح الأجنبي. يفرضون سلعهم بمنتهى اللزوجة وبأسعار خيالية. المؤلم هو تراخى يد الدولة عن مواجهتهم أو حتى توجيههم. كنا كمرافقين أو مرشدين نقف مكتوفى الأيدي، فنحن فرادي وهؤلاء كُثر، نحن نرجو وجهًا جميلًا للبلاد أمام ضيوفها، بينما هؤلاء همهم الأول والأخير هو استحلاب النقود والمتعة. لذا قررتُ ألا أدع چينا وابنتها چوليانا لتلك الأيادي النهمة، وأن أتحمل تبعة ذلك، فلن أنجو من إضطهاد بعضهم وإن كان ضمنيًا، وقد يحدث تشويه لسمعتى في الوسط، فقد حدث مع أخرين ذلك وأطلقوا حوله الشائعات، بل وأشتكوا بشكل مباشر بأن هذا الزميل هو مَن يستغفل السائح ويسرقه ويغرر به وغير ذلك الكثير من التهم، وهذا ما يجعلنا نرفع أيدينا ونتعامل بحذر آملين أن تتحرك مؤسسات الدولة، وهذا ما لم يحدث.

بدأنا رحلة سقارة وهناك نفذتُ ما قررته آنفا. حصلت لهم على أقل الأسعار في ركوب الخيل والسفارى وحفل الشواء والهدايا من البازارات المختلفة.

في البداية كانت چينا والتر تنظر نحوى بهدوء، فأنا رجل يعمل بشكل جيد للحصول على بعض المزايا. في اليوم التالى تحولت نظرتها إلى نظرات إعجاب. بشرتها برونزية وشعرها أسود فاحم طويل يغطى نصف ظهرها، نحيلة الجسد، مكتملة الأنوثة، رقيقة كنسمة صيف، لا يفارق يدها شيئان: الكتاب وزجاجة المياه المعدنية. بدأت تشرد عن الكتاب، تتابعني في صمت، كنتُ أهرب من نظراتها المتابعة بأن أشير نحو الأثر أو أي شيء، تلتفت لمواجهتى كطفل يتابع والده بإلحاح. تتسرب المشاعر من بين أيدينا وإن أطبقنا عليها بكل ما نملك من قوة، تصل إلى الآخر من خلال النظرات لتجد مستقرًا لها بهدوء وبدون عناء البحث عن كلمات تعبر عنها، لكني قررتُ ألا أسقط في هوة الإعجاب بالعميل الذي اتعامل معه، أن أهزم رغبتى، صمدتُ حتى الليلة الرابعة، حتى واجهتني چينا قائلة بشكل حازم:

– هل تتعامل هكذا مع الكل يا عادل؟

ارتبكتُ لحظة، السؤال مباغت، عبثًا غيرتُ مجرى الحوار لكنها أصرت على سماع الاجابة. شردتُ قليلًا ببصرى على لوحة تحمل نقوشًا فرعونية معلقة على أحد الحوائط حيث كنا نتناول طعام العشاء في مطعم شهير بوسط القاهرة، كان ذلك المطعم قبلة للسياح لأنه ببساطة يُجزل العطاء لنا مقابل أن يمتص ما يريده من السائح. أجبتها بهدوء:

– الحقيقة لا.. أنتِ مختلفة يا چينا..

Scanned with CamScanner

كقطة شرسة تلهو بصيدها قالت:

- مختلفة؟.. كيف؟!

للمرة الثانية أشعر بالارتباك يحتويني، أبحث عن مخرج فلم أجد. كانت چوليانا ترقص في صالة الديسكو. چوليانا فتاة في السادسة عشرة من عمرها، مشغولة باستمرار بالموسيقى والرقص والتواصل مع أصدقاءها عبر شبكة الإنترنت، كنتُ أشعر بأنها أتت في هذه الرحلة كنوع من المجاملة لوالدتها، باستمرار شاعرة بملل فظيع.

في اللحظة التي شعرتُ فيها بالارتباك من ملاحقة چينا لي، نظرت نحو الديسكو قائلًا:

- ألن تكف چوليانا عن الرقص؟

ابتسمت چينا ولا زالت تقذف بسهامها نحوى في إصرار:

- أترك چوليانا تفعل ما تريد.. وأخبرني: كيف أنا مختلفة؟

يبدو أنه لم يكن أمامى أي طريق للخلاص، كثيرًا ما امتدحت جمال السائحات ورقتهن وعذوبتهن ولم أشعر بأي توتر وكأني أقرأ من كتاب، لكن يبدو أن الكذب أسهل من الصدق فيما يخص المشاعر.

معرفتى بإيمان كانت سطحية في هذا التوقيت ولم تكن قد اتخذت الشكل الرسمى والاتفاق على الزواج.

الحقيقة أن الذي حدث، ولكني لم أعترف به وقتها أو حتى بعدها، لم أعترف به أبدًا إلا الآن، هو أنني قررت الارتباط بإيمان هربا من چينًا وابنتها چوليانا.

عن طريق سميحة زوجة فؤاد أخى تعرفتُ على إيمان، هي ابنة زميلة لها في العمل وتسكن بالقرب أيضًا. سميحة لم تكن مجرد زوجة أخى فؤاد وإنما كانت بمثابة أختى الكبرى التي تهتم لأمرى، ناهيك عما نعانيه في بلدنا من مرض الرغبة في توفيق رأسين في الحلال وأحيانا تفريقهما في الحلال أيضًا.

تستدعيني سميحة ذات يوم لتناول طعام الغذاء، وبلا مقدمات تأتي بإيمان ويتم التعارف. من خلال احتكاكى بالأجانب كنت قد اكتسبت قدرة على اجتياز حدود الصمت التي تفصل بين أي اثنين لم يتعارفا من قبل، فلم تكن المدة التي سيقضيها السائح برفقتى طويلة بشكل يكفى لأن يذهب بعضها في الاستكشاف.

تحدثت مع إيمان إرضاءً لزوجة أخى وأيضا لعدم إلحاق الأذى بشخص إيمان، فإذا ما لاحظتُ لا مبالاة من جانبي قد تشعر بإهانة لمشاعرها، في تلك اللحظة جال بخاطرى كيف لفتاة مثل إيمان تحمل تلك المؤهلات العلمية والجمالية، أن تتزوج بهذه الطريقة التقليدية؟! وقتها لم أجد إجابة شافية وإن علمتها مع مرور الوقت، إيمان لم تكن تحمل بداخلها مثقال ذرة من مغامرة، جسدًا جميلا وملامح تذهب بقلوب العاشقين مع عقل صيغ من أحجار الماضى.

مستقبلًا أعلم أن والدتها قد صاغت ذلك العقل من خام الحجر الصوان المصوغ منه جسدها كله.

عموما دار حوار حميم وتشعب في عدة قضايا، عقل نشط وذهن يعمل باستمرار، لكن في حدود معينة، فهناك أطر من المحظورات والتقاليد.

Scanned with CamScanner

لم أقابل إيمان خلال الأيام التالية لانشغالي مع چينا وابنتها چوليانا، چينا والتر تزوجت بوالد چوليانا ويدعي بيدرو، تخبرني بذلك لحظة هروبي من الإجابة على سؤالها: أي اختلاف تختلفه هي عن الأخريات؟ لم تستمر في حصاري، بل انتقلت مباشرة إلى الحديث عن نفسها فقالت:

– عندك حق يا عادل، أنا عندي إحساس بأني مختلفة، حاولتُ كثيرًا أن تستمر حياتي مع بيدرو من أجل ابنتنا چوليانا، لكني لم أستطع يا عادل. مشاعرة كانت طفولية، ملتصقة بالمراهقة بشكل مستمر، أيضًا كان يفتقد العمق الفكري، لذا صممتُ على الانفصال، تخيل.. ارتبط بفتاة أخرى في نفس الأسبوع.

لم أجد ما اقوله، همهمت بكلمات غير واضحة، ثم اعتدلت في جلستي وأنا أغير مجرى الحديث قائلًا:

– على فكرة.. هناك حفلة سفاري غدا في منطقة سقارة.. هل ترغبين في المشاركة؟

– بالطبع.. هرم سقارة المدرج يُشعرني بأنني في بلدي، في بيرو..

دهشة بسيطة علت ملامحي، قد يكون التعبير خانها من فرط الحميمية والألفة التي يشعر بها السائح تجاه الآثار المصرية، فما أتى لزيارتها إلا لكونه مأسورًا بها، وطبيعي جدًّا أن يشعر وهو بين أحضانها بتلك الألفة التي يستشعرها في بلده، لكن چينا لاحظت بدايات علامات الدهشة التي علت وجهي فأكملت قائلة:

– حضارة الأنكا يا عادل.. ألا تعلم عنها شيئًا؟

تمنيت أن أخبرها بأنني لا أعلم عن حضارة بلدي شيئا غير الفتات، فكيف لي أن أعلم شيئًا عما تتحدث به، حضارة الأنكا أو البانكا.. أكملتْ حديثها قائلة:

– حضارة الأنكا، هي حضارة منطقة غرب أمريكا الجنوبية وبالتحديد في بلدي «بيرو» هل تعلم يا عادل أننا، بيرو ومصر، توأمتان حضاريًا.

– نعم؟!

– هناك شكوك واحتمالات كبيرة جدًّا أن الفراعنة كانوا على اتصال بأجدادي من الهنود الحمر في بيرو في فترة ما قبل الميلاد.

لم أتمالك نفسي من الضحك، فقد سيطرتْ على تفكيري حالة غريبة، حضارة الفراعنة في مصر والأنكا في بيرو، قبل الميلاد، كانوا على اتصال ببعض عن طريق التليفون المحمول أو شبكة الانترنت، تخيلت الأجداد بملابس ما قبل التاريخ يجلسون أمام الفيس بوك، ضحكت. كانت چينا تتحدث بجدية وهدوء وثقة مما جعلني أحتوى سخريتي وابتلعها وأشرب خلفها كوب ماء كامل حتى هدأتُ وأنا أعلق:

– أجدادي الفراعنة كانوا على اتصال بأجدادك.. حضارة الأنكا، كيف؟!

– هذا هو السر الذي لم يتوصل له أحد حتى اليوم.. لكن عندما تكون هناك أهرامات في بيرو وعلى رأسها أهرامات مدرجة مثل هرم سقارة المدرج، وعندما يكتشفوا في بعض المقابر الفرعونية حالات دفن أحياء جماعية، وهي ظاهرة أسماها العلماء ظاهرة «سائي» أو «سوتي» وهذه الظاهرة موجودة عند الهنود حتى اليوم، والهنود هم أجدادي يا عادل، هم أصل سكان الأمريكتين الشمالية والجنوبية.

Scanned with CamScanner

– هذه المعلومة أعلمها جيدًا.

تعدل من وضع كتابها على المنضدة أمامها وتغير مكان زجاجة المياة المعدنية بدون داعي، يبدو أنها كانت لا تزال تحت تأثير فكرتها تود أن تستكملها بأي شكل، فهززتُ رأسي علامة أن تُكمل حديثها، تبتسم وهي تقول:

– و غير الأهرامات تجد الكثير جدًّا من الآثار والتماثيل والنقوش بنفس الطريقة في الحضارتين الفرعونية والأنكا، كل هذا يؤكد أنهم كانوا على اتصال.

لم أجد ما أتحدث به، الكثير من الأساطير انطلقت حول الحضارة الفرعونية وحول لعنة الفراعنة وأسرار لا نهاية لها، ولا يوجد مانع أبدًا في أن تضاف إلى تلك الأساطير أسطورة جديدة كتلك التي تتحدث بها چينا الآن. تحفظي لم يكن ليفيدني في شيء ولا حتى موافقتي، ابتسمتُ تلك الابتسامة المحايدة، التي لا تعلن عن موقف محدد، كي تُهدئ چينا من روعها، وتحاول التحكم في انفعالها بتاريخ البلدين.

كنتُ أعلم مثل ذلك النوع من الحماس للفكرة، فقد يأتي إليك أحدهم متحمسًا لفكرة ما تسيطر على عقله وخلاياه، فها هو يرى في فكرته الخلاص الكامل، أما أنت فترى الفكرة بسيطة ساذجة وأحيانًا قد تكون تافهة، لكنك لا تملك القدرة على مواجهة ذلك الحماس، المتجسد في شكل شخص يقف أمامك، بلا مبالاة. لكنك تستطيع الصمت مع رسم ملامح جافة لا هي مع أو ضد الفكرة، منتظرًا أن يفيق من حماسته أو ينتهي من سرده ويرحل لتتنفس أنت من جديد بلا ضغوط.

كنت أنا ذلك الشخص صاحب الملامح المتعادلة على الوجه، متمنيًا أن تستفيق چينا من غمرة حماسها الحضاري، لكنها على ما يبدو لم تكن تراني، كانت أسيرة فكرتها، فأكملت قائلة:

– عارف «الأنكا» معناها أيه يا عادل؟

حاولت إضحاكها، كمن يفكر ويجدها فجأة.. هتفت:

– إسم أكلة شعبية في بيرو.. صح؟

لم تضحك خلف ضحكتي وإنما علقت بهدوء متخطية سخريتي على اعتبار أن جهلي أمر ثانوي بجوار رغبتها في الاستفاضة، فقالت:

– الأنكا كلمة معناها الملك أو الابن الأوحد للشمس. في حضارتنا، حضارة الأنكا، كانت الشمس هي إله الكون، كما آمون رع وآتون وكلها تمثل قرص الشمس، وقرص الشمس هو إله الكون عند الفراعنة. وفي حضارتنا كلمة «الواكاس» تعني: معابد الشمس. وفي الحضارة الفرعونية كانت معابد الشمس أمرًا أساسيًا عندهم.

بدأت أتقبل حديثها وأنحى السخرية جانبا، إن ما تقوله چينا أمر يستحق فعلًا التفكير والتأمل، للمرة الأولى في حياتي أستمع فيها إلى مثل هذه الكلمات وهذا الشرح عن حضارة أسمع عنها للمرة الأولى، حضارة الأنكا.

نظرتُ نحو چينا بإعجاب، لم أكن أتخيل خلف البراءة ونظرات الطفولة، هذا الكم من المعلومات، بادلتني النظرات لحظات، ثم دعتني إلى مصاحبتها إلى صالة الديسكو للرقص مع چوليانا.

لم أكن بالطبع من المدربين على الرقص في صالات الديسكو، ما أن دخلنا الصالة حتى أحاطتني بذراعها الأيمن بشكل اضطرني لأن أحتويها

Scanned with CamScanner

بذراعي الأيسر وكأننا عاشقان. لمحتنا چوليانا، تغيرت ملامحها لحظة ثم أكملت رقصتها أمام شباب كان يتلوى كأن به مسًا.

كنت أتحرك بهدوء، قد يراه البعض رومانسية، مما جعل چينا ترتمي على صدري بشكل أثار بداخلي شهوة عنيفة، تدفقت الدماء غزيرة لتصب قوتها في أعضائي، وكأن الصلب في داخلي بدأ ينصهر ليتشكل في قالب آخر، تمنيتُ لو تعانقت الشفاة، يبدو أن مشاعري انتقلت إليها عبر الفراغ القليل بيننا، فلم تمر لحظات حتى دفعتني إلى أحد الجوانب بهدوء، حتى إذا اختلينا في هذا الركن الهادئ، بدأت تلتهمني التهام الجوعي.

لم نذهب في اليوم التالي إلى سقارة كما كان مقررًا في جدول الزيارة، إنما طلبت «چينا» أن نتوجه أنا وهي فقط إلى الإسكندرية، تود أن نكون معا بعيدًا. لاحظتُ هي كما لاحظتُ أنا نظرات چوليانا نحونا.

كان علىّ أن أواجه هجوم «چينا» المباغت، في وقت أنا بالفعل أرغب فيه بمجاراتها، لذا قررت أن تكون رحلتنا إلى الاسكندرية رحلة عمل، نزهة بين الناس، تليفونيا اتصلت بـ «هشام الهواري»، مسئول كافتريا خطاب بالهوارية على طريق مطار برج العرب المتجه إلى الطريق الدولي الذي يخترق بحيرة مريوط المترامية الأطراف، يقوم هشام بتجهيز خيمة بدوية ومأكولات ومشروبات على الطريقة البدوية، طقس أعتقد أنه سيأخذ عقل چينا فلا يدعها تفترسني كما تخطط.

يستقبلني هشام بملابسه البدوية، لقد زرت المكان أكثر من مرة فأصبحت معروفًا ومرحبًا بي، الخيام البدوية تصطف على الجانبين ومنطقة الوسط بها العديد من الترابيزات لحل الأزمة وقت الزحام،

مع عدد قليل من ألعاب الأطفال، شجيرات ملونة تتناثر في الأرجاء، ورائحة الريحان تملأ المكان، عدد غير قليل من الزبائن.

أشار هشام نحو إحدي الخيام، عانقت يدي يد چينا ودخلنا، الخيام مفتوحة بشكل كامل من ضلعها الرابع الذي يواجه منطقة الترابيزات والإدارة، بداخلها منضدة منبسطة بارتفاع بسيط وعلى الجانبين وسائد أرضية، جلست طلبا للراحة لكن چينا سألت عن الحمام، أشرتُ لها نحوه ثم جلستُ وحيدًا أتأمل رواد المكان.

تذكرت إيمان، هي مناسبة لي بكل المقاييس، وإن كنتُ لا أجد في داخلي تلك الرغبة الشديدة في رؤيتها، مرة ثانية، على وجه السرعة. ارتحت إلى التفسير الذي أتاني في هذه الدقائق التي غابت فيها چينا، يبدو أن وجود چينا معي هذه الأيام هو ما يحول بيني وبين التفكير في إيمان هلال، إذن الأمر سوف ينتهي مع سفر چينا، علىّ فقط الصمود حتى تمر الأيام القليلة القادمة.

تأتي چينا من الحمام.. أتت مرتدية ثوب البدويات المصريات. كانت رائعة حقًا في هذا الثوب الأسود المزركش بالألوان الزاهية بين الأحمر والأزرق والأصفر، على رأسها ما يشبه العمامة بلون أسود متناغم مع لون شعرها صانعا مع بشرتها الخمرية وابتسامتها العميقة لوحة فاتنة، تمنيت في هذه اللحظة لو احتضنتها وغبنا عن العالم في قبلة لا تنتهي.

جلستُ إلى جوارى تعب من الهواء النقي وروائح الريحان وزهور الياسمين مع روائح النعناع المنبعثة من أباريق الشاى البدوى التي تنتشر في المكان. أكلنا الديوك المشوية مع الأرز بالخلطة والخبز البدوى، أكلنا كثيرًا وكأننا نُلهى نزواتنا بلذات أخرى، بعدها أتت أباريق الشاى

Scanned with CamScanner

الأحمر والشاى الأخضر مع أكواب صغيرة الحجم نرتشفها على مرة أو مرتين على الأكثر ثم نصب مرات ومرات، نشعر بلذته التي لا تنتهى رغم الارتواء. تفاصيل السعادة، التي تعتلى وجه چينا وجسدها، جعلتنا لا نشعر بالوقت الذي انسحب في عناد كأنه خصم يغار منا، أيضًا اتصال هاتفى من چوليانا ابنة چينا تنقل لها شعورها بالملل وكم هي نادمة على هذه الرحلة، لكم كانت تفضل أن تظل في بيرو بدلًا من السفر إلى مصر حيث نظرات الاشتهاء التي لا تنتهى.

تنهى چينا المكالمة وتعود بروعتها إلى المكان ناثرة عبيرها مع حروف كلماتها، يبدو أنها قد اتخذت قرارًا من قبل وهو ألا يعكر صفوها أي شيء مهما كان. تعيش اللحظة بكل تفاصيلها، لم أجد ما أتحدث به، سألتها عن ملابسها البدوية، أجابت وهي تشير نحو المنزل القريب من الكافتريا في الجهة الجنوبية:

– استعرته من هناك.. رفضوا تقاضى ثمنه.. وعندما أخبرتهم بأنني سوف أعيده لهم عند المغادرة، غضبوا جدا، وقالوا بأنه هدية لي منهن، رائعات بنات البدو يا عادل.

انتهى اليوم الذي كنا نتمنى ألا ينتهي، في طريق عودتنا إلى القاهرة، شاهدتُ چينا في حالة ذوبان أسطورى، الأكثر دهشة هو أنني كنتُ قد وصلتُ إلى تلك الحالة من الذوبان الأسطورى أيضًا بشكل لم أعهده في نفسى من قبل رغم تعرضى لمثل هذه المواقف، لكن چينا كانت مختلفة تمامًا في ذلك التوقيت، لاحظتُ فيها شبقًا غريبًا، تفوح منها رائحة نفاذة، هي رائحة لا تنتج إلا عن جسد طرى معجون لممارسة الجنس.

يرخى الليل سدوله، الطريق الصحروای في هذا التوقيت من الليل ومنتصف الأسبوع أيضًا يُعد خاليًا من السيارات تقريبًا، مدت چينا يدها الحانية تداعب أذني اليمني، تركتها متلذذًا، استمرت لحظات، ترتعش السيارة أسفلنا معبرة عن داخلي، تنزلق يدها إلى شفتىّ، فأقبل أناملها، بحرفية عالية تضع الإصبع الصغرى في فمى لأمتصها، ففعلت منتشيًا، لم تتمالك نفسها، تقترب أكثر، توقفتُ بالسيارة على جانب الطريق متواريًا في قلب أَجَمَةَ كثيفة، أطفأت الموتور في اللحظة التي اشتعل فيها داخلي، تنهار حصوني كاملة، أنزلق إلى هوة رهيبة، أعلم ذلك. أتذكر كلمات مستر إيهاب علوى في الفندق حينما حدثني عن أن رد فعلى متشدد لأنها المرة الأولى.

يلين الحديد من السخونة والطرق، فيسهل تشكيله.

أقرر في لحظة واحدة الزواج بچينا، أسافر معها إلى آخر الكون، يبدو أن داخلي ارتاح تمامًا لذلك القرار، سَهُل الأمر الذي كنت منه هاربًا على الدوام، وكأني سوف أمارس حق طبيعي توجهتُ إليها كلية، كانت چينا قد فردت مقعدها وجعلت منه شيئًا أشبه بسرير، فعلت ذلك وهي تنزع ثيابها قطعة خلف الأخرى بشكل مثير وهي تتابع ردود أفعالى وتجمع خيوط الشجن من على وجهى، تمد ذراعيها وتجذبني نحوها بقوة حانية.

التهمتها مرتان..

كنتُ فارس مبتدئ في الأولى يمتطى مهرة لا يستطيع قيادها.. اتعثر فترشدني..

و كانت فارسة محترفة في الثانية.. قدمتُ ما لم أحلم به يومًا..

Scanned with CamScanner

و لم أرتوى.. توقفنا أكثر من مرة نرتشف كئوس الحب. كانت رهيبة وكنتُ كما المسحور، تأخذني كلية إلى عالمها الخاص، تحتويني، تمسك بمقودي فتوجهني كما تشاء. خدر لذيذ ونشوة لا حدود لها وسحر يحوطني كهالة فضية، تتقاذفني أمواج رقيقة في أنهار اللذة.

عُدنا إلى القاهرة تعلو وجوهنا سعادة الأحباب وشرود العاشقين، قبل أن نصل إلى الفندق خيم علينا صمت الفراق، فراق اللذة.

فجأة مدت چينا يدها واحتوت يدي اليمنى بين راحتيها، تأملتني طويلًا، هل ستدعوني لممارسة الجنس مرة ثالثة؟ قالت بصوت يكسوه الشجن:

– كل لحظة تمر علينا، يزيد حبي لك يا عادل..

هممتُ بالحديث لكنها مدت يدها على شفتي لتمنع حروف كلماتي من الخروج إلى الوجود، استسلمت لرغبتها في صمتي، وفي داخلي مشاعر متضاربة، بينما أكملت قائلة:

– أنا سعيدة بما فعلته.. الجنس هو التعبير الحقيقي عن أي مشاعر جميلة.. هو التعبير الأخير عندما تعجز اللغات عن ترجمة المشاعر.

كانت محقة تمامًا فيما تقول، فثمة أمور لا تستطيع اللغات التعبير عنها، فتقوم الأحاسيس بهذا الدور. تستمر في حديثها الذي تخرج كلماته كعزف على أوتار القلوب فتخرج الهمسات آهات والحروف سلاسل فضية بإطار ذهبي، تحدثت عن مشاعرها وعن كوني ملكت قلبها وأنها عرفت معي، رغم قصر المدة، معني الحياة... حتى تقول:

– وبعد ما بدأناه ستظل تلك المشاعر جميلة للأبد.. لكن عندي طلب أخير.

كنتُ في تلك اللحظات كما الشمع المصهور، دافئ ذائب الخلايا، إن هي اقتربت بشفتيها لحظة لالتهمتها للمرة الثالثة، تعتمل بداخلي آلاف الرغبات، يدفعها قطيع لا نهاية له من الشياطين، للمرة الأولى في حياتي أصل إلى هذه الدرجة من الضعف. كما وصلت هي لدرجة من المهارة لم أتخيل وجودها في بشر، كانت رائعة، تفعل كل حركة، تتحدث بكل حرف، على أفضل ما يكون، نظرتُ نحوها مستفسرًا محاولًا إظهار الثبات، فأكملت وهي تعتدل في مقعدها:

– لقد تحدثتُ مع أعضاء جمعيتنا بخصوصك، اتفقتُ معهم على أن تشترك معنا.. تكون عضو في الجمعية، وسوف نحقق لك كل ما تتمناه.

لم أعي فحوى كلماتها في البداية، لكن نبرتها وملامح وجهها الصلبة، الجديدة علىّ تماما، والتي تختلف تمامًا عما كانت عليه مذ لحظات، كل ذلك جعلني أتوجس خيفة، وكما تنتقل رسائل الحب وأي رسائل جميلة بلا كلمات، فإن رسائل عدم الارتياح والنفور والبغض تنتقل أيضًا بلا كلمات.

كمن فوجئ بدلو ماء مثلج يُكب علي رأسه، شعرتُ برحيل جزء كبير من قطيع الشياطين الذين يعملون بداخلي، بينما تظل البقية تنصت معي لحديثها لنعلم عن أي جمعية تتحدث، تظهر على ملامحى علامات الاستفسار، فأكملتْ:

– أتعلم عدد المسلمون في العالم مقارنة بأعداد المسيحيين؟

لم أستبشر خيرًا بتلك الكلمات، وصدق حدسى الذي بدأ يتبلور بداخلي حتى إنني عدتُ إلى الخلف بشكل لا إرادي. تأملتُها أكثر فبدتْ لي واحدة أخرى، في لحظات تتلاشى أنوثتها، أصبحت سيدة

Scanned with CamScanner

أجنبية، ساحرة.. مشعوذة.. صاحبة أفكار متطرفة، يبدو أن من رحل من الشياطين كانوا هم المسئولين عن إثارة النواحي الجنسية بداخلي وجعل مَن أمامي مثيرة جذابة، وأيضا أطلقوا على عينيّ غشاوة، تحولت إلى طبقة عازلة أعاقتني عن رؤية حقيقتها، لتنتظر لترى ما ستقوله وما يقررة ما تبقى بداخلي من شياطين، أجبتها:

- أعلم أن عدد المسيحيين أكثر.

- الضعف تقريبًا يا عادل.. والعقل يقول إن الإنسان يكون مع الأغلبية.

تذكرتُ نظرية القطيع التي درسنا مختصرها في علم النفس في الثانوية العامة، والتي تظهر باستمرار في قطيع الأغنام الذي ينطلق بشكل جماعي، نظرية صِيغت من أن الفرد يُفضل الانطلاق مع القطيع، نظرية اشتقت من قطعان الخراف، الخراف مرشدة لنظريات علم النفس، وبالقياس يُفضل الإنسان المجموع ليسير خلفه. لكني أعلم أن الأسود تسير فرادي، لم أجبها بشئ.

تتحدث بالكثير محاولة تبرير أمر ما، لم تستطيع النفاذ إليه مباشرة، تحاول إقناعي بأمر لا أعلم ما هو، أو على وجه الدقة لا أريد أن أصدق ما ترمي إليه، تطلب مني السفر معها إلى بيرو تمتلك منزلًا جميلًا بالقرب من غابات الأمازون وجبال الأنديز، وعلى مقربة من بحيرة تيتكاكا الرائعة، بالإضافة إلى شواطئ المحيط الهادي الساحرة التي تحد بيرو من جهة الغرب. جماعتها سوف تعطيني المال الذي أريده. وكأنني أضغط على زر تفجير قنبلة أخرجت كلماتي:

- مَن أنتم بالضبط يا چينا؟

صمتتْ لحظة وكأنها تراجع نفسها قبل أن تقرر استكمال مهمتها، قالت:

- جماعة تبشيرية.. مهمتنا هي الانتصار للرب يسوع على الأرض و..

لم أتركها لتكمل، صرخت فيها:

- إنزلـــــى.. تفضلى.

صمتتْ لحظة، تعتلى ملامحها دهشة غريبة، يبدو أنها كانت تعتقد أنني لن أخذلها بعد ما حدث بيننا وفجأة خذلتها، فتحتْ باب السيارة، تقف لحظة قبل أن تغلقه وترحل لتقول:

- لا تتعجل وفكر بهدوء.. أعرض عليك أن تكون مع الرب يسوع، وسوف نحقق لك كل أحلامك.

- أحلامى؟ كيف تفكرون؟!

لم تبدو على ملامحها علامات دالة على هول الموقف وكأنها تمارس عملًا روتينيًا مارسته كثيرًا.

لم أفكر يومًا حول ردود أفعالى إذا ما قابلتُ أحد المتطرفين فكريًا، أنأى بنفسى باستمرار عن حلبات الصراع خاصة ذلك المتعلق بالدين، كل فرد متعصب لدينه بأي حال ويرى الآخر على ضلال، وفي كل فريق نجد المتعصبون.. المتطرفون.

- فكر بعقلك.. لا بمشاعرك..

- العقل؟! إن كنتِ تريدين العقل.. العقل يؤكد أنه لابد من التفرقة بين النبي عيسى عليه السلام وبين الله خالق الكون.. العقل يؤكد بأن

Scanned with CamScanner

الله أرسل نبيه محمد برسالته بعد عيسى كما أرسل عيسى بعد ما قبله من رسل.. العقل يؤكد أيتها المتعصبة لأفكارك المتطرفة على أن الله ما أرسل رسولًا برسالة جديدة إلا بعد أن انفض الناس عن الرسالة التي سبقتها، بل وأهدروا قيمها وحرفوها وأضاعوا أصلها.. فيرسل الله رسالته الأعم والأشمل ليرشد الضالون ويهدي المتعصبون المتطرفون..

كنت أتحدث بانفعال، تخرج الكلمات سريعة، لا أدرى من أين أتاني ذلك التفسير، لم أكن قد فكرتُ فيه من قبل أو رتبت له، خرجت الكلمات بتلقائية وقوة جعلتها تقف أمامى مذهولة، يبدو أن عزوفى عن التطرق للحديث في الدين جعلها لم تتخيل ولو للحظة أنني أعلم شيئًا عن الدين وأنني سوف أكون الأرض الخصبة التي تلقى فيها بذرتها فتنبت على الفور.

أخذتُ شهيقًا طويلًا لأملأ صدرى الذي شعرتُ بأنه قد أُفرغ تمامًا، وتحدثتُ بهدوء مؤكدا على كل كلمة، بل كل حرف يخرج:

- ليتكم تقرأون عن القديس نسطورس.

كنت أتخيل أنها تقف أمامى مذهولة، لكنني ما إن نطقتُ اسم «نسطورس» حتى تملكتها دهشة كبيرة بل لنقل أنه فزع، فقد صرختْ:

- نسطورس؟! المهرطق الكافر.. أنا لازم أشرح لـ..

أدرتُ موتور السيارة وانطلقت مسرعًا تأكل عجلات السيارة أسفلت الطريق مدوية بصفيرها، أفرغتُ غضبي كله فوق دواسة البنزين. لا أعلم كيف أسعفتني الذاكرة باسم القديس نسطورس، لقد اختزن عقلى اسمه ومعلومات قليلة عن فكره عندما حدثني مستر وايز عنها، نسطورس عدو كل متشدد في المسيحية لأنه أكثرهم اعتدالًا.

ما يحيرني هو لماذا قررتْ چينا أن تتحدث معي في هذا الشأن؟ ماذا شاهدتْ فيَّ جعلها تستبشر خيرًا، هل لأنها لم تشاهدني أصلى؟ لم تجدني أتحدث عن ديني الإسلامي؟! أم لأنني اقتربتُ منها وتذوقت خطيئتها فقررت أن تجذبني إليها كاملًا!!

الأسوأ بالنسبة لي كوني خُدعت فيها ولم أتعرف على مكنونها منذ البداية، لكنها وللحق كانت بارعة في إخفاء تلك الأفكار طوال الأيام الماضية، فأنا من الأصل لم أشاهد صليبًا يتأرجح على صدرها، أو بين ثناياها، أو مطبوعًا على أي مكان في جسدها، جسدها الذي احتويته عاريًا ولكني لم أستطيع أن أخترقه لأرى مكنونه، وكأن الذوبان والانصهار مراحل متتالية، لم أتخطى أولاها.

تعاملتُ مع الكثير من المسيحيين، نعيش معًا في كل مكان، لم أستشعر يوما بأننا مختلفين، ففي أجسادنا تسرى نفس الدماء، تنمو أجسادنا بماء نهرنا العظيم، تطعم ثمرة تلك الأرض الطيبة، أراهم هكذا، ويروننا هكذا.. لكن.. لا.. هناك متعصبون.. هناك متطرفون كما سوف تثبت لنا الأحداث مستقبلًا.

تملكني غضب كالذى ينال من فتاة جميلة عفيفة تتهم بالزني. شل تفكيرى، كانت صدمتى كبيرة فعلا، لم أتخيل يومًا أن أمر بموقف مثل هذا، ومع مَن؟ إنها تلك التي اعتقدتها قريبة من قلبي، كنتُ مترددًا في مصاحبتها والزواج بها والسفر معها إلى بلدها، ولكنني في لحظة ما قررتُ أن أتزوجها وأسافر معها، ماذا كان سيحدث معي إن هي استمرت على خداعها لي ولم تحدثني عن جماعتها التبشيرية إلا بعد سفرى معها؟!

Scanned with CamScanner

كثيرة هي الأشكال التي تتشكلها الشياطين، ويا لها من أشكال جميلة.

بمنتهى الصعوبة عدتُ إلى شقتي، اندهشت من صمودي أمام انجرافي، كدتُ أجن من سقطتي، يبدو أن القوة تتولد أمام الضغوط الشديدة. ارتميت بملابسي على السرير، لم أشعر بنفسي إلا في الساعة الثالثة عصرًا، استيقظت على رنين الهاتف، فإذا بها إيمان هلال.

من الأمور التي أجد لها أصلًا في إظهار صلاح الفرد من ضلاله، أن يهيئ له الله أطواق النجاة في اللحظات المناسبة. فألا تفهم المعني الخفي من غمز أو لمز فتاة إلا بعد أن ترحل هذه الفتاة، فهذا توفيق من الله بألا تقع في بئر المعصية، وعندما تتصل بي إيمان لمجرد الحديث، فهي تجذبني من تلك الدوامة التي تمسك بي فلا أستطيع منها الفكاك.

ابتسمت وأنا أتبادل الحديث مع إيمان، هي طوق النجاة لي، هي اليد التي أرسلت لي كي تحنو على، كي ترشدني إلى الطريق، عليّ أن أقترب منها اليوم قبل الغد، طلبتُ منها أن نتقابل بعد ساعتين من الآن، وافقت.

لكن قبل ذلك هناك خطوة مهمة يجب اتخاذها بشأن چينا والتر وابنتها.

■■■

(20)

الجائع

حاتم فكري..

قبل أن تشتعل الأحداث وتصل إلى ما وصلت إليه اليوم، كنتُ أجلس في مكتبي، أجرى عددًا من اتصالات العمل، صفقات، تعاملات، تحويلات بنكية من وإلى الشركة. تحتاج تلك الأمور إلى قدر كبير من التركيز.

من أهم عوامل النجاح، التي تعلمت بعضها من الدكتور جمال عبدالنعيم، الإهتمام بكل التفاصيل، مهما كانت صغيرة، وعليّ متابعتها بنفسي. فكم من صغائر الأمور تطورت فجأة وأدت إلى كارثة حقيقية، كم من الشركات والمصانع تحولت إلى كومة من الرماد بسبب شرارة كهربائية قد تحدث لأي سبب.

و قد يبدو للبعض أن التركيز في كافة التفاصيل بهذا الشكل أمر يسير لكنه لم يكن يسيرًا بالمرة، هذه التفاصيل ترهقني بالفعل. لديّ قناعة تامة بضرورة حصولي على قسط من الراحة للقضاء على ذلك التعب الذي يتملكني، وما ذلك إلا لاستكمال العمل على الوجه الأمثل، فلن يأتي

Scanned with CamScanner

الغد إلا بالخسارة إذا كنت مرهقًا متعبًا على هذا النحو، لذا كنتُ ألتمس مقومات الهدوء والراحة.

أمل زوجتي أصبحت ملاذًا شرعيا لتفريغ طاقتي، مثل جائع يسد رمقه بأي طعام، لا يمتلك رفاهية الاختيار ليبحث عن صنف مميز يشتهيه.

الحقيقة أني كنت أشتهي واحدة بعينها، رغم أنها اختفت تمامًا، لكن صورتها أحكمت قبضتها على قلبي، كيف يكون النسيان، وها هي السنين تمر ولا زالت تتجسد أمامي في ملابسها الخفيفة التي تظهر ذراعيها البضتين، وثغرها الباسم وشفتيها الصغيرتين الرائعتين. كم تاقت روحي لها، مؤكد سيأتي اليوم الذي يتحقق لي فيه ما أريده.

متى وكيف؟ لا أعلم.

هي مشيئة الله سبحانه وتعالى، وإلا لماذا أنزل في قلبي محبتها مذ رأيتها؟! وحتى إن كان ما في قلبي نزغ من الشيطان، فيجب أن أسعى لتحقيقه كي أشبع رغباتي وتهدأ نفسي وأتفرغ لمهامي الكبرى.

أتذكر لحظاتي الأولى معها، دائما ما كانت تتجسد أمام ناظري حلوة تأخذ بعقلي وقلبي، كنتُ أعتصرها في خيالي، أمتصها يوميًا، حتى بعد أن رحلت مع أسرتها عن المكان.

أخرج من أفكاري المتلاطمة هذه على باب مكتبي الذي يفتح بلا استئذان، شهقت، وفي اللحظة الأولى التي قررتُ فيها اتخاذ موقفًا صارمًا ضد من قام بهذا الفعل، وجدتُ سماح تظهر من الباب المفتوح وتكسوها علامات هي مزيج بين السعادة والدهشة، تلك الحالة التي يمكن أن يقال عنها: شخص مأخوذ من فرط سعادته. يدها اليمني ممتدة

خلفها، جزء من اللحظة تمر حتى تظهر في يدها يد، تُمسك بها بقوة وإن كانت لا تجذبها بنفس القوة، فالذراعان مرتخيان.

صاحبة اليد الأخرى هي تريزة، تأتي خلفها وقد هربت الدماء من وجهها، فبدا شاحبًا، خجلى، رقيقة تحاكي صورتها الملائكة الذين لم نرهم، لكننا نتخيلهم باستمرار على أنهم ذو بشرة بيضاء ناصعة ويرتدون ملابس بيضاء، يتمادي خيالنا فنخلق لهم أجنحة لها ريش أبيض كي نميزهم عن بني البشر. لا أعلم لماذا جمح الخيال فتصور الملائكة بشرًا مجنحين، وكأن أحسن صورة يصل إليها عقلنا البشرى، هي صورة البشرى أيضًا.

جمال تريزة الوليد سرى في جسدي ليستقر في قلبي بشكل جعلني أتمني أن أتلقاها في أحضاني، أمتص شفتيها الشبيهتان بحبتا كريز، تداعب يداى أذنيها في رفق، لقد أتتني وأنا في لحظة ذوبان، و...

تهتف سماح بصوت مملوء بالسعادة، تشير نحو تريزة ثم تتحدث إليّ، بصعوبة تخرج كلماتها التي تتعثر من أثر تدافعها:

- تريزة تريد إعلان إسلامها يا أستاذ حاتم.

صمت عظيم يعم الغرفة حتى إنني لم أجد كلمات لتعبر عما بداخلي، وقفتُ مكاني أشير بيديّ في الهواء عدة مرات ثم أجلس، ما أن أستقر حتى أقف مرة أخرى، أتحرك في المكتب بلا هدف واضح، تعلو وجهى علامات سعادة صافية، لم أجد ما أقوله، نازعتُ رغبتي في احتضانها، همست:

- مبروك..

Scanned with CamScanner

تراخت عضلات وجهها، تفرستُ ملامحها العذبة وكأني أراها للمرة الأولى، يبدو أن قسمات الوجه تتغير وفقًا لما نعتقده، تنفستُ بهدوء، تناولت كوب الماء الموضوع أمامي، كأني أبحث عن مبرر لصمتي قبل أن أقول:

- مبروك يا تريزة.

- أشكرك يا أستاذ حاتم.

تجيب تريزة وهي تجلس بعدما أشرتُ لها بالجلوس. تجلس سماح على المقعد المواجه لها، يغمرها شعور كفيض النهر يتعاظم مع إحساسها بدورها المهم في تحقيق هذا النصر العظيم.

تبتسم سماح ومن فرط سعادتها لم تجد ما تقوله في تلك اللحظة لكنها تذكرت أمر مهم، طالما فكرتْ فيه منذ أن استشعرت رغبة تريزة في إعلان إسلامها، يجب أن يتم تغيير الاسم. لقد اختارت اسم زينب، لم تحدثها به من قبل، تأتي الفرصة الآن، قالت:

- هل اخترتِ إسمك الجديد.. أم أختاره أنا؟

أجابتها تريزة على الفور بتلقائية أدهشتهم:

- فاطمة.

ينظر حاتم نحوها سعيدًا، تجرى الأمور على أفضل وجه، يبدو على وجه تريزة يقين وراحة جعلاه في حالة نشوة. نصر اليوم يفوق أي نصر سابق، لقد خدم الدعوة بالكثير، يتبرع بالكثير من المال، يساعد شباب في العمل، في الزواج، في الحصول على شقق، له مع رجاله ومع شيخه مجهودات عظيمة في رعاية أسر تنتظر عطفهم مع أول كل شهر فيضمنون بذلك ولائهم، يساعد في توفير ترسانة أسلحة وإن كانت خفية

فهي مجهزة ليوم آت لا ريب ينتصر فيه الإسلام على أعداءه من بني علمان وأعوانهم الكفرة، كل ذلك وأكثر لم يغمره بتلك السعادة التي يشعر بها الآن. أراد أن يهتك ستار الصمت الذي يغمرهم بعد جملة تريزة الأخيرة، فقال:

- و لماذا فاطمة؟

تمط تريزة شفتيها وعلى وجهها علامات حائرة بين الدهشة والسعادة والترقب، فقد طار عقلها في تلك اللحظة، بلا رغبة منها، إلى والديها، لكنها هزت رأسها كمن ينفض همًا ثقيلًا ليؤجله إلى حين، ثم قالت بهدوء:

- شيء كهاتف أتاني أكثر من مرة.. أتاني في أحلامي.. سمعته أيضًا في يقظتي يناديني بفاطمة.. استشعرتُ أن هذا هو اسمي إذا أنا أعلنت إسلامي.

- تمام يا فاطمة.. إن شاء المولى عز وجل تعلني إسلامك، ثم نقدم لكِ طلب لتغيير الإسم والديانة.

لا تدرى فاطمة لماذا تجسدت صورة والديها أمامها مرة ثانية، ترتبك، يلاحظ حاتم ذلك الارتباك المرتسم على وجهها، يستشعر ما يدور في أعماقها، طبيعي جدًا أن تتوجس خيفة من الغد، خاصة خشيتها من أهلها ورجال دينها. هناك حالات كثيرة مشابهه لم تمر بسلام أبدًا. أراد أن يزرع بداخلها بذور الطمأنينة فقال:

- لا تخشى شيئًا يا فاطمة.. ربنا هداكى للإسلام وهو القادر على حمايتكِ من أي خطر.

Scanned with CamScanner

تتألم فاطمة بعد تخيلها كم ما ينتظرها من متاعب، تشاهد أمها وقد انهارت ووالدها باكيًا في صمت، قالت:

– ماما.. وبابا يا أستاذ حاتم..

لقد قصدت تريزة مكتبي واحتمت بي، لا أعلم لماذا تملكتني في تلك اللحظة روح شرسة مقاتلة، قررتُ التحدي والتصدي لأي محاولة قد تُثني تريزة عن إسلامها، سوف يتعاون معي الأخوة الأفاضل لتحقيق هذا النصر العظيم، هذا الفتح الذي قلما يحدث. إسلام تريزة على يديَّ مكافأة ومنحة من الله عز وجل، هدية أهدائيها ولن أردها وأحرم أجرها مهما كانت المخاطر التي تنتظرني في هذا الدرب.

وقفتُ وقبضة يدي منقبضة على ألف معني، اقتربت لمواجهة تريزة، تقف سماح سريعًا لتخلى المقعد المواجه لها، جلستُ وأنا أتأملها، مشاعرها الملتهبة الخائفة زادتها رقة وعذوبة.

تريزة.. أقصد فاطمة.. بشرتها برونزية تميل إلى البياض قليلًا، وجهها المستطيل بهدوء يحتوى على أنف صغير يعلو شفتين مكتنزتين، وكأن الأنف عمود شاهق يحمل زهرتى لوتس في أحد المعابد الأسطورية، عينان يحتويان تفاصيل الكون، بحار تغوص في أعماقهما وإن كنت لا تجيد السباحة. تخيلتها مرتدية ما يخفى شعرها الممسوج المعقوص وقد انسدل الغطاء على دفتى وجهها. طافت أمام ناظرى صورة مرسومة للعذراء مريم برداءها الأحمر القاني المسدل على وجهها في عذوبة ويسر.

البتول.. سيدة أسلمت نفسها إلى خالق الكون، أنجبت نبيًا من كلمة الله سبحانه وتعالى، يتحدث في مهده، يترعرع مقاومًا الجهل، يدعو البشرية جمعاء إلى عبادة رب الكون. تحدثتُ إلى فاطمة بهدوء:

– أظن يا فاطمة.. ما سيحدث معكِ ليس قطرة في بحر مما حدث مع السيدة العذراء.

وكأنها تذكرت تاريخ البتول كله في لحظة واحدة، فقد ارتسمت على ملامحها لحظة هدوء فتمثلت صورتها تمامًا، وكأن روح العذراء مريم كانت تطوف حولها وتلبستها في تلك اللحظات، فاطمة ترتدي بلوزة حمراء ينعكس طيفها على بشرتها، تأملتها كثيرًا، لاحظتُ اختفاء الصليب من السلسلة المعلقة في رقبتها، كان ظاهرًا من قبل، هل وارته في صدرها أم نزعته؟ استشعرت فاطمة سؤالى بعد أن تابعت نظراتى، أجابت:

– نزعتُ الصليب من السلسلة.. شعرتُ بأني أصبحتُ فتاة أخرى تمامًا.

هتفت سماح بنبرات رشيقة مفعمة بسعادة عصفور يطير للمرة الأولى:

– أنتِ فعلًا فتاة ثانية.. فاطمة.. فـــاطمة.

تنطق اسمها وكأنها تتذوقه، تطيل في نطقها له، كمن يسكب ماءًا باردًا معطرًا بماء الورد في فيه بعد عطش طويل وتوق إلى الماء.

تابعتُ تأثير جملة سماح على وجه فاطمة، كان هناك طيفًا رشيقا يتراقص على وجنتيها، التقطتُ ذلك الطيف ومزجته بيقيني وإصرارى وأنا أقول لها:

– و الآن توضأى يا فاطمة.. لتعلني إسلامك هنا.. بعدها تعودين إلى بيتك، الأمر سيظل سرًا حتى نرتب ما سنفعله بإذن الله تعالى.

– لن أستطيع التعـ..

– أسبوع يا فاطمة.. حتى نرتب كل شيء.. الأهم الآن أريدك ألا تخافى.. أما المشاكل المنتظرة.. فنحن لها إن شاء الله..

■■■

Scanned with CamScanner

(21)

العاشقة(*)

الحب .. العشق .. الذوبان والتفاني.. رسالة كونية، هي سر الكون، الحب الذي سري كفيض من نور بين آدم و حواء، فنَقِمَ عليهم إبليس الرجيم، شاهد الهناءة في أعينهم، فاشتعلت في قلبه النيران، ففعل ما فعل.. شاهد هابيل يعيش سر الكون، يعيش الحب، فيُشعل صدر أخيه ليقتله.. وحتى اليوم..

وكل مُحب محسود..

لقد أحببتُ.. ولم يتركوني وشأني.. سرى الحب في جسدي، تدفق في عروقي، تخللني مع أنفاسي، شعرت بحلاوته منذ اللحظة التي قُلت فيها «أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله»..

شهادة التوحيد، نطقت بها فتحولت من تريزة إلى فاطمة. الانتقال لم يكن بتغيير الاسم وفقط، كان انتقالاً روحيًا، أصبحتُ فتاة أخرى. تمر أيام تعلمتُ فيها، من سماح، كيفية الوضوء والصلاة، حفظت آيات من القرآن الكريم، بالتحديد قصار السور، كانت تؤثرني سورة الإخلاص، هي لوحدانية الإله، لا ولد له، العقيدة التي تربيت عليها أن له ولد!!

(*) العاشقة Amator في اللاتينية.

بسم الله الرحمن الرحيم:

﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝٤﴾ صدق الله العظيم

في هذه الأيام كنت أمارس عملًا خفيفًا، معظم عملي حمله عني الزملاء، تغطى وجوههم سعادة لا توصف، مشاركة منهم في هذا الإنجاز، يرغبون بالتخفيف عني مساعدتي في التعمق في دينهم، كأن كل أجر سوف أناله في الآخرة سيقتسمونه معي. تطوع بعضهم بجلب كتيبات لتعليم أساسيات الدين الإسلامي، كتيبات لم تقرأ بعد، بعض صفحاتها لا تزال ملتصقة.

أشعر بروحي شفافة تهيم في علياء الكون برشاقة وابتسام، تحنو بيد رقيقة على أجنحة الطيور، تمر هامسة في أذن العشاق، تقترب لتزرع الأمل في قلوب الحيارى، رأيتُ من الكون ما لم آره من قبل، لقد نطقتْ أمامي الطيور والأشجار، بل والأحجار الصماء، نطقوا جميعًا مرحبين، سعداء بي. إذا ارتكنتُ لجدار همس لخلايا ظهري، إذا استظللتُ بشجرة شخشخت أوراقها فَرَحَة، تُسقط وريقات تمس وجنتيَّ، لطيفة كانت. إذا اصطدمت جبال السماء لتسقط المطر أتاني صوتها كعزف موسيقى يصاحب ملحمتي، فإذا ما سقطت الأمطار كانت لتغسل ذنوبي الماضية ولتجعلني فتاة جديدة، وإن حجبت سحابة شعاع شمس ابتسمتُ لها شاكرة لأنها اختارتني لتظللني، وإن أصابني شعاع شمس ابتسمتُ له وكأنه اصبع في يد عملاقة تشير نحوى لتخبر الكون بأني أعلنت إسلامى وأصبحت فاطمة بدلًا من تريزة.

Scanned with CamScanner

مارستُ معي سماح دور المُعلم، المدرس الخصوصى الذي تم ندبه لـي، تقبل حاتم فكـري ذلك الدور الجديد لسـماح فخفف عنها العمل، بينما مارس هو دور مدير المدرسة الإيمانية التي لا طلبة فيها إلا أنا.

تحـول معظم وقت العمل إلى وقـت درس وتفقه في أمور الدين. إذا عَـنَ لـي جديد صَعُبَ على سـماح الخوض فيـه، ننطلق معًـا إلى حاتم، نسـأله وننهـل من علمه، بدا لـي متبحرًا في الدين الإسـلامي، جامعًا من لآلئـه الكثير، حافظًـا لمعظم قرآنه إن لم يكن كله، والكثير من الأحاديث النبوية الشريفة التي يستشهد بها في كل موقف ويدعم بها كل رأى. كنت أنظر نحوه مبتسـمة، سـعيدة بقدراته هذه، كنا نعرفه حازمًا في العمل، لم تسنح لنا الفرصة لمشاهدة جانب آخر من حياته، أما وقد واتتني الفرصة واقتربت منه، فقد رأيته شخصًا فريدًا، جميلًا في بعض الأحيان.

كثيـرًا ما يتعلق الغريق بمن ينقذه، يعتبره سـبب حياتـه التي كادت أن تنقضى. تعلقتُ بحاتم، أتلمس خطاى المتعثرة نحوه متسائلة عن أي أمر يخطـر على بالى، في ذلك الحين قد أكون مبالغة عندما تخيلتُ أنه ينتظر دخولـى إليه مكتبـه، لكن الأيـام التالية أثبتـت بالفعل أنـه كان ينتظرني، يتنظرني بشـوق إن أردنا الدقة، تظهر على ملامحه سـعادة وإن حاول أن يخفيها. أكد ظني تكليفه لسـماح بمهام قليلة نشـترك فيهـا معًا، ليترك لنا فرصة الانفراد ببعضنا.

الحقيقـة أنـه لم يتعدي حـدوده معي لا باللفـظ أو بالفعل، ما جعلني ألتزم بمكاني لا أتعداه، إضافة إلى انشغالى بالتعلم والتحصيل.

شـعور جميل يتملكني، يحتويني مع كل إشـراقة جديـدة في حياتى، كأنني كنت أسـير في طريق طويل مظلم، كلما خطوت فيه خطوة جديدة يضاء معها مصباح أبيض مُبهج، حالة من السمو والرقى الروحى.

الجزئيـة التي ذهبتُ بمعظم تفكيرى بل زادت همومى، نظرات الريبة التـي تعتلى وجه أمى. لم أكن أتقابل مع والدي غير أوقات تناول الطعام أو مشـاهدة التلفزيـون وهـي قليلة، كنت حريصـة، في الأيـام التي تلت إعلان إسـلامى، على ألا أغير من عاداتى وسلوكى كي لا ألفت الأنظار، فكنـتُ أجلس معهم ممارسـة لبعض الطقوس، جسـدًا بلا روح، روحى كانت باسـتمرار تهيم فيما تحتسيه من رشفات إيمانية، تتذوقها كثيرًا قبل أن تبتلعها، تلوكها بعشق، تمتصها رحيقًا لا ينتهى، لا أستطيع الفكاك من روعتها، لذا كنتُ كثيرة الشرود. إنه التوهان كما وصفته أمى عندما دلفت إلـى حجرتـى وأغلقتُ بابهـا خلفها، تجلس وعلـى ملامحها خليط قلق متسـاءل دَهِش.. تفحصتني وأنا أجلس القرفصاء على سـريرى، جلستى المفضلة للتأمل. تجذب كرسـيًا، لم تفضل الجلوس على حافة السـرير كعادتها، ترغب في مواجهتى، ترسل سهامها لتغوص في عينيَّ باحثة عن أي صيد لتتقوى به، سألتني بعد برهة صمت:

- مالك يا تريزة؟!

تريزة؟! أوشكتُ على نسيانه، الجميع، في العمل، ينادونني فاطمة. لاحظـتُ أنه قد تمر أيـام علينا في المنزل لا ينادي أحدنا الآخر باسـمه، يتوجه إليه بالحديث مباشرة، لا داعي لاستخدام الاسم. أحسب أن ذلك أمرًا شـائعًا بين معظم الأسر. استغربت الاسم، بدا غريبًا على أذني، شيئًا جامدًا فوق وسـادة مخملية، نقطة سـوداء على ثوب أبيـض. زادت فترة صمتـى، أعادت أمى على مسـامعي نفـس السـؤال وإن كان بلهجة أكثر

Scanned with CamScanner

استعطافًا وقسوة، قسوة تبعث من إصرارها على معرفة ما تستشعره بقلبها، أجبتها بهدوء:

– لا شيء يا أمي.. أنا عادية جدًا.

كستها دهشة حاولتُ إظهارها لتحثني على الكلام، غاصت مشاعر أمي في قلبي. الحقيقة التي لا أستطيع إنكارها هي محبتي لأمي، قريبة من قلبي كصديقة قبل أن تكون أمًا، فأنا ابنتها البكر التي تشربت كل محبتها وحنينها. كانت تؤثر الوحدة وترفض الصداقات، تبتعد بي عن الجيران المسلمين، إئتنست واحدتنا بالأخرى. مع مرور السنوات شاركتها في تربية اخوتي الصغار، كنتُ أقوم بكل مهام الأمومة عدا الرضاعة، حتى هذه بعضها صناعي فتشاركنا فيها، اكتسبت صفات الأمومة حتى كست بعضها ملامحي، فاقتربتُ من أمي، مما صعّب مهمتي الآن، كيف أنكر أمري عنها وأنا أشعر بها تقرأني، زادت حيرتي، أشحتُ عنها، وقعت عينيّ على أيقونة العذراء مريم، سألتها العون، لم تتحرك فهززتُ رأسي سريعًا ونظرت إلى السماء، لم أشاهد سقف الحجرة، شاهدتُ السماء بالفعل، سألت ربي العون، سألته بقلبي هل أصارحها بحقيقة أمري الآن، أم يظل إيماني حبيس قلبي حتى حين؟ لم أنتظر طويلا، أتى العون.. تجسد في سؤال تلقيه أمي وعلى وجهها شبح ابتسامة وهي تقول:

– تمرين بقصة حب يا تريزة؟

طوق نجاة لي، لكنه كما بدا لي في تلك اللحظة شرك تنصبه لي أمي، إن أنا أجبتها بالنفي، فأنا مطالبة بتبرير حالتي وشرودي، أما إن وافقت شكها، فعليّ أن أذكر محبوبي وصفاته.

حقائق كثيرة لا يصدقها الآخرون، ذلك لأنهم يتوقعون غيرها، لذا تعودتُ من قبل ألا أكذب، أقول الحقيقة مباشرة ومَن أمامي، يصدقها أو يكذبها، فذاك شأنه. فكرتُ لحظة في أن أقول لها أن محبوبي هو ربي، الواحد الأحد، الفرد الصمد، الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد. أوشكت أن أذكر لها بأني أذوب عشقًا في تفاصيل حياتي الجديدة، لقد عثرتُ على ذاتي بعد عناء، لن يخذلني ربي إن أنا ذكرتُ لها الحقيقة، تحركت شفتاي لتخرج حروف كلماتي، لكنها خرجت صامتة أو هي لم تخرج..

تراجعت قبيل الاعتراف بلحظات، أثرتُ السكينة، فضلتُ الانتظار حتى تمر المدة التي وعدني بها حاتم فكري، ابتسمتُ برشاقة مصطنعة وجعلت الدماء تصعد إلى وجنتي كي تكتسي بحمرة الخجل، اقتربتُ منها، عانقتُ يديها براحتيّ كي أشتت تركيزها ونظراتها التي تعريني وتفضح كذبي، تنهدتُ كي أضفي على كلماتي مصداقية وأنا أخبرها بحروف متعثرة:

– فعلًا يا ماما.. مشاعر وليدة.. (زفرتُ لأشعرها بصدقي) الأمر صعب، لذلك أنفرد بذاتي حتى تهدأ مشاعري.

– مَن هو؟

– صاحب مصنع بلاستيك، يتعامل مع الشركة التي أعمل بها، تحدثنا أكثر من مرة، بخصوص العمل بالطبع.. لكن هو فوق.. وإحنا فين يا ماما..!!

– مسلم يا تريزة؟

لا أعلم لماذا ارتبكت من السؤال واعتبرته جرس إنذار أو تنبيه لعدم الخوض في طريق الكذب، وأنه حري بي أن أقول الحقيقة بشكل مباشر،

Scanned with CamScanner

لا داعي مطلقا لذلك الهراء الذي أتفوه به، كل شيء سوف ينكشف عما قريب.

تسحب يديها من يدي وتعيد سؤالها بشدة وحسرة خشية أن يكون الأمر كذلك، تكسو ملامحها سريعًا قسوة أجبرتني على التمادي في كذبي، ما شغلها في المقام الأول ديانته!! تخشى أن يكون الحبيب الوهمي مسلمًا، ماذا لو علمت أني التي أعلنتُ إسلامي؟!

أجبرتني نظراتها على الاستمرار، مؤكد سوف يسامحني ربي، ابتسمتُ وأنا أحتوي يديها مرة أخرى، أرفعهما لأقبلهما برفق، ثم تحدثت بنفس الهدوء كأني أخبرها بأن تلك ليست المعضلة:

- مسيحي يا ماما.. مشكلتي في أنه فوق قوى.. و.. ومتزوج.

تشهق أمي فزعة، بينما يرقص داخلي فرحًا، فقد أخذتها بعيدًا عما أعانيه، ألقيتُ بها في بيداء ظلوم تبحث فيها عن طريق ممهد، تفكر لحظات، حتى إنها وقفت وتجولت في الحجرة قليلًا حتى هدأت وقد بدا عليها أنها تفكر بعمق، ثم عادت لتجلس وهي تقول:

- مشكلة كبيرة فعلًا.. تعرفي عن زوجته أي أمر؟

- أمر مثل ماذا يا ماما؟

- مريضة مثلًا..؟

في هذه المرة أنا مَن تحركتُ من مكاني وأعطيتها ظهري وأنا ألقى بجملتي لأترك لخيالها الجموح لتخيل مأساتي:

- لا.. لا أعلم.. أزمتي أنه لم ينظر لي تلك النظرة يا أمي، نظرته نحوي عمل وفقط.

لا أعلم لماذا تجسد أمام ناظري حاتم فكري وأنا أتحدث عن محبوبي الوهمي، رجل ثري، متزوج.. شاهدتُ زوجته ذات يوم في المصنع وعلمتُ أن اسمها أمل، لم ألحظ في عينيه يومًا نظرة اشتهاء، كثيرًا ما يشرد عني.

تخرجني أمي من شرودي وهي تقول متنهدة:

- عمومًا.. حاولي نسيانه يا تريزة..

- هذا ما أفعله..

- كلها أيام ويرزقكِ ربنا بابن الحلال.

بدا من جملة أمي الأخيرة أنها تُخفي أمرًا، رعدة غريبة تسللت إلى قلبي، تفحصتها أكثر بعينيّ وزممتُ شفتاي، تهرب بعينيها بعيدًا فتأكد شكي، سألتها:

- أتخفين عني شيئًا؟

- عمتك فريدة ألمحت لي، بأن جارتها سميرة تبحث عن عروسة لابنها هاني.. مهندس ميكانيكا ومرتبه محترم.. وقد تحدثتُ مع أبيكِ وهو موافق.

كتمت شهقتي وأخبيت فزعي ولم أجد ما أقوله.

■■■

Scanned with CamScanner

(22)

انكسار

عادل..

الأحداث طبقات، يغطى بعضها البعض، أو يطفو بعضها فوق الآخر فيواريه. فقد غطت نجاتى من شرك چينا على شعورى بالذنب مما فعلناه معًا.

انهيتُ علاقة العمل مع چينا وابتها بأن حل محلى زميل آخر يصحبهما حتى نهاية الرحلة، كنتُ أعلم أنها لن تتحدث معه كما تحدثت معي بشأن جماعة التبشير المسيحية. لم أفكر في نشر ما حدث لئلا يستغله أحد المتشددين فيتخذ خطوة تشعل فتنة لا يقدر نتائجها أحد. قابلت زميلى ذات يوم وأخبرني أنها أكملت رحلتها بمنتهى الهدوء. يبدو أنها كانت تمارس معي عملًا، تعودتُ فيه على ردود الأفعال المختلفة.

تبلد الإحساس نعمة يحظى بها البعض ليستغلها أصحاب النفوذ، أي نفوذ.. وفي أي مكان وإن اختلفت المسميات والصور.

قررتُ أن أنساها وأنسى ما حدث بيننا، لابد وأن أمحو ذلك اليوم بالكامل من حياتى، وإلا تأثرتُ به وتغير مسار حياتى مستقبلًا، وهذا ما لا أريده.

تقابلتُ مع إيمان وتحدثنا في الكثير من الموضوعات العامة والخاصة، كنتُ على يقين بأنني إذا ما اقتربت من إيمان كثيرًا، ابتعدتُ عن تلك النزوات التي أعيش بين طياتها بحكم عملى هذا، الذي قذفتني الحياة إلى دوامته دون إرادتى. اتفقنا على أن نتقابل في اليوم التالى، ثم أصبحنا نتقابل ونتحدث تلفونيًا بشكل متكرر، تسألني عن عملى وعن تحركاتى اليومية ومتى أخرج ومتى أعود.

تقربتُ من إيمان كثيرًا، بعد تفكير عميق تقدمت بطلب الزواج بها بشكل رسمى، تمت الخطوبة واتفقنا على الزواج بعد شهر واحد فقط.

علاقتى بإيمان فيها نوع من التحفظ، كنا نتعامل كأصدقاء، الحقيقة أن ارتجافة القلب الدالة على مشاعر الحب لم تظهر بيننا بعد، أو على الأقل من ناحيتى أنا، ارتحتُ لتفسير أن زواجى بإيمان هو زواج يتحكم فيه العقل ومؤكد ستأتى المشاعر مستقبلًا.

لم يكن لدينا وقت كاف خلال المدة المتبقية على الزواج كي نتقابل ونتحاور لننمى المشاعر أو حتى نجترها، انشغالى بشراء الأثاث اللازم وانشغال إيمان بشراء المستلزمات الخاصة بها كان يستهلك كل ما لدينا من وقت، يضاف إلى ذلك ارتباطى بالعمل، لم تكن هناك فرصة للحصول على أجازة، إن تركت عملى يومًا واحدًا ظهر العشرات ليحلوا محلي، الأمر بسيط وأي فرد يمكنه القيام به، وأنا المستفيد الذي يجب أن يسعي باستمرار للتواجد، إن امتنعت يوما أغلقت بابا يأتيني منه مبلغ متميز. وإن كانت الحقيقة أن عملى في مجال السياحة ومرافقة سائحين يأتون للتنزه وقضاء أوقات مرح لم أعد أعتبره عملا بقدر ما كان ترفيها.

Scanned with CamScanner

تـم الزواج، فضلنا ألا يكـون هناك حفل، رغم مقدرتـى المادية على إقامة حفل الزفاف إلا أنني وافقت على اقتراح والدها بأننا يجب أن نوفر تلك المصروفات المستهلكة في ليلة الزفاف وبجزء منها نسافر أسبوعًا كاملا إلى مدينة شـرم الشـيخ نستمتع فيـه، وافقتُ لأننـي لا أفضل تلك الاحتفـالات، لا أفضـل المجاملات التي لا تنتهـى، خاصة من الأقارب والأصدقـاء المتزوجين، أمقت العبارة القائلة «أيوه يا عريس.. ما حدش أدك..» كأنني الوحيد في العالم الذي يتزوج، وكأنهم لم يتزوجوا من قبلى ولم يفعلوا يوميا ما يحسـدونني عليه. أنا نفسـى كنـت لا أفضل الذهاب إلـى حفلات الـزواج، إن حـدث واضطـررت للذهاب كنت أسـمع من الحضور التعليقات الفظيعة على كل من في الحفل، لا ينجو أحدهم من النقد لحظة واحدة، ملابس العروسين، زينـة العروس، كيف يرقصون؟ أهل العريس وملابسهم ونظراتهم، أهل العروس وانتظارهم للمأكولات والمشـروبات التي أنفق عليها العريس وهل ستكون كافية أم هي عينات للمشـاهدة أو هـي مأكولات لـزوم الديكور؟ أكثر ما فـي تلك الحفلات مللا هـم العاملون فـي القاعات والقائمـون على الاحتفـال، يوجهونك وكأنهم قادة في ساحة الحرب وعليك أن تطيع (ارقص.. ترقص. إشرب العصيـر.. تشـرب العصير. أكلها قطعة التورتة.. تسـمع الـكلام وتأكلها على طرف الشـوكة قطعة التورتة) الأسوأ من ذلك الطريقة التي يطلبونها لأداء هذه المهام، على العروسـين أن يسقى كل منهما الأخر العصير من كأسـه بشـرط أن تتداخل أيديهـم وتتلوى كالثعابين، حتـى تصل الكأس إلى الأخر، وبما أن الفرد تعود طوال عمره المنصرم أن يمد يده بالكأس إلى فمه ويشـرب هو، فمن الصعب عليه أن يمد يده بالكأس إلى فم فرد آخر، وفي نفس اللحظة يركز ليشـرب هو من كأس أخرى مرفوعة في يد

آخر، فيتشتت التركيز بين يده الموجهة للآخر وبين فمة المستقبل لكأس أخـرى، فيرتبكان، يُدلق عليهما بعض العصير، ينقذهما فتى القاعة، قائد المعركة الحربية، بين ضحكات الحضور وتعليقاتهم السـاخرة. حقيقى. شيء فظيع.

توجهنـا لقضـاء الأسـبوع الأول في فنـدق الكونتيننتال بمدينة شـرم الشـيخ، المدينة رائعة، شمسـها سـاطعة، نسيمها يمس الخدود محملًا بروائـح الزهـور المتناثـرة فـي كل مـكان، أفـواج السـياح والعاملين المصريين، يتمتعون بـروح الدعابة حيث رغبة الاستمتاع التي تسـيطر على الجميع.

كنـت أعتقـد أنني فـارس ولـن أجد أية مشـقة فـي ليلة الدخلـة، فأنا مثل كثير من أقراني شـاهدتُ الأفلام الإباحية والممارسـات الجنسـية، تعاملت مع فتيات وسـيدات من مختلف الجنسـيات واستطعت التقرب منهن حتى درجات القبلات والأحضان في لحظات النشوة. بل مارستُ مع چينا الجنس في سـيارتى. ما حدث ليلة دخلتنا كان أمرًا مختلفًا، فقد شعرتُ بارتباك حقيقى، كنا ونحن في طريقنا إلى شرم الشيخ نحمل على وجوهنا سعادة وفي قلوبنا حيرة وارتباك.

بعـد الاسـتقبال وعبـارات الترحيـب فـي الفنـدق، فقد كنـا بملابس الزفـاف، دخلنـا إلـى غرفتنـا، كنـت أوارى ارتباكـى اللحظـى بتجاهله، أتحـدث كثيـرًا فـي أي أمـر، أبحث عن أي فعـل أقوم به. بعـد أن غيرت ملابسـى ألفيت إيمان لا تزال جالسـة مكانها بفسـتانها الأبيض، خجلى كانت، اقتربتُ منها كي أخفف عنها وطأة اللحظة قائلًا:

– ألن تستبدلى ثيابك؟

Scanned with CamScanner

– شـ.. شوية..

خرجت الحروف واهنة، ابتلعتْ لعابها بصعوبة، كان حلقها جافًا جدًّا فخرجت الحروف كشجيرات هزيلة تعاني فقد الماء. بداخلي تصارعت الأفكار والأحاسيس، مطلوب مني التخفيف عنها وتشجيعها، وأنا.. من يشجعني؟! خرجت الكلمات مني همسًا «دا أيه الوقعة السودا دي» لم أشعر بكلماتي إلا عندما سألتني إيمان:

– ماذا؟

– نعم؟.. لا.. لا شيء.. قصدي.. أقول.. لتأخذى حمامًا منعشًا

كنت أتمني بالفعل أن تذهب خلف أي باب، أن تختفى من أمامى عدة دقائق كي أستجمع فيها أطراف شجاعتى. تحركتْ بهدوء نحو الحقيبة لتأخذ منها ملابس النوم، الحقيبة المغلقة ثقيلة، وفستانها الأبيض المنفوش لا يدع لها الفرصة، بالإضافة إلى ارتباكها البادي على حركة يدها، توجهتُ ناحيتها وساعدتها في حمل الحقيبة ووضعها على حافة السرير وفتحها، مدت يدها بنفس الخجل لتحمل قطع ملابسها الداخلية، التفتُ، وأنا أشيح بيدي في الهواء لأدفع بها أشباح الضعف بعيدًا، لأنظر إلى الخارج عبر الشرفة.

توجهتْ إيمان نحو الحمام وأغلقتْ بابه خلفها بإحكام، تنفستُ بسعادة وكأني نسيت أني كائن حى يتنفس، لم أكن في ذلك التوقيت مدخنًا، لكني حملت معي في حقيبتى علبة سجائر، لا أدرى لماذا حملتها معي، يبدو أن عقلى الباطن كان يدرك مسبقًا ما ستئول إليه حالتى، استخرجت علبة السجائر وأشعلت سيجارة أنفث دخانها بهدوء.

تمر الدقائق ثقيلة قلقة في البداية حتى تراخت عضلات جسدي وذهبت تلك التقلصات، لم أعد أطبق أسناني بشدة على بعضها البعض، ولا أعلم لماذا أصلًا كنتُ أضغطها بهذا الشكل!!

تخرج إيمان وقد ارتدت بيجامة نوم خفيفة تكشف عن جزء كبير من صدرها، ضيقة عند الوسط لتبرز باقى مفاتنها، بينما تركتْ شعرها مسدلًا على كتفيها، قابلتها مبتسمًا، أحطتها بذراعي حتى أجلستها على حافة السرير:

– لنأكل؟

– لست جوعانة..

– نشرب عصير..

على مائدة في جانب الغرفة طعام ومشروبات مُعدة سلفا، صببت كأسين من العصير وعدتُ إليها، كنت أنتظر أن تقف وتتحرك بحرية وتبدأ في مداعبتى برقة، لكنها ظلت خاملة ولا أدرى إلى متى؟ علىّ إذن أن أقوم بكل الخطوات المطلوبة، شربنا العصير، حاولتُ إخراجها من حالة التركيز الفكرى على الحدث المنتظر فحدثتها عن سفرنا والطريق الطويل وعن استقبال عمال الاستراحة في منتصف الطريق لنا وضحكنا لحظة أن تذكرنا الفتاة التي أطلقت زغرودة طويلة وعلقت من بين ضحكاتى:

– لقد نفحتها بقشيشًا أسعدها، لا أحب أن أُحبط مَن ينتظر.

انتهت المواقف وخفتت أصواتنا وانتهى الضحك..

– و بعدين؟

Scanned with CamScanner

سألتُ نفسي، أتت الإجابة بحركة هادئة، حيث التفتُ إليها ومسحت بيدي على شعرها، تنكمش في بعضها كسلحفاة صغيرة، اقتربتُ منها أكثر، لم تبتعد، بهدوء أنزلت يدي مداعبا أذنها اليسرى ثم سحبت يدي إلى رقبتها، شعرتُ بالدماء تتدفق إلى وجنتيها، حرارتها انتقلت إليّ، احمرار خفيف يعلوها، لم أتركها فريسة خجلها، فتحتُ أزرار بيجامتها واحدًا تلو الآخر.

بعد دقائق من المحاولة جلستُ على السرير شاعرًا بالارهاق وألم الفشل، بينما إيمان إلى جوارى ممددة صامتة. ماذا حدث؟ الدماء هاربة مني، لا أستطيع التركيز لحظة واحدة كي انتصب لأكمل العملية.

تجولتُ في الحجرة باحثًا عن لا شيء، هدأتُ قليلًا، تذكرت چينا والتر وما فعلناه في سيارتى، تذكرتُ ما كنت أشاهده في الأفلام الجنسية، فرق شاسع بين ذلك وما أنا فيه الآن، مؤكد ذلك، إنهن محترفات، مارسن الجنس لسنوات فأصبحن أصحاب فروج متسعة تسهل عملية الإيلاج، هذا الاتساع لم أجده اليوم.

الأمر إذن غاية في الصعوبة، لكن يجب عليّ إتمامه الآن. أنا لا احتمل الفشل ليحل ضيفًا، خصوصًا في هذا الأمر. لابد من التحرك بأي شكل.

■■■

(23)

الهروب

فاطمة..

رغم ذلك اليقين وتلك السعادة التي أنعم بينهما، إلا أنني كنت مشغولة البال عن هذا النعيم، فلم أرى غير قليل من جمال الكون من حولى، لم أشاهد تلك الأسرار الكامنة خلف الأشياء، أسرار الحياة التي بان لي بعضها مع بيان سر حياتى لي، وما ذلك إلا لاستشعارى نمو بذور الريبة في قلب والديّ، حتى إن والدتى كانت تدخل إلى غرفتى فجأة بلا استئذان كي تكتشف شيئًا مما ترتاب فيه، ترتبك لحظة مواجهتى وهي تبحث عن أي مبرر لتصرفها هذا. أدركتُ ذلك فزادت حيرتي يبدو أن قلبها لم يطمئن لقصتي الوهمية عن الحبيب المتزوج.

واقع الأمر أنني كنت أنتظر أن يستدعيني حاتم فكري كي يخبرني بخطوتى التالية، لم أشأ أن أتعجله حتى يتم ترتيب الأمر على أكمل وجه كما أخبرني من قبل، أما وقد استشعرت ريبة والدتى فقد ذهبت إلى حاتم في مكتبه.

يستقبلني بابتسامته الهادئة الواثقة، أسير بهدوء متعثرة في عقبات وهمية حتى أجلس لا أدرى ماذا أقول، يقف حاتم، ثم يدور حول مكتبه

Scanned with CamScanner

ليجلس في مواجهتي، كنت أرتدي غطاءًا خفيفًا على رأسي، اخترته خفيفًا كي لا يأخذ حيزًا في حقيبة يدي، أستخرجه منها وقت صلاتي في المنزل وطوال فترة عملي. حدثته بمخاوفي، يتأملني حاتم قليلًا قبل أن يقول:

– أما وقد وصل الأمر إلى هذا الحد.. فلابد وأن تتركي المنزل يا فاطمة.

كنت أعلم علم اليقين أن استمرار حياتي مع والديّ أمر مستحيل، لكني دُهشت عند سماع جملته الأخيرة، لابد وأن أترك منزلي!! كيف ذلك؟ ماضيَّ وحاضري أتركه وأرحل؟! إلى أين؟ ما هي محطتي التالية؟

كمن شُل بلا ألم فجأة، توقفتْ كل حواسي، عقلي أصبح صفحة بيضاء، كأني فقدتُ الذاكرة، نظرتُ إلى الكون كله في لحظة واحدة، ألفيتني غريبة عنه.

من أنا أو كيف أنا؟ لا أعلم.. حتى الكلمات تاهت من ذاكرتي.

دفقات الأمل التي تصطدم مع جرعات الألم تُوقف الذهن، تصيب مركز التفكير بالخواء، مثل نور أبيض شديد يسطع فجأة فيصيب الناظر بعمى مؤقت. لا أجد ما أتحدث به، كأنني لا شيء، أتلاشى، أذوب في هذا الكون الواسع، شعرت بيأس يتسرب إلى نفسي، وكأن الحياة تلفظني، لا تريدني كلمة على صفحتها، جلست كتلة صماء. توقعتُ أن أنهار، أن أفقد الوعي، أن تبتلعني تلك الدوامة الرهيبة، توقعت أن يحدث ذلك وأكثر، لكن ما حدث كان عكس ذلك تمامًا، فقد شعرت بإحساس غريب يسري في جسدي، وكثير مما أمر به غريب، إنه شعور ببدايات سعادة، أشعر بها تتخللني رشيقة، بسماتها عذبة عذوبة النهر،

تذكرت النيل العظيم يحتوى الأرض بحلو ماءه وجميل نسماته، ينشر الحب والخير أينما تحرك، لا غرابة أن جعله الأجداد إلهًا وأسموه حابي.

يبدو أن حاتم كان قد تحدث بينما أنا شاردة الذهن، فقد رفع يده وأشاح به في الهواء أمام عينيَّ، ابتسمتُ ابتسامة هادئة، رسمتها على وجهي كغلالة حريرية بيضاء تستطيع يد حانية جمعها، كانت يد حاتم فكري.

في اللحظة التي حرك يده في الهواء أمام عينيّ، عدتُ إلى أرض الواقع من رحلة شرودي في جزر الخيال، فابتسمت، وكأن تلك الابتسامة كانت إشارة البدء، أو كانت شفرة المرور، كي يتحرك حاتم إلى حافة مقعدة فيصبح قريبًا مني بشكل كبير، يمد يده نحوى، لم أرتد إلى الخلف، ذهولًا أو رغبة.. لا أدرى. للمرة الأولى ألاحظ أن ذراعه طويلة، للحظة تخيلتها مطاطية، قبل أن أفيق مست يده اليمني وجنتي اليسرى لحظة، داعبت أصابعة أذني.. رقيقة دافئة كانت أصابعة، ينتابني إحساس للمرة الأولى في حياتي، لم أشعر به من قبل، له لذة وحنو ودفء، نسيتُ عمرى المنصرم، نسيتُ غدي المجهول، عشت لحظة فريدة حقًا، يسرى بداخلي خدر لذيذ له مذاق لم أجربه من قبل.

لم أكن أعلم أن الأذن تمتلك أهداب عشق بهذا الكم، ترسل إشارات لا حد لها، قوية كانت، أذابت خلايا جسدي، شعرتُ بأسفلى ينقبض بقوة، عَطِشًا جائعًا يود لو يلتهم بقوة.

الحقيقة أنني، في الأيام الأخيرة، كنتُ في حالة من الشفافية والرقة والذوبان لدرجة الهشاشة مثل كوب كريستالى رقيق لا يتحمل ضغط يد وإن كانت حانية، لم أكن في حاجة إلى إثارة أخرى، كدتُ أنهار وأنا

Scanned with CamScanner

أشعر بجسدي ينزلق في المقعد الذي بدا وثيرًا كسرير كبير بداخل حجرة خافتة الإضاءة وقد تماوجت بداخلها عطور الفل والياسمين. لكن...

لكن ماذا يفعل حاتم فكري؟! انتفضتُ فجأة وعدتُ بجسدي إلى الخلف، تعلو وجهي علامات دهشة، نطقتُ محذرة:

- أستاذ حاتم..!!

يسحب يده، يعتدل في جلسته، تتبدل ملامحه سريعًا، يتلعثم بكلمات أفهم بعضها:

- أنا أقصد التخفيف عنك يا فاطمة.. على العموم نحن نرتب الأمور كما أخبرتك.. الأفضل أن تعودي إلى بيتك الآن.. أيام وأخبرك بالخطوة التالية.

وقفتُ لأخرج فأمسك يدي، بيد حانية ربت راحتي وفي عينيه نظرات دافئة صاحبتها بحة شوق وشجن في صوته، أو هكذا خيل لي، وهو يقول:

- لا تقلقي يا فاطمة.. عمرك الحقيقي بدأ.. ومؤكد تعلمين أنني لا يمكن أن أفعل شيئًا يُغضب المولى عز وجل.

هززتُ رأسي وعلى وجهي ابتسامة غلبها الحزن، خرجت من حجرة مكتبه كالتائهة، لا أعلم إلى أين المستقر.

قيل لي أن وقت الدوام قد انتهى وعلينا العودة إلى منازلنا، لم أجد بداخلي أي رغبة للعودة، سرتُ وحيدة في الطرقات، شوارع خالية وإن كانت مكدسة بأكوام من البشر والجماد المتحرك، تكسوها ظلال أو تغرقها شمس لها لظى، تعرقلني عقبات في الطريق، أفيق قليلًا ثم أغرق في بحر شرودي مرة ثانية وثالثة.

دخلتُ حجرتي، لا أعلم متى أو كيف؟! أغلقت بابي وجلست قرفصائي فوق سريري تنسال على خديّ دموعي الحائرة.

فجأة يُفتح باب حجرتي لتدلف منه كتلة حية من نار ملتهبة، تلك كانت أمي، لمحتُ من بين ثناياها والدي يجلس منهارًا على كرسي في الصالة، تصرخ أمي:

- تريزة..

■■■

Scanned with CamScanner

(24)

العفـــة

عادل..

قررتُ ألا أستسلم لفشلي،عملية معقدة وصعبة فعلًا، مؤكد تحتمل الفشل مرات ومرات، أمر آخر هو أنها عملية مشتركة، لا تخصني وحدي، فلماذا أتحمل الفشل وحدي؟!

توجهت نحو إيمان لأتحدث، كانت تختبئ عارية خلف ملاءة خفيفة، خرجت الكلمات هادئة متزنة وكأنها من أحد آخر:

– إيمان.. أعتقد أننا نمتلك قدر من الثقافة يضمن لنا النجاح في ليلتنا هذه.

بنفس الخجل قالت:

– لستُ معترضة على شيء يا عادل.

– المسألة ليست موافقة أو رفض.. هذه العملية تحدث بينا نحن الإثنين، نحن نكمل بعضنا البعض، المسئولية مشتركة بيننا.

– ماذا.. أفعل؟

– تساعديني.. (ضحكتُ) لنجرى مسابقة..

– مسابقة؟!

– نعم.. نرى مَن منا سيقتحم الآخر.

ضحكنا.. أخذتها من يدها، تلف نفسها في الملاءة بسرعة، توجهنا نحو المنضدة التي تحمل الطعام، أكلتُ وأطعمتها، شربنا كثيرًا من العصائر المختلفة حتى أمتلئنا طعامًا وشرابًا وضحكًا ومداعبة. الحقيقة أن كلماتي ساعدتها كثيرًا فاقتربت مني وداعبتني فأثارتني بشكل كبير، التقينا على السرير مرة ثانية وحاولنا.. حتى نجحت عملية الإيلاج هذه المرة، ومارسنا الجنس، مارسنا الجنس وليس الحب، لأنه في هذه المرة كان له هدف آخر، هدف إثبات قدرتي وإثبات شيء آخر.

على الرغم من ذلك على ملامحنا ترفرف علامات الراحة والهدوء رغم الألم الذي كانت تعانيه إيمان لكنها تماسكت. شعرتُ بقوتي تعود إليّ وبرجولتي أيضًا، تنفستُ بسعادة وأنا أتمدد فوق السرير وقد أخذتني النشوة لحظات.

غريبة تلك الراحة التي غمرتني في تلك اللحظات، هي على العكس تمامًا مما كنتُ أشعر به بعد ممارسة الجنس مع چينا والتر، وقتها يطغى فكرها التبشيري على دفقات ندمي، بون شاسع بين ما حدث هناك وما يحدث الآن، لم أكن لأستشعره من قبل.

الجنس عملية تجمع بين الرجل والمرأة، هي زني إن لم تكن بين الزوجين، بعدها يسود الشعور بالندم واحتقار الذات، تسود غلالة قاتمة على تفاصيل الحياة بعدها، قد يهرب الفرد من قتامتها بعناد الذات وممارستها مرات ومرات بحثًا عن لذتها الحقيقة ولن يجدها. بينما على الجانب الآخر نجد أن عملية ممارسة الجنس هي أفضل شيء إن كانت بين الزوجين، تقرب بينهما، تزيد الود والمحبة، تُفرغ الطاقات وتقلل من التوتر، تُزيد من الإقبال على الحياة.

Scanned with CamScanner

فجأة تذكرتُ الشيء الأخر.. تذكرتُ الدماء، يجب أن تجفف دمائها بقطعة القماش البيضاء، أين هي تلك القطعة؟ إنها لا تزال في الحقيبة، أسرعتُ لآتيها بها، عبثت لحظات في الحقيبة كثيرة الجيوب حتى عثرتُ عليها، تتابعني إيمان وما أنْ التفتُ ناحيتها وفي يدي قطعة القماش البيضاء حتى سألتني بدهشة وعلى وجهها ابتسامة خجلى:

– ما هذا يا عادل؟

– قطعة قماش بيضاء يا إيمان.. أعطتها لي حماتي أمس.. طلبتُ مني ألا أريها لكِ إلا بعد أن ينتهي اللقاء.

– ماما؟! لماذا؟

– لأجل الدماء يا إيمان.. هذه هي الصفحة البيضة التي تكتبين عليها بدمك وثيقة الشرف. تفضلي.. جففي نفسك من تحت.

بغضب لا أدري منبعه تناولت إيمان قطعة القماش، مسحت بها أسفلها ثم رفعتها في يدها وعينيها شاردة إلى لا شيء في فضاء الغرفة، رفعتها في تردد لا أدري منبعه، لكن حيرتي لم تستمر طويلاً، فقد تبددت لحظة أن شاهدتُ قطعة القماش في يدها بيضاء كما هي، لا يوجد عليها أي شيء غير الماء المخاطي!!

في لحظة واحدة يغادرني خليط المشاعر الرائع الذي كان يحتويني، انتفض كمن به مس أو كمن استفاق على لسعة نار أو بالأدق صُعق بصاعقة كهربائية شديدة، تعتليني حالة من الذهول والانفعال وأنا أصرخ:

– نعم.. ما هذا؟

– ماذا؟! لماذا هذا الانفعال يا عادل؟

– أين الدماء يا هانم؟

– الدماء؟! لابد أنـ..

لم أستمع لكلماتها التالية، ارتديت ملابسي سريعا، كانت تتابعني مذهولة ومتسائلة عن سبب ثورتي، حملتُ تليفوني وتركتُ الغرفة، خرجتُ من الفندق إلى شوارع المدينة وفي مكان هادئ أجريت اتصالاً بأمها، لم أجد رغبة داخلي في أن أقول حماتي، صرخت فيها:

– لا دماء.. لا دماء!!

ثم أغلقت الخط ولم أرد على اتصالها أو اتصال زوجها المتتالي، ابنتهم لديها تليفون وأي معلومات يرغبون في معرفتها فليعرفوها منها.

بعد عدة ساعات من التجول شعرتُ بإرهاق شديد وثقل رهيب في جفوني، عدت إلى الفندق، دلفتُ إلى الحجرة فإذا بإيمان لا تزال جالسة على السرير كما تركتها باكية، يبدو أنها فهمت الأمر من أمها، نظراتها كانت شرسة، قالت:

– أيساورك شك فيّ يا عادل.. معقولة؟

– لستُ أنا يا هانم.. القماشة.. قماشة العفة والشرف هي مَن قالت.

– يجب أن تصدق..إن لم تكن بيننا مصداقية من أول يوم، فليذهب كل منا في طريقه.

– نعم؟!

– ننفصل.. حالاً.

جملتها الأخيرة جعلتني أصمت لحظة، إنها تتحدث بثقة الصادقين، لكن أي ثقة وأي صدق وقماشة العفة لا زالت بيضاء، لم تظهر عليها بقة حمراء أو حتى بنية اللون؟ نظرتُ في عينيها مباشرة فألفيتها متحدية،

Scanned with CamScanner

إصرار غير عادي، لا توجد نظرة إنكسار واحدة، أي قوة ترتكز عليها إيمان في هذه اللحظات؟! هل أكون أنا المقصر في أداء المهمة؟!

عندما وصلتُ إلى هذه الجزئية من التفكير وجدت داخلي يهدأ فجأة كنار صُب عليها دلو ماء، خرجت ابتسامة باهتة وليدة تلك النار التي خمدت، اقتربتُ منها قائلًا:

– إيمان.. أنا بصراحة مشتت الفكر.. المفترض أن تكون هناك دماء.. عدم وجود الدم معناه.. معـ..

– معناه أني لستُ بعذراء.. معقولة يصل بك التفكير لهذا يا عادل؟

– عندك تفسير آخر يا إيمان؟

– لا أمتلك تفسيرات.. كل ما أعرفه أني إنسانه شريفة.. وكما أخبرتك.. لن أبدأ حياتي معك بالغش وإن لم تصدقني.. فلنتفصل.

– ماذا تقولين؟!.. لنهدأ قليلًا.. ليتكِ تقدرين مشاعري.. أنا آسف يا إيمان.

تمشيت قليلا في الحجرة، تجرعت بعض الماء لأطفئ بقايا اللهب بداخلي، عدتُ لمواجهتها مرة أخرى:

– إيمان.. ممكن تكون العملية تمت بشكل خاطئ.. أقصد.. من الجائز أن نكون أخطئنا في شيء.. نجرب مرة ثانية.

تأملتني لحظة وفي عينيها ألف معني، بصمت مقيت أزاحت تلك الملاءة التي تغطي بها جسدها، تمددت عارية تمامًا على السرير وباعدت بين ساقيها ثم أشاحت بوجهها إلى الناحية الأخرى، كانت موجودة معي جسدًا لا روحًا.

الحقيقة أنني كنت قد فقدتُ جزءًا كبيرًا من قدرتي بعد هذا العناء والانفعال، لكن إصراري على إثبات نجاحي جعلني أضاعف المجهود حتى أصل إلى نهاية المارثون.. وصلت. مدت إيمان يدها أسفل المخدة وسحبت قطعة القماش لتمسح بها أسفلها، رفعت القماشة في مواجهتي دون أن تراها. صُعقتُ مما شاهدته، قطعة القماش بيضاء كما هي!! لا دماء.

شلت المفاجأة تفكيري وعقدت لساني، استدرت وأوليتها ظهري، شعرتُ بها هي الأخرى تولينى ظهرها، يبدو أننا ذهبنا في دوامات فكرية رهيبة.

بعد ساعات قليلة يبدو أننا ذهبنا فيها إلى عالم اللاوعي، استيقظنا على طرقات شديدة على باب الحجرة، شعرتُ بشبه دوار، ثقل رهيب في رأسي، عيناى تؤلماني بشدة، متثاقلًا تحركت لأفتح الباب.

إنهما حموای، لم ينظرا في وجهي، دخلت الأم إلى ابنتها مباشرة، جذبني الأب من يدي لنجلس في جانب الحجرة حيث مقعدان بجوار الشرفة، بدا على وجهيهما الارهاق من عدم النوم، جميعنا بدا على هذا الوضع من الارهاق وعدم التركيز.

وصلتني حروف إيمان الباكية وهي تحكي لأمها ما حدث، بينما حثني الأب على الهدوء والتحلى بالصبر وأن ذلك الأمر قد يحدث بعد يوم أو أكثر من يوم، ثم قال وهو يعطيني سيجارة بعدما أشعلها ويربت على يدي:

– يا عادل يا ابني، كثيرًا ما تحدث أمور مماثلة لماذا تتعجلون؟ مؤكد هناك شيء ناقص في العملية.

Scanned with CamScanner

استشعرت بجزئيات الشك تجتاح قلب الرجل، أبيها ويتابه الشك، إذن لا خطأ في أن أشك في الأمر أنا الآخر، في محاولة لتخطى الأزمة حاولت الابتسام تخفيفا، فقد أشفقت بالفعل على الرجل، تحدثتُ هامسًا:

– ليس في الأمر عجلة يا عمى.. لستُ معترضًا على الصبر بدل اليوم عشرة إن لم تكن العملية قد تمت، لكننا أتممناها كاملة ولم تنزل دماء، طبيعي أن أغضب، لكن ما حدث أن إيمان هي الغاضبة، وتحدثت عن الانفصال.. تخيل؟!

– مؤكد لحظة انفعال.. ويجب أن تدرك أنه لا يوجد مخلوق يؤكد برائتها أو ذنبها غيرها هي يا عادل.. إبنتى شريفة.

قال جملته الأخيرة بضيق شديد، يؤكد أنه بذل في تربيتها الكثير لكنه لم يقطع بعذريتها. فجأة وجدنا حماتى بيننا تقول بصوت حازم:

– بنتنا أشرف بنت في البلد كلها يا أستاذ.. سوف نذهب كلنا الآن إلى لدكتور، يكشف عليها.

تحدث حماى:

– لماذا الدكتور؟.. الأولاد يهـ...

قاطعته بحزم:

– لا داعي لذلك.. نذهب إلى الطبيب حالًا.. البنت هاتخلص م البكاء يا كبد أمها.

لم نستطع الاعتراض أمام إصرارها. إيمان وقفت لترتدي ملابس الخروج، بدا على حركتها الانفعال الشديد، الأجواء مشحونة بشكل لا يحتمل أي نقاش.

بعد ساعتين كنا في حجرة الطبيب، يجرى الكشف على إيمان ومعها أمها خلف حاجز جانبي، بينما أنا ووالدها نجلس على مقعدين متقابلين أمام مكتبه. لحظات وخرج الطبيب مبتسمًا، بهدوء الأطباء الذي أمقته، وأحسبه باستمرار مصطنعا، جلس الطبيب وقد رمقنا بنظراته الثقيلة، ثم قال:

– أنت يا أستاذ عادل عملت ما عليك فعله.. وابنتنا أيضًا شريفة ويخطئ مَن يشير نحوها بأي إتهام.

– ماذا تقصد يا دكتور؟

– غشاء البكارة المفروض أنك تقوم بتمزيقه يا عادل لتنزل الدماء. هذا الغشاء موجود، رغم كونك دخلت وخرجت مرتان كما أخبرتني إيمان.

– موجود؟ كيف يا دكتور؟ (سأله الأب)

فتح الطبيب كتاب أمامه وبحث لحظات حتى وصل إلى رسم توضيحى ثم أدار الكتاب كي ترى الرسم بوضوح، بعدها تحدث، وكأنه في مؤتمر علمى قال:

– غشاء البكارة الطبيعي يتم فضه بمجرد عملية الإيلاج، لكن هناك نسبة من أغشية البكارة تكون صلبة وهذه يصعب فضها بالطريقة الطبيعية، أما في حالتكم هذه نجد أن غشاء البكارة لا هو غشاء طبيعي ولا هو غشاء صلب.

نفد صبرى وبدأت ارتبك، سألته بحده:

– و ما هو يا دكتور؟ أرجوك تحدث بشكل مباشر..

شعر بضيقى فتحدث بشكل مباشر:

Scanned with CamScanner

– غشاء البكارة عند إيمان.. غشاء مطاطي.

– مطاطي؟!

نطقنا بها جميعا، فقد أتت إيمان وأمها من خلف الستار، خرجت الكلمة من أفواهنا متسائلة دهشة وكأننا ندرك المعني الخفي للكلمة، لكنه في الحقيقة تساؤل جهل فأكمل الطبيب قائلا:

– نعم مطاطي.. هذه حالة موجودة.. ليست نادرة.. موجودة وإن كانت قليلة.

صرخت حماتي بسعادة وهي تحتضن إيمان:

– ألم أقل لكم.. إبنتي هي الشرف نفسه..

ثم تحاول إطلاق زغرودة من فرط سعادتها، فتخرج مبحوحة مشروخة مختلطة بانفعال رهيب ينقلب فجأة إلى بكاء تنهار على إثرة فوق أقرب مقعد، سدها المنيع ينهار فجأة، سالت دموع العمر أنهارًا، عادت إلى الحياة مجددًا، احتضنتها إيمان وشاركتها البكاء، بينما وقف الأب ليصافح الطبيب فرحًا. الحقيقة أنني سعدتُ بهذا الكشف، لكني لمحت في نظراتهم الموجهة نحوى نوعا من الشماتة وتشفى المنتصرين وعداوة وليدة علت وجوه ثلاثتهم، وكأنهم بدون ترتيب اتفقوا على أمر ما، انقلبت الأمور على نحو غير متوقع وشعرتُ بجسدي يتضاءل بشكل غير عادي.

ترى ما هي الخطوة التالية التي سيتخذونها؟! أو بالأحرى.. فيما تفكر إيمان الآن؟

■■■

(25)
الفاجعة

الأم..

لم يكن صعبًا عليَّ كأم، أن ألحظ تلك التغيرات التي طرأت على ابنتي تريزة، في البداية كنتُ ألتمس لها عذرًا. فتاة جميلة هجرها الخطاب، أذلها، كما أذلنا من قبلها، الفقر حتى ألفناه، فهل ألِفته هي؟ لا أحسب ذلك، لا أحسبها هي وأقرانها يتقبلون الفقر صاغرين، فما ألفناه قديما إلا لأننا عايشناه بيننا صديقًا مُرًا، لم نشاهد غيره، فلم يطرق بابنا مظهر من مظاهر الثراء، لم نعي وجوده في هذه الدنيا ولم يتلذذ الأغنياء بتعذيبنا كما هم اليوم. معذورة ابنتي تريزة ومعذور أقرانها، على شاشات التلفزيون يشاهدون ما لا يخطر على قلب بشر، أقل منهم رجاحة في العقل وجمالاً في القد وسماحة في الخلق وينعمون بكل شيء، ينالون قبل الطلب، يُجابون قبل السؤال، لا يعرف الشقاء طريقهم بينما يطرق أبوابنا باستمرار، فنشقى ويشقى الأبناء.. تشقى تريزة، تخبو بسمتها، يكسوها الحزن فيكف لساني عن سؤالها عما بها.

لكن في الأيام الأخيرة زاد صمتها وشرودها، خلوتها بنفسها في حجرتها تخطت حد العقل، كنت أتلمس حركتها في حجرتها، أنصت لسماع أي كلمة تهديني في دربها المظلم، دخلتُ أكثر من مرة فجأة كي

Scanned with CamScanner

أشاهد حركة أو أسمع عن قرب، لكني لم أجد ما يشفي مرضى بصمتها وشرودها.

آلمتني كثيرًا وطرحتَ عن نفسي، بشرودها، هناءة الأسرة ونعيم الاستقرار. لم أظهر لزوجي، كامل عبدالمسيح، شيئًا مما يعتمل بداخلي، تعاملتُ على أنه أمر يخصني وعليّ مواجهته وإنهاؤه، يكفي زوجي شقاؤه الموصول مذ أن رُزقنا بالبنات وهن هَم يستحلب مال الأسرة ولا يعوضها يوما، فإن كنا رزقنا بالولد لاستطاع أن يعمل وإن كان صغيرًا، حتى ولو في العطلة الصيفية.

يعود زوجي حاملًا تعب وشقاء العمل طوال ساعات تصل إلى إثنتي عشرة ساعة كل يوم، يعمل سائق معدات ثقيلة في إحدي شركات المقاولات، حفر وردم، أتربة تكسوه وتتوغل خياشيمه، يعود كل يوم في حاجة إلى جلو، يرتدي بعدها ثيابه النظيفة ليرتاح سويعات بيننا قبل أن يذهب في نوم هو للوفاة أقرب. فهل هذا برجل يقذف به في يم مهاترات الأبناء؟! تلك مهمتي بلا شك وأنا قادرة على خوضها.

لكن الحقيقة التي لم أستطع إخفاءها أن مراقبتي لابنتي قد طالت وزاد معها شكي وعجزي، خشيت الفشل والذهاب إلى زوجي بعد وقوع الفاجعة، أيًا كانت الفاجعة. تخيلتُ ابنتي وقد جلست منزوية في ثياب ممزقة، تسيل منها الدماء في خيوط تركتها أظافر ناهشة، شعرها مسدل في خصلات يكسو كتفيها العاريين وقد سالت دموعها فحجبت جمال عينيها. شعرتُ بضعف وعجز حقيقيين، أسرعت الخطى إلى زوجي أستشيره في أمرها، خطوة تأخرتُ في اتخاذها، وتنفيذها، حتى سألني كامل أكثر من مرة عما بي، فأنكره.. وأحتويه لأخفف عنه عبئًا

أشعر بثقله، لكن قطرات الماء قادرة على تفتيت الصخر، تنهار صخرتي وانفجر باكية أمام كامل:

- تريزة يا كامل..

- ماذا.. هل أصابها مكروه؟

- أشعر بأنها تخفي عنا شيئًا.

تناقشنا في الأمر كثيرًا، قلبناه على كل الوجوه، لم نصل إلى نهاية قاطعة تقضي على تلك النيران التي تأكل داخلي وانتقل لهيبها إلى كامل لتقضي على ما يمتلكه من هدوء يستعين به لاستكمال رحلته.. ورسالته.

بعد طول تدبر يخبرني كامل بأنه سوف يراقبها من بعيد يوما أو بعض يوم، يستطلع من أمرها ما خفي عنا، لعلنا نعود إلى راحة البال بخبر هين عن حبيب أو حتى صديق لعوب، نستطيع دفعه عنها وإن كان ثقيلًا.

لكن جاء علينا القدر بالفاجعة مرة واحدة ويالها من فاجعة... يستطيع كامل الحصول على إذن بساعتين من عمله يتحملهما عنه زميل، يصل إلى المصنع الذي تعمل فيه تريزة. يتأمل بوابة الدخول مستطلعًا في صمت كأنه يفكر فيما سيكون السؤال وهل يُظهر شخصيته أم يخفيها؟ يقترب منه صبحي، موظف أمن البوابة يسأله عما يريد.

أحيانًا تأتي الأفكار بلا عناء، لم يكن ليهتدي إلى إجابة سؤال صبحي إن أعمل فكره طويلًا بمثل هذه البساطة وتلك التلقائية، حتى إنه سُر ببديهته للحظة قبل أن يقول:

- في الواقع.. أنا أسأل عن فتاة تعمل هنا.. اسمها تريزة كامل عبد المسيح..

- خير؟

Scanned with CamScanner

– إبني يود الارتباط بها.. (يفتعل ضحكة فتبدو باهتة بسبب الحزن الذي يسيطر على حياته بشكل دائم).. سألتُ عليها في الحي الذي تسكنه.. والآن أريد أن أسأل عنها في محل عملها.. تعلم أن الفتاة في العمل.. أو خارج منطقتها تختلف تمامًا عنها في..

بسعادة مسوق بقوى داخلية، غير مدرك لعواقب الأمر، يجيبه صبحي كأنه يزف بشرى، لا يدرك أن الرجل يسأل عن تريزة كخطيبة لابنه، فذاك يعني، بنسبة كبيرة، أنه مسيحي، شغلته فرحته النابتة من قلب الفطرة عن ذلك كله وقال:

– تريزة؟!.. كان زمان.. اليوم اسمها فاطمة.. الحمد لله أعلنت إسلامها.

لم ينطق كامل عبدالمسيح بكلمة واحدة، قاوم انفعال يُقدر بحمل جبل هبط فجأة على صدره، لم يستطع أن يخفي ذلك الانزعاج الرهيب الذي بدا على وجهه، يشحب لونه محاكيًا الموتى، تبحث يده عن أي شيء تستند إليه، تخور قواه وتخونه ساقيه، لكنه يتمسك بأمل واه، فقد كذب أذنيه، لعل الرجل يقصد أي فتاة أخرى. نتقبل كل المصائب حالما تحل بآخر ونحزن من أجلهم، لكننا لا نتخيلنا مكانهم أبدا، نعتقد دائما أننا بمنأى عن ذلك حتى تحل بنا المصيبة فنذهل عن تقبلها، لا نصدق، نتخيل أنفسنا في حلم، نتخيل أنهم يكذبون علينا، نتخيل أي شيء إلا تصديق الواقع، حتى تمر الأيام وتذهب السكرة، نفيق على واقع أليم، نفيق فنجد أنفسنا بلا رفيق.

يتأمل صبحي الرجل، يلاحظ شحوب وجهه، آهاته المكتومة، حروف كلماته الوئيدة، هنا فقط يدرك أن الرجل مسيحي ولن يُسر بأي

حال بإسلام تريزة. لا يجد ما يقوله فيهرب من الموقف برمته مدعيًا أنه مشغول بأمور أخرى، يعود إلى كشك البوابة ومن خلف زجاجه الأسود العاكس يتابع كامل، يراه وقد تحرك بصعوبة، كاد يسقط أكثر من مرة، تحامل وإن تهدل كتفاه وسقطت يداه إلى جواره لا يشعر بهما، فأيقن اقترابه من شلل تام.

يصل كامل إلى منزله لا يشعر بنفسه، يسقط، ككتلة صخرية هوت من فوق جبل، على أقرب مقعد، وجهه قبالة باب حجرة ابنته، تريزة أم فاطمة.. لا يعلم.. سألته زوجته من بين صعدات جنباتها الأليمة، استشعرت بأمومتها وبمحبتها لزوجها أن ثمة كارثة حقيقية، فاجعة حاقت بهم:

– ما بك يا كامل؟ تكلم يا أبو تريزة؟

كتمه بابنته لتُخرج ما في قلبه، تؤكد أبوته لتريزة لتخفف من غضبته نحوها. يربَدُّ وجه الرجل من الغضب، يتنفس بصعوبة، يعلو قفص صدره ويهبط كموجات بحر ثائر، تتشنج أطرافه، تستقيم أصابع يديه في أوضاع غريبة متداخلة، يجف لعابة فيتحول حلقه إلى صحراء لم تحنو عليها يد الدهر بساحبة مطر منذ ألف عام.

تستحلفه زوجته أن يجيبها وهي تحتوي يديه بين كفيها لتدلكهما، تشعر ببرودتهما بعدما هربت منهما الدماء، تساقط دموعها مستبقة طامتها الكبرى. كامل هادئ الطباع حلو المعشر، بسيط الأحلام، يتقبل أي أمر بهدوء المجبر، أما وهذه حاله، فإن المصيبة كبرى والحدث جلل.

يشيح كامل بوجهه صوب باب غرفة ابنته، تتحرك عينا الأم في محجريهما بين زوجها وحجرة ابنتها مثل بليتان تدوران في إناء واسع

Scanned with CamScanner

تصدران أصواتًا مزعجة، لم تجد قوة تحرك بها الرأس كله، على ملامحها ألف سؤال، لم يولد منهم سؤالًا واحدًا، تنتظر في صمت لحظة النطق بتنفيذ حكم الإعدام، سقوط الأرض من تحت قدميها لتتدلى معلقة من رقبتها في حبل يسحب روحها من جسدها، أطول وأشقى لحظات العمر، لحظات انتظار صدور مثل هذه الأحكام، هذا ما سينطق به كامل الآن.. هذا مؤكد.

– انطق يا كامل؟

صرخت بها، فخرجت ملتهبة من أعماقها، وكأنه يلقى بالصخرة الجاثمة فوق صدره لتحملها معه زوجته، شريكته في الهم، يقول:

– أعلنتُ إسلامها.. لم تعد تريزة.. أصبحت فاطمة.

لحظة أن دلف كامل من الباب تملكني رعب لم أشعر بمثله من قبلُ ولم أتخيل أني سأمر به ذات يوم، لكن ما إن نطق بجملته الأخيرة، حتى ذهبت عني روحي ولم أعد أشعر بأي شيء في الوجود، سقطتُ أرضًا كأنني جلباب بلا جسد تهاوى فجأة، لم يخرج صوتي، إنما خوار مختلطا بزبد ولعاب يسيل من جانبي فمي، زاد صوتي حركة عيناي اشتعالًا، تسارعت أنفاسي وتحشرجت أهاتي، تنقبض أحشائي وتئن وتتراخى عضلات جسدي حتى شعرت بدفء قطرات ماء تسيل بين فخذيّ وتبلل أسفلي.

كانت تريزة في حجرتها وقد أغلقتها كعادتها، انتظرت ألا تعود روحي إلى جسدي مرة أخرى، أن أترك هذا العالم لأستريح من عناء اللحظة. لحظة أثقل عليّ من عمر مضى، لكن الروح عادت، أبت الرحيل.

الشعور بأن المركب تدنو من الغرق يولد بين ركابها قوة لم يعهدوها في أنفسهم من قبل، قوة لن يجدوها فيما بعد إن كتبت لهم النجاة.

أشفقتُ على كامل، يجب ألا أرحل وأتركه يعاني وحيدًا، عانينا كثيرًا معًا ويجب أن نكمل معًا، حقًا لم نمر من قبل بما نمر به الآن، لكن مهما يكن إما أن نسقط معًا أو نكمل معًا. تولدت بداخلي قوة لا أعلم منبعها، وقفتُ جسدًا مشتعلًا، تحترق الأرض أسفلي، اقتربت من غرفة ابنتي، تريزة، نعم هي تريزة ولن تكون غير تريزة، فتحتُ الباب، تكتلت النيران في قلبي وخرجت كلماتي قذائف حارقة، لو أنها ليست ابنتي لمزقتها ألف قطعة تشفيًا، صرخت:

– تريزة..

مرتعبة تكورت في جلستها على سريرها، احتوتها رعشة، ترتجف أطرافها وينتفض داخلها ولم تعقب، أكملت جملتي مصحوبة بنيران حقيقية ينطلق شررها من عينيّ:

– إنتِ أسلمتي؟ غيرتي دينك يا تريزة؟!

من بين نزعاتها وحرصها خرجت ألف كلمة لتستقر على ملامحها دون أن تنبس بحرف واحد، استقرت كلماتها في قلبي، أشفقتُ عليها من نفسها. بريئة هي ابنتي، مؤكد غُرر بها. أهو بريق المال أم العاطفة كان سلاح من ذهب بعقلها؟

في تلك اللحظة، إن سُئلت فاطمة عما تشعر به، كانت ستجيب بهدوء مطعم بابتسامتها العذبة: كنت أنتظر تلك اللحظة وأتوقعها سيئة لدرجة يستحيل بعدها العيش، آلامي كانت من أجل والديّ، كنتُ قد وصلت إلى مرحلة لا تشغلني بعدها تفاصيل الحياة، فمن تذوق طعم

Scanned with CamScanner

الراحة بقلبه تضاءلت أمام ناظريه كافة التفاصيل. كم من سعداء ينامون في العراء يفترشون الأرض ويلتحفون السماء، وآخرون تصنع تعاستهم على أعينهم غشاوة فتحجب عنهم لذة أموالهم، تُلهب ظهورهم الدنيا بسياطها.

يكفيني أن أُنادي بـ«فاطمة» وأنْ أناجي ربي في صلاتي، أرى نورًا عظيمًا يخترق جدران غرفتي يحملني بعيدًا خارج الزمان والمكان لأشاهد جنان الخلد في كل مكان، بسمة طفل، تغريد عصفور، سُحب بيضاء رقيقة تسحب بعضها بعضًا في ترنيمة حب وعشق لا ينتهي، زرقة السماء البادية من بين تلك السحب، تنعكس على صفحة النهر الفتى الذي يشق بدورة لوحة صفراء فاقع لونها مترامية الأطراف، واحات النخيل وعيون الماء تترقرق جداول شفافة، يجول بينها أناس في ملابس بيضاء ناصعة، على وجوههم ابتسامات الدهر، بائع ينادي متغنيًا، فتاة تتلمس بجمالها قلوب حيرى... إنها حقًا الجنة نعيش فيها، لكن لمن يود رؤيتها.

تصرخ أمي بجملتها الأخيرة، إذن علمت بما جد في حياتي، وعلم أبي المستقر فوق مقعده، في الصالة، كصخرة صماء، علموا أنني أسلمت.

اليوم.. غدًا.. بعد أي زمن طال أم قصُر، سيعلمون.

رغم ذلك اللهيب المستعر، الذي يحتوي والديَّ، تحركهما شياطين العالم للنيل مني، فقد ألفيتُ نفسي هادئة مطمئنة، قلبي فرحًا نشوانًا، حاولتُ الدفاع أو النطق بأي كلمات لم أجد، حاولت امتصاص انفعال أمي التي أحبها حبًا عظيمًا، لم أجد. أرسلت نظرة حب لوالدي عبر

الباب الموارب فاصطدمت بملامح هي كالحجارة أو أشد قسوة، بل إن من الحجارة ما يلين ويتشقق فيخرج منه الماء، لم تدمع عينا والدي.

آه..

زفرة سعيدة جالت في قلبي، ضمتني إلى نفسي.. شعرتُ بطعم لبن حليب بارد في فمي، ارتشفته متلذذة.

ألا تعلمون أني ولدت من جديد، الأجدر بكم تهنئتي لا لومي. يبدو أن مشاعري تلك قد تغلبت على كل شيء، نظرتُ نحو أمي بهدوء راسمة ابتسامة عذوب وأنا أجيبها:

– كلنا مسلمون يا ماما.. نعبد رب واحد.. أنا في أي وضع أعبد الله، نفس الرب الذي تعبدينه أنتِ وبابا.. كل فرد له طريقته في عبادته.. يراه كما يريد، يسلك إليه الطريق التي يرتاح لها.. وأنا اخترت الطريق وارتحت..

تعاركت على وجه أمي انفعالات عنف وشفقة، يأس وأمل، احتواء وتجاهل، حنين و.. لم تترك لي الفرصة كي أكمل قراءة انفعالاتها، قالت صارخة:

– كلام فارغ.. تخاريف.. استبدلي ثيابك حالًا.. سنذهب إلى الكنيسة.

كنتُ أعد نفسي لجادلها، انتظرت منها دفاعًا يفتح باب حوار، لكنها أغلقت الباب بتلك الجملة. همتُ ملتفتة لتغادر، استوقفتها قائلة:

– أولى الأمور بالحرية.. علاقتنا بالرب يا أمي..

وقفتْ مكانها، تشملني بنظراتها القاسية، نعم قاسية أمي كانت، لم أعهدها هكذا أبدا، لكني أشفقتُ عليها، قلبي ينبض بحبها وتراه يقسو

Scanned with CamScanner

عليها، ليت محبتي لها كائنًا يُرى، لقدمته قربانًا على عتباتها، ليت أمي تتخللني ولو لحظة فترى نور محبتها يملأني.

تحتل نظرات الاستفهام وجهها للحظة، غير قادرة على مجابهة علامات القسوة، خفضتُ عيني بنظرات منكسرة، فشاهدتُ قدما أمي، حافية تقف، تميل إلى الزرقة أقدامها. ابتلعتُ أنفاسي قبل أن أكمل بهدوء:

- ننال الحرية في تناول الطعام.. في اختيار الملبس.. في اختيار الزوج.. في اختيار العمل.. ولا تتاح نفس الحرية في عبادة الله؟!

- انتهى وقت هذه الخرافات.. ضحك عليكِ أحدهم بكلمتين يا خائبة.. فلتستغفري الرب ولنذهب إلى أبونا جبرائيل لتطهير روحك.

بإصرار رهيب تنهى الأم جملتها وتتحرك من مكانها. إن كانت تلك طباع الأم فهناك على الطرف الأخر طباع ابنتها، هي شقها الآخر، صورتها في المرآة إن أردنا الدقة، لكنها طباع إبنه تذوقت حلاوة الإيمان بالواحد، تشربت خلاياها همسات عطرة فبثت في روحها طباعًا جديدة، روح جعلتها تقول بحدة ممزوجة بحب وحنان لا ينتهي:

- لن أذهب إلى الكنيسة.

تسمرتْ الأم في مكانها مشدوهة، تخشى الالتفات والنظر في عيني ابنتها، انكسارة داخلية تملكتها، يد تعتصر أحشائها فتأخذ روحها سحبًا، تخور قواها، لا تتحملها قدماها، ملح ماءها على فخذيها يحرقها، ارتفعت حرارتها كثيرًا، طنين رهيب ودقات الدماء على أبواب أذنيها، في محاولة للهروب، تكاد تفتك برأسها. تمنت لو جلست فوق أقرب

مقعد، لكنها أزاحت هذا الخاطر بصعوبة، إن جلست وأبدت لحظة ضعف واحدة لقويت ابنتها، لن تهزمها مهما كان الثمن.

نحو الباب تزحف بقدمين هما أقرب للجماد، تقول دون أن تلتفت:

- أمامك خمس دقائق ونخرج.

تصفق باب الحجرة خلفها بشدة لتنقل بعضًا مما يعتمل بداخلها. الحقيقة التي لم تدركها إنها كانت في حاجة ملحة لأن تتوارى في أي جانب لتسقط، هَم السنين تجسد حملاً ثقيلا فوق كاهلها، تمنت لو ابتلعتها الأرض أو تهبط عليها صاعقة من السماء. تعلم عناد ابنتها، كانت على دراية مما تسمعه من حكايا في الكنيسة عن أبناء دينها الذين يتركون المسيحية، تعلم مدي عنادهم، يرتبطون بدينهم الجديد ارتباطهم بالحياة، إن فقدوا أيهما فقدوا الآخر معه.

قليل.. أو.. بدرجة لا تكاد تذكر من أعلن إسلامة وعاد مرة أخرى، لذا غمرها الهم والحزن وابيضت عيناها المثقلة بدموع متحجرة.

واجهت زوجها بنظرات صامتة تحرق داخليهما، تزفر بشدة قبل أن تتوجه إلى الحمام لتغسل نصفها السفلى ببعض الماء، لم تجد وقتًا لاستخدام الصابون، لا تمتلك رفاهية الوقت أو الفكر، تترك ثوبها ينزلق على الجزء المبلل من جسدها فيلتصق به مظهرًا ثناياها من خلف، يتبعها زوجها بنظرات قتلها الكرب، لو كان في يوم آخر وحدث آخر لدخل خلفها الغرفة وضمها بقوة. يتأملها مندهشًا من داخله، كيف يراها الآن بتلك النظرة.

لا شيء يحدث بعفوية أو بلا هدف..

Scanned with CamScanner

أحيانـا تظهر الأفكار المغايرة التـي لا محل لها أبدًا، تظهر في أوقات لا تناسبها مطلقًا، جنون شيطاني ينتابنا، أو هي يد حانية تخرجنا من هول اللحظـة بتلك الشـردة. لم يدرك كامل عبدالمسـيح أهميـة تلك اللحظة فـي الحفـاظ على اسـتمرارية حياتـة، أعادت إليـه روحه المنسـحبة من جسـده بلا إنذار، كان يتلاشى بلا وعي، كاد يفقد حياته، تكاثرت همومه عاصفة بقلبه تعتصرة حتى تقضى عليه. شردته، في مؤخرة زوجته المبللة الملتصـق بها ثوبها، جعلته يعود إلى حيـز المكان، يعب من الهواء الذي شعر به يملأ صدره الخاوى، عاد يتنفس.. عاد ليفكر فيما حل به، مصيبة لم يتخيل نفسـه يومـا أحد ضحاياها.. أيها الرب يسـوع.. كيف تحملتَ العذاب؟

تدلـف الأم غرفتها لتسـتبدل ثيابها، ترتدي ثوبًا أسـودًا، يزيدها حزنا وقتامة، تعود لابنتها، تفتح باب حجرتها منادية لها باسمها تأكيدًا:

- تريزة.. هل انتهيتى؟

تنظر إلى الحجرة المظلمة، أطفأت تريزة مصباحها وأسدلت ستائرها، تمد الأم يدها لتشـعل لمبتها التي ترسـل أشعة واهية تلقى بظلال شاحبة لقطع الأثاث المتناثرة، تنظر نحو ابنتها الملقاة على سريرها، تحيط يدها دمـاء غزيرة تُغرق ملاءة السـرير البيضاء، تشـهق الأم فَزِعَة، تلطم خديها صارخة:

- تـريـــزة.

■■■

(26)

المجنون

عادل..

بعد تلـك الأحداث التي صاحبت زواجي بإيمان، وبعدما كشـف لنا الطبيـب حقيقة الأمر، نلتُ غير قليل من فيـض اتهامات حماتى، تقبلتُها مـن أجل إيمـان التي شـعرتُ بجرحهـا يؤلمها رغـم أني أمتلـك الدافع الحقيقى للشك.

أمضينا ما تبقى من اليوم معًا واسـتطعتُ من خلال أصدقاء في مجال العمـل في السـياحة أن أدبر مبيتـا لحمـوىّ. ظاهريًا عادت الميـاه، التي تجمدت لساعات في نهر علاقتنا، إلى السيولة مرة أخرى.

الحقيقة كانت مغايرة.. لحظات الشك تركت شرخا كبيرًا بيننا.

في الأيام التالية انطلقتْ بنا الحياة كأى زوجين، أقضى نهارى ومعظم ليلى خارج المنزل مرافقًا للسائحين، إيمان تمارس حياتها بشكل طبيعي أيضًـا، تصحـو من نومهـا معي لتسـاعدني حتى ارتدي ملابسـى، أتناول قليلًا من أطعمة الصباح مع مج النسـكافيه ثم أودعها خارجا، لا أحدثها طـوال اليـوم إلا نادرًا قبيل عودتى لأسـألها إن كانت تريد أن أشـترى لها شيئًا وأنا في طريق عودتى إلى شقتنا.

Scanned with CamScanner

الحقيقة أن انشغالي في عملي وابتعادي عن إيمان الكثير من الوقت، خفف من حدة ذلك الشرخ الذي أصاب علاقتنا الزوجية في أول يوم لها.

كي تسير بنا عجلة الحياة قمنا معا بلا اتفاق بدفن هذ الحدث في بئر الماضي الذي يبتلع، بنهم، حياتنا يوما بعد يوم.

وقتها راودني شك بأن إيمان أكملت معي وتناست ما حدث بناء على نصيحة أمها، فالانفصال في اليوم الأول، أو حتى في الأسبوع الأول أو إن تماسكنا وتحملنا شهرًا، يعني الفضيحة. شعرتُ أنها أكملت معي مضطرة، خوفًا من الفضيحة وليس حبًا. رغم كراهيتي لعلاقة تقوم على تلك التفاصيل إلا أنني لم أكن أمتلك أي قدرة على التحرك في أي طريق غير ذلك الذي وضعني فيه القدر.

انطلقنا نخطو لا ننظر إلى الخلف، لا نعلم ما ينتظرنا في منعطفات ذلك الطريق، وكان آخرها ما أكتوى بناره الآن، لقد اختفت إيمان وطفلتي منذ ما يزيد على الشهر ولا أعلم أين هم ولماذا تم اختطافهم!!

يبدو من كل ما ذكرته من أحداث أنني لم أكن ذلك الشخص الذي يضمر أحدهم له الشر ويكيد له الكيد.

مَن عدوى الذي اختطف مني حياتي فجأة؟!

هناك سنوات أخرى لم أتجول فيها لأتذكر تفاصيلها وأبحث بين جنباتها عن ذلك العدو الخفي.

أعلم جيدًا صعوبة التوفيق بين الطباع البشرية بين الزوجين خصوصًا في عامهما الأول، فإذا مر ذلك العام الأول وتم اجتياز عقباته، انطلقت بهما الحياة بسلاسة أكثر، لذا قررت أن أتخطى العقبات إن وجدت. كان

أكثر هذه العقبات هي حماتي التي اتخذتني، منذ حادث قماشة العفة والشرف، عدوًا لها. تمتلك قدرة غير عادية على تغيير الحالة المزاجية لابنتها ضدي بسبب وبدون سبب، لسان حالها يقول:

– هل أسلمناه إبنتنا ليخوّننا ويشكك في شرفنا..؟!!

كنت أستمع إلى تلك العبارة منها في كل مرة أتقابل فيها معها، حتى إن لم تنطق بها صراحة كانت عيونها تنطق بها. لذا.. كنت أتلاشى مواجهتها.

حينما كانت تطلب إيمان زيارة والديها، كنتُ أوافق على أن تذهب وحدها وأنا أمر عليها لاصطحبها وقت عودتي من عملي.

هكذا مر العام الأول وفيه رُزقنا بطفلتنا صفاء. بعدها بثلاث أعوام رزقنا بولدنا باسم، في هذه الأثناء كنت أسافر كثيرًا مع السائحين الأجانب الذين أرافقهم، كانوا يفضلون الخروج من القاهرة على غير عادتهم وإن كان ذلك يوافق هوى لديّ، زحام القاهرة أصبح لا يطاق، في بعض الأيام تخرج بعض المظاهرات فتتوقف حركة الشوارع بالساعات.

للإنصاف.. خلال الأعوام القليلة التي مضت، لم يكن الأمر يبعد عن أيام سعادة واحتواء حقيقي، طبيعة عملي هي الخروج والترحال المستمر جعل عودتي إلى شقتي بمثابة الحلم، في وقت كان بقاء إيمان في المنزل يمثل عبئًا حقيقيًا، لذا كنت أستغل فرصة أيام الراحة التي قد تتخلل الارتباط بالعمل، وهي فترات نادرة جدا على أية حال، كي أصطحب إيمان، ثم إيمان وابنتنا صفاء، للخروج وقضاء أوقات خارج المنزل ما بين تناول الطعام أو التنزه.

Scanned with CamScanner

أتذكر بوضوح ذلك اليوم الذي عدت فيه من عملي مرهقًا، كنت عائدًا قبيل الفجر بقليل وبعد حمام دافئ يذهب عني بعض التعب، استلقيتُ على السرير وذهبت في نوم عميق، اليوم التالي كان يوم راحة ولن أخرج فيه.

استيقظتُ بعدما انتصف نهار هذا اليوم نشطًا مقبلًا على الحياة، إيمان جالسة تشاهد أحد الأفلام القديمة. قامت متثاقلة من أثر الحمل، كانت في شهرها السادس من حملها الثاني، ولدنا باسم، توجهتْ إلى المطبخ وبعد لحظات عادت حاملة صينية عليها قطعتي توست بالجبن وكوب شاي بالنعناع، تعلم جيدًا أنني أفضله في الصباح، أحب النعناع أخضر ولا أفضله جافًا، من سنوات ذهبتُ إلى مشتل لنباتات الزينة واشتريت أصيص به شجيرات النعناع، وضعته في البلكونة مع عدد قليل من الزهور الأخرى.

تناولتُ شرائح التوست مع الشاي وتناقشنا في موضوعات عادية لم تكن ذات قيمة إلى أن أفصحت إيمان عن مكنونها الذي تدور حوله وتلمح له منذ أن جلست. إنها تود الخروج، لم أكن أنتوى الخروج اليوم لكنني لم استطع إظهار ذلك وتصديت لانفعالات الضيق كي لا تظهر على ملامح وجهي. بعد طول نقاش وجدال قالت إيمان:

- نسيتَ.. وسامحتك.. ثم لا ترغب في إخراجنا؟!

- نسيتُ؟! نسيتُ ماذا يا إيمان؟

- في أي يوم نحن يا أستاذ..؟

- الثلاثاء.. لماذا؟

- التاريخ؟.. اليوم عيد زواجنا يا عادل.

تكورتُ كالسلحفاة أوارى خجلي، بررتُ نسياني بزحام عملي، تذكرت يوم زواجنا وما حدث فيه، أربعة أعوام مرت من حياتنا. كي أقضي على أي نقاش يستدعي من الذاكرة مشاعر قد تفسد علينا اللحظة التي نحياها، وافقتُ على الخروج، سوف نسهر في أحد الفنادق الشهيرة وتعويضا عن نسياني قررتُ أن نبيت هذه الليلة في هذا الفندق.

بينما نستعد للخروج أجريتُ اتصالات لعدد من الفنادق كي أجد غرفة خالية، بصعوبة وصلت إلى غرفة في فندق لم أكن قد زرته من قبل، معلوماتي عنه أنه جيد والفيو هناك رائع.

ترتدي إيمان ملابس رائعة وتزينت كعروس، فستان من الكتان الأبيض المطعم بألوان سماوية يكشف عن رقبتها وجزء عريض من أعلى صدرها، تزين ذلك الجزء الناصع البياض بسلسلة ذهبية عريضة لامعة تعكس أشعة الضوء فتزيدها بريقًا، يضيق الفستان بشكل ملحوظ أسفل الصدر ليهبط متسعًا على البطن، المنتفخة بالحمل، حتى قدميها المختفية داخل حذاء أسود صغير، ترتدي إيمان مقاسًا صغيرًا في الأحذية يصلح لطفلة في الثالثة عشرة من عمرها، كثيرًا ما تندرنا بهذا وضحكنا معًا ونحن نبحث عن مقاس حذاءها في أقسام الأحذية الحريمي وبعد طول معاناة نذهب إلى قسم الأطفال لنصل إلى بغيتنا.

خرجتُ حاملًا ابنتنا صفاء تتبعني إيمان، كانت إيمان قد اقترحت أن نمر على والدتها لنترك صفاء هناك ليلتنا هذه، لكني رفضتُ ذلك الاقتراح. في سيارتنا ترفرف علينا نسمات رائعة استطاعت أن تقتل ضيقي الداخلي من الخروج الذي لم أكن مستعدا له، استطاعت إيمان بابتسامتها وزينتها وعطرها الرائع أن تخرجني من تلك الحال.

Scanned with CamScanner

وصلنا إلى الفندق، في حجرتنا استبدلنا ثيابنا، الحقيقة أننا أمضينا وقتا ممتعا قبل أن ننزل إلى مطعم الفندق لتناول طعام العشاء وقضاء السهرة رغم ذلك الصداع الذي يكاد يقف حائلًا بيني وبين تلك الجنة التي تحاول إيمان رسمها حولي بريشتها المصنوعة من رموش عينيها تارة ولمسات آناملها تارة أخرى، أعلم أن هذا الصداع سببه عودتي متأخرًا الليلة الماضية ونومي حتى وقت متأخر، لكنني نحيتُ هذا الألم جانبا كي لا أعكر صفو الليلة.

بعد أن تناولنا طعام المساء، قضينا وقتًا في قاعة فسيحة تضم الكثير من الأجانب والمصريين الذين يبدو عليهم سيماء رجال الأعمال، كنا نتبادل الحديث في الأمور العامة، تعرج إيمان إلى أن ذكرت أمها عرضا، كانت تعلم أني ألحظ معاملتها السيئة لي مما خلق بداخلي حاجزًا يحول بيني وبينها، فظهرتْ بعض ملامح الضيق على وجهي، صمتُّ وأشحتُ بنظري جانبا فإذا بي أشاهد فتاة إيطالية كنت قد اصطحبتها في رحلتها منذ عامين، التقت أعيننا، تعرفتَ عليّ مباشرة وابتسمت وهي تشير لي، وقفتُ متوجها ناحيتها مرحبًا.

تبادلتُ معها الحديث لحظات، تذكرنا عدة مواقف لنا معًا، أعربتْ لي عن امتنانها الشديد، فقد تركت جولتي معها منذ عامين أثرًا عظيمًا وها هي تعود اليوم لقضاء أجازتها السنوية، على وجوهنا ظهرت علامات السعادة بذلك اللقاء المفاجئ.

رجعتُ إلى مكاني، ألفيت إيمان، وقد تغيرت ملامحها، تحاول متوترة أن تُهدأ من وضع صفاء التي بكت ولا أدرى لبكاءها سببًا، حملتُ طفلتي وبمجهود قليل صمتَ، نظرتُ نحو إيمان فإذا بالانفعال

يبدو عليها باديًا في حركة أصابعها على المنضدة، لا أدرى لماذا بدأتُ أشعر بالضيق حيال حركتها العصبية، سألتها:

- هل هناك ما يضايقكِ؟

- لا يوجد ما يضايقني..

تحدثت بجملتها تلك وهي تنظر إلى الناحية الأخرى، زاد ضيقي لهذا التجاهل المتعمد، بدون أن أشعر خبطتُ بيدي على المنضدة وأنا أجيبها شبه صارخًا:

- انظرى نحوى عندما تحدثيني يا ست هانم..

خرج الجزء الأول من الجملة حادًا مرتفعًا بشكل لفت الأنظار، أكملتُ جملتي بصوت خفيض احترامًا للمكان ونظرات رواده التي صوبها البعض نحوى، شغلني انفعالي عن نظراتهم، أكملت حديثي:

- ماذا حدث يا إيمان؟ هل خرجنا لنستمتع ونريح أعصابنا، أم خرجنا للانفعال والتوتر؟

- أنا صامتة.. سأظل صامتة.. لن أتحدث بشئ.

أكثر ما يضايقني في البشر عموما، لا في زوجتي وحدها، ذلك الانسحاب المفاجئ بعد أن يشتعل الموقف، على مَن أشعل الأمر بكلماته أن يطفئه بكلماته أيضًا، أكره تلك الملامح التي ترتسم على الوجوه متصنعة البراءة مبررة لنفسها أنها ليست السبب فيما حدث أو ما سيحدث، معللة صمتها وانسحابها بأن كلماتها لم تكن تستدعي مثل هذا الانفعال والتوتر، هذا ما فعلته إيمان في اللحظات التالية وهي تصنع من صمتها ساترًا ومن ضعفها سلاحًا لتهاجمني به، زاد ضيقي وانفعالي، سألتها ثانية:

Scanned with CamScanner

- لماذا؟ كنا في منتهى السعادة منذ لحظات؟!

- نعـم؟! لقد تركتني كشـئ مهمل وجريت نحو الفتـاة الأجنبية.. لم يهن عليك قول: بعد إذنك!!

تحدثتْ إيمان بانفعال شـديد وإن كانت هامسـة، أجبتها بضيق شديد وبنفس الحركة السابقة رزعت بيدي على المنضدة قائلًا:

- تعلمين أني أرفض هذا الأسلوب يا إيمان؟

فجأة وكأن يدي قد أزالت سـدًا منيعا تنهـار إيمان باكية، حاولتْ منع نفسـها فخرجـت آهاتهـا مكتومـة، تنتابها حالة أشـبه بالانهيـار، ترتعش أطرافهـا، كانـت في صراع مرير بين رغبة في إخراج ما بداخلها وكبته في آن واحـد. أعلم ذلك جيدًا في إيمـان، تنهار لأتفه الأمور، بينما وفي أيام أخرى تواجه مواقف أعظم بمنتهى الصلابة والحزم، تلك الجزئية أعلمها فيها ولكننا لم نكن نستطيع التنبأ بأمر مثل هذا كي نتفادي حدوثه. وها هو قد حدث الآن. لا أملك غير التراجع لتهدئتها واحتواء الموقف، تراجعي في مثل هذه المواقف لا أسميه ضعفًا، إنما حنكة لتخطى الأزمة، لم أكن أدرك أن هناك، في عمق بئر ذاتي، ضعف حقيقي في شخصيتي، شملتُها بنظراتي لحظات ثم قلت:

- إيمان.. تماسكي.. لا يصح ما تفعلينه و..

في هذه اللحظات يقترب الجرسـون حاملًا المشروبات التي طلبناها منـذ لحظـات، فوجئت بـه بيننـا واقفًا بمشـروباته متأملًا، طالـت نظراته القاتمـة نحـوى ثم ينظـر نحو إيمـان نظرة حملـت أحد معاني الشـفقة، شعرتُ بذلك، حدثته بشدة وشئ من التحقير:

- أنت.. أنت لماذا تقف هكذا؟ أترك ما في يدك وارحل.

الغريب أن هذا الشـاب لم يظهر أي رد فعل لاحتقارى إياه، بشـئ من البلادة وضع المشروبات ثم ترك المكان بينما عيناه متعلقتان بإيمان التي كانـت في تلك اللحظات دامعة. وقفتُ فجأة وطلبت منها أن تتبعني إلى حجرتنـا لنسـتطيع ان نكمل حديثنـا بعيدا عن تلـك العين. حملتُ صفاء وتعمدتُ الابتسام والهدوء، تبعتني إيمان بعين منكسرة لا تفارق الأرض وكأنها تبحث عن شيء فُقد منها.

فـي حجرتنا دار حوار طويل، حاولتُ التماسـك قـدر الإمكان مبررًا مـا حدث بأنـه كان فعلًا عفويًـا لم أقصد منـه توجيه أية إهانة لهـا، الفتاة الإيطاليـة ليسـت الوحيـدة التي أتعامل معهـا وإن كنت أرغـب في إقامة علاقـات محرمة أو مشـروعة مع أخريـات لفعلتها في أي وقت ولسـتُ فـي حاجة لأن أفعلها هكـذا وبتلقائية أمامك يا إيمان. تذكرتُ جينا والتر ورحلتنا إلى الإسكندرية، اعتصرتُ ذاتى كي أهدأ وأزين وجهى بابتسامة حنون كي لا تطغى ذكرياتى على وجهى.

وقفًـا لحرق الأعصـاب واسـتجلابا للحظات الراحة هـدأت إيمان، وأخيـرًا ابتسـمت فعـاد إليّ هدوئـى، داعبتها قليـلًا، تمنعـت ناظرة نحو صفـاء التي تلعب فـي جانب وجفناها يداعبهما النعـاس، أخذتُ الطفلة إلـى السـرير الصغيـر وحكيـت لهـا بعـض الحكايا بينمـا طلبـت إيمان المشـروبات، ثم قامـت لتغير ثوب سـهرتها الأنيق، ترتـدي قميص نوم قصير فوق الركبة.

نامت صفاء، التقينا في قبلة طويلة، رقيقة شفتاها بعد أن بللتها الدموع، شـفيفة روحها وهي تحتضنني ويديها تحنو على جسـدي، فجأة استمعنا إلـى طرقات خفيفة علـى الباب، توجهتُ سـريعًا على أطـراف أصابعي كـي لا تسـتيقظ صفاء، فتحـتُ الباب فإذا بـه نفس العامل الـذي قدم لنا

Scanned with CamScanner

المشروبات منذ دقائق، لا أدرى لماذا نفرتُ منه وأنا أتناول العربة التي تحمل المشروبات، بينما السافل يسترق النظر إلى داخل الغرفة، فوجئت بتلك الحركة المباغتة منه فتركت العربة بجوار الباب ثم توجهت نحوه، وبمنتهى العنف كورت يدي وأطلقتها نحو وجهه صارخا:

- ماذا يا حيوان؟

ارتد للخلف بشكل سريع وكأنه كان يتوقع لكمتى، يرتد للخلف وعلى وجهه ابتسامة فظيعة كأنه انتصر لتوه، أو كذلك تخيلتُ الأمر، وقف بعيدًا يحملق نحوى بنفس الازدراء، يتفوه همسًا ضاغطًا حروف كلماته وكأنه يصوب نحوى نصلًا حادًا:

- أنت لا تستحقهم.

- ماذا تقول؟

سألته صارخًا.. لم ينصت من الأصل لسؤالى الذي طار في فضاء الطرقة بين حجرات الفندق، رحل سريعا تاركًا المكان، كنت أرتدي تى شيرت وشورت قصير في تلك اللحظة، فُتحت أبواب عدد من الحجرات نتيجة كلماتى الأخيرة التي شقت سكون المكان، لم يكن أحدًا في المكان غيرى فتوجهت الأنظار نحوى، دخلتُ الغرفة وأغلقت الباب بشدة، سألتني إيمان عما حدث، أجبتها بأن لا شيء، ألحت في السؤال فأخبرتها، تبذل جهودًا جمة لتهدئتى، قالت:

- لا تشغل بالك يا حبيبي.. العيون السافلة في كل مكان.. نساء مصر كلهن يعرفن هذا، نعيش في قلب غابة.. لكن ماذا نفعل؟!.. فلتنسى يا حبيبي (تضمني برفق) أم أنك ترغب في قضاء ليلتك بعيدًا عني، محبوسًا في غضبك.. لقد بذلنا جهدًا كي نهدأ.. وكي تنام صفاء.

أكملت حديثها بحركاتها، أمضينا ليلة رائعة، أنستني إيمان كل شيء بالفعل، أظهرت براعة في أوضاع جنسية كانت تراها صعبة من قبل، كانت تقول عنها أنها مستحيلة التنفيذ، الرغبات تصنع المستحيل، صنعتْ كل شيء في هذه الليلة، تفانت كي أسعد.. وقد كان.

في صباح اليوم التالى، غادرنا غرفتنا وأنا أحتوي طفلتى بيدي اليسرى بينما تتعلق إيمان في يدي اليمني، أتأملها في هدوء، مبتسمًا من شقاوتها ليلة أمس، كم تمتلك من القدرات لامتناعي، وقتما تريد، على وجهينا تبدو السعادة، يبرق ضوء الانتشاء، من أجسادنا تفوح روائح اللذة، كأننا طيور تلهو على وسائد ريح ناعمة.

في بهو الفندق شاهدتُ ذلك العامل، صعدته احتقارًا، لم أشأ أن أفسد اللحظة، نسيته تمامًا، خرجنا إلى الشارع، أتى أحدهم بسيارتى، نفحته بقشيشًا جعله يطير فرحًا، كنتُ أود أن يرقص معي الإنسان والطير وأن تتمايل الأشجار بأغصانها طربًا.

يستطيع المرء أن يرى من الوجود مساحات أكبر عندما يكون سعيدًا..

انطلقتُ بالسيارة أشق العاصمة في ذلك الوقت الوسط بين ساعات الذروة. عادت الحياة إلى طبيعتها.

الآن.. وأنا أجلس وحيدا في شقتى، أتحرك بصعوبة على عكازين بعد أكثر من شهر على حادث أليم، أتذكر هذا الفتى وجملته التي قالها وقتها «أنت لا تستحقهم».

انتفضت في مكاني صارخا:

- إنه هو.. نفس الصوت الذي سمعته يصرخ في إيمان قائلًا «خاينه».

■■■

Scanned with CamScanner

(27)

اللقاء

حاتم..

كنتُ في ذلك الفندق لمقابلة أحد رجال الأعمال من دولة عربية، كان علىّ مقابلته في هذا التوقيت وفقًا لموعد محدد سلفًا، أخبرني به الشيخ شوقي فهيم، انتظرتُ في كافيه الفندق حتى يهبط من غرفته، ولما كنتُ قد وصلت قبل الموعد بدقائق فقد انتحيت مكانًا قصيًا كي انفرد بذاتي تلك الدقائق، ولحرية أكثر في الحديث مع ذلك الرجل حال نزوله. طلبت كوب شاى مع زجاجة مياه باردة.

بهدوء بدأتُ عملية ترتيب الأفكار، اللقاء في ظاهره من أجل التنسيق لاستيراد صفقة لحوم إلى مصنعي من تلك الدولة، التفاوض سيكون حول الوضع الأمثل لاستيراد الشحنة، هل من الأفضل جلب الماشية حية أم يتم ذبحها هناك وتنقل لحوما مبردة أو مجمدة؟ أما باطن اللقاء كان هناك صفقة أخرى سوف تصلنا برفقة الماشية أو اللحوم حسبما نتفق.

الصفقة الأخرى عبارة عن شحنة سلاح. تجارة السلاح الطريق الأقصر لثراء أكبر، هكذا أخبرني الشيخ شوقي، ما بالنا إذا كانت تلك

التجارة لمواجهة أبالسة جهنم، الكفرة، عبدة الطاغوت. سألته مندهشا في البداية:

– خلاص الثورة قامت يا شيخنا والكفرة في السجن وعندنا ما يكفي من الأسلحة.

يبتسم في هدوء علامة أني لا أعي الكثير، يستغفر الله عز وجل عشرًا، وتلك كانت عادته قبل أن يتحدث في أي أمر مهم، كي يهدأ ويهدأ مَن أمامه، يرتب أفكاره فتخرج الكلمات متزنة رزينة، يقول:

– مَن في السجن رأس الأفعي فقط يا شيخ حاتم، جسمها كله في الخارج.. رأس حي وجسد عفى.. هذا الجسد من الممكن أن ينتفض فجأة.. يتلوى.. يضرب من حوله ويسحب رأسه وينهشنا كلنا.

يرتبك داخلي، قناعتى بأننا انتهينا من المواجهة الكبرى وبسطنا أيدينا على البلاد وانتشر رجالنا في كل مكان، ما بين مناصب ومشروعات عملاقة، كل الأخوة والأخوات أصبح لديهم عملًا مربحًا بعد جدب سنوات، وها هي مشروعاتى تتكاثر يوما بعد يوم، نشق طريقنا، أنا وأقراني، كما تشق سكين قالب زبد غير مجمد.

يلاحظ الشيخ شوقي توتري وانسحاب الدماء من وجهى، يربت على كتفى الأيسر بيمناه ليطمئنني قائلًا:

– المؤمن كيس فطن يا حاتم.. ويجب أن تتعلم أهم درس في حياتك.

– أي درس يا مولانا؟

– أن تتعامل بسوء النية حتى يثبت العكس.

Scanned with CamScanner

كانت جملته الأخيرة صادمة في لحظتها الأولى، نظرتُ نحوه فوجدته يبتسم ووجهه ينطق بكلمات تُحس ولا تُسمع، شعرت به يحثني على عدم التسرع وأن أفكر في كلماته قليلًا. فكرتُ في كلماته.. علىّ أن أتعامل بسوء النية حتى يثبت العكس، لم تكن تلك طبيعتي وإن كنت كثير التفكير كثير الشك، لا أصدق الآخر بسهولة حتى أرى أدلة حقيقية على صدقه.

– سوف أذكر لك قصة سريعة توضح لك مقصدي، وفي القصة جانبان الأول يوضح وجوب التعامل بسوء النية كما ذكرتُ لك منذ قليل، والجانب الثاني يوضح البراعة والإتقان حتى يتحقق الهدف.

– تفضل يا مولانا..

– حسن الصباح مؤسس الجماعة المعروفة تاريخيًا باسم «الحشاشون».

– أعرفه.. قرأتُ عنه من قبل.

– أسس حسن الصباح بداخل جماعته فرقة من الفدائيين مهمتها إغتيال الشخصيات البارزة في صفوف العدو بدلًا من خوض الحروب، وكان الفدائيون مدربين بشكل احترافي على فنون التنكر والفروسية واللغات والقتل. أكثر ما يميزهم استعدادهم للموت في سبيل تحقيق هدفهم. خطة حسن الصباح كانت تقضي بأنْ كان على هؤلاء الفدائيون الاندماج في جيش الخصم أو البلاط الحاكم بحيث يتمكنوا من الوصول لأماكن إستراتيجية تمكنهم من تنفيذ المهمات المنوطة بهم. والقصة المثيرة التي يرويها المؤرخون تقول بأن زعيم الحشاشين في سورية أرسل مبعوثًا إلى صلاح الدين الأيوبي، و أمره أن يُسلم رسالته إليه دون حضور أحد،

فأمر صلاح الدين بتفتيشه، وعندما لم يجدوا معه شيئًا خطيرًا أمر صلاح الدين بالمجلس فانفض، ولم يعد ثمة سوى عدد قليل من الناس، وأمر المبعوث أن يأتي برسالته، لكن المبعوث قال: «أمرني سيدي ألا أقدم الرسالة إلا في عدم حضور أحد» فأمر صلاح الدين باخلاء القاعة تمامًا، إلا من اثنين من المماليك يقفان عند رأسه وقال: «آت برسالتك»، فأجابه المبعوث: لقد أُمرتُ بألا أقدم الرسالة في حضور أحد على الإطلاق. فقال صلاح الدين: هذان المملوكان لايفترقان عني، فإذا أردتَ فقدم رسالتك وإلا فارحل. فقال المبعوث: لماذا لا تصرف هذين الاثنين كما صرفت الآخرين؟ فأجابه صلاح الدين: إنني أعتبرهما في منزلة أبنائي وهم وأنا واحد. ركز معي يا حاتم..

– معك بكل حواسي يا مولانا..

– عندما أقر صلاح الدين بأن المملوكين بمثابة أبنائه، التفت المبعوث بهدوء وثقة نحو المملوكين وسألهما: إذا أمرتكما باسم سيدي الذي أرسلني أن تقتلا هذا السلطان فهل تفعلان؟ فردا قائلين نعم، وجردا سيفهما وقالا: فلتأمرنا بما شئت. هنا وقف السلطان صلاح الدين مبهوتًا مشدوهًا، وغادر المبعوث المكان وأخذ معه المملوكين.

– أكاد أفهم المرمى الأول من تلك القصة وهي إساءة الظن كما ذكرت لي، وقد وصل الأمر بماهر كصلاح الدين حتى ينخدع في هذين المملوكين، وكان عليه أن يسيئ الظن.

– نعم.. أما الجانب الثاني في تلك القصة هم المملوكين نفسيهما يا حاتم..

Scanned with CamScanner

تأملتُ لحظات لعلى أصل إلى ما يرمي إليه شيخي، لكني فشلتُ، ضغطتُ شفتي وتساءلت عن المغزى، يبتسم الشيخ شوقي وهو يربت على كتفي مرة ثانية بهدوء قائلًا:

– المملوكان يا حاتم كانا على يقين بعقيدتهم جعلتهم يصلون إلى أرفع منزلة لدي السلطان، كيف حققا ذلك؟ كيف صبرا على تحمل كل شيء واستطاعا أن يخفيا سرهما بداخليهما طيلة سنوات؟ كيف أظهرا محبتهم قولًا وفعلًا إلى صلاح الدين بينما يضمران الشر، كيف مرا بأحداث جمة لم تغير من عقيدتهم وجردا سيفيهما في انتظار الإشارة لقتل السلطان الذي كان يعتبرهما بمثابة أبناءه؟

– حقا يا مولانا..

– هذه هي الروح التي يجب أن نكون عليها يا حاتم.

الحقيقة أنه لم تكن بين ما تفوه به الشيخ شوقي وبين قناعاتي فجوة كبيرة، لكن على صغر هذه الفجوة احتاجت مني وقتًا كي أستوعبها. قبل أن أغادره استوقفني لحظات قائلًا:

– السلاح يكون عندنا في أقرب فرصة، أعداء الله عندهم ترسانة أسلحة والمؤمن القوى خير من المؤمن الضعيف يا حاتم.

لم أكن في حاجة إلى جملته الأخيرة كي أقتنع بجلب السلاح، فقد اقتنعت منذ اللحظة الأولى، فيكفي هامش الربح سببًا للاقتناع. أما التعامل بسوء النية، فهذا ما فكرت فيه كثيرًا في الأيام التالية واستوعبته، بل واقتنعت به وسوف أتحدث بشأنه مع تلميذي القادم. وأما التفاني لتحقيق الهدف، وإن كان إظهار عكس ما أضمر، وأتحمل سنوات

ويقيني ثابت، فهذا أمر لستُ في حاجة إلى تأكيده من آخر، فأنا كذلك بلا توجيه.

يهبط الشيخ «تمام العنبري» مُرحبًا بي بحفاوة في حُلته الأنيقة ذات الألوان الزاهية التي لا تتناسب مع هذا الوقت من اليوم، من الوهلة الأولى تعرفت على تفاصيل شخصيته، لم يكن رجل دين ودعوة، تاجر هو، يُورد لحومًا أو ماشية حسب الطلب ظاهرًا، أكبر مورد سلاح في المنطقة باطنًا.

تناولنا الطعام واحتسينا المشروبات الباردة وحديثنا كله منصبًا على صفقة الماشية، سألته عما يفضله هو، أجابني بأن الأفضل لكلينا أن تأتي شحنة الماشية حية، أبقار وجاموس حي يجعل مهمة تفتيش العربات شبه مستحيلة، وافقته في الرأى، كانت المهمة الأصعب هي صناديق الأسلحة التي سيتم وضعها في أماكن خفية كيف سيتم نقلها إلى مكان أمين؟ كانت الإجابة جاهزة وبسيطة، لن تأتي الماشية في عربات القطار كما هي العادة، إنما ستأتى في شاحنات، هذه الشاحنات تخرج من مزارعنا في الجنوب، تعبر الحدود، تصل إلى مصانعكم مباشرة يا أخ حاتم.

قبل أن أسأله على نقاط التفتيش الأمنية المنتشرة على طول الطريق، حدثني بأنه يصعب التفتيش كما ذكر من قبل، بالإضافة إلى أنه سوف يتم اختيار التوقيت المناسب لرجالنا في هذه النقاط، ثم يعقب ضاحكا بصوت منخفض:

– ألم يخبرك الشيخ شوقي بالتفاصيل؟!

Scanned with CamScanner

استمر اللقاء فترة لم نكن في حاجة فيها لإحداث تمويه أو تلاعب خشية أن نكون مراقَبين، فقد غير تمام فندقه في اللحظة الأخيرة، وقبل أن أصل إلى لقائه بدقائق في الفندق الأول أخبروني بذلك المكان فتحولت إليه بلا نقاش، أضف إلى ذلك أنني لست محلا لأي شبهة.

قبل أن يتركني ويرحل من الفندق متوجهًا إلى لقاء بعض الأصدقاء كما أخبرني، وكنت أعلم أنهن صديقات، دعوت له في قلبي بالهدايه، أخرج من جيبه جهاز تليفون محمول أنيق جدًّا، تناولته متفحصًا، سمعته يقول هامسًا:

– تليفون يحتوى على شريحة دولية متصلة بالقمر الصناعي مباشرة.. بغرض التهرب من المراقبة.. وسيلة للاتصال بينا.

ثم يكمل بصوت مرتفع متصنعًا فيه الهدوء:

– هدية صغيرة يا أخ حاتم، لا يجب أن أقابلك بيد خالية. الكاميرا هايله.. كي تتصور سيلفى كما تحبون.

يضحك ثم يقف ليصافحني ويترك المكان. جلستُ تاركا التليفون أمامى أتأمل الحضور، طلبت فنجان قهوة أحتسيه قبل الرحيل، حمدتُ الله على ذلك التوفيق الذي حظيت به متمنيًا أن يُتم علىّ صفقتى بنفس الهدوء، المبلغ المنتظر منها يفوق الخيال، يضاف إلى ذلك تلك الثقة التي حظيتُ بها بين كبار رجال الجماعة والتي لا تقدم ثقتها إلى أي شخص إلا بعد عشرات الاختبارات المؤكدة للولاء وصدق السريرة.

شردتُ قليلًا متذكرًا أمل زوجتى، فتاة تمتلك جل المقومات، إلا شيئًا واحدًا جعلني لا أشعر نحوها بتلك الألفة أو بذلك السكن الذي

حدثنا عنه الإسلام، إنها عنيدة، وإن استجابت لكل ما أطلبه منها، نظراتها تحمل الرفض، ملامح وجهها تستنكر أي فعل وإن أبدت قبولا.

تلك كانت مشكلتى مع أمل، عدم الشعور بذلك التوحد الذي كنتُ أحلم به بين الزوجين، يَرِق قلبي دائما لذلك الشعور، لم توفره لي أمل، كيف لم تستطع أن تحتويني، أن تُذيبني بداخلها، أن تملأ عليَّ حياتى كما الأخريات، زاد بغضى لها مع الأيام.

ذلك الشعور الذي طالما حلمتُ به خلال السنوات التي عشتها بالقرب من إيمان ابنة الجيران التي كانت تسكن في الشقة المقابلة لنا، كم عَشِقتُ هذه الفتاة التي لم ترفع عينيها يوما من على أديم الأرض. نسمة خفيفة رشيقة تتحرك بلا صوت، بلا وجود، ملاك تجسد في صورة إنسان. تراه وتشعر به ولا تكاد تمسكه.

تغيرت أحوالى وتزوجت بأمل يوسف وعاشرتها كثيرًا، لكنها لم تنسيني يومًا إيمان.

تناهى إلى سمعي نهنهات مكتومة، صوت أنثوى ينسال باكيا، أهات كلها شجن تذيب القلوب، حرصًا وكي لا ألفت الأنظار بالتفاتى المفاجئ نحو مصدر الصوت رفعت التليفون من فوق ورقة صغيرة من ضمن أوراق كانت موضوعة أمامى فوق المنضدة، أتتها ريح خفيفة ألقت بها على الأرض، وقفتُ لألحق بها، في حركتى التالية شاهدتُ صاحبة الآهات المكتومة، تجلس كإحدي فتيات الحكايا الأسطورية، مزدانة بورود حمراء على خديها ترتوى بدموعها الباكية. بطنها منتفخة بروح جديدة تقترب من ولوج الدنيا، بهية هي، لكنها في مكان لا يجب أن تكون فيه، مثلها لا يُعامل هكذا أيها الشاب الأغر، ذلك الشاب الذي

Scanned with CamScanner

يجالسها، هو زوجها كما يبدو، شاهدتُه بطرف عيني قبل أن أعود إلى مكاني. غيرتُ من موقعي بشكل يجعلني أشاهدها بشكل كامل دون أن ألفت الأنظار، جلستُ.. نظرتُ نحوها بهدوء، تأملتها لم أصدق عيني.. آه..

صرخة مكتومة شهقتُ بها ثم نظرتُ إلى الناحية الأخرى فجأة حتى أحتوى انفعالى البادي، إنها هي.. هي إيمان.. محبوبتى الأولى.. كيف ذلك؟

كيف تذكرتها الآن وفجأة أراها بجوارى جالسة؟! أي مصادفة تلك؟!

تقريبا.. ثمة معان وتفاصيل تنثرها الأرواح في المكان، كثيرًا ما يحدث ذلك لي، أتذكر صديقًا ما وفجأة أجده أمامى. إيمان أمامى باكية في صمت بعد كل هذه السنوات، قاومتُ مشاعر رهيبة بداخلي تجبرني على الاقتراب منها ودفع الأذى عنها، أنا في وضع مالى وإجتماعي ولدي رجال يقفون خلفى، الأمر الذي يجعلني اتحرك بثقة أكثر وأضمن النجاح. لكني قررتُ الصمت والانتظار، فأنا لا أضمن ردة فعلها هي، يجب أن أتأكد من رغبتها في أن أتحرك نحوها، ترفع يدها لتمسك بيدي كي انتشلها، وقتها فقط سيكتب لي النجاح.

تأملتها وتأملت من يجلس معها، أيجلس أحدًا مع ذاك الملاك، ثم يتركه ليصل إلى تلك الدرجة من الإنفعال حتى البكاء؟! وصلني صوته الذي شعرتُ به بغيضا مقيتًا وهو يقول:

- إيمان.. تماسكى.. لا يصح ما تفعلينه و..

هي إيمان إذًا؟ اللهم رحمتك.. أي تأييد إلهى وتوفيق يصاحبني في ليلتى؟! نجاح في إبرام صفقتى والعثور على محبوبتى التي غابت

عني سنوات، اليوم يعود إلىَّ قلبي بعد رحلة بحث طويلة كاد أن يفني خلالها، قلبي المكلوم يبتسم اليوم وإن لم يكن مصدقًا لما يحدث من هول المفاجأة، حزينة كسيرة، تجالس زوجًا وأنجبتْ طفلة وتحمل في أحشائها روح جديدة، حزينة هي، يا إلهى.. كم تجلت فيها عظمتك.. أنزلتَ فيها آيات الجمال والرقة، ألا يدرك ذلك الشاب قيمة ما في يده؟!

هناك من يدرك أيها الفتى. هناك من ينتظر من سنوات طوال، وقد أتى.

■■■

Scanned with CamScanner

(28)

القـــــرار

فاطمة..

لم أكن أبتغى من حياتى شيئًا بعد تلك الراحة التي وصلتُ إليها، أما أن تكون راحتى تلك سببًا لتعاسة والديَّ، مَن أحبهما كثيرًا، فهذا ما لم أستطع أن أتحمله، فآثرت الرحيل بهدوء.

بعدما شاهدتُ انكسار والدي وجلوسه على مقعده في الصالة ككتلة حزن مريضة شاردًا بعينيه مستعطفًا السماء بعض رحمتها، وبعد ذلك الإصرار الرهيب من أمى على ذهابنا إلى الكنيسة، وما يعتمل في داخلي من محبة وقناعة لما وصلتُ إليه، رأيت أن الطريق ينتهى بباب ضخم موصد، عليه أقفال بنوء ذوو القوة عن حملها، فما بالنا بضعفى ورهافتى.

تختلط الألوان أمام ناظرى، تتداخل الصور، قديمها بحديثها في تداخلات رأسية وأفقية، تضيع الملامح، أكاد أفقد ما تبقى لدي من قوة، أتنفس بصعوبة، لا أشعر بذاتى، تتدافع آهاتى ملتهبة، ماذا يحدث لي؟ لماذا يتجاهلونني بهذا القدر، أقل بكثير من النكرة أنا، بل كأنني من العدم خلقت، فلا وجود لي.

لا وجود لي..؟!

فليكن...

اتخذتُ قراري الذي أنصفتني به إدراكاتى الحزينة اليائسة في تلك اللحظات، وإن أدركت مستقبلًا كم كنت مخطئة في ذلك. حدثتُ نفسى بأنني إن كنتُ سببًا لكل تلك المشاكل التي لحقت بهذه الأسرة التعسة، فلابد أن أضع حدًا لتلك المأساة.

أسدلت ستائرى، تناهى إلى سمعي نهنهات والدي وآهاته المكتومة، مقص صغير سحبته من درج التسريحة، تخيلتُ أمى تربت على كتفيه وهي تحتويه لتسرى عنه وتعده بأنها لن تتركني حتى أعود عما فعلتُ، قبضتُ على المقص بشدة جاعلة من أحد سلاحيه سكينًا، صرير شديد لعجلات سيارة ثم صراخ أحدهم يسب سائقها المتهور، سحبتُ سلاح المقص الصغير الحاد بشدة فوق أوردتى، سحبته فجأة وكأني أخدع ذاتى، تسيل الدماء غزيرة من يدي اليسرى، يصرخ أبي بصوت واهن «يا يسوع».

ألم رهيب يجتاحني لكني لم أُخرج آهة واحدة، نيران قلبي كانت أقوى ولو تركتُ آهاتها تخرج لملأت المكان كآبة ورعبًا.

مع انسيال الدماء شعرتُ بوهن في جسدي، تنسحب الأشياء من أمام ناظرىَّ، تخفت الإضاءة الشاحبة المتبقية بعدما أطفئتُ المصباح وأسدلتُ الستائر، يعم الظلام، تتلاشى كل الأصوات، إلا من صوت يأتي من مكان سحيق، إنه صوت أمى تصرخ باسمى.

أفيق على صوتها تناديني برفق:

- تريزة.. إبنتى حبيبتى..

Scanned with CamScanner

أستجمع قواى لأدفع بها جفوني الثقيلة، صورًا شاحبة لأمي يقف بجوارها رجل غريب، في الخلف يجلس والدي صامتًا على مقعد كما تركته من لحظات، لكن المكان غير المكان، حامل معلق به زجاجة مدلى منها خرطوم رقيق ينتهي في ذراعي، أسرة بيضاء. تتضح الرؤية أكثر، أراني ممددة على سرير في أحد المستشفيات، تقف إلى جوارى أمي تناديني وإلى جوارها القس مينا جبرائيل.

كثيرًا ما استمعتُ إلى خطب القس مينا جبرائيل في الكنيسة، يمتلك حنجرة قوية ومصطلحات لا تنضب في أي مجال تحدث، ذهنه حاضر وحجته قويه، هو من أشد القساوسة تعصبًا وكثيرًا ما أتت خطبه وكلماته النارية بنتائج مباشرة في تزكية النيران الخامدة وإشعالها، لا تغيب عن الذاكرة كلماته التي أشعلت حربًا أمام ماسبيرو في وقت كانت البلاد فيه تعوم على بركة من نيران الفتنة وفي حاجة حقيقية لقلب هادئ وروح مبتسمة للتهدئة، لا الإشعال.

مجرد استدعاء أمي للقس جبرائيل يعني أن رغبتها أكيدة في إثنائي عن طريقي الذي انطلقتُ فيه. لا مجال للنقاش وتبادل الحجة، تركتُ الصورة وركزت ناظرىّ على والدي أستمد منه عونًا وإن كان واهنًا، ألفيته غير أبي الذي أعرفه، تاهت نظراته الشفيقة بي وغاب حنينه، انقطع ذلك الخيط الذي كنت أراه يشدني إليه باستمرار، أشحتُ بوجهي إلى الناحية الأخرى من الغرفة، تركتهم جميعًا ليفعلوا ما يفعلوه، انتهت قضيتى معهم، لن يؤدي بي حديثهم إلى جديد يذكر، ولن أنجح مهما جادلت في إقناعهم، لكم دينكم ولى دين، تلك هي القضية ببساطة، يوم أن نعرض على خالقنا نحاسب على أعمالنا، لا على أعمال هذا أو ذاك،

فلا تزر وازرة وزر أخرى، كل نفس مأخوذة بجرمها ومُعاقبة بإثمها، لِمَ كل هذا الكم من الانفعال والضيق ووضع العراقيل في طريقى؟!

أفقت من شرودي على يد القس جبرائيل تزغدني في كتفي، يد قوية، عنيفة، تلك سمته في حديثه وحركته، التفتُ نحوه وقد غلبتني همومى فزفرت بضيق من عنفه ومنهم جميعًا، فإذا به يقول:

– و مستاءة؟!.. أتكفرين بالرب وتتركى دينك وتستائين يا فتاة؟!!

يُكمل ساخرًا وهو يجول بناظريه على والديَّ مؤنبًا لائمًا، وكأنما منع نفسه من صفعهم:

– لم يكن هذا ليحدث إن جعلتموها تدرس الإنجيل جيدًا.. جهل في جهل والنتيجة ماذا؟.. كفر.

يعود مرة أخرى بجسده نحوى، يمد يده ليسحب مقعدًا يجلس عليه، تسارع أمي في حمله وبحركة لا إرادية تمسح قرص المقعد قبل أن يجلس عليه القس جبرائيل، يجلس مباشرة وكأن مسح المقعد له أمر بديهى.

نفرت من جلسته التي تؤكد أنه سيتحدث كثيرًا. يتخذ سيماء النساك متنحنحًا كي يفسح الطريق لكلماته، يقول:

– يا تريزة يا ابنتى لابد أن تفهمى أننا لسنا ضد أن تقرأى وتفهمى.. مهم أن تكوني مثل النحلة، تطوف على كل الزهور وتتذوق رحيقها، لكن لا تمتص غير الرحيق الأفضل لتصنع منه العسل.

كنت أتابع حركات وجهه، تقلصات غريبة كانت تظهر على جانبي فمه، لاحظتُ أن الجزء المتقلص على جانب وجهه الأيمن كان أكبر من الجزء المتقلص على جانب وجهه الأيسر، أيضًا ثمة ارتجافة غير

Scanned with CamScanner

ملحوظة في عينه اليسرى. لحيته الكثيفة كانت تتحرك مع فكه السفلى مثل فرشاة عريضة مدلاة، مدعمًا بحركتها كلماته تماما كما يستخدم حركات يده.

يمد يده ليجرع رشفات من زجاجة الماء الموضوعة على المنضدة المجاورة للسرير، يجرع الماء ثم يتجشأ، يخرج بعض الرذاذ ليستقر على شعر لحيته وكأنها دبابيس ذوات رءوس مقلوبة. يعود ليكمل قائلًا:

– نحن المسيحيون، لدينا غاية أعظم من الحياة التي نعيشها، إنها الحياة الأبدية.. نعمل في الدنيا التي نحياها كي نصل إلى الحياة الأبدية التي هي غايتنا، فيها سوف نتذوق السعادة الحقيقية، قطرة السعادة عند الرب تساوى سعادة وفرح الحياة الدنيا كلها يا تريزة.

لا أعلم لماذا يتفوه القس بهذه الكلمات وإلى ما يصبو..!! وكأنه قرأ دهشتي واستشعر مماطلته، حاول رسم ابتسامة، فبدت باهتة، وهو يقول:

– أقول ذلك لأوضح لكِ يا بنيتي أننا في هذه الدنيا نتعرض لكثير من المغريات، الشيطان لن يتركنا نحب الرب ونؤمن به بسهولة ويسر.. لابد وأن يظهر لنا في أكثر من صورة، وفي كل زمان ومكان، كي يغير من إيماننا.. يا ترى في أي صورة ظهر لكِ الشيطان يا بنيتي؟

قاعدة، يتداولها أغلب بني آدم، يقولون «كل شيء يتعارض مع أفكاري ومصالحي هو رجس من عمل الشيطان». يرى جبرائيل أن إسلامي كُفر، ويرى حاتم وشيخه الذي نطقتُ أمامه الشهادتين، أن بقائي على المسيحية كُفر، والطرفان يرون في اليهودية كُفر، وثلاثتهم لا يعترفون بما على الأرض من مذاهب يدعي أهلها أنها ديانات، وجميعهم

في النهاية أبناء آدم ويعبدون إلهًا واحدًا وإن اختلفت الطرق المؤدية إليه، أو المعاني المتجسد فيها الإله.

لماذا يستأثر كل فريق بالإله الواحد ويعتقده ملكية خاصة له ويتحدث باسمه؟! بل ووفقًا لهذا المعتقد يفرض الأقوى رغباته على الأضعف!!

ألا يعلمون أن الله خلق بني البشر وترك لهم الحرية في عبادته، أتذكر الآية القرآنية يتردد صداها في أذني:

﴿ وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ۚ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ۚ وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟ يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ ۚ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا ﴾.

يترك الله الحرية الكاملة أمامنا، نختار ما نشاء، أما من اختار الانضمام إلى صفوف الظالمين فيوضح الله مصيرهم شفقة بهم وخوفًا عليهم، فهو تحذير أقرب منه وعيد، فيا أيها الظالمون اعلموا أن مصيركم هو نار عظيمة.

لِمَا تظلمونني اليوم.. بابا.. ماما.. أيها القس جبرائيل، لماذا لا تتركونني وشأني؟ لماذا تفرضون أنفسكم أوصياء علىّ ولا تتركون لي حرية الاختيار، يقول الإله الواحد لرسوله الكريم: ﴿ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكُوا۟ ﴾، ﴿وَمَا جَعَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ﴾، ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴾.

فإن كان هناك من وصي ومُوكل بالتوجيه لأحد، فإنه سيكون خاتم الرسل محمد بن عبدالله عليه أفضل الصلوات والتسليمات، لكن الله لم يمنحه هذه الميزات التي يستحلها اليوم جبرائيل وغيره من رجال الدين، أي دين.

Scanned with CamScanner

كم تمنيتُ أن أتحدث إلى القس جبرائيل بأنني ما تركت نبي الله عيسى عليه وعلى أمه السلام، فأنا أؤمن به وبرسالته العظيمة وزدتُ نبي الله محمد والقرآن الكريم.. أي روعة تفتقدونها أيها المجادلون؟!

لم يتركني جبرائيل كثيرًا أجول في بحر صمتي، تركني هنيهة كي أدرس كلماته التي لم أستمع إلى حرف منها، أعلم ما يهدفون إليه، أغلقتُ أذنيَّ وانطلقت في عالم صنعته من خيالاتي الجميلة، عالم صفحته سقف الحجرة الذي بدا شفافًا، سماؤه مليئة بطيور ونسمات ورياحين وأطفال مجنحين تعلو وجوههم البسمة، يضحكون لي ويجذبونني رفقًا من يديّ، نلهو ونلعب حتى تراقصت قلوبنا فوق وسائد السُحب المخملية وصفحات أوراق الأشجار الخضراء الناعمة.

ينطلق جبرائيل ذاكرًا نصوص «العظة على الجبل» تحفظها منذ الصغر، يقولها الآن كأنه يقرؤها من كتاب مفتوح أمامه:

– عندما رأى المسيح الجموع، صعد إلى الجبل، فلما جلس تقدم إليه تلاميذه. ففتح فاهه ليعلمهم قائلًا: طوبى للمساكين بالروح، لأن لهم ملكوت السماوات. طوبى للحزاني لأنهم يتعزون. طوبى للودعاء، لأنهم يرثون الأرض. وأنتِ يا تريزة مسكينة بالروح وحزينة يا بنيتي، بشرى جميلة من السيد المسيح لقلبك الحزين، ليتكِ تغسلين همومك وتخرجي من التجربة التي مررتِ بها، بقلب مسيحي صافي صفاء الحليب.

يستمر القس مينا جبرائيل متحدثًا بعظة الجبل الطويلة التي وردت في إنجيل متى وكأنه يُدرسها لطفلة في كنيسته. ظللتُ على صمتي وقلبي يجول بعيدًا حتى ينتهي من عظته، يظهر على والدايَّ التأثر. يبدو

على وجه القس الإجهاد من أثر الانفعال الذي لازم بعض نقاط حديثه محاولًا أن يُزيد من تأثري بها.

عدتُ إلى أرض الواقع على حركة جبرائيل وهو يضع يمناه على جبهتي محركًا شفتاه بكلمات غير واضحه، إنه يباركني، وخلفه والدايَّ يلهجون بكلماتهم المباركة وعلى وجوههم علامات الدنو من الشاطئ، ذلك الذي يحسبونه شاطئ نجاة لهم ولي. ينتهون من مباركاتهم ويصلون باسم الأب والابن وروح القدس.

لم تأتي كلماتهم معي بنتيجة تذكر، ولن أستطيع تغييرهم مهما تحدثت فآثرت صمتًا. كان الموقف يُحتم عليّ اتخاذ خطوة واحدة لا مفر منها.

اليوم فشلت محاولتي في الانتحار، يرفض الله قبولي في الحياة الأبدية، مؤكد أن ربي يعلم أن هناك خطوات أخرى سوف أسير فيها على طريق إيماني العذب الذي عشقت كل تفاصيله. لذا قررتُ أن أتخذ هذه الخطوة.

ابتسمتُ لهم ومددتُ يدي نحو أمي، شهقتَ سعيدة، يقف والدي على قدميه لحظة ثم يسرع لينحني على يد القس جبرائيل ليقبلها، يترك يده لوالدي ليمرغ وجهه تقبيلًا. ترتسم علامات الانتصار على وجه القس جبرائيل ويقبض على صليبه الأبنوسي بقوة وهو يرفعه إلى فيه ليقبله، وأيضًا يتقلص جانبي وجهه بشكل غريب.

هدأوا جميعًا.. في الساعات التالية عدتُ إلى ذاتي. آثروا عدم مناقشتي أكثر من ذلك كي أرتاح. يرحل القس جبرائيل بعد أن يحصل على تأكيد بذهابي إليه في الكنيسة بعد تماثلي للشفاء.

Scanned with CamScanner

يعود أبي إلى عمله ليطلب إذنا أو يرتب وضعًا، تمكث أمي ساعة تعود بعدها إلى المنزل لترتب شأن الصغار، فقد قرر الأطباء في المستوصف الملحق بالكنيسة أن خروجي سيكون في اليوم التالي.

أما أنا.. لم أنتظر..

ما إن ينتصف الليل ويسقط الجميع غرقى في بحيرات الأحلام، حتى أتسللُ خارجة في ملابس ممرضة أرتجف على أطراف أصابعي. وطئت قدماي أرض الشارع، دلفتُ في أول تاكسي. طلبتُ منه التوجه إلى المعادي، أمليته عنوانًا كنت قد حفرته في ذاكرتي، إنه منزل حاتم فكري.

■■■

(29)

المخطوفة

إيمان..

هل قُتل في الحادث، أم تراه مصابًا فقط؟

هل يبحث عنا الآن، أم تراه استمرأ البُعاد؟

هل قابل إحدي فتياته اللاتى كان يتعامل معهن قبل زواجنا؟

هل انتهت أيام الهناءة والاستقرار؟

هل حلت أيام الشقاء وانطلقنا في طريق ملتهب لا عودة منه؟

هل.....

هل.....

تساؤلات مثل هذه كانت تلهو في رأسي لهو الشياطين، لا أدرى كيف أصل إلى هذا المستوى من التفكير رغم عدم معقوليته بالمرة!! الطبيعي أن يبحث عنا عادل ووالداى والشرطة..!! لابد أن الجميع يبحثون عنا الآن، إن لم يكن من أجلى فمن أجل أطفالنا.

منذ أن غافلتُ هذا الشخص الكريه، وأخذتُ تليفونه المحمول واتصلت بعادل، وهو يعاملني معاملة سيئة للغاية غير تلك التي كان يعاملني بها منذ أن أتى بنا إلى هذا المكان الذي لا نعرفه.

Scanned with CamScanner

بعد هذا الاتصال انتظرت أن يتم تتبع رقم الهاتف ويصلون إلينا، لكنه بعد أن هدأ وزالت عنه غضبته العنيفة، وهو يبدو كذلك دائما عنيفًا وقت الغضب عنف أقرب إلى الجنون، أخبرني أنه تخلص مباشرة من تلك الشريحة التي استعملتها، وهذا الرقم لم يعد له وجود لتتبعه، كأنه يجلدني بسوط قُد من لهب، ذهبت عني أمالي مرة واحدة.

لحظات ثقيلة كجبل تلك التي مررتُ بها أنا وأطفالي منذ لحظة الحادث.

بعد أن صدمتنا السيارة النقل من الخلف، صرختُ بشدة وأصيب الأولاد بحالة من الخوف والفزع، بينما عادل يحاول التشبث بعجلة القيادة، الغريب أن تعبيرات وجهه في تلك اللحظات لم تكن تتناسب مع هول الموقف، كان جامدًا، لاحظتُ إصرار السائق خلفنا على الاصطدام بسيارتنا في موضع معين وبسرعة معينة، آخر ما شاهدته أجساد أولادي النحيلة متطايرة داخل السيارة لحظة إنقلابها.

عدتُ إلى الوجود لأجد نفسي مقيدة اليدين والقدمين وملقاة في جانب بملابسي الممزقة المطموسة الألوان بسبب الدماء، مؤكد أني نزفت كثيرًا، نظرتُ يمينًا ويسارًا، غرفة نوم صغيرة، متواضعة الأثاث، لا أعلم في أي مكان هي. تذكرت أولادي، شَهقتُ فزعة، اعتدلت جالسة، سرير صغير في الجانب الآخر من الغرفة بجوار الباب، ينامان عليه وقد رُبط رأسيهما بضمادات من الشاش عليها بقع حمراء، بحركة لا إرادية حاولت النزول كي أحتويهما، فوجئت بالقيود تعوقني بشدة، للمرة الأولى أشعر بالآلام مبرحة، عدم اتزان وألم رهيب، خرطوم دقيق ملتصق بيدي، إنه خرطوم يصب في أوردتي محاليل ما من زجاجة معلقة في مسمار مثبت في الحائط خلف رأسي. صرختُ:

- أين أنا؟

انتظرتُ لحظات لعل أحد يأتيني بجواب، لكن الصمت كان يلف المكان بشكل مخيف، أرهفتُ السمع أكثر لعلي أعثر على قطرة من معرفة تروي ذلك الظمأ الرهيب، لكن.. لا شيء.

توجهت نحو صفاء وباسم أناديهما برفق فلم يجيبا، يعلو صوتي شيئا فشيئًا، لم يجيبا أيضًا، دققتُ النظر فإذا بهما يتنفسان بانتظام، إنهما في غيبوبة أو تحت تأثير مخدر، إن كانا نائمين لاستيقظا على نداءاتي المتكررة.

كيف أتينا إلى هذا المكان؟ أين عادل؟ أين والداي؟ أين الناس؟ لماذا نحن هنا؟ لماذا أنا مقيدة بهذا الشكل؟! لماذا ينام أطفالي بلا حراك هكذا؟! عشرات الأسئلة تكاد تفتك بي ولا إجابة لأي منها. ماذا ينبغي أن أفعل؟ أنا لا أستطيع أن أفعل أي شيء وأنا على تلك الحال.

مرت ساعتان تقريبًا وأنا جالسة في مكاني، تنهمر دموعي على وجنتيَّ بلا ضابط، مرت تلك الساعات كأنها سنوات عمر دامية. الجهل من أسوأ الأمور، المعرفة نور، أي معرفة كانت، لو علمتُ أني في سجن لشعرت بإحساس آخر غير ذلك الذي أعانيه الآن.

سمعتُ صوت مفتاح يدور في الباب الخارجي ثم فتح وغلق باب مع خطوات خفيفة وحركة بسيطة وصوت أكياس بلاستيكية، انكمشتُ في مكاني يحتمي بعضي بعضي، يخيم الصمت لحظات أخرى ثم طقطقة ولاعة أو ما شابه، يُفتح باب الحجرة بهدوء، من فتحته الضيقة التي تتسع رويدًا رويدًا، يبدو وجه نحيف على جسد أكثر نحافة، شاب في عقده الثالث يميل إلى السمرة، يرتدي الجينز وحذاءً رياضيًا، في فمه سيجارة

Scanned with CamScanner

حديثة الاشتعال، تتلاقى أعيننا، زحفتُ قدر المستطاع إلى الخلف حتى التصقت بجانب السرير الخشبي القديم، تسرب فزعي عبر خلايای ليستقر على ملامحي، يبتسم هذا الشخص، أعتقد أنه يحاول طمئنتي، نظرتُ نحوه باستغاثة ونحو أولادي بأسى، خرجت الكلمات بدون تحكم:

- أين أنا.. لِمَ أولادي نائمون هكذا؟.. أين عادل؟

- أنتِ في أمان.. لا تخافي يا إيمان.

نظرت نحو قيودي وأطفالي بدهشة قائلة:

- أمان؟!.. مَن أنت؟!

بهدوء تحرك ذلك الشخص وسحب المقعد الحديدي، الذي يشبه مقاعد المستشفيات الحكومية، من ركن الغرفة، يجلس عليه واضعًا ساقًا فوق الأخرى، ساقاه نحيفتان بشكل أتاح له أن يلف الساق العليا حول السفلى في شكل غريب، يتوجه نحوى بنظرات تشعر بها الأنثى بلا شرح أو تفسير، إنها نظرات إعجاب!! لم أصدق ما ذهب إليه إحساسى في اللحظات الأولى، تذكرت طريقته في إلقاء الجملة الأخيرة «أنتِ في أمان.. لا تخافي يا إيمان» تعتليني الدهشة، تكاد سكاكين الجهل تمزق داخلي، تعلو ملامحى عشرات الأسئلة، يبتسم وهو ينفث دخان سيجارته في الهواء، يُلاحظ أن الدخان يتوجه نحو أولادي النيام فيدير وجهه سريعا ليبعد الدخان عنهما بشكل زاد من حيرتى، ثم قال:

- أنا سمير.. سمير توفيق.. وأنتِ هنا في شقتى.. أو في الحقيقة في شقتك الجديدة يا إيمان.

- شقتى الجديدة؟!

- نعم..

- لا أفهم شيئًا!!

- سوف تفهمين كل شيء.. لكن.. ليس الآن.. واحدة واحدة.. المهم الآن أتيتُ لكم بطعام ومشروبات.. ماذا؟..ألم تشعرين بالجوع؟ لقد مر..

فجأة ينفجر بركاني الكامن، صرختُ بشدة بشكل أفزعه، تفوهت بكلمات متداخلة غير واضحة، أستغيث بالبشرية جمعاء لتنقذني، أسب هذا الكائن الغريب،ثم استعطف وأتوسل، ثم أهدد وأصرخ.. يبُح صوتى وتنهار قواى، بينما يقف هو متحركا في الغرفة يمينًا ويسارًا بعصبية مشيرًا إليّ بأن ألتزم الصمت، يقترب أكثر من مرة ليكتم صوتى بيده، ثم يرفعها إن هدأتُ قليلًا، فأعود للصراخ لعل صوتى يصل إلى أحد الجيران وأنا أستغيث بهم، فيأتى ليكتم صوتى مرة ثانية، لم أشعر بنفسى وأنا في تلك الحالة إلا وأنا أعضه بعنف وانفعال هيستيرى، لم أترك يده إلا بعدما رفع يده الأخرى ولكمني بها بشدة وهو يصرخ من شدة الألم.

تلقيت اللكمة في جانب رأسى الأيسر. وكأن ومضة كهربائية شديدة أتت فجأة ثم تلاشت مع صوت الارتطام، بعدها ساد صمت رهيب وحالة ذهول فزع. للصمت أصوات قاتلة.

رغم الألم الشديد الذي سببته لكمته لي إلا إنني شعرتُ ببعض الهدوء بعدما آذيته وآلمته بهذا الشكل. يرتد إلى الخلف وهو يهذى ليستقر على المقعد الحديدي ضامًا يده إلى صدره. يتفحصها بعد لحظة وهو لا يزال يتحدث بكلماته الغاضبة.

Scanned with CamScanner

تحركت صفاء ابنتي في مكانها، وكأني تذكرتها، كيف لم تستيقظ على صراخي منذ لحظات، يبدو وكأنها وأخيها منومان بمخدر.

تخطيتُ انفعال اللحظة وسألته بانفعال:

- ماذا فعلتَ في الأولاد؟

- لم أفعل شيئًا.. كانوا في حالة إعياء.. أتيت لهم بدواء جعلهم ينامون هكذا.

في لحظة واحدة علمتُ أن انفعالي مع هذا الشخص لن يزيد الأمر إلا سوءًا، قررتُ أن أتماسك قليلا حتى أصل إلى تفاصيل الأمر. سألته محاولة إظهار الهدوء:

- ممكن حضرتك تفهمني.. ماذا حدث وأين أنا؟

- أخبرتك.. ليس الآن.

يتماسك وهو يعتدل واقفًا ولا يزال ممسكًا بيده متألمًا ليخرج من الحجرة إلى الصالة. لحظات ويعود حاملًا الأكياس، يضعها فوق المقعد وهو يقول:

- هذا هو الطعام والمشروبات.

في هذه اللحظات تجلس صفاء في مكانها فوق السرير، تنظر نحونا بدهشة وهي تتفحص المكان حتى تستقر عيناها على قيود قدميّ. انتظرتُ صراخها وفزعها، لكنها لم تصرخ. صمتتَ.. زادت دهشتي أمام صمتها، هل نتج ذلك عن الصدمة؟

يقترب هذا الشخص المدعو سمير توفيق من السرير، لم أرتد إلى الخلف هذه المرة ونظرت نحوه بشراسة نمرة متوثبة، يجلس فوق حافة

السرير ويخرج بيده الغير مصابة سندوتشات من الكيس البلاستيكي وعصائر معلبة، يمد يده بسندويش نحو فمي، أدير وجهي إلى الناحية الأخرى بدهشة.

ماذا يفعل؟ كنا نتعارك منذ لحظات والآن يطعمني؟!

لم يتركني في حيرتي طويلًا، يطيل النظر نحوي حتى تسقط يده بما تحمله، ترتعد شفتاه.

■■■

Scanned with CamScanner

(30)
الزائـــــرة

أمل يوسف..

لم أكن لأنسى فزعي في ذلك اليوم الذي دق فيه جرس الباب بشكل متواصل في وقت متأخر، فقد تخطت الساعة الثانية بعد منتصف الليل.

قبل ذلك اليوم بفترة ليست بالقليلة ونحن، أنا وحاتم، ينام كل منا في حجرة مستقلة عن الآخر، منذ بدأتُ أشعر به زوجًا جسدًا لا روحًا. فقد تعللتُ يوما بشيء من التعب والإرهاق. الحقيقة أنني كنت أخفي قليلًا من الدلال، أظهرتُ بعضه على ملابسي الشفافة المترقرقة على جسدي وفي رنة صوتي، طلبتُ أن أمضي ليلتي في حجرة النوم الإضافية، يمط حاتم شفتيه ويعلق بكلمات باهتة تدل على أنه لم يلحظ ما أواريه وإن كان ظاهرًا:

- نامي في المكان الذي يُريحك يا أمل.

تقبلت إهانته بنظرات شرسة ودلفتُ إلى الحجرة مسرعة، أغلقتُ بابها بقوة، تقلبت في فراشي على نيران الغضب، انتظرته يأتي، تمنيتُ أن يفعل، لكنه لم يفعل. أحيانا نود لو يقتحمنا الآخر، تمنعنا ذواتنا من

الاقتراب ونرغب في أن يقترب هو، بل ونلومه إن لم يقترب، نفسر إقبالنا ضعفًا وإحجامهم خيانة. تملكتني حالة عناد فبتُ ليلتي الثانية والثالثة في تلك الحجرة، ولم يأتني أيضًا.

تحول عنادي إلى غضب ونقمة، رفضتُ العودة إلى حجرة النوم الرئيسية في وقت يبدو فيه أنه استراح لهذا الوضع، يزداد الموقف اشتعالا بصب قليل من الزيت، فلم يطلب عودتي.

أحيانًا تكون النقمة سبيل النجاة من هلاك حيقفي، لكننا لا ندرك ذلك في حينه فيتبدل داخلنا وتمرض أنفسنا، حتى يأتي اليوم الذي ندرك فيه النجاة فتشفى النفوس، لكن أي نفوس تشفى؟ إنها النفوس التي تمتلك قوة الصمود لتتخطى أزمتها حتى لحظة الإدراك، أما تلك الواهنة فإنها تفني قبل لحظة الإدراك، نعم تفني صريعة نقمتها.

قوتنا هي لون من الإيمان، الإيمان يعطي القوة، والقوة تعطي الاستمرار. لدي قوة حقيقية نابعة من إيمان عظيم، استطعتُ الاستمرار وتقبل اعتزال حاتم لي، نعم.. هو يعتزلني.. لم يطلبني.. لم يأتيني.. لم يجذبني من شعري ويأمرني بالمعاشرة، تأكد ظني بأن في حياته أخرى. عموما خيرًا ما فعل.

عزلتي عن حاتم في تلك الحجرة اتفقت تمامًا مع عدم رغبتي في الإنجاب منه وهو ما سيكون في صالحي مستقبلًا، كيف أنجب منه طفلًا يعاني ما نعانيه؟!

كانت غرفتي هي الأقرب إلى باب الشقة، يضاف إلى ذلك أن حاتم كان يعود من عمله متعبًا، فيستلقي كما الأموات، وأخيرًا يفضل حاتم

Scanned with CamScanner

إحكام غلق باب حجرته حتى لا ينزعج بأي حركة في الخارج فيستقر في نومه بلا منغصات على حد قوله.

في ذلك اليوم خرجتُ مسرعة، وبقلب مضطرب منذ الصباح بلا سبب ظاهر، يحوطني توتر وخوف من رنين جرس الباب المتواصل الذي بدا مزعجًا لأقصى درجة، في ومضة تذكرت رنين متواصل لجرس باب بيت والدي يوم كان آتيًا بنتيجتي في الثانوية العامة، رنين يحمل أفراحا فهو كعصفور يشدو، ورنين يحمل فزعًا فهو كعواء ذئاب مفترسة.

نظرتُ عبر العين السحرية فإذا بفتاة تستند إلى الباب في حالة إعياء، للحظة يهتز داخلي وأنظر نحو غرفة حاتم أنتظر خروجه، لكن بابه لم يتحرك، صامتًا كان، فكرتُ أن أستدعيه، ألقيت نظرة خاطفة على تلك الفتاة قبل أن أتوجه إلى حاتم فإذا بي أجدها تتشبث بنتوءات الباب وتكاد تسقط أرضًا، لا أدرى بأي دافع تحركت بداخلي الشفقة، فتحتُ الباب وتقبلتُها قبل سقوطها على صدرى، عاونتُها حتى أجلستُها على أقرب مقعد وأنا أسألها عمن تكون وماذا حدث لها؟! لم تتكلم، فقد ذهبت في شبه إغماءة.

الموقف مفاجئ وقد أحدث جلبة، زاد أوارها فزعي. يخرج حاتم من غرفته يتثاءب مغالبا نومه، لكنه يستيقظ فجأة وهو يفرك عينيه، يقول فزعًا:

- فاطمة؟!

وقفتُ أجول بنظرى بينهم وقد علتني الدهشة، من هي فاطمة الآتية بعد منتصف الليل؟! أهي تلك التي تذهب بعقله منذ شهور؟ أهي تلك التي هجرني من أجلها؟! تأملتها مرتابة، جميلة كانت، بشرتها المشربة

بدموعها، شحوبها وضعفها زاداها رقة. انتفضتُ بشدة وأنا أتوجه كلية إلى حاتم أسأله:

- مَن هذه يا حاتم؟

- ليس وقته.. أحضرى أي شيء نفوقّها به.. شكلها متعبة جدًّا.

كظمت غيظي وواريت انفعالي وتحركت تاركة المكان وصوته يلهب أذنيّ:

- فاطمة.. فاطمة.. ماذا حدث يا فاطمة..؟؟

عدتُ وفي يدي زجاجة «برفيوم» صغيرة، يتناولها حاتم، بعد أن يرش زخات قليلة على وجهها، كزهرة تشربت الماء تعتدل بعد انكسار، تفتح فاطمة عينيها لتتأمل المكان.

الأمر الذي يحيرني في تلك اللحظات ما كان يعتمل بداخلي، كيف أنظر نحو هذه الفتاة بإعجاب في وقت يجب أن أكون فيه غاية في الانفعال؟! خاصة ونظرات حاتم نحوها كانت رقيقة وكأنه شخص آخر!!.. لم أره فيض حنين من قبل كما رأيته اليوم.

وقفتُ أتأمل فاطمة وهي تحاول أن تستجمع شتاتها، تحركتُ بلا إراديه وآتيتها بكوب ماء، شربته كله كآت من صحراء قاحلة. يجلس حاتم على المقعد المواجه لها ويشير لي بالجلوس وهو يحث فاطمة على التحدث، للمرة الأولى تنظر نحوى فأرى في عينيها بريقًا وأملًا مشبعان بانكسار رهيب، تحدثتَ واهنة، بنبرات حزينة وهمسات تخرج من أعماقها، تحكى ما مرت به من أحداث، كنتُ أنصت إليها بقلب شفيف، زاد إقبالى نحوها بعدما علمتُ أنها حديثة عهد بالإسلام.

Scanned with CamScanner

كلما تقدمتُ في حديثها كلما اقتربتُ من قلبي، شعرتُ بها صديقة حميمة، أخت، لأول مرة من شهور طويلة أنظر نحو حاتم بإعجاب، كان سببًا في إسلام هذه الفتاة، أي نصر هذا؟!

طلب مني حاتم أن أصطحبها إلى الحمام لتغتسل، وآتيها بثياب من ملابسي الخاصة بالنوم، ثم أعدُ لها طعامًا تتقوت به على حالة الإنهاك التي تغرق فيها.

فعلت كل ما طلبه حاتم.

فاطمة تتحرك معي كطفلة مطيعة حنونة، فاقتربتُ منها أكثر، أغلقت خلفها باب الحمام، رجعت إلى حاتم في الصالة، قررتُ أن أهاجمه، وإن لم أكن راغبة في ذلك، لكن الموقف يقتضي مني إظهار غضبتي من تلك الزائرة، أتساءل عن نظراته نحوها، عن اختيارها له بالذات، معظم أسئلتي أعلم إجابتها، لكني كما ذكرت أود إبقاء كرامتي على خطها الطبيعي، لست نكرة، تأملته لحظات، شعرتُ أن أذنه تتابع صوت الماء المنهمر في الحمام، لعله يتخيلها عارية الآن تحت الماء، سألته:

- ماذا ستفعل يا حاتم؟

ينظر نحوي بهدوء، تعتلي ملامحه آيات الخشوع والرقة وهو يقول:

- أمر الله يا أمل.

- و ما هو أمر الله؟

يقرأ بصوت ناعم آية من سورة الممتحنة، أحفظها جيدًا:

- يقول عز وجل.. بسم الله الرحمن الرحيم: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٍ فَٱمْتَحِنُوهُنَّ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَٰتٍ

فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلْكُفَّارِ لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ وَءَاتُوهُم مَّآ أَنفَقُواْ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَن تَنكِحُوهُنَّ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَلَا تُمْسِكُواْ بِعِصَمِ ٱلْكَوَافِرِ وَسْـَٔلُواْ مَآ أَنفَقْتُمْ وَلْيَسْـَٔلُواْ مَآ أَنفَقُواْ ذَٰلِكُمْ حُكْمُ ٱللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾. صدق الله العظيم.

ينتهي ويصمت، لقد وصلت رسالته وهو يقرأ حينما كان يضغط على كلمات بعينها، مثل: فلا ترجعوهن إلى الكفار. ثم تأملني أكثر حينما قال: ولا جناح عليكم أن تنكحوهن. ينوي الزواج بها.

الحقيقة أن تلك الفتة أمثال حاتم فكري يحفظون آيات القرآن والأحاديث النبوية ودائما حاضرة في أذهانهم ليستشهدوا في كل موقف، والأغلبية ممن يستمعون لا يمتلكون إلا التصديق ولا نقاش، وما بالنا إذا كان المتلقى هنا إمرأة مثل أمل، تؤمن تمامًا بما يؤمن به حاتم فكري، على اعتبار أن تريزة، أو فاطمة قد أتت مهاجرة إلى الله ورسولة تاركة خلفها الكفر، والآية الكريمة تقول بعدم ردها إلى ما تركته، بل وأكملت بأن يتزوج بها.

بالطبع يرتضون تفسيرًا يوافق رغباتهم، لم يعاني بعضهم في البحث الحقيقي لتفسيرات تلك الآيات التي أورد فيها القرطبي ست عشرة مسألة، أغلبها يبعد كل البعد عن التفسير الظاهري الذي يقصده حاتم فكري.

تخرج فاطمة من الحمام، أتابع نظرات حاتم نحوها لحظات، بينما تقف هي ترقبنا بنظرات حائرة، أتوجه نحوها، أشير لها نحو مقعد في جانب الصالة، بينما حاتم يراقب تحركاتنا بنصف عين وعلى استحياء تركنا ودخل غرفته وهو يقول:

Scanned with CamScanner

– لترتاحي الآن يا فاطمه، وغدا سوف تنتهي كل مشاكلك بإذن الله.

يختفي خلف الباب الموصد، بينما نستقر في الصالة حتى تنتهي فاطمة من تناول بعض اللقيمات، جفونها ثقيلة تغالبها، أشرتُ لها بأن تقف، ذهبتُ بها إلى غرفتي، بامتنان ودعتني قبل أن تذهب في نوم عميق. انتظرت شاردة فيما يحدث حتى أذن لصلاة الفجر، صليته ونمت.

استيقظنا جميعًا في وقت متأخر، على مائدة الإفطار جلستُ معنا فاطمة، نتبادل النظرات في صمت، بينما تعبث أيدينا في كسرات الخبز، نتناول بعضه، ثم نمرر الوقت في إطالة مضغه، ينتظر كل منا الآخر بأن يبدأ الحديث، يسأل عن الخطوة التالية. تسأل فاطمة:

– ماذا سأفعل الآن يا أستاذ حاتم؟ مؤكد أنهم اكتشفوا غيابي وسيقلبون الدنيا؟!

بهدوء وكأنه يطلب كوب ماء من الطرف الآخر للمنضدة، يقول حاتم:

– سوف أتزوجك يا فاطمة. وبهذا لن يستطيع مخلوق أن يفعل أي شيء معكِ.

على ملامحنا ظهرت علامات متضادة، هبط علينا شِقا الحياة، الحزن والسعادة والبؤس والهناءة. يختصني الحزن والبؤس، بينما السعادة والهناءة اختصوا فاطمة.

الغريب أنني أعلم مسبقًا ما قاله حاتم، لكني وعلى الرغم مني وجدتُ بداخلي قلقًا وارتعاشة تحتويني، حاولت أن أقول أي كلمة لأرد بها على تلك النظرة التي رمتني بها فاطمة، وكأنها تسألني عن رأيي، لم تنصفني الحروف وتجتمع لتكوّن كلمات لأرد بها على سؤالها الصامت، جرت عيناي بينهما حائرة، توقفت اللقمة في حلقي، حاولت بلعها، لم أفلح،

أتبعتها بدفقات الماء حتى استقرت في جوفي. لم يهتم حاتم بما يعتمل بداخلي وظهر بعضه على ملامحي، يزداد حنقي ويلجم لساني، أنظر نحو فاطمة فأجدها ضحية بريئة تمد يدًا ضعيفة تستغيث، تأمل الوصول إلى بر آمن، لم تكن لتحتمل غضبتي، يكفيها ما مرت به حتى اللحظة، إنه حاتم الذي يجب أن يتلقى ثورتي، نظرتُ نحوه أكيل الاتهامات والنقمات، لم يراني، فقد ارتكن بظهره إلى مسند مقعده شاردًا خلف أفكار لم تفصح ملامحه عن بعضها وإن كنت أستشعرها بداخلي بقلب مدمر شقي لم يعثر على من يرويه بعد. قلب شارد بين رغباته الحقيقية ومصلحة الدعوة إلى الدين الإسلامي عامة، ومهما كانت التضحيات تنتصر مصلحة الدعوة.

لم ينتصف النهار حتى كانت فاطمة قد تحولت من زائرة بعد منتصف الليل إلى زوجة، لها ما لي وعليها ما عليّ. في البداية تخيلت أنني سوف أستبعد شفقتي نحوها وأتعامل معها كضرة، خاصة وأن انكسارها سوف يخبو مع الأيام، لكن ما حدث في الأيام التالية انتقل بها من زوجة زوجي إلى رمز اجتمعنا حوله لنزود عنه الشر، فلم أتخيل يوما أن تصل الأمور إلى هذه الدرجة من الاشتعال.

■■■

Scanned with CamScanner

(31)
الثـــــورة

إيمان..

أمر غاية في الغرابة..!!

يختطفني وأولادي..!.. نتعارك..

و الآن يمـد يـده ليطعمني؟! بل تتملكـه الرغبة، تتهدل يـداه وترتعد شفتاه، وكما المأخوذ يقترب نحوى يريد تقبيلى!!

نظـرتُ نحـوه طويـلًا باحتقار، بصقـتُ في وجهـه، يقف مرتـدًا إلى الخلـف وعلـى وجهه علامـات انفعال وتوتر شـديدين، انتظـرت لكمة أخـرى أو صفعـة علـى وجهى، لكنه مـد ظهر يده ليمسـح بهـا بصقتى، يبتسـم في بلادة، يتوجه نحو صفاء مادًا يده نحوها بالسندويتش، تتأملني ابنتـى ولما لـم تجد على وجهى علامـات الرفض، تأخـذه صامتة، تبقيه فـي يدها الملقاة علـى ركبتها ناظرة إلـى ما يحدث وكأنها تشـاهد فيلمًا سـينمائيًا. تُقبل على مشـاهدة للأفلام، خاصة الأجنبية التي تأتي كل ليلة على قنوات الأطفال.

يعـود نحوى بقوة، يمد يـده اليمني إلى جانبه الأيمـن، مُزيحا جانب الجاكـت الجينـز الـذي يرتديـه ليسـتخرج من جـراب معلق فـي حزامه

مسدسًـا يشهره في وجهى بشـده، على وجهه ترتسـم علامات شيطانية، صرخـتُ وخلفى صرختْ صفاء، يسـتيقظ باسـم علـى صراخنا، بهدوء وابتسامة لم تكن لتتناسب أبدًا مع ما كان عليه منذ لحظة، يعيد المسدس إلى جرابه، يخفت صراخنا.

يُلهب صبرنا بصمته المقيت وهو يتأملنا، بعدها يُخرج من أحد جيوبه ألـه معدنية صغيرة لامعة فـي حجم الإصبع، يضغط علـى زر في جانبها فـإذا بها تُشـهر نصلًا حادًا في الهواء، مطواة حـادة يقترب بها نحوى وقد عادت إليه ملامح الشراسة، ألفيتني أتلاشى وتخور قواى.

ما يحدث كان أكثر من أن تتحمله طاقتى، لم أتخيل يومًا، ولم يأتيني في أحد كوابيسى مثل هذا المشهد، كدتُ أفقد الوعي، لكني تشبثتُ قدر الإمكان مدفوعة بالرغبة في الحفاظ على أولادي.

تتملكني رعشة انتفضُ على إثرها في مكاني، تمنعني قيودي وتجبرني على البقاء، القيود قوية بأحبال بلاستيكية تذبح قدماى مع كل حركة.

يقترب هذا الشـخص شـاهرًا النصل الحاد اللامـع، أغمضتُ عينيّ، ليس رعبًا أو خوفًا أو استسلامًا، إنه اليأس.

فـي لحظات ما نصل إلى مرحلة اللاشـئ، مرحلة يُشـل عندها العقل تمامًا فنستسـلم ليأس قاتل. شعرتُ به يُحرك آلاته الحاده في قيد قدمىّ، نظـرتُ دَهشَـةً، فإذا بـه يُحرر قدمىَّ مـن قيدهما ثم يتحـرك ليقف خلفى ليحرر يديّ.

كنـا، أنا وأطفالـى، نتابعه مشـدوهين، ينتهى حاملًا فـي يديه الأجزاء المتخلفة عن الحبل، يرتد متجها نحو باب الغرفة قائلًا:

– الأكل والمشروبات أمامكم.. سوف أدخل حجرتى.

Scanned with CamScanner

يصل إلى باب الحجرة، يلتفت مستخرجًا مسدسه مرة أخرى، لكنه يصوبه هذه المرة نحو أولادي متوجهًا بحديثه لي:

– نصيحتى.. لا تحاولين فعل أي شيء يا إيمان.. أنتِ هنا في مكان مهجور.. إن صرختِ في ميكرفون لن يسمعك أحد.

يعيد سلاحه إلى جرابه، يخرج صافقًا الباب خلفه بشدة أفزعتنا.

بدأتُ أستوعب الأمر تقريبا، ينقشع البخار من فوق المرآة مع تلاشى الحرارة، رأيت الأمر بوضوح، عملية اختطاف، سمير اختطفني أنا وأولادي. لكن لماذا تم ذلك؟

لا أعلم..

يجب أن أعلم..

صرختُ وناديته بصوت هيستيرى، حتى إن صفاء دمعت في صمت من أجلى، بينما يبكى باسم بصوت مسموع، لكن مختطفنا لم يعد إلى الحجرة.

تقترب صفاء مني يتبعها باسم، ربتت على كتفى في حنان وهي تقرب يدها بالطعام من فمى وهي تقول:

– لا تبكى يا ماما.. سوف يأتي بابا ومعه الضابط ويقبضوا على الحرامى.

احتويت أطفالى وجلسنا صامتين طويلًا، مددتُ يدي لإطعام صفاء وباسم، في البداية رفضوا آملين أن آكل أنا أولًا، استعطفتهم كي يأكلوا.. فأكلوا بلا شهية. كنت أود أن أعيش لحظة واحدة من حياتى السابقة التي كنت أجلس فيها مع أطفالى وأطعمهم بيدي وقتما كان يتأخر عادل في عمله.

كثيرًا ما كان يتأخر عادل في عمله. أعلم، منذ فترة الخطوبة، أن تلك طبيعة عمله، لا مواعيد محددة، الأمر كله مرتبط بالجيست ورغباته، أكثر ما كان يقلقني أن يكون الجيست أنثى، وآه إن كانت في سن صغيرة تروق في الأعين، ينتابني قلق دائم، غيرة حقيقية تؤرقني رغم أني أدرك أخلاق عادل، واتزانه، وحفاظه على نفسه من ارتكاب الرذيلة.

ارتبتُ من إقباله في بادئ الأمر، يحدثني تليفونيا كل ساعة تقريبًا وكأنه يهرب من أمر ما، لكني لم أفكر في أي شيء غير مألوف، طبيعي أن يتواجد مثل هذا الإقبال في بداية التعارف.

منذ اليوم الأول الذي تحدثنا فيه عن الارتباط الرسمى بيننا، سألته عن كيفية تعامله مع الأجانب حال جلوسه معهم، وهم يتناولون الخمور؟ أجابني بهدوء بأنه يرفض مبتسمًا، يخبرهم بأنه مسلم ودينا يحرم الخمور، وهم يعلمون ذلك جيدًا ويتقبلونه مبتسمين ولا يُلح أحدهم في أن يشاركه الشراب كما يحدث هنا بين الأصدقاء.

لك مطلق الحرية فيما تشرب وتأكل وتلبس وتفكر، شرط ألا تؤذى الآخر، تلك هي عقيدة معظمهم كما أخبرني عادل.

إذا كان عادل يحافظ على نفسه من الخمور، فإنه بلا شك لن يمارس الرذيلة مع الأجنبيات راغبات اللذة، لكني لم أكن لأستطيع كبح نفسى من قلقها حال تأخره مع فتيات أجنبيات ساحرات، كنت أشاهد معظم الصور التذكارية التي يلتقطها لهم ومعهم، وأتخيلهم معه في أوضاع كثيرة.

لكن ما حدث خلال الفترة التي تلت ذلك اليوم الذي قضيناه معا في الفندق احتفالًا بعيد زواجنا، لم يدع لي أي مجال للقلق، تلاشت الغيرة تمامًا، فقد حلت أمور عظيمة أخرى شغلت تفكيرى.

Scanned with CamScanner

يبدو أن الاستقرار والدعة يهيئان الأجواء لتحوم طيور الشك.

يعود عادل إلى عمله بين دعوات للتظاهر خشى منها عدد لا بأس به من شركات السياحة، ما إن اقترب الموعد المحدد لمظاهرات الخامس والعشرين من يناير 2011 حتى بدأت الحركة السياحية تهدأ قليلًا لا سيما تلك الأفواج التي كانت تأتي من أمريكا وبريطانيا. يخبرني عادل أنه لم يتأثر كثيرًا بحالة الهدوء التي عمت السياحة، فهو يتعامل مع شركات من دول مختلفة من أمريكا الجنوبية.

كنا نعلم أن المظاهرات المنتظر خروجها في الخامس والعشرين من يناير، ما هي إلا مظاهرات سوف تخرج لساعات وينتهي الأمر. فإن كان الأمر كذلك.. فلماذا بدأت شركات سياحة عالمية، أمريكية وبريطانية وإسرائيلية، بتوجيه أفواجها إلى دول أخرى، أو إلى منطقة شرم الشيخ فقط إن صمم السائح على زيارة مصر؟!

هذا التساؤل لم نعثر له على إجابة وقتها، لكن الإجابة ظهرت بمجرد قيام المظاهرات واستمرارها لأيام، كانت هذه الدول أولى دول العالم في مطالبة رعاياها بتوخي الحذر، ثم طلبت منها بشكل رسمي مغادرة البلاد، مما أدي إلى جعل باقي الدول أن تحذو حذوهم.

الأحداث سريعة ومتلاحقة ومبهمة بشكل جعل معظمنا يرتاب في الأمر. بعد مرور عدة أيام يغضب عادل مما يحدث، يتحرك بعصبية زائدة، لم يعد يستقبل أحدًا، فقد أصبح عمله توصيل الأفراد إلى المطار لمغادرة مصر.

الحقيقة أنه لم يكن عادل وحده المتأثر بما يحدث، كنا كمن يعيش حلمًا عظيمًا، حدوده حدود الدولة، وأبطالة ملايين، أيام غضب لا

حدود لها وانعدام رؤية ولا أحد على الإطلاق يعلم ماذا يحدث وعلى أي شاطئ سوف نرسو.

تمر الأيام الأولى وقد خلت البلاد من السائحين وعاد زوجي ليستقر في المنزل، بعد عمل مستمر لأيام، منهكًا. منهكًا جسديا، مُتعبًا نفسيا.

انطوينا على ذاتنا كشأن الكثير نتابع ما يحدث داخليًا وخارجيًا عبر شاشات التليفزيون وعبر اتصالات عادل بالكثير من أصدقاءه عبر الإنترنت.

بعد أيام طويلة مرت على البلاد، ثورة حقيقية نراها مكتملة الأركان على أرض الواقع، أحدثت تغيرات كثيرة يعلمها الجميع وتحفظ تفاصيلها شبكة الإنترنت للأجيال القادمة.

ألفينا أنفسنا، أسرة تعيش على ما ادخرته من أيام سابقة. الحقيقة التي ما تخيلناها من قبل، كانت «سقوط السياحة» تنهار تلك الصناعة في غمضة عين، لم تعد هناك سياحة، ولا يجد زوجي فرصة عمل في ظل تلك الأوضاع صعبة، أصحاب المهنة أنفسهم عانوا من البطالة. للمرة الأولى ندرك أهميتها، صناعة موادها الأولية موجودة باستمرار، لا تكلفنا شيء وتعطينا الكثير، علمنا قيمتها بعد أن ذهب هذا الكثير.

تغيرت حياتنا تمامًا، فقدنا لمصدر دخلنا كان الخطوة الأولى في طريق صعب غير ممهد انطلقنا فيه عنوة، ويا ليتنا ما سلكناه.

■■■

Scanned with CamScanner

(32)
الدمـــــاء

الأم..

هربتُ ابنتي تريزة، لم يكتشفوا في المستوصف هروبها، إنما أنا التي اكتشفت عدم وجودها في غرفتها لحظة دخولي إليها مبكرة، وكأني اكتشفتُ فجأة ذهاب روحي.

لقد بتُّ ليلتي ساهرة جوار صغاري، على قلبي تمر مئات الخيالات. رغم استجابة تريزة لعظة أبينا مينا جبرائيل وعودتها إلى رشدها، إلا أن قلبي لم يهنأ براحة ولو للحظة واحدة، ولا تذوقت جفوني النوم حتى شق الصبح بأشعته صفحة الليل.

أسرعتُ بخطى لَهِفَة إلى المستوصف، لا يزال أهله نائمين، مضطربة القلب مرتجفة توجهتُ إلى غرفة تريزة، لم أجدها في سريرها، يسقط قلبي من بين أضلعي حتى يستقر في أحشائي التي تضطرب بشدة حتى تتلوى. يصارعني الأمل فأقول لعلها في الحمام أو استدعاها طبيب، يسقط من يدي الكيس البلاستيكي الذي كنت أحمل فيه بعض قطع ثيابها وشبشب حمام.

توجهتُ مباشرة إلى الحمام القريب، خاليا وجدته، هرولتُ نحو غرفة جانبية معلق عليها لافتة قديمة بهت لونها الأزرق، تحمل كلمة «التمريض». طرقتُ الباب عدة مرات حتى أتاني صوت ناعس:

- مَن على الصبح؟!

- أنا أم تريزة.. أين تريزة.. ابنتي؟

- في الحجرة.. أين ستكون؟؟!

مع نهاية الجملة فُتح الباب عن وجه نحيل مغمض العينين تائه بين جنبات ثوب نوم خفيف، فتاة في العشرين من عمرها تكور يدها اليمني وتفرك بها عينها اليمني ثم تتحدث من قلب تثاؤبها:

- خير يا ماما..؟

- أين ابنتي تريزة؟ ليست في الحجرة أو في الحمام.

كمن صُفعت أو ألقي على وجهها كوب ماء فجأة، استفاقت الممرضة وهرولت نحو غرفة تريزة وهي تعلق:

- أين ذهبت إذن؟!

مثل كرة الثلج التي تنمو مع تدحرجها، تزايدت مجموعة البحث عن تريزة. لم يكن المستوصف بالكبير الذي يُبذل فيه مجهود في البحث، كما أن تريزة ليست بالضآلة التي قد تتوارى في مكان لا تصل إليه عين. وضح الأمر بعد لحظات، لقد هربت تريزة. حالما تأكدتُ تمامًا، اتصلت بزوجي:

- ابنتك هربت يا كامل.

Scanned with CamScanner

أسمع صوت ارتطام وحركة غير طبيعية، بعدها يخبرني تليفونيًا زميله عيد، الذي تربطنا به صلة قرابة، بأن كامل قد سقط مغشيًا عليه، أخبرته بمصيبتنا وطلبتُ منه أن يأتي بكامل بأي شكل.

هرولتُ إلى الكنيسة، أيقظتُ الأب مينا جبرائيل لاهثة. لأول مرة أراه بغير ملابسه السوداء وصليبه الخشبي العريض، يرتدي جلبية بيضاء واسعة، قصيرة إلى ما أسفل الركبة بقليل، على رأسه طاقية شبكية خفيفة تحوي شعره الكثيف. يلمح علامات الأسى والفزع على وجهي، قبل أن أتحدث يهتف قائلًا:

- تريزة هربت؟

أومأت برأسي إيجابًا، على وجهه ظهرت قسوة لم أرها من قبل، كور يده وخبط بها باب الحجرة بشدة، رجعتُ إلى الخلف خطوة اتقاءً غضبته، يُحملني بلا شك ذنب جريمة «المارقة» كما قال عنها بعد ذلك، يزفر بشدة ويصرخ قبل أن يعود إلى داخل الحجرة:

- مصيبة.. كارثة.. قفي مكانك حتى أستبدل ملابسي.

من داخل الحجرة سمعته يحدث نفسه صارخًا:

- هذه المرة لن تمر على خير أبدًا، لازم البنت ترجع، وتترهبن، لابد أن تكون عبرة لغيرها.. مصيبة أن تظهر كل يوم والأخر بنت تحب شاب مسلم، أو شاب يحب بنت مسلمة ويتركوا دينهم.. حب أيه وزفت وقطران أيه؟!

قال كلماته الأخيرة صارخًا وهو يخرج من حجرته، وقد احتوته مسوحه السوداء واكفهر وجهه، منطلقًا وأنا في إثره أسرع الخطى، يحدثني دون أن يلتفت إليّ:

- متى هربت الهانم؟

- لا أعلم.. ذهبت لها صباحًا.. لم أجدها.

التفت نحوي ومن عينيه انطلقت سهام من نار:

- نعم؟! ذهبتِ.. لها صباحًا؟!!.. ألم تمضي معها الليل؟!

بتردد وخوف لم أشعر بمثله من قبل أجبته:

- لأ.. أنا.. بعد أن رأيتها مستقرة.. عدتُ إلى المنزل من أجل الصغار.

- يتحرقوا الصغار.. لن يموتوا؟

انطلق مرة أخرى ولم أجد بُدًا من الجري خلفه لاهثة، لا أدري لما تملكني كل هذا الخوف منه، خوف لم أشعر به مع زوجي أو مع أبي من قبل، سيطرة يتفرد بها القس جبرائيل فقط، ظل يتفوه بكلمات:

- جهل وتخلف.. تلك نتيجة البعد عن الكنيسة.. ماذا؟.. هل نذهب إليكم في بيوتكم نسقيكم الدين..!!

استغرقت ثورة القس جبرائيل وقتًا، أجرينا خلالها اتصالات بكل من نعرفهم، تجول القس في المستوصف محاولًا العثور على أي إشارة يستدل منها على وجهة تريزة، لكنه فشل، ثار وهاج أكثر وقلب المستوصف إلى بركان. يستدعي كل العاملين فيه ليقفوا صفًا، أطباء، طاقم تمريض، عمال، عيونهم مثبتة في الأرض كمن يحصي شيئًا ملقى عليها، يواجههم القس متهمًا إياهم بالتقصير والإهمال:

- المهملون في كل مكان.. يا إلهي.. ماذا لو تعملون بضمير.. (بشدة) هذا الأمر لن يمر بسهولة أبدًا.. كلكم مسئولين أمامي.

Scanned with CamScanner

توجـه بعدها القس جبرائيل نحونا، تواريت خلف زوجي كامل الذي كان يقف مستندًا إلى الحائط وبجوارة من الناحية الأخرى ابن عمه عادل وولده، يتفحصنا القس بوجه عبوس قائلًا:

– ذكـرتَ يـا كامل أن عامـل الأمن في المصنع أخبـرك وهو فرح بأن تريزة أسلمت وأصبح اسمها فاطمة، صح؟

– صح يا أبونا.

أجابه كامل بصوت شاحب كبقايا الليل الهاربة، ثم مال برأسه نحوى معقبًا:

– رجعت.. وذكرتُ لأمها كل ما حدث بالحرف، وقررنا أن نأتى بها إلى الكنيسة، وحدث ما تعرفه نيافتك.

مفكـرًا ويـده اليسـرى تعبث في شـعر لحيتـه بينما يمنـاه تقبض على صليبه الخشبي، يتجول قليلًا قبل أن يتوقف ليقول:

– كل المعلومـات عـن تريزة سـوف نعرفها من المصنـع الذي تعمل بـه. على الجميع الانتظار في الكنيسـة.. كل فرد يخبـر كل مَن يعرفهم.. تجمعوهم في الكنيسـة.. وسـوف نذهب أنا وكامل إلى المصنع.. وأنت يا مايكل..

يقترب منه مايكل مطأطئ الرأس وقد ضم يديه أمامه في خشوع:

– تحت أمرك يا أبونا.

– اعطني رقم تليفونك.. وكن يقظًا، سـوف أتصل بك في أي لحظة. بينا يا كامل.

يتحرك بقوة يتبعه كامل الذي أشفقتُ عليه مما حدث ومما سيحدث. تمنيتُ أن أتبعهم لأتلقى كامل على صدرى إن سقط، لكنه التفتْ نحوى وكأنه قرأ ما بداخلي، يهز رأسـه علامة أنْ أطمئن، لكن نظراته كانت كما المسوق إلى حجرة تنفيذ حكم الإعدام.

■■■

يصـل القـس مينا جبرائيـل وفي إثره كامـل عبد المسـيح إلى مصنع حاتـم فكري، يقابلهم صبحى موظف أمن البوابـه متأملًا وجه كامل، لم يتـرك له القـس جبرائيل فرصة الفحـص، يتحدث إليه بقوة متسـائلًا عن اسـمه ثم عن صاحب المصنـع، يجيبه صبحى، معقبًا بأن الأسـتاذ حاتم لم يصل بعد، يستعلم عن طريق تليفون داخلي من السكرتارية عن موعد وصوله، لا يعلمون عنه شـيئًا وتليفونه المحمـول مغلق، مؤكد أنه ذهب لعقد صفقة من صفقاته.

يدلـف القس إلى غرفة موظف الأمن ويجلس ويجذبه بقوة ليجلسـه أمامـه. أضـاف انفعاله وغضبتـه إلى هيبتـه هيبة أخـرى، يجلس صبحى خائفًا وهو يتساءل:

– ماذا تريدون؟

– تريـزة.. التـي أخبـرتَ هـذا الرجل بأنهـا أعلنت إسـلامها وأصبح اسمها فاطمة.

– مالها؟

– مع مَن كانت تسير؟ مَن أصحابها؟ كان لها شاب معين تظهر معه.. يخرجون معًا؟ يقفون مع بعضهم؟

Scanned with CamScanner

– الشهادة لله الست فاطمة مـ..

قاطعة جبرائيل بقوة وهو يرفع يده أمام وجهه:

– اسمها تريزة.. لا تذكر اسم فاطمة هذا على لسانك أمامي..

يحاول صبحي الابتسام لتهدئة الموقف لكنه يفشل وهو يقول:

– حاضر.. كما ترى.. الست تريزة.. التي هي فاطمة أيضًا لكنها ليست فاطمة.. لا تعرف أي شاب.. منذ أن عملت هنا ولا صديق لها غير زميلتها سماح، وعلى الأكثر كانت تذهب إلى حاتم باشا صاحب المصنع.

– أين سماح هذه؟

– بالداخل.. في المصنع.

– أريدها.. حالًا.

– الآن.. هي في وردية عمل داخل العنابر.. وممنوع أي شخص يدخل العنابر وقت العمل.. انتظروها حتى تخرج.

يصرخ فيه جبرائيل مهددًا، لكن صبحي يتماسك، عليه أن يمارس بعضًا من سلطاته، لا يجب أن ينهار هكذا أمام أول هجوم من أي شخص، يقف ويشهر يده في وجه القس جبرائيل قائلًا:

– حيلك حيلك يا مقدس.. لِمَ هذه الشدة.. يا إما تلتزم الهدوء.. يا إما ترحل من هنا.

– ماذا تقول؟

– ما سمعته.. أنا أتعامل معك باحترام للأخوة الموجودة بيننا، لكن ترفع صوتك عليَّ هكذا؟ لا وألف لا.. آتيك بعمال المصنع كلهم حالًا يعملوا معك الصح.

يقترب منه كامل ليزغده في كتفه وهو يقول:

– تكلم مع أبونا بأدب يا بني آدم.

– تكلمتُ بكل أدب ولم يُقدر.. وعموما سأظل مؤدبًا.. إن كنت تريد مقابلة سماح، فلتنتظر حتى تنتهي الوردية. هذا آخر ما عندي.

قبل أن ينطق كامل يشير إليه القس جبرائيل بالصمت وأن يتبعه، ينتحيان جانب أسفل شجرة يستظلان بها، يأتيهما صبحي بمقعدين، يجلسان بدون شكر، كانت حالتهما الانفعالية قد بلغت مداها وهم أمام طُرق مغلقة لا بصيص ضوء ولا أمل فيها.

ينتظران على نيران القلق، بعد أن رفضا الشاي الذي جلبه لهما صبحي واكتفيا بطلب زجاجة ماء يتغلبان بها على جفاف الحلق الناتج عن سخونة الداخل.

ينتصف النهار ويؤذن لصلاة الظهر، يخرج الجميع لتأدية الصلاة في المسجد، يستدعي صبحي سماح من بين زميلاتها ويتوجه بها نحو القس جبرائيل ومرافقه، تقف أمامهما مندهشة ثم تنقلب دهشتها خوفًا حينما تعلم أنهما أهل فاطمة وأنها هربت ليلة أمس.

من بين تألمها أخبرتهم بأنها لا تعلم عنها شيئا وكانت ستحاول الاتصال بها بعد انتهاء اليوم للاطمئنان عليها.

Scanned with CamScanner

كثيرة هي الأسئلة التي وجهها لها القس جبرائيل عن بداية إسلام تريزة ومَن الذي تحدث معها ومَن حاول إقناعها وما هي المغريات التي وعدوها بها؟ وغير ذلك من الأسئلة.

تجيبهم سماح بأنه لا أحد حاول إقناعها ولا توجد أية وعود، كل ما في الأمر أن فاطمة أتتها ذات يوم وسألتها عن الدين الإسلامي وكيف تصلي.. هذا كل ما حدث.. وأنهت سماح حديثها بأن تلك هداية أنزلها عليها الله وحده ولا دخل لبشر فيها.

القس جبرائيل يبلغ غضبه درجة قصوى، كاد يعتصر الصليب الخشبي في يده، يقف منتفضًا قائلًا:

- أنتِ كاذبة.. كلكم تكذبون.. لقد أغويتموها، غررتم بها. لكن أنا سوف أكشف كذبكم وأعريكم أمام البلد كلها.

قال ذلك وهو يتوجه إلى الممر المؤدي إلى بوابة المصنع وخلفه كامل عبدالمسيح مهرولًا، بينما تقف سماح تتبعهم بنظراتها مذهولة حتى يختفيان، تتوجه نحو عم صبحي صامتة تستمد منه عونًا يفتقده، يسألها وهو يشير بيده علامة الانتظار إلى عمال المصنع الذين تساءلوا بنظراتهم عما يحدث:

- و العمل يا سماح يا ابنتي؟

- لا أعلم يا عم صبحي.. لا يوجد أمامنا غير التحدث للأستاذ حاتم لنخبره بما حدث.

- الأستاذ حاتم تليفونه مغلق.

- إذن نحدثه على التليفون الأرضي.

■■■

(33)

التائهة

إيمان..

الاستسلام..

لحظة ما، يصل الفرد إليها، تجعله لا ينظر إلى الغد، يستسلم إلى اللحظة الحالية وما فيها. لم أكن لأشعر بلحظة هدوء واحدة، في سجن المختطف هذا، لأفكر في كيفية الخلاص، يئست واحتويتُ أطفالي في تلك الغرفة الكئيبة، جدرانها قاتمة، تتساقط قشورها، رائحة العطن تنتشر في المكان الذي يبدو بالفعل أنه ظل مهجورًا لسنوات.

سلوتي الوحيدة، بعد أن أضم أطفالي ويذهبون في سكون إلى نوم أحسبه مضطربًا، كانت في اجترار الذكريات، حتى الذكريات كانت تضن عليّ فلا تترك لي الفرصة كي أهرب إليها، لكنني كنتُ أحاول جاهدة، أتذكر لحظاتي في بيتي، الآن أدرك قيمة أن يكون لك منزلًا تعيش فيه آمنًا، أدركتُ قيمة قطع الأثاث المنتشرة فيه، ملمس السجادة الناعم عندما أسير عليها عارية القدمين، أو برودة بلاط الحمام. تذكرتُ ماء الدش يتخلل خصلات شعري، ينساب على جسدي، يتخللني في رفق. مطبخي بكل تفاصيله، النيران الرقيقة المنبعثة من عين البوتجاز

Scanned with CamScanner

بألوانها الزرقاء والخضراء، بداية غليان الماء في القدور، حتى تقطيع البصل ودموعي الممزوجة بابتسامتي. مزيج الروائح المنبعثة في بداية طهي الطعام، كنتُ أطمئن منها على جودة الطعام، أتمنى أن يتنسمها عادل وهو يصعد درجات السلم. حتى صفق الشباك، نباتاتي وزهوري في الشرفة، كنتُ أرويها وأحدثها.

الآن شعرتُ كم أفتقد تلك التفاصيل وغيرها، الآن أعرف قيمتها جيدًا. نشعر بقيمة الأشياء.. لكن بعد الفقد.

آه.. يكاد اليأس يحطمني، يشل تفكيري، يذهب بروحي.

الحقيقة أنني لم أستسلم لهذا اليأس مرة واحدة، إنما فكرتُ في كل ما وصل إليه عقلي بحثًا عن مهرب، حتى إنني تحدثتُ هامسة مع صفاء وباسم لعل حديثهم الطفولي يوحي لي بفكرة ما، لكننا فشلنا، كيف لنا النجاة من منزل مغلق يجلس على بابه شخص مجنون مسلح.

نعم هو مجنون، هكذا رأيته، تصرفاته، نظراته، أفكاره، كل ما يقوم به يؤكد ذلك. لقد آتاني في منتصف الليل المنصرم، كنت مستيقظة أبكي في صمت، بينما أطفالي نيام، شعرتُ به يفتح باب الحجرة ثم يتسلل في هدوء، أغمضتُ عيني بشكل أتاح لي رؤية شبحه يتحرك، وقف ينظر نحونا لحظات، كنتُ مترقبة متحفزة بشكل غير عادي، مستعدة لأي خطوة يخطوها نحوي، فماذا يريد في هذا الوقت من الليل غير رغبة جنسية،تنقضي اللحظات دهرًا، تؤلمني عيناي من الحفاظ عليهما شبه مغمضتين، يقترب خطوة، يمد يده بحذر كمن يخشى شيئًا، استشعرت خشيته فزدتُ قوة، تصل يده إلى رأس صفاء ابنتي، في اللحظة التي قررت فيها نهش يده المقتربة من ابنتي وجدته يمسح بيده على رأسها

ثم يسحب عليها الغطاء، سكنتُ كالميتة من فرط دهشتي، ماذا يفعل؟! لم يتركني في حيرتي كثيرًا، بل زادها حينما فعل نفس الشيء مع باسم، يقف بعدها لحظات يتأملني فأغمضتُ عيني أكثر، لا أدري ماذا أفعل، شعرت بأنفاسه تتلاحق وبعضها يمس أذني، ثم يقترب بأنفاسه أكثر حتى أشعر به يقبلني في جبهتي برفق ثم يبتعد، سمعت همس حركته ثم صوتًا خفيفًا يصدر عن الباب حال إغلاقه، بدا أنه لا يود أن يقلقنا بصوت غلق الباب، وكأني رأيته يمشي على أطراف أصابعه.

جلستُ مكاني غارقة في بحار دهشتي، مؤكد أن هذا الشخص مريض. ما فعله الآن أمر غاية في الغرابة، تفصيلة صغيرة من تفاصيل الحياة الأسرية بين أفراد الأسرة الواحدة..!!

أشرد بتفكيري بعيدًا، أحلق في سماء ماضي لا أعرف هل سيعود أم لا؟! ماضي كنت فيه أمتلك أسرة كاملة، يحتوينا بيتنا، بيتنا المليئ بالمشاعر والأحاسيس.

تلك القبلة، التي طبعها هذا الشخص على جبيني، كم كانت كريهة، لولا ذهولي وخشيتي لكان لي معه ردة فعل أخرى، لكنها من عادل زوجي كان لها ألف معني، كنت أنتظرها كل مساء.

الحقيقة أن عادل لم يكن ليبخل عليَّ بمثل هذه الملاطفات الزوجية، فكان يغدق منها حالما تكون حالته النفسية معتدلة، لكنه بعد ما مر به من أحداث وبقائه في المنزل، بعد انهيار السياحة التي تلت ثورة يناير، كان متقلب المزاج، فقد فشل في العثور على عمل مناسب.

عبر اتصالات عادل بأصدقاءه خارج مصر، يدعوه بعضهم للهجرة إلى بلادهم وسوف يساعدونه في الحصول على فرصة عمل مناسبة.

Scanned with CamScanner

يناقش معي بعض هذه العروض حيث يسافر هو لترتيب الأوضاع ثم أسافر إليه عندما يستقر، رفضتُ ذلك تمامًا، كنا نشعر بالرعب ونحن في شقتنا وبصحبته، فكيف يسافر خارج البلاد ويتركنا؟!

قضينا العام التالي ولا نعلم كيف مر علينا، وأعتقد أنه مر على المصريين تمامًا كما نحن. للصمت حد قاتل، ولفقدان الرؤية خيوط تقبض على القلوب تكبل نبضها، قتامة الرؤية وعتامة المشهد يُشعران أي فرد بالرعب.

شارع مجهول مظلم نخشى التحرك فيه، قد تبتلعنا حفرة إن خطونا للأمام، أو يقابلنا وحش بشع المنظر نتن الرائحة إن نحن عُدنا إلى الخلف. في صمت ننتظر، وعلى أمل الخلاص نعيش، ابتسامات أطفالنا تُنبت بداخلنا خلايا جديدة، بديلة عن تلك التي تموت كل يوم ألف مرة.

عانينا الكثير في هذا العام الذي عِشنا فيه على أمل تحسن الأوضاع وعودة السياحة مرة أخرى، كنا نُسرع الخطى خلف أي مبادرة من شأنها أن تأخذ بيد البلاد نحو الاستقرار، كدنا نفقد عقلنا، نتابع الخبراء والمحللين وهم يمتدحون، متحذلقين، المبادرات والخطوات الإيجابية، لكن بمجرد تنفيذها تظهر عيوبها وتتهاوى الأوضاع إلى الأسوأ، فنهرول جميعًا خلف مبادرة أخرى، فنسقط أكثر، في بئر مظلم لا قاع لها، ونحن مُعَلّقون على حامل خشبي مربوط بحبال بالية متآكلة، كل يوم يمر يتداعي حبل من تلك الحبال، يسقط الحامل الخشبي القديم مسافة أخرى، يتعالى صراخنا، تتشبث بأطراف الأمل، نُمسك بتلابيب بعضنا البعض، يتوقف السقوط لحظات، نلتقط الأنفاس بصعوبة، لا نكاد نرى النور أعلى البئر، نفكر في طريقة كي يصعد أحدنا إلى أعلى

ليجد وسيلة لانتشالنا جميعًا، نحاول ونجتهد ويتخللنا الأمل، فجأة يتهاوى الحامل الخشبي نحو قاع البئر السحيقة.

كنتُ قد ألحقتُ ابنتي صفاء بمدرسة لغات خاصة، الرسوم السنوية "KG1" كانت ثلاثة آلاف دولار، لم يكن الأمر مرهقًا لنا في البداية، مبلغ مثل هذا يستطيع عادل تدبيرة خلال شهر على الأكثر، لكن بعد تدهور الأحوال وتوقف السياحة، كان علينا نقلها إلى مدرسة أخرى بمصروفات أقل، ظللنا ننتقل بها من مدرسة إلى أخرى أقل حتى وصلنا إلى مدرسة تطلب رسومًا سنوية ستة آلاف جنيه في العام، رغم صعوبة الموقف إلا أن مشكلتنا كانت هينة مقارنة بالأصدقاء والزملاء الذين وصل أبناؤهم إلى مراحل متقدمة في الدراسة يَصعُب معها نقلهم إلى مدارس أخرى أقل في تعاملها المادي. يحدث ذلك في وقت كانت الأسعار ترتفع في كل مكان، مما حدا بإدارات الكثير من المدارس على الاتفاق فيما بينها على رفع رسومها، وبعدها قاموا بالضغط على وزير التربية والتعليم للموافقة على قبول طلباتهم بشأن رفع رسوم الدراسة لديهم، وافق الوزير شأنه في ذلك شأن باقي الوزارات التي كانت توافق على أي شيء بدون دراسة كاملة خوفًا من إثارة الجماهير ضدها. أي مسئول يثور ضده عشرات الأفراد تتم إقالته.

أوشك رصيدنا المالي والمعنوي على النفاد، قرر عادل الخروج ليبحث عن عمل، بعد طول بحث يعثر على فرصة عمل في إحدي شركات الأغذية. دواجن مجمدة ولحوم مفرومة ومُصنعة، الراتب لم يكن جزءًا من عشرة أجزاء مما كان يحصل عليه من قبل، لكنه راتب يضمن لنا الاستمرار وعدم التهام الجزء القليل المتبقى مما ادخرناه سابقًا.

Scanned with CamScanner

يمتلك عادل، عددًا من الصفات الحميدة، وتلك كانت سببًا في استمرار علاقتنا، منها أنه محب لعمله، يتفاني فيه، ينفذ المطلوب منه بشكل يجعل رؤساءه يثنون عليه، وكثيرًا من الزوجات يكرهن في أزواجهن كسلهم، خاصة إذا كان الأمر يتعلق بتوفير أساسيات الحياة.

لكن الأيام ضنت علينا بالاستقرار، كما فعلت مع الكثير من أبناء العالم أجمع، كنا نتابع نشرات الأخبار في ذهول، لقد جن العالم، مظاهرات مستمرة في كل مكان، نذر الحرب تنتشر في ربوع الأرض، أخبار القتل وحصاد أعداد القتلى أصبحت تحتل صدارة نشرات الأخبار، حتى الطبيعة يبدو أنها جنت هي الأخرى، أعاصير وفيضانات تغرق عشرات المدن في دول بعيدة وتغرقها بسكانها في لحظات، المباني شاهقة الارتفاع والسيارات والسفن العملاقة تتقاذفها الأمواج الثائرة وكأنها مجسمات لعب أطفال.

بحصول عادل على فرصة العمل تلك اعتقدتُ أننا قد وضعنا أقدامنا على طريق الاستقرار، لكن هيهات.

في شركة الأغذية «الخير خيرك» كانت طبيعة عمل عادل مندوبًا ترسله الشركة بصحبة شحنة إلى المحلات الكبرى التي تبيع هذه المنتجات، يشرح مميزات المنتج للعميل حتى يستطيع ترويجه. يستمر على هذا الوضع عدة أسابيع، يكوّن شبكة من الأصدقاء والمعارف في السوق وبداخل المصنع.

ذات يوم تأخرت السيارة بالشحنة داخل المصنع، العميل يستحث عادل، عن طريق اتصال تليفوني، بأن يُسرع. يدخل إلى المصنع بشكل طبيعي طالبًا من مشرف الوردية الانتهاء من تحميل سيارته بالشحنة المطلوبة.

التقليد المُتَبع أن ينتظر المندوب والسائق في صالة الانتظار بالمصنع أمام عنابر التصنيع والثلاجات العملاقة حتى يتم الانتهاء من تحميل الكمية المطلوبة، ثم يخرج بالسيارة أحد العاملين، يقارن عادل بين الكمية المُسجلة على الورق والموجودة بالفعل داخل السيارة عهدته.

تعليمات صارمة تمنع دخول غير العاملين بالثلاجات خوفا من نشر الجراثيم وحفاظًا على نظافة المنتج، العاملون بالداخل يتم تعقيمهم والكشف الدورى عليهم، يستخرجون لهم شهادات صحية من مستشفيات وزارة الصحة.

في ذلك اليوم، يعود عادل مكفهرًا شاردًا، على غير عادته يتوجه بدون كلمة إلى المطبخ، كنتُ جالسة وعلى ركبتى ينام باسم بعد حالة بكاء من تلك التي تنتاب الأطفال بلا سبب وتنتهى غالبًا بالنوم، يغيب عادل قليلًا ثم يعود إلى الصالة ليجلس إلى جوارى، لما طال صمته سألته:

- خير يا عادل؟ لماذا عدتَ مبكرًا؟ وماذا كنت تفعل في المطبخ؟

باشمئزاز تحدث عادل:

- مصيبة في المصنع يا إيمان!!

- خير؟

- دخلت العنابر بالصدفه ورأيتُ بعيني..

- شاهدت ماذا؟!

- لحوم منتهية الصلاحية، روائح عفونة، صراصير، عيش معفن، يصنعون اللانشون من هذه المنتجات العفنة يا إيمان، شيء فظيع.

- معقولة؟!

Scanned with CamScanner

– لـم أسـتطع التحمـل. خرجتُ مسـرعًا.. تركـتُ المصنـع وأتيت، أخبرتهم بأنني أشعر بوعكة ولن أعمل اليوم.

– يا ساتر!!

– هذا ما حدث.. أخذتُ ما في الثلاجة وألقيتُ به في الزبالة.

– و ماذا ستفعل في العمل؟

– سوف أتركه بالطبع.

بعد صمت لحظات توجهت سألته:

– و الناس.. مَن يشترى هذه المنتجات يا عادل؟!

– لا أعلم يا إيمان.. لا أعلم.

كان فـي حالـة غيـر طبيعيـة، رفض حتـى أن يتنـاول أي طعـام، تلك الحالة من الشـعور المسـتمر بالقيئ التي تنتابنا أحيانًا، فلا نسـتطيع حتى تقبُل رائحة الطعام. أشـفقتُ عليه، فقد انتابتني بمجرد السـماع، فما بالنا به وقد شاهد بنفسه!!

يظل شـاردا طوال هذا اليوم، في الصباح يرتدي ثيابه ليخرج، سـألته إلـى أيـن؟! لـم يُجـب، تأملني كثيـرًا، غمرتـي بنظراته حتى شـعرت بها تخترق جسـدي، أراد أن يخبرني بالكثير لكنـه صمت، ثم رحل وتركني غارقة في بحـور الحيرة، اتصلتُ به أكثر من مرة على تليفونه المحمول، لكنه لم يجب، أين ذهب؟ هل ذهب إلى العمل؟!

لكن كيف يذهب إلى العمل في ذلك المكان الموبوء؟!

انتظـرتُ بقية اليوم حائرة، اتصلت بعدد مـن الصديقات كي يتحدثن إلـى أزواجهـن في توفير فرصة عمل مناسبة لزوجي عـادل، بعضهن لم يُبـد تعاونًا معللين رفضهـن بالأزمة التي تمر بها البلاد، وبعضهن أجابني

بشـكل دبلوماسي، فسـوف يفعلن ما يسـتطعن قدر الإمكان. محاولات يائسة كانت وأعلم نتيجتها مسبقًا، لكنها المتاح بالنسبة لي.

لم يَعُد عادل في موعده المعتاد، تأخر كثيرًا لدرجة جعلت ثمار القلق المُرة بداخلي تنضج قبل أوانها.

أخيـرًا يعود، لم أكن في حاجة إلى افتعال الحزن لمؤازرته، فقد كنتُ بالفعل حزينة، لكني فوجئت به لحظة دخوله، مبتسمًا، بل سعيدًا منتشيًا، سألته من بين تلافيف قلقي:

– ماذا؟ أراك في حال غير الحال.. هل وجدتَ عملًا جديدًا؟

– لا..

– ماذا إذن؟! أخبرني عن هذا البشر على وجهك يا حبيبي.

– أبلغتُ الشرطة عن المصنع.

– ماذا؟!

يسـرد لي التفاصيل بسـعادة كمن يحكي بطولة، يتخللها الضحكات على ردود أفعال المسئولين في المصنع.

فقد أتى بعـدد من العملاء الجدد للتعاقد على صفقة ضخمة، الزيارة كانـت مفاجئـة ومديـر المصنع أصر علـى مقابلة العملاء فـي مكتبه وأن يأتـي العمال بالعينات إلى المكتب، بعد الاتفاق المبدئي ينصرفون على وعـد بعقد لقاء آخر يتم فيه توقيع العقـود اللازمة، لحظة الخروج يتعمد عادل أن يمـر بالمجموعة التي ترافقه من أمام عنبر التصنيع والثلاجات، فجأة يفتح الباب، دلفوا جميعًا إلى الداخل تحت أعين صاحب المصنع الملتاعـة الباحثـة عن مخرج من ذلك المأزق، مشـيرًا بعصبية إلى رجاله بـأن يفعلوا المسـتحيل لعرقلة تلـك الزيارة المفاجئة. يتعلـل العمال بأن

Scanned with CamScanner

ذلك ممنوعًا لأنهم غير معقمين وصحيًا لا يجوز أن يدخل إلى المكان إلا..

في هذه اللحظات وفجأة يُخرج العملاء، الذين يقفون بجوار عادل، مسدساتهم ويشهرونها في وجوه الجميع مفصحين عن شخصياتهم، إنهم رجال من أجهزة الشرطة، الصحة، البيئة، يتصل الضابط بالقوة الكامنة قريبًا من أبواب المصنع لتحاصر المكان. يتم غلق المصنع ويُقبض على صاحبه.

عادل يحكي بمنتهى السعادة حتى وهو يصف نظرات حاتم فكري صاحب المصنع، ورجال الشرطة يقودونه نحو البوكس. يضطرب داخلي متوجسًا خيفة، أخبرته بمخاوفي من بطش صاحب المصنع، لم يهتم.

في اليوم التالي نشرت الصحف خبرًا صغيرًا حول القبض على صاحب مصنع يُشتبه في استخدامه للحوم فاسدة. جُن جنون عادل، من استعمالهم لكلمة «يُشتبه» لقد كانت الجريمة كاملة وتم التحفظ بالفعل على كميات كبيرة من اللحوم الفاسدة وعدد من الدواجن النافقة.

هدأتُ من روعه، لقد فعل ما يُمليه عليه ضميره وفعل كل ما هو متاح لمثله أن يفعله. وما يتبقى من فعل هو واجب أجهزة الدولة. بعد أربعة أيام عَلِم أن حاتم فكري، صاحب المصنع، خرج بكفالة على ذمة القضية.

أيام ثقيلة تمر علينا، وصلتنا فيها الأخبار بأنه تم ترتيب الأمور بحيث يتحمل قضية اللحوم الفاسدة أحد العمال الذي يعترف بأنه استغل طيبة صاحب المصنع وثقته الكبيرة في عماله وأدخل هذه الكميات الفاسدة دون علمه.

أيضًا مواطن فقير، كبش الفداء باستمرار، تلك الجملة التي أستُغلت قديمًا وحديثًا، وسوف تظل تستخدم على الدوام طالما كان لدينا قانونًا عقيما لا يرى ولا يسمع ويعتمد فقط على أوراق يتم تصنيعها عند الحاجة، استغلال الفقراء بجملة قاتلة:

– سنتين ثلاثة في السجن، تأخذ فيهم مبلغ يعادل ما تجنيه إن عملت عشرون عامًا.

المال مفتاح يحمل شفرة قادرة على فتح أبواب الفقراء، طالما كان ذلك بعيدًا عن الشرف، وأحيانًا يستطيع هذا المفتاح فتح أبواب الشرف.

يتصل حاتم فكري بعادل طالبًا منه العودة إلى العمل، فالمصنع في حاجة إليه. يخبره عادل بأنه وجد عملًا آخر، كان يكذب عليه.

ينتابني قلق مستمر مما وصلنا إليه، تهديد مباشر من صاحب مصنع المواد الغذائية الفاسدة الذي نجا من العقاب، عادت مصانعه للعمل وكأن شيئًا لم يكن.

في تلك الظروف المتعاقبة من الأحداث الساخنة على الساحة، ينشغل المسئولون في الدولة بالصراعات السياسية، يستميتون حفاظًا على مناصبهم، يتقاتلون للحصول على أكبر قدر ممكن من المكاسب، حالة من العفن جعلت معدومي الضمير يعملون بهمة ونشاط، زادت تجارة الفساد، يظهر باعة المخدرات في الشوارع وعلى النواصي في وضح النهار، يصل الغش إلى كل شيء، حتى المراكز المعتمدة التي تثق فيها الجماهير وصلت إليها أذرع الفساد، عمَّ الشك وساد، حتى في أقرب شيء.

Scanned with CamScanner

الآن.. وأنا أضم طفلىَّ تحت جناحىَّ، فوق سرير في غرفة موجودة بشقة في مكان مجهول، خارج الغرفة شاب غريب الأطوار يمتلك مسدسًا وسلاحًا أبيضًا يهددني، لم أكن لأهتم لو أن التهديد موجه لي مباشرة، لكنه أشار بفوهة مسدسه نحو أطفالى.

هل ما نمر به من أحداث جسام، سببه صاحب شركة الأغذية؟ هل ينتقمون من عادل الآن؟ إن كان الأمر كذلك، فتدبير الحادث يكون أمرًا مقنعًا، لكن الاختطاف هو أمر غير منطقى، طبيعي أن يكون الاختطاف لهدف غير الإنتقام، إما للمساومة على المال، أو...!!

لا...

صرخت في داخلي لحظة تخيلى أن يكون هدف المختطف هو الجنس، لكني استبعدتُ مثل هذا الخاطر سريعًا، لو كان ذلك هدفه، لماذا اختطف معي أطفالى؟

هو كيد حاتم فكري صاحب مصنع الأغذية بلا شك..

أوشك رأسى على الانفجار، يا إلهى.. ماذا يحدث؟!

■■■

(34)
الرغبة

فاطمة..

في تلك الأيام كنتُ مثل تائهة بلا عقل، شاردة بلا عيون، أشعر بذاتى وكأنها شيء خفيف تحمله نسمات الهواء في كل اتجاه، لا أنتظر مستقبلًا أو ألتفت إلى ماضى، أنتقل داخل اللحظة فقط.

يأتي حاتم فكري بالشيخ شوقي فهيم إمام وخطيب مسجد الريان ومعهما اثنان شهود وكتب عقد الزواج باسمى الجديد الذي زين بطاقة الرقم القومى التي تسلمها حاتم نيابة عني، كنا قد انتهينا منها مع إجراءات إشهار إسلامى.

ينفض الجمع وأنا في غرفتى، تصلني أصوات مباركاتهم لحاتم وقد علتها علامات ظفر وانتصار، أرهفتُ السمع فإذا بالشيخ شوقي يتحدث بقوة:

– مبارك يا أخ حاتم.. نصر في الدنيا بالزواج وفي الآخرة إن شاء الله بإسلام الأخت فاطمة.. بارك الله لكما وجمع بينكما في خير.

لا أدرى لماذا انتابتني لحظة ضيق، شعرتُ بأن فرحتهم بإسلامى كانت لأنهم حققوا نصرًا ولم تكن نابعة من تقديرهم لنجاتى، احتفوا منتشين سعداء بما نالوه في الدنيا وما ينتظرونه في الآخرة، لم يدرك

Scanned with CamScanner

أحدهـم كم النيران التي تحـرق داخلي، فأنا فتاة هاربـة لا أعي ما تركت خلفي ولا أرى أمامي خطوة واحدة.

شعرتُ للحظة بأنهم يرونني نصرًا، لا لزيادة أمة محمد، فهم كُثر ولن يزداد الإسـلام بي كفرد، إنما سعادتهم كانت فيما يبدو تحقيق نصر على المسـيحيين، فلو أن شأنهم الهداية لفتاة، ما كان يجب عليهم ترك فتيات مسلمات يتسولن بأجسادهن.

منـذ اليـوم الأول لاحظت فـي عيني حاتـم رغبة واشـتهاء وإن غض بصـره بعدها، لكـن فتاة مثلي قادرة على تمييز نظرة الاشـتهاء وإن كانت خاطفة. اليوم وبعد أن جعلتني الظروف زوجة له، فقد تأكدت من نظراته المشـتهية النهمـة، وإن يكن من معـان دفينة، فإن الحقيقـة التي أصبحت أعيش بداخلها الآن هي أنني زوجة شرعية لحاتم وله عليّ حقوق.

بداخلي لم أهتم كثيرًا، لأني شُغلت بعشقي الجديد، اقتربتُ كثيرًا من الواحد الأحد، هو حبيبي الأبدي، صنعني وبث فيَّ من روحه، وهبني في لحظة إيمانًا عظيمًا لا حدود له، يحملني في عالم روحاني شفاف تنطلق فيه سفينتي على صفحة السعادة الأبدية.

أفيق من شرودي على صفق الباب، همهمات في الصالة بعدها تدلف أمـل إليّ، تتنـازع على محياها علامات الغيظ والشـفقة. بيد جافة، تُنازع لبنا، تحمل كوب لبن، من بين نظراتها التي شعرتُ بها تُعريني قالت:

- قولى بسم الله يا فاطمة واشربي اللبن.

بعد لحظات صمت وتأمل، قالت:

- سيدخل حاتم عليكِ بعد قليل.

تناولت الكوب وأنا أتساءل، هل أتت لتخبرني أم أرسلها ليستأذن في الدخول عليَّ؟

كلماتـي خلال اليوم كانت قليلة مع أمل رغم ما لمسـته فيها من طيبة ونقاء قلب، ما مررنا به اليوم يسـتدعي ثورتها، لكن ها هي تأتيني بكوب لبن دافئ وتفسـح المجال لزوجها كـي يأتيني ليفعل معي ما تعتبره حقها وحدها.

ما أعظم هذا الدين، نظرتُ إلى السماء أتمتم بكلمات الشكر. تلتفت أمل لتخرج من الغرفة، استوقفتها هامسة:

- أمل..

التفتـت علـى كعبيهـا فـي دائـرة كاملـة، متسـائلة بعينيهـا الجميلتين ووجههـا الصبـوح وإن كان مكلومًا بعض الشـيء. تركـتُ الكوب على منضـدة جانبيـة ووقفـتُ لمواجهتهـا، تقريبًا فـي نفس الطول والجسـد، يبدو أن اليد التي وزعت تفاصيل الأجسـاد أعطتنا نفس النسـب، الأنف المرتفعة والعيون الواسعة والشـفاة الممتلئة، وكأننا توأمتان، الاختلاف الوحيد الملحوظ كان في لون البشـرة، فهي بيضاء مثل كوب اللبن الذي حملته لي، بينما أنا صاحبة بشـرة برونزية. مـددتُ يدي واحتويت كفيها فـي رفق، تمنيـت لو أحتضنتهـا وبكيت طويـلًا، لكنـي تمالكت وزينت وجهي بابتسامة مشجعة وأنا أقول:

- أنا متشكرة قوى..

- لماذا؟

بصعوبة تزدرد لعابها فبدا حلقها جافًا وهي تكمل:

- لا تعلمين مدي فرحتنا بكِ.

Scanned with CamScanner

– فرحتكم بإسلامى.. لكني الآن أشاركك في بيتك وفي زوجك..

تبتسم وتضغط على يدي وهي تجذبني لنجلس متقابلين على حافة السرير قائلة:

– عندما هاجر الرسول، عليه الصلاة والسلام، إلى المدينة، قرر الأنصار أن يتنازلوا للرسول وأصحابه عن نصف أملاكهم وبيوتهم وحتى زوجاتهم، من كان عنده زوجتين، يُخير الصحابة في اختيار واحدة منهن.

ربتت بيدها الحانية على كتفى فتذكرت أمى، قبل أن أغوص في خيالات التذكر وأتساءل كيف والديّ الآن، هززتُ رأسى ثم تركت نفسى لتفعل ما تشاء، جذبتُ أمل واحتضنتها، شعرت فيها بدفء وحنان شديدين، كأني كنتُ أحتضن ذاتى فلا أريد أن أتركها ترحل عن المكان، بيديها الهادئتين أبعدتني برفق عن صدرها قائلة ولا تزال يداها على كتفى:

– فاطمة.. أن يختارك الله عز وجل للهداية.. مؤكد لحكمة ما.. أحسب لأن بداخلك شيء كبير.. كبير جدًا، شيء لا نعلمه نحن. فإن كان ربنا عز وجل يدعمك، فلابد أن نقف جميعًا إلى جوارك. على فكرة أنا سعيدة بأن تكوني أنتِ بالذات ضرتى.

تنهى كلامها ضاحكة بعذوبة ثم تقف لتخرج وهي تقول:

– لا تضيعي الوقت يا عروسة.. العريس في الانتظار.

استطاعت بجملتها الأخيرة أن تنقلني إلى أرض الواقع تاركة وسائد الشوق المخملية التي تهفو عليها روحى، تناسيت كل عذاباتى الماضية والمنتظرة، تدفقت الدماء إلى وجهى فاحمر خجلًا، أمسكتها من يديها وجذبتها لتجلس إلى جوارى فوق حافة السرير مرة أخرى وأنا أقول:

– دعيه ينتظر.

غمرتني بنظراتها التي تحمل بعض دهشتها وزمت شفتيها قبل أن تقول:

– يا عيني على الدلال..

بسرعة أجبتها كما يجيب الأطفال:

– ليس دلالا والله.. لكني أود أن أسألك.. أعمل أيه؟.. المفروض في ليلة مثل هذه الليلة تكون أمى بجانبي لتعلمني ماذا أفعل.

أنهيتُ جملتى بشئ من التأثر، لكن أمل لم تتركني أذهب خلف أفكارى، فقالت على الفور:

– ألم أقل لكِ، كلنا جنبك، أعطني أذنك، المفترض على العروسة في يوم دخلتها أنها.....

أفاضت في شرحها ثم خرجت وتركتني غارقة في خجلى مما سمعت، كيف أفعل ما قالته وكيف يُفعل بي؟!

يُفتح باب الغرفة، يظهر حاتم، لم أشعر بشئ، فقد غرقت في بحر أفكارى المتلاطم حتى أفقتُ عليه وهو يبتعد لاهثًا، وفاضت أسفلى دماء كونت بقعة على ملاءة السرير، دماء العفة.

لكن لم ينتهى الأسبوع الأول عليّ في حياتى الجديدة حتى انهمرت دماءً جديدة، ليست دماء عفة، إنما دماء بريئة تحولت إلى وقود يشتعل بها آتون يحصد الأرواح، آتون فتنة خامد، يعلو نيرانه رماد يطير مع أول ريح.

■■■

Scanned with CamScanner

(35)

البـائــس

سمير..

في الغرفة المجاورة لغرفة إيمان وأولادها، يتمدد سمير على سرير حديدي قديم من مخلفات المستشفيات، اشتراه من سوق المستعمل، ينفث دخان سيجارته نحو سقف الحجرة، قشور بياض السقف الضعيفة تودع مكانها. الغرفة مكتومة، الشقة كلها مكتومة، لم ولن يفتح أحد نوافذها قبل أن يصل إلى ما يريد، يتماوج الدخان في الغرفة ليقلل نسبة الرؤية، يحاول التركيز على تفاصيل حفر الإطار الخشبي للدولاب الصغير الموجود إلى اليسار من باب الغرفة، يفشل في تحديد معالم الزهرة وغصنها المحمل بالأوراق، ترى.. كم الوقت الذي أمضاه «الأويمجي» باذلًا فيه مجهودًا لحفرها بإزميله، لم يلحظها وقت شرائه ذلك الدولاب، هناك من يبذل مجهودًا لا يلحظه الكثير.

يتعجب من صمته، من ذلك الهدوء الذي يغمره بعد ما فعلته معه إيمان هلال، يتعجب من ذهابه للاطمئنان عليهم وسحبه للغطاء عليهم خشية البرد. يرفع يده ليشاهد أثر أسنانها الموجودة رغم مرور كل هذه الأيام، يبتسم، شرسة هي.. لكنه بشراستها مفتون.

يضحك جَزلًا، لما لا وهم معه في شقته الخاصة، إن كانوا يعاملونه بتوجس وجفاء الآن، فمن المؤكد أن اليوم المنشود سيأتي. تفاصيل ما حدث طوال الأعوام الثلاثة السابقة، والمفاجأة الرهيبة التي جعلتهم تحت يديه الآن، لتؤكد أنها له.. أنهم له.

من بين الابتسامة ودخان يلف الحجرة المغلقة يتذكر حياته قبل ما يزيد على الأعوام الثلاثة، سعيدًا يهمس إلى ذاته، يسرد كمن يلقى بسريرته إلى حبيب.

منذ اللحظة الأولى التي شاهدتُها فيها وهي تدلف من باب المطعم خلف زوجها الذي علمتُ فيما بعد أنه يُدعي عادل عبدالرحيم، وقفتُ مأخوذًا، لا أعلم لماذا!!

حاولت تذكرها، محتمل أن أكون قابلتها ذات يوم، أن تكون زميلة دراسة، رفيقة في رحلة ما، أشعر بأني أعرفها جيدًا، رأيتها من فترة طويلة، لكن أين؟

لا أعلم.

لم يكن الأمر مجرد شعور بأني أعرفها أو رأيتها من قبل، ثمة إحساس لا أعلم مصدره بأنها تعرفني جيدًا، بل وصل إحساسي الداخلي بأنني يجب أن أرحب بها بطريقة مختلفة عن أي إنسان آخر.

يطول ذهولي ونظراتي مركزة عليها، أتفحص جسدها، أرقب عينيها، لا أدري ماذا أصابني!! لا أعلم كيف أتصرف، حاولتُ الخروج من لحظة الأسر والانشغال في بعض الأمور. توجهت لتلبية طلبات زبائن آخرين على ترابيزات مجاورة، مرغمًا تعلقت عيناي بها وهي تجلس

Scanned with CamScanner

متهادية، لم يكن حملها باديًا ليلفت الأنظار لكنني لاحظته، فجذبني نحوها وبشدة.

يجلس زوجها متوجهًا كلية نحو طفلته صفاء حتى إنه لم يجذب مقعد زوجته للخلف، وددتُ لو فعلتُ ذلك، لكنها جلست قبل اتخاذ قراري.

كنتُ قد قرأت من قبل، في أحد الكتب، التي ما أن تصل فيها إلى الصفحة العاشرة أو العشرين على الأكثر حتى تكتفي، قرأتُ أنه قد يحدث انجذاب بين روحين مثلما ينجذب قطبا المغناطيس السالب والموجب، هل أرواحنا تنجاذب بشكل متعادل فعلًا؟ أم يجب أن أكون أنا الطرف الأقوى وأقوم بجذبها نحوي؟ لا أعلم.. الحقيقة أني كنتُ كالمسحور، لا أعلم أي شيء.

وقفتُ أنتظر لحظة اقترابي منها، طلبتُ من زميل أن أتولى شأن هذه الترابيزة في حين يتولى هو ترابيزات أخرى تابعة لي، يبتسم معتقدًا أنهم أصدقائي. فليعتقد ما يشاء، يجب أن اقترب منها.

في غمرة شرودي توقفتُ لحظة مواجهًا نفسي، ماذا أفعل وكيف أفكر؟! هل جُننت؟!

لم أجد إجابة شافية، فقط أنا أشعر بشيء غريب يحتويني منذ أن دلفتْ «هي» إلى المكان، شعرتُ بأني امتلأتُ هدوءًا وراحة.

تحدثتُ مع نفسي لحظات وأنا أراقبهم من بعيد في انتظار إشارتهم، عليَّ إلتزام الهدوء، إنها سيدة متزوجة. أعمل في هذا المكان من مدة ليست بالطويلة، لم يتم تثبيتي في العمل بعد، وهنا تنعدم فرص للغفران.

بعد إشارة من هذا الشاب، زوجها، بتكبر عجيب، ذهبتُ وعيناي مثبتتان على وجهها المجهد، رأيت على ملامحها مسحات من حزن، يبدو بوضوح أنها ليست سعيدة، نظراتها حائرة تتفحص كل مَن في المكان، لا تُبادل زوجها نظرات هوى أو هُيام أو أي نظرات، تبادلا حديثًا سريعًا حول طلبهما.

تعمدتُ الوقوف إلى جوار زوجها وليس أمامه بحيث يشير لي نحو الأصناف التي يريدها في المنيو بينما أنا أقوم بتسجيل طلباتهم في النوت معي، وفي نفس الوقت أنظر نحوها عن قرب، فلا يلحظني هو، لم تلحظني هي أيضًا، تنشغل تارة بإبنتها وتارة بالوافدين، ترنو بعينيها النجلاوتين نحو عاشقين في جانب تتعانق أياديهما، تزفر بشدة، تأكدتْ نظرتي، هي حزينة وتفتقد الحب، أو بالأحرى تفتقد آهات الحب.

ما تفتقدينه عندي جميلتي.

ينتهي زوجها من إملاء طلباته عليّ ويلقي بقائمة الطعام على المنضدة بلا مبالاة، حملتها ورحلتُ حابسًا عطرها الرائع في صدري، تلك الرائحة التي لن تفارق أنفي طيلة السنوات المقبلة.

هل ثمة علاقة بين الأرواح والروائح؟

بينما يتم تجهيز الأصناف المطلوبة كنت أرقب حركاتها وأعد عليها أنفاسها. لا تزال الدهشة تتملكني مما أفكر فيه، لكني أجبرت داخلي على الانصياع لرغباتي فما هي إلا سويعات ويرحلون وأعود إلى عملي، لا ضير في أن أستمتع بهذا الجمال بعض الوقت، مجرد النظر نحوها فقط لن يضرهم، يمتلكون حياة كاملة وإن أسترقتُ ساعة. ذلك الجنون

Scanned with CamScanner

بعينه. لكنني كنتُ أعتقده جنونًا لذيذًا سوف ينتهي بعد قليل ولم أكن أعلم أن الأمر سوف يستمر.

ثمة أمور كثيرة تحدث، حولت مجرى حياتي، حتى وصلنا إلى تلك اللحظات التي تضمنا فيها شقة واحدة، منها، أو بدايتها إن أردنا الدقة، عندما وقف زوجها فجأة متوجهًا نحو فتاة إيطالية يصافحها ضاحكًا، على وجهه تنمو سعادة يقابلها حزن على وجه زوجته، شعرتُ بأنفاسها وهي تزفر ضيقًا، تمنيتُ لو أحتويتها لأعوضها. تُجلس ابنتها على مقعدها بعصبية وهي تتابع حركة شفاة وأيدي زوجها حتى يعود منتشيًا، لقاءه مع الإيطالية أسعده أكثر من جلوسه مع زوجته وطفلته!! يبدو أنه ألِفهم فأصبحوا شيئًا في حياته وليسوا كل حياته.

تمنيتُ ألا يعود إلى مكانه أبدًا وأن أذهب أنا لأجالسها، أتحدث إليها، أحتوي يديها بين راحتي، أضمها في قلبي.

مجنون..

تحدثتُ بها إلى نفسي للمرة العاشرة أو العشرين أو الألف.. لا يهم.. لا ضير في أن أُجن ساعة وأستعيد عقلي بعدها، ذاك ما كان يعتمل في داخلي بقوة، لدرجة أنني سمعت هسيسًا بجوار أذني يلقي بكلمات «هي لك.. هي لك».

لاحظتُ توترها، تشنجت عضلات وجهها، تُحرك يديها بعصبية، تحدثتُ وهي تشيح بوجهها إلى الناحية الأخرى، على وجه زوجها ظهرت علامات الضيق الشديد، لا أستطيع سماع ما يقولونه لكن يبدو من تعبيرات وجوههم أن الأمر يوشك على الدخول في أزمة، لا أدري لماذا تفاءلت، خاصة وأن زوجها ينفعل بشكل كبير حتى إن كلمات قليلة

وصلت لمسامعي «انظري نحوي عندما تحدثيني يا ست هانم..» قالها بصوت مرتفع ولكنه خفض صوته عندما لاحظ أن عددًا من العيون قد صوبت سهامها نحوه. ظل يتحدث بينما هي صامته، تنشغل في تحريك جسد ابنتها من وضع إلى آخر وتهدأها حال بكاءها، بالكاد تهمس بكلمات قليلة.

تم تجهيز المشروبات المطلوبة، عصائر فريش، حملتها وذهبت ناحيتهم في هدوء أسترق السمع لعلي أقف على سبب ذلك التوتر. وقفت لا أدري ماذا أفعل، نظرتُ نحو زوجها باحتقار ظاهر وضيق لدرجة أني تمنيتُ أن أكيل له لكمة أسقط بها أسنانه التي يجز عليها ضيقًا أمام هذا الملاك الجالس. تأملتُ الملاك بابتسامة كادت تذهب بما تبقى لي من قوة فتسقط الصينية التي أحمل عليها العصائر. فوجئت بزوجها ينهرني بشدة قائلًا:

- أنت.. أنت لماذا تقف هكذا؟ أترك ما في يدك وارحل.

لم أكن لاهتم لكلماته وأنا في هذه الحالة، بهدوء وضعتُ المشروبات، عدتُ إلى موضعي الأول وعيناي معلقتان بها، بعينيها على وجه التحديد، عيناها دامعتان، كادت دمعة تترقرق على وسائد خدودها البرونزية المشبعة بحمرة خفيفة.

يقف زوجها فجأة متحدثًا بكلمات حازمة، وقفت هي من بعده، تميل لتحمل ابنتها لكنه سبقها وحمل الطفلة وصعدا إلى غرفتيهما، علمتُ من أحد الزملاء أنهما ينزلان عندنا الليلة احتفالًا بعيد زواجهما. يخبرني برقم الغرفة، تتملكني رغبة قوية للحظات كي أصعد خلفهما، لكني آثرت التروي والانتظار حتى يدفعني قدري إلى الطريق الذي يبتغيه.

Scanned with CamScanner

تُرى.. إلى أين يصل بهما ذلك الوضع المتأزم المتوتر؟ سؤال بدا أمام عينيَّ بوضوح في تلك اللحظات، لكني لم أجد له إجابة شافية فعقبت في داخلي:

– كفاك يا سمير.. لقد أمتعت عينك وانتهينا.. لتهتم بعملك الآن.

هذا ما كنت أنتويه منذ البداية، وهذا ما وصلت إليه، وتخيلتُ أن الأمر قد انتهى بالفعل، لكنني وجدت عقلي يشرد نحوها مرغمًا، سوف يزداد بينهما العتاب، نقاشهم سوف يزداد حدة لدرجة أن زوجها قد يتحول إلى أغبي المخلوقات على الأرض ويمد يده نحوها فيؤذيها. وكم تمنيت أن يحدث ذلك.

انشغلتُ دقائق ببعض الأعمال وحاولت أن أبعد عقلي عن التفكير في نظرتها الحزينة الدامعة التي صعدت بها إلى غرفتها، لكنها ظلت لصيقة بي لا أستطيع الانفصال عنها ولو للحظة. شاهدتُ الفتاة الإيطالية التي صافحها الزوج منذ دقائق، أقنعت نفسي بأن أتقرب منها كي ألهو لحظات، لكني أحجمت بعدما تذكرت موقعي الحقيقي في هذا المكان، مجرد عامل.

رواد المطعم يتعاملون مع العاملين فيه على أنهم أشياء، لا يتعاملون معهم كبشر يمتلكون فكرًا ومشاعر. حتى إذا رغب أحدهم في تحقيق مآرب شخصية، يتقربون منا، يبتسمون، يسحبوننا إن رضينا، وأيضا يتعاملون معنا كأشياء مكملة. مجرد خادم يقدم أطعمة أو مشروبات، يضعها فوق المنضدة مع ابتسامة عريضة ثم يرحل، أحيانًا يقدم المتعة ثم يرحل أيضًا. هذا العامل شيئ يُنسى بمجرد أن يبتعد خطوة، هكذا كنا بشكل دائم، نتقبل الوضع ساعات العمل، نخلع مع يونيفورم العمل

سمات الجماد، سمات اللاشئ وتعود إلينا تلك الملامح البشرية التي يراها الآخرون.

ذات يوم قرأتُ على صديق قصيدة شعر من تأليفي فأعجب بها أيما إعجاب. في العمل متلطفًا مع زبون بدا منتشيًا، قرأتُ عليه القصيدة، نظر نحوي بدهشة، علق أن كيف لمثلي أن يمتلك القدرة على صياغة هذه الكلمات، لابد وأني سرقتها. منذ ذلك اليوم علمت حجمي الحقيقي أمام زبائن المكان، مثلي مثل أي جماد في المكان.

يستدعيني زميل لتوصيل طعام العشاء إلى إحدي الغرف، تأملت اسم النزيل، عادل عبدالرحيم، مجرد اسم مثل باقي الأسماء التي تملأ الكرة الأرضية، لكني ما إن قرأتُ رقم الغرفة حتى شعرتُ بهزة عنيفة، إنها الغرفة التي تنزل فيها، زوجها يُدعي عادل عبدالرحيم.. هذه هي المعلومة الأولى. إذن أراد القدر أن أراها مرة ثانية. هتفتُ بسعادة وبصوت غير مسموع قائلًا:

– Yes..

ما أريده يتحقق، منذ سنوات طويلة، لم أرغب في أمر ما، رغبة جادة وصادقة، إلا ويتحقق، مهما كان ذاك الأمر.

بعدما أنهيتُ دراستي في معهد السياحة والفنادق، أحد المعاهد الخاصة التي تقبل الطلبة وفقًا للمال وليس المجموع، عملتُ في أكثر من مكان، غالبا ما أختلف معهم لعدم تقديرهم لامكانياتي. في الواقع لم يضايقني أسلوب تعاملهم معي كثيرًا.

منبوذ منذ طفولتي، لم ينصت لي والدايَّ أبدًا، قبل أن ينفصلا، أو حتى بعد الانفصال. باستمرار يختار لي والدي ملابسي وقت عملية الشراء

Scanned with CamScanner

على قلتها، تختار لي أمي أصناف طعامي، يقابلان اعتراضي بنظرات صارمة تصل إلى حد الضرب إذا أنا أبديت اعتراضًا. لا يرحمان ضعفي الذي يصل حد البكاء، وأيضا يتجاهلونني.

حتى «نعيمة» شقيقتي الكبرى الجميلة الحالمة، أرغماها على ترك الدراسة الثانوية والزواج بأول متقدم لها. كان جاهلًا بمعني الكلمة، هو أقرب للحيوانات المفترسة منه إلى البشر.

عندما كنت أهرب من ضجيج منزلنا الذي لا يهدأ، أتوجه إلى أختي نعيمة، بيديها الحانية تضمني، أشعر بدفء العالم في أحضانها، أي طعام تقدمه لي يتخللني وكأنه ماء حياتي فقط لأنه من صنع يديها الرقيقتين وبسمتها التي تعوضني عما أفتقده من حنان وإن كنت أتألم لأنها بسمة كسيرة. تطول دقائق الهناءة والراحة، حتى يعود زوجها من الخارج، قبل أن يغلق خلفه الباب تدلف معه الشياطين وترحل عن المكان ملائكة الصفاء، يفتعل أي أزمة، ليضرب أختي أمامي بشراسة، لم يرحم طفلها المتكور في بطنها.

لم أكن قد تخطيتُ العاشرة، لكني كنت أقاومه فيطرحني بعيدًا، تقاوم أختي آلامها، تزحف لتحتويني وتتلقى عني ضرباته، نعلم أن أبينا لن ينصفنا مع هذا الكائن وسوف يقف معه وقد يضرب أختي، لا ملجأ لها ولا مفر، فقط عليها أن تتحمل، تنهمر دموعي لتلحق بصراخي وسبي له رغم حالة الرعب التي تحتويني. أشاهد الدماء متناثرة على ثوب أختي، أبحث عن إصابتها في وجهها أو رأسها.

لكن دماءها الكثيرة كانت من أسفلها، يعلو صراخي وتخفت آهاتها.

في المستشفى الحكومي لا يوجد طبيب وتنتظر أختي ملقاة في إحدي طرقات المستشفى ساعات تنزف، تضغط بطنها وهي تتلوى

وكأنها تواسي جنينها الذي يبدو أنه لن يرى العالم. تحسستُ معها بطنها باكيًا، تحتوي يديَّ بين راحتيها. متألمة دامعة تهمس «خلى بالك من نفسك يا سمير».

كم هي واهية تلك الخيوط التي تربطنا بالحياة، تتمزق بسهولة أمام هبات ريح واهية. ماتت أختي. ذهبت نعيمة بلا عودة.

ماتت مَن كانت تحتويني بحنانها، مَن كنتُ أشعر معها بكل شيء جميل، بمعني الحياة، ماتت وتركتني وحيدًا بين أب لا يرى إلا ذاته وأم تعاني، مع التقدم في العمر كنتُ أصمم على تحقيق رغباتي برأس عنيدة وجسد متبلد لا يأبه للتهديدات، ليس بعد فقد نعيمة ما أبكى عليه. يتزايد حنقهم، يشتعل غضبهم، يُلقى كل منهم باللائمة على الآخر، يشتعل بركان الغضب فيصيبهم بحممه، بينما أنسحب من بينهما منزعجًا تارة، وتارات أخرى منتشيًا بصراخهما وعراكهما، ليتذوقا معًا كأسًا كثيرًا ما أسقياني منه.

بينما أتذكر لحظة وفاة أختي «نعيمة» ولا يزال إحساس فقدها يحتويني، يدي التي تمر على بطنها المنتفخة قليلًا والمتألمة.. دموعها المنهمرة.. آهاتها.. يسقط قلبي من بين أضلعي متألمًا كعصفور جريح.. بينما أنا كذلك ينتهي الزملاء في المطعم من إعداد الطعام المطلوب على عربة صغيرة.

أعود من بحر شرودي وأنتفض كمن خرج من الماء لينثر قطرات الماء في كل مكان، دفعتُ العربة أمامي بهدوء شديد، توجهت ناحية المصعد، وقفت أمام المرآة منتشيًا لأعدل من وضع ملابسي، استخرجت مشطًا صغيرًا من جيب داخلي وأعدتُ تصفيف شعري، مسحت مقدمة حذائي في الجزء الخلفي من أسفل بنطالي، تعطرتُ من زجاجة صغيرة أحتفظ

Scanned with CamScanner

بها للمناسبات. شاهدتُ في المرآة طيف المدعو عادل، زوجها، ينظر نحوى ساخرًا بابتسامته الباهته.

لا أدرى كيف حدث ذلك؟! كيف لمثلها أن ترتبط بهذا الشخص الكريه، مؤكد أن الحظ لم يحالفها ويضع شخصًا مثلى في طريقها وقت الارتباط، فلتذهب عادات المجتمع إلى الجحيم. تخشى الفتيات أن يفوتهن قطار الزواج فيتزوجن من أول المتقدمين، بعدها تنشأ الخلافات وتحدث حالات الطلاق.

الطلاق.. ولِمَ لا..؟!

يتوقف المصعد في الدور السادس ويفُتح الباب، خرجتُ دافعًا أمامى العربة حاملة الطعام، لا أدرى كيف غمرتني السعادة وإحساس يكاد يكون يقينًا بأنني سوف أجدها تنتظرني خلف الباب.

وقفتُ أعيد تنسيق ثيابي مرة ثانية، إعتدلتُ واقفًا، على وجهى تلك الابتسامة والنظرة الواثقة، بظهر الخنصر دققتُ الباب ثلاث دقات متتالية وانتظرت.

تنصتُ لأتسمع وقع خطاها على الأرض لحنًا، فوجئت بالباب يُفتح مرة واحدة، وزوجها المدعو عادل يقف أمامى ينظر نحوى بتعال وعجرفة زادانى حنقًا عليه واشتعل داخلي غضبًا، كورت قبضة يدي اليمني وكدتُ ألكمه لأحطم أنفه المتعجرف، لكني كنتُ مشغولًا بها، أبحث عنها، نظرتُ إلى داخل الغرفة من ذلك الفراغ بين جسده والحائط، لم أتبين شيئًا، ارتفعتُ قليلًا حتى إنني وقفتُ على أطراف أصابع قدمىّ باحثًا في شغف، في اللحظة التي يرتد فيها زوجها للخلف ساحبًا عربة الطعام ثم يعتدل، فيراني أتلمسها بعينيَّ وأملأ صدرى بعبيرها. انتبهتُ على يده المصوبة نحوى في لكمة مباغته مع صراخه:

- ماذا يا حيوان؟

نظرًا لتمتعي بقدرات وميزات خاصة، رجعتُ بجسدي إلى الخلف بسرعة خارقة، طاحت يده في الهواء، كانت لكمة قوية بالفعل تحمل حنقًا، فقد التفتُ جسده على إثرها في الهواء نصف دائرة كاد أن يسقط على إثرها.

وقفتُ أتأمله بسخرية، يبدو أنها تحدثت عني أمامه بشكل أغضبه، مؤكد ذلك.. فقد نظرت نحوى وهي خارجة من المطعم صاعدة خلفه إلى الحجرة، وإلا لماذا هاجمني بهذا الشكل؟ مؤكد أنه استشعرني خصمًا قويا، فليرحل للجحيم ويتركها.. يتركها هي وطفلتها الجميلة، سوف أجعل منها ملكة متوجة على عروش الدنيا.

وقفتُ في الطرقة أمام باب الحجرة متأملًا ساخرًا، بينما هو يقف متنمرًا بين دفتى باب الحجرة، تفصلنا مسافة مترين تقريبًا، أستشعر تلك النار بداخله يتزايد أوارها فتزداد سعادتى وتشفىّ، في لحظة أتت جملتى القاتلة التي أطلقتها كخنجر أخير في قلب يتهاوى، نطقتُ بكلماتي فقط، هادئًا، مبتسمًا:

- أنت لا تستحقهم..

يقف مذهولًا فاغرًا فاهه، فانتشيت، أصابته سهامى في مناطقه الحساسة، كالمشلول خرجت منه الكلمات ثقيلة:

- ماذا تقول؟

تركته يتآكل بنيران غضبه، بهدوء شديد رحلتُ عن المكان، لم ألتفت نحوه زيادة في إحتقاره، كنتُ أشعر بلهيبه يلفح ظهرى، ابتسمت.. بل ضحكت ساخرًا، تمنيتُ لو رأيت بركان غضبه يقذف حممه، أجلتُ

Scanned with CamScanner

النظر حتى دلفتُ إلى الأسانسير، قبل أن يُغلَق بابه شاهدتُه يهذى، وبعض أبواب الحجرات تُفتح لتظهر من خلف فتحاتها الصغيرة عيون مستطلعة، يُغلق باب الأسانسير، يغيب المشهد، أتأمل نفسى في مرآته بسعادة، لقد ألقيتُ حجرًا ثقيلًا، حركتُ الماء الراكد، صنعتُ دوامة عنيفة، سوف يتحقق لي ما أريد.

الحقيقة التي ظهرت بعد لحظات أن في داخلي نارًا تأججت وشعورًا بالإهانة فظيع، كيف يتجرأ هذا الشاب على توجيه لكمة نحوى؟! كيف يجمح خياله طامحًا الانتصار عليّ. ماذا يمتلك من إمكانيات تجعله سيدًا وأنا تابعًا، أنا لست بتابع لأحد، بل أعلوه بمراحل.

كادت أسناني تتحطم من شدة ضغطها غيظًا. لن تهنأ أيها المدعو عادل بها بعد اليوم، بل.. لن تهنأ بحياتك على الإطلاق منذ اليوم. لقد أصبحت فريستى التي سأتلذذ بتعذيبها على مدار الأيام القادمة. لا أعلم لماذا تذكرتُ البغيض الكريه زوج نعيمة، شقيقتى الراحلة.

أنهيتُ عملى وخرجت إلى الشارع في ذلك الوقت المتأخر من الليل، القاهرة ساحرة في الثانية بعد منتصف الليل، بقدر ما تبغض زحامها نهارًا بقدر ما تعشقها ليلًا.

ترجلتُ اتنسم نسمات الصيف الهادئة، أتابع السهارى، انتقى مكانا قصيًا، أجلس متأملًا، أفرد قدمىَّ على طولهما، أملأ صدرى بالهواء المنعش، يا لها من ساحرة، تسلبني عيناها إرادتى، تمحى نظراتها الحزينة كل آهات الكون.

كم أعشق في الأنثى لحظة الانكسار التي تأتي من بين قوة لا حدود لها. تلهبني دمعتها وأتمني ارتشافها، قطف ثمار شفتاها الرقيقة. عيناها

الواسعتان، سوادهما ساحر يحمل ألف معني، بطنها المنتفخة قليلًا، تجذبني نحوها بقوة، تتلاشى قواى، أشاهدني في سيارة حديثة صفراء اللون، أقودها في انسيابية، أنغام موسيقية هادئة تصدح في المكان، أغلق النوافذ فتنعزل عن العالم، أشعل التكييف على الدرجة الثانية، تجلس هي شاردة على المقعد المجاور، ترتدي ثوب الحوامل، صدرها المكشوف برونزى ساحر، شعرها الكستنائى مسدل على كتفيها، خصلة هاربة بين الفينة والأخرى تداعب عينيها، الطفلة الجميلة تلهو مع دميتها في المقعد الخلفى، أتأمل محبوبتى الشاردة، أسرتنا بحق تعيش في سعادة، اختلس النظر نحو بطنها المنتفخة بطفلنا القادم، تعلو وتهبط مع أنفاسها، تلاحظ نظراتى، فترنو مبتسمة لحظات ثم تتألم بسعادة وهي تضع يدها على جانب بطنها حيث يتحرك الجنين، بهدوء نتبادل أطراف الحديث، لا توتر ولا انفعال، نمتلك أسباب الراحة والرفاهية، لا منغصات في حياتنا، فقط الحب، نتبادله كزخات المطر الحانية، كهفهفات عصفور رشيق، كنسمات عطرية.

- أتحبينني كما أحبك؟.. سألتها..

لا تنطق بكلمة، فقط تمد يدها تتحسس وجنتى برفق، التفتُ ألثم يدها، ارتد فَزِعًا، سيدة ممتلئة، شرسة الملامح، حادة، تجلس بجوارى وينطلق من عينيها شرر، أشهق، يداها مخالب عليها دماء متجلطة وبقايا جلد نتن الرائحة وشعر أسود وأصفر، أصرخ.. وأصرخ.. أضغط بقوة فرامل السيارة، صراخ إطاراتها يطغى، يتوه صراخى، ضحكاتها تفزعني، أفتح الباب بسرعة، أنظر نحو طفلتى في المقعد الخلفى كي أحملها لنهرب معًا، لم أجدها!! وجدتُ شخصًا آخر، إنه هو.. عادل.. يجلس مبتسمًا ساخرًا، مد يده وجذبني بقوة، تشبثتُ في باب السيارة،

Scanned with CamScanner

ضحكَ بشده، صرختُ أكثر، غرس أظافرة في جسدي، سحبها تاركًا دماءًا تنزف كالشلالات، تعالى صراخي.. بعنف يهتز جسدي، تتلاشى قوتى.. انتفضتُ.

أوه.. لازلت أجلس في مكاني القصى، تنفست بصعوبة، مسحت عرقى الغزير بيدي، يبدو أنني غفوت، تأملتُ الوجود من حولى، تذكرتُ تفاصيل حلمى المفزعة، عدتُ قصرًا إلى البداية وهي تجلس بجوارى مبتسمة ترنو نحوى في رفق المحيين وخجل العذارى، ضغطتُ على زر التثبيت كي أتوقف عند تلك الصورة، لا أريد أن تهجرني وتتركني بين عذاباتى.

تحركتُ متجهًا نحو أول الشارع كي أستقل سيارة تاكسى، طالت لحظات تثبيت الصورة وطال تأملها، عاد إليّ هدوئى وابتسامتى.

في الصباح استيقظتُ على رنين المنبه المتواصل، دخلتُ مرة واحدة تحت الدش ليذهب عني بالنوم، ساعات قليلة مضت بين أحلام يقظة لذيذة ونوم متقطع لم يخلو منها في تفاصيل وأوضاع مختلفة. ارتديت ملابسى، دقائق قليلة قضيتها في طقوس الصباح ،عدتُ إلى الفندق في تاكسى، قبل الساعة العاشرة كنتُ أجلس في البهو.

أعلم منذ الأمس أن أحدهم سوف يسألني عن حضورى مبكرًا وموعدي في السادسة مساءً، سوف أجيب: فقدتُ تليفوني المحمول وأتيت لأبحث عنه. بالطبع كنتُ قد اغلقتُ الهاتف. فشلت محاولات الزملاء في الاتصال به، بعد لحظات مواساه، لأنه تليفون فاخر باهظ الثمن، جلست في البهو أحتسى شايًا مع قطع الكيك التي طلبتها من المطعم كأى زبون.

في الحادية عشر تقريبا هبط عامل الخدمة حاملًا حقيبة صغيرة، لحظات ويخرج عادل من الأسانسير حاملًا الطفلة على صدره، خلفه

تسير متهادية إلهة الجمال المتجسدة في جسد بشرى، لم ألاحظ عادل وهو يتوجه للحظات نحو مجدي موظف الاستقبال، فقد توجهتْ هي نحو باب الخروج بخطى متثاقلة ثم وقفت في انتظاره، كانت في مواجهتى، تزايدت ضربات قلبي، سوف تتلاقى أعيننا، يجب أن تشاهد فيهما كل مشاعرى نحوها، يجب أن تعلم أني هنا من أجلها، لم أهنأ بنوم أو براحة إلا مع نظراتها وأنفاسها الملتهبة.

تلاقت أعيننا للحظات، لم يظهر على وجهها أي تأثير، هل تعمدت أن تُخفى مشاعرها كيلا يلحظها زوجها؟! مؤكد ذلك، فقد دنا منها بالفعل، يحثها على السير، شاهدني أجلس في مكاني، يبتسم للحظة بينما تتأبط هي ذراعه الأيمن ويتحركان، بمجرد وصولهما إلى الباب يكون السائس قد أتى بسيارتهم، يعود الرجل سعيدًا بما نُفح من هبة، لم أتحرك من مكاني كي لا ألفت الأنظار، فقط حفظتُ أرقام السيارة.

كان من السهل عليّ أن أحصل على كافة المعلومات عن عادل هذا، عن طريق استعلامات الفندق، لكني رفضتُ حتى لا أثير الريبة، لا أحد يعلم ما يمكن أن يحدث في الغد.

بعد نصف ساعة تقريبًا خرجتُ من الفندق، لم أعد إلى منزلى، لم أتجول بين الطرقات كي أنسى نظرتها الأخيرة، توجهت إلى إدارة المرور، هناك أناس يقومون لك بما تريد مقابل جنيهات قليلة. بعد دقائق خرجت ومعي إسم عادل بالكامل وعنوانه.

انطلقتُ أرتب أفكارى وخطواتى التالية.

■■■

Scanned with CamScanner

(36)
نار الغضب

حاتم..

مينا جبرائيل..

تتلقى أمل يوسف اتصال سماح على التليفون الأرضي بفتور وتخبرها بأن حاتم نائم، سريعًا تلخص سماح ما حدث وأن القس خرج وهو يتوعد الجميع. تضع أمل سماعة الهاتف وقد ارتبك داخلها وهي تستشعر حرارته تتزايد حمية وغيرة على إسلام فاطمة، تساءلت للحظة لو عادت إلى المسيحية؟! يتزايد توترها حتى إنها لم تشعر بنفسها وهي تقضم أظافرها بصوت مسموع. تنتظر خروج حاتم من حجرته هو وفاطمة.

تمر ساعة قبل أن يخرج حاتم متوجها إلى الحمام، تسحبه أمل من يده إلى غرفة الصالون لتخبره بما حدث. كانت تنتظر ثورة عارمة من حاتم، إعلان حالة طوارئ قصوى، لكنه كان على النقيض تمامًا، فقد ابتسم قائلًا:

– طبيعي أن يحدث هذا يا أمل، وأكثر منه أيضًا، عمومًا هذا جهاد في سبيل الله ولابد أن نتحمل، فلتذهبي أنتِ إلى فاطمة، احتويها يا أمل.. عوضيها عن عائلتها.

– ماذا ستفعل؟

– سنجد حلولًا مناسبة إن شاء المولى.

يجرى اتصالًا عبر تليفونه المحمول، على الطرف الآخر يجيبه الشيخ شوقي فيهم سعيدًا:

– مبارك يا عريسنا.

– جزاك الله خيرًا يا مولانا.. مبارك علينا كلنا إسلام فاطمة.

ثم يسرد له ما حدث وما توعد به القس في المصنع، يطول الحديث لترتيب الخطوة التالية، ترتسم على ملامح حاتم علامات هي مزيج من الإصرار والتحدي واستشعار حلاوة الجهاد. ينهي المكالمة وبعدها يجرى عدة اتصالات بناءً على تعليمات الشيخ شوقي فهيم. يأخذ حمامًا يخرج منه في منتعشًا، يرتدي بذلة أنيقة ويتعطر بخليط من المسك وروح الياسمين والفل.

الحقيقة أنه كان يصعب على الكثيرين من المحيطين بحاتم فكري أن يتكهنوا بردود أفعاله تجاه المواقف المختلفة. لم يكن نمطيًا، وأيضًا لم يكن مبدعًا، المتأمل بعمق إلى داخل حاتم فكري سيجد تضاربًا واضطرابًا مستمرًا، يُنتج موقفًا ما كرد فعل، وفي وقت لاحق قد يُنتج موقفًا آخر كرد لنفس الفعل إن تكرر، بل يصل الأمر لأن تختلف ردود أفعاله لنفس الموقف عشرات المرات وقد تتشابه عشرات المرات أيضًا، لم يكن له نمط أو نظام يسير وفقًا لنهجه، إنما كان «الحظيّ» إن أردنا الدقة، يتوقف رد فعله على حالته في تلك اللحظة. وها هو قد أمضى وقتًا رائعًا ملتذا ببكارة فاطمة، محتويًا جسدها الطري يمتص رحيقه بنهم جائع مفترس، لقد هدأت خلاياه تمامًا، حتى إنه نسى تمامًا

Scanned with CamScanner

إيمان معشوقته الأبدية. لقد غلبته فاطمة بعذوبة القطفة الأولى لشهدها. لم يأبه بترددها، إنه الخجل وهو أمر بديهي.

قبل خروجه يطرق باب غرفة فاطمة ويدخل متعمدًا أن تبدو سعادته على ملامحه. تشاهده فاطمة فتلتمس روائح الطمأنينة. تشاهده أمل فتتسرب إلى داخلها شكوك مقيتة، فها هو اليوم سعيدًا منتشيًا رغم لهيب الحدث، وقد بذلت كل ما تملك من قبل لاسعاده فتركها ورحل. قد يكون ذلك لأن زواجه بفاطمة لا يزال حدثًا جديدًا وبعدها يمل كما حدث معها من قبل وقد يكون لسبب آخر، وهو أنها كانت نصرانية وأسلمت على يديه.

أخرجتها من طيات شرودها فاطمه حينما سألت حاتم عن وجهته، تستشعر خوفًا إن هو ترك الشقة، يضحك حاتم من طيبتها معلقًا:

– أنتِ الآن زوجتي يا فاطمة وبرغبتك الكاملة أعلنتِ إسلامك، وافقتي على الزواج وأنتِ بكامل إرادتك وقد بلغتِ سن الرشد وقانونًا نحن في الطريق الصواب.. أما إن ظهرت أمور غير قانونية مستقبلًا، فاطمئني.. فنحن لها.

يقول كلماته الأخيرة بإصرار وتحدٍ يتنافى تمامًا مع علامات السعادة والنشوة التي كانت تغمره منذ لحظات.

■■■

تخرج دفقات بشرية محمومة بنيران الغضب من الكنيسة والمستوصف يتبعون القس مينا جبرائيل الذي عاد من المصنع ثائرًا كما لم يثر من قبل رغم عصبيته الدائمة، فقد انطلق يهزي بكلمات غير مفهومة وبداخله غضب لا حدود له. يضغط شفتيه غيظًا حتى كادت

الدماء تنفجر منها حينما تذكر موظف الأمن في المصنع وأعين العاملين ترصده هو وكامل عبد المسيح. لقد تخيلهم يفتكون به ويسحلونه ويجذبه أحدهم من لحيته وآخر ينتزع أظافره بينما ثالث يركله في بطنه وظهره بكل ما أوتي من قوة. لا يعلم لماذا جالت تلك الصورة في رأسه لحظة أن رآهم يتأملونه فترك المكان مسرعًا وخلفه كامل مهرولًا.

ما أن يصل إلى الكنيسة ويعرج على المستوصف حتى تنتقل ألسنة نيران غضبه إلى عدد ليس بالقليل، يصيح فيهم آمرًا بلهجة لا تدع أحدهم يستفسر عن أي شيء، إنما ينفذ ما يؤمر به فقط.. لحظات وتنطلق كرة النار.

مع تحركهم وكثرة الاتصالات التليفونية يزداد الانفعال، يتبارى بعضهم في إثارة نفوس الآخرين، تلتهب قلوبهم وتغلى الدماء في عروقهم. تتزايد أعدادهم بشكل يلفت الأنظار ويلقى الرعب في القلوب الرقيقة، حتى إن سيدة مسنة شاهدتهم من شرفتها ولمحت حرارة غضباتهم تلف المكان، فتنظر نحو السماء وهي تتمتم بكلمات هامسة «جيب العواقب سليمة يا رب».

يحمل بعضهم في البداية عصى على سبيل التوجيه والإشارة ثم تظهر النبابيت بين أياديهم، في مؤخرة الفوج المتحرك تظهر السنج والسيوف.

يعلن بعضهم بأن تحريات كثيرة قد تمت حول اختفاء تريزة وأكدت تلك التحريات على أن أمر اختفاءها يرتبط بمصنع حاتم فكري، وقد ذهب الأب مينا جبرائيل لحوار هادئ مع هذا الرجل لكنه رفض مقابلته، بل أنكروا وجوده وتربص بعضهم بالقس جبرائيل وبعم كامل، الرجل الغلبان، والد تريزة، وكادوا يفتكون بهم.

Scanned with CamScanner

يتزايد الانفعال مع كل كلمة يلقيها أحدهم، لا توجد مساحة في العقول لتناقش أو تستفسر، أصبحت رؤوسهم وصدورهم كقدور محكمة الغلق تحوى ماءًا يغلى، تكاد تنفجر في أي لحظة.

لابد من توجه الجموع للهجوم على المصنع، وقتها سوف يظهر صاحبه ليجيب على التهمة الموجهة إليه، بهذا أشار أحدهم ثم ينطلق صوب المصنع، تتدحرج خلفه الكرة الملتهبة.

■■■

تصل الأنباء إلى حاتم فكري والشيخ شوقي فهيم بأن القس جبرائيل ومعه عدد غفير من أتباعه يتوجهون، وهم يضمرون الشر، إلى المصنع.

في دقائق يتجمع خلف الشيخ شوقي وحاتم فكري عشرات الأتباع، يتوجهون بسياراتهم الخاصة وخلفهم عدد من سيارات نقل البضاعة محملة بأكوام بشرية ليدافعوا عن المصنع ضد أي هجوم. لم تمر نصف ساعة حتى يتواجه الجمعان.

في لحظة مثل هذه، مجرد نظرات تحمل قسوة وعنفًا أو أي معني لا يتفق مع هوى الآخر، هي كافية لإثارة مشكلات لا نهاية لها، خاصة مع تلك النوعية التي يتزعمها الشيخ شوقي فهيم والقس مينا جبرائيل.

هم نفس الرجل، نفس الطباع، نفس الأطماع والرغبات، وإن اختلفت دياناتهم، الرغبة في التملك والامساك بقياد القطيع، السيطرة الكاملة والتمركز في بؤرة الضوء. يجلسون على أبواب الرب يُدخلون من يشاءون ويصدون مَن يأنفون، تلك عقيدتهم، غايتهم أن ينتصر أحدهم على الآخر، بأي وسيلة وبأى ثمن، ليبقى وحيدًا على باب الرب.

في وقت لا تزال البلاد تعاني فيه من ضعف يلتقى الجمعان، هي حرب حقيقية بكل ما تحمله الكلمة من معان، تُستخدم فيها العصى والنبابيت المزينة بالجلد والقطع المعدنية اللامعة والمسامير ذات الرؤوس المقببة، السيوف، الطوب والحجارة وكسر الرخام، طلقات الخرطوش، كل ما تصل إليه أيديهم.

تعلو الصيحات المحفزة، يتبادلون أقذع أنواع السباب، مع تزايد الصراخ يتزايد الانفعال والتوتر، تغيب العقول وتتحرك الغدد المُحفِزة فتتولد لديهم قوى إضافية لا يعلمون من أين أتتهم.

يَحمىَ الوطيس، مناوشات تبدأ مترددة، صاحب أول صيحة ألم يرتد فزعًا واضعًا يديه على وجهه ليخفى عينه المصابة، إنه أحد الجبناء، ظل يشعل النيران بحديثه طوال الطريق مهددًا ومتوعدًا ومقررًا بأنه لن يعود إلا ومعه تريزة وإن قدم حياته فداءًا، هذا الشخص ظل يتقدم الصفوف حتى التحم الطرفان، فلا يدرى أحد هل أصابته حجارة أو لكمة أو هو مدع، كل ما في الأمر وبينما الكل مشغول بمراقبة الآخر في لحظة الترقب الأولى، يصرخ هذا الشخص ويخفى عينيه متألمًا، صارخًا «إلحقوني، عيني» فيلحق به آخر أكثر منه جبنًا وإن كان أقل حيلة منه، يسنده ويخرج به من قلب المعركة التي اشتعلت فور صراخه.

تتلاحم الأجساد وتتلاطم وتتقاتل في موجات لا حد لها. الجرحى والمصابون بالعشرات وتسقط أول ضحية برصاص حى لا يعلم أحد أين مصدرة، يُصاب بعضهم بالجنون وتتزايد النيران، تسقط الضحية الثانية في الجانب الآخر وبرصاص حى أيضًا، يَشتاط الطرف الآخر جنونًا.

Scanned with CamScanner

في اللحظات القليلة التالية يتساقط الجرحى والقتلى من الطرفين في أحداث عنف لم تشهدها المنطقة من قبل، أحداث يُطلق عليها إعلاميًا «فتنة الخصوص» فقد أخرج شوقي فهيم رجاله لمقابلة مينا جبرائيل وأتباعه بعيدًا عن شركة ومصانع «الخير خيرك» التي يمتلكها حاتم فكري، وتختفي بداخلها تريزة عبد المسيح وفقًا للشائعة التي انطلقت بين جبرائيل ومن معه، يتقابل الطرفان في منطقة الخصوص.

تنقل بعض الفضائيات، التي يتصادف وجود مراسليها في المنطقة، خبرًا عن الأحداث التي تجرى الآن في منطقة الخصوص، تلك الأخبار بمثابة نداء للمتعصبين من الطرفين، يهرولون إلى أرض المعركة مسلحين بتعصب راسخ على مر سنوات مضت، تدفعهم رغبة في الانتقام، شحنات غضب مكبوتة تبحث عن مخرج.

مَن يشاهد الموقعة عن قرب لن يشاهد القس مينا جبرائيل أو الشيخ شوقي فهيم وحاتم فكري.

تلك نوعية لن تجدها في المواجهة وقت النزال على الإطلاق، لكنهم لم يتركوا الأمر برمته، لأمثالهم أدوار أخرى تضمن سلامتهم واستمرارهم في الصدارة مع ازدياد الفتنة اشتعالًا، إنهم يمتلكون الأموال وهذه تأتي بالحطب ومواد الإشعال بمنتهى البساطة.

يجرى كل منهم اتصالاته برجاله كي يمدوهم بمَن يُنقذ رجالهم، فإن كُنا على مقربة منهم لنتصت إليهم لاستمعنا من الشيخ شوقي فهيم عبارات:

- إلحقونا.. قُتل منا عشرون شهيدًا.. واحملوا معكم كل الأسلحة المتاحة.. وأنتم في طريقكم إلينا أشعلوا النيران في أي محل يمتلكه

مسيحي.. الناس هنا تموت من أجلكم وأنتم تنامون في بيوتكم.. حى على الجهاد.. حى على الجهاد.

أما إن كنا بجوار القس مينا جبرائيل لسمعنا:

- قتلوا منا ثلاثون شابًا من خيرة الشباب، إن هُزمنا اليوم لن يبقى لنا مكان، سوف يحققون حلمهم بطردنا خارج البلاد.. أسرعوا، جمعوا أكثر عدد من الرجال والشباب والسلاح، الرب معنا وسننتصر عليهم.. بسرعه..

لا تنتهى المعركة إلا بعد أن تحصد عشرات الأرواح ومئات المصابين وتشتعل النيران في محلات الذهب في المنطقة، السوبر ماركت، عدد من الصيدليات، الكثير من السيارات التي لا تخص أيًا من المتقاتلين، فقط وضعها حظها السيئ في هذا المكان. كان القتال يدور في المقدمة ومن يعجز عن المواجهة يُشعل النيران في أي شيء في الخلف أو في الشوارع الجانبية.

السبب الرئيسى لانتهاء المعركة كان حالة الإجهاد والإعياء التي حلت على الجميع، فقد بذلوا طاقاتهم خلال الساعات المنصرمة، طاقة أجساد كانت في حاجة لراحة وطعام وشراب حتى تعود، طاقة روحانية تمتلئ بالشحن والتأجيج، فقد شحنهم من شحنهم فأفرغوا غضبهم في هذه الساعات والآن ترتخى الأعصاب كما ترتخى بالونة أفرغت ما بها من هواء. سبب آخر أقنع الجمع به نفسه وهو هبوط الظلام بأجنحته ليحتوى الجميع.

Scanned with CamScanner

تصل مدرعات تابعة للقوات المسلحة لتنتشر في المكان وتؤمن سيارات الإطفاء التي تبذل الكثير من الجهد لتحتوى النيران التي لا تزال ألسنتها تنتقل من مكان لآخر.

■■■

الملايين يتابعون ما يحدث عبر الشاشات، الأغلبية من الطرفين يعتصرهم الألم، تلك المجموعة المتصارعة لا تعبر عن الأغلبية ولا تمثلها، الحقيقة أن الدم المصرى يسرى في الأجساد ولم يتساءل يومًا عن دين أحدهم. بعض القنوات الفضائية المعتدلة التي لا تبحث عن الإثارة ترفض نقل الأحداث كي لا تزيد عمليات شحن وإثارة الأطراف، واكتفت بعرض الأخبار على النيوزبار، بينما تعرض فيلم حسن ومرقص، وبعضها يعرض أغاني مضمونها الوحدة الوطنية.

صورة جميلة حقيقية تحدث الآن في أحد البنايات، وكأنهم يدركون أهمية إثبات أن الحقيقة هي عكس ما يحدث ولو لأنفسهم، ساكن الطابق الخامس رجل مسلم ويعرف الكثير عن دينه، يُرسل مع ابنه، إلى جارة المسيحي في الطابق الرابع، طبقًا به صنف من أصناف الطعام المُعدة للعشاء. دقائق قليلة تمر وتعود ابنة المسيحي بنفس الطبق وبه صنف آخر مما أعده المسيحي لطعام عشاءه.

يقولون في صمت لسنا هكذا، وإن كان في كل شأن قِلة تغالى، فئة تشذ عن المجموع، تظهر على فترات متفاوتة وفي أماكن مختلفة.

من بين ملايين الصور الأخرى المشابهة لتلك الصورة الآنفة، نشاهد فاطمة جالسة بجوار أمل يوسف، يتابعن الأحداث عبر شاشة قناة فضائية خاصة، تستطيع كاميراتها التجول في المكان بعد أن تفرق المتقاتلين،

ترصد الكاميرا خسائر الحرائق المنتشرة في كل مكان، بضائع تصل قيمتها الملايين وسيارات مشتعلة لا تزال الأدخنة تتصاعد من هيكلها الحديدي المتبقى. كاميرا أخرى تتجول بين المصابين في المستشفيات القريبة، حيث أمر كل فريق بتوجيه مصابوه إلى مستشفى تابعة لرجاله. أما الكاميرا الثالثة فكانت تنقل صراخ نساء وأطفال أهالى القتلى أمام المشرحة، تفصل بينهم قوات الجيش لضمان عدم الالتحام مرة أخرى ويؤكد مراسل القناة أن هناك حتى الآن ثلاثين قتيلا من الطرفين.

ماذا يفعلون؟!

سؤال صاغت حروفه فاطمة من قطرات دمها المختلطة بدموعها التي غادرت مآقيها بدون أن تشعر بها. حالة غريبة تنتاب فاطمة، تتشنج أطرافها ويشحب وجهها لدرجة حاكت فيها الموتى.

أيتصارعون ويقتل بعضهم بعضًا من أجلى؟! من أجل فتاة واحدة يسقط كل هذا العدد من القتلى؟!

ماذا أعني أنا بالنسبة لدين أو لآخر؟! ديني يخصني وحدي، إن كانوا يبحثون عن كثرة، فها هم يخسرون أضعافًا!!

عن ماذا يبحثون إذًا؟؟!!

عن سيادة..

ترن هذه الكلمات في أذنيّ فاطمة وهي تشاهد سيل الدماء وألسنة اللهب وصراخ أبناء وعويل أمهات، لم تتخيل يوما ولا في لحظة شرود مجنونة أو في حلم أو كابوس، أن تكون سببًا في تعاسة أحد، ها هي اليوم وكما تشاهد وتسمع، تتسبب في مقتل العشرات وإصابة المئات. تسقط أرضًا، تصرخ أمل يوسف:

Scanned with CamScanner

- فاطمة..

فاطمة لا تجيب، تركتْ روحها المكان، أين تذهب؟

سألت نفسها هذا السؤال، لا تريد مشاهدة ما يحدث، كمن يقود بساط الريح، جذبت قياده إلى اتجاه آخر، بعيدًا عن الدماء، يقطع بساطها سنوات عبر الزمن، إلى تلك اللحظة التي تأملت فيها الكون دَهِشة.

كانت في المرحلة الابتدائية، أخذتها أمها مع رحلة تضم عددًا من المعارف في زيارة إلى كنيسة القديس مارى جرجس والكنيسة المعلقة، على ضفاف نيل الفسطاط بُنيت هذه الكنائس، يطلقون على المنطقة اسم "مجمع الأديان".. أثار تخص الديانات الثلاث، رغبة الرب في أن يجتمع عبدته في هذا المكان.

تُمسك أمى بيدي لنصعد سلالم عريضة، تؤدي إلى مبني أسطواني هائل، يُشعرنا بضآلتنا، تعلوه قبة كتلك التي أشاهدها أعلى مساجد المسلمين، لكن هنا يعلوها الصليب وليس الهلال، ننتهى من صعود الدرج لنجد في المواجهة صورة مجسمة للقديس مارى جرجس فوق جواده ممسكًا برمحه الذهبي ليقتل تنينًا ضخمًا، تواريتُ خلف أمى لحظة وأنا أتفحص التنين بلونه الأسود والقديس وفرسه باللون الأبيض، وكأنهما يحددان لوني الخير والشر. تجذبني أمى يمينًا لنرتقى عدة درجات، حيث تواجهنا مئذنة شاهقة الارتفاع، ننتهى من الصعود لنقف أمام صحنها الذي يبدو من فراغات الاتجاهات الأربعة، في قلب المئذنة أشاهد أجراس نحاسية مختلفة الأحجام معلقة على حوامل حديدية ضخمة صدئة، تمنيتُ أن أتعلق لأحرك ذلك الجرس الضخم الذي يناهزني ارتفاعه، أو أعلوه لتمرجحني أمى، لكن بوابة رقيقة مزينة

بصلبان بهتت ألوانها، تفصلني عن منطقة الأجراس، أمد رأسى عبر فراغات البوابة لأشاهد جوف المئذنة، أقلب رأسى لأعلى، جدرانها عريضة من لبنات حمراء تتماسك بملاط أبيض حائل، أشاهد فتحة على شكل دائرة، تقل مساحتها مع الارتفاع، وددتُ لو صرخت لأسمع رجع صوتى، لكن أمى جذبتني برفق لنترك المئذنة خلفنا وندلف إلى داخل الكنيسة.

باب مفتوح محاط بالرخام الذي يلقى علينا برودة لذيذة تطفئ نيران الشمس الملتهبة ومجهود رحلتنا وصعود السلالم، أعلى الباب نصف دائرة، تحتوى على دوائر كاملة من زجاج مختلف ألوانه وإن كانت الغلبة للونين الأحمر والأزرق، تقابلنا نسمات باردة تحمل رائحة شمع يحترق، على اليسار يقف خادم خلف منضدة كبيرة عليها أعداد لا حصر لها من الشموع، تناوله أمى ورقة ماليه، يعطيها ثلاث شمعات، على يساره منضدة أخرى أعلاها إطار قليل الارتفاع، مملوء بالرمل، فيه شموع مشتعلة، تُشعل أمى شمعتان من لهب إحداها ثم تغرسهما في الرمل، تعطيني الشمعة الثالثة بلا كلمات، فعلتُ مثلما فعلتْ ولا أدرى لماذا!!

توجهنا يمينا ناحية الهيكل المقدس كما سمته أمى، وقفنا على بابه، تلثم أمى ستائره المصنوعة من قطيفة سميكة لونها أحمر قاني، هممتُ بالدخول، لكن أمى جذبتني بقوة، مالت علىّ لتخبرني بأن هذا المكان لا يدخله غير أبونا، سألتها لماذا؟ لم تجبني وظلتْ تحرك شفتاها بما لا أعلمه. نظرت داخل الهيكل لأشاهد المذبح، في المواجهة يسوع مصلوبًا وأعلاه مجسم لشمس ذهبية ترسل أشعتها.

Scanned with CamScanner

سحبتُ يدي من قبضتها وعدتُ إلى الخلف، تركتني لتغرق في خشوعها، نظرتُ إلى أعلى لأشاهد قلب القبة، مطلي باللون الأزرق كما السماء الصافية، يتوسطها صورة ليسوع ملفوفا في عباءة زرقاء يبدو أسفلها رداء أحمر فاتح ويضم إلى صدره كتابًا، مؤكد هو إنجيله، نزلتُ برأسي لأطوف في المكان، صور لقساوسة ورهبان وقديسين في كل مكان، أيقونات ومجسمات لمارى جرجس منتشرة في الأركان وبين أرائك الجلوس، كدتُ أصطدم بشئ كما العمود، أطول مني بقليل، تأملته فإذا به شمعدان ضخم يبدو أنه من الذهب الخالص، تأملت نقوشه لحظات، تعاريج ونتوءات وتجويفات، حروف وزهور ومجسمات في كل جزء منه، على ضخامته لم يكن يحتوى إلا على ثلاث فتحات لثلاث شمعات، مؤكد هي شمعات عملاقة لتتناسب مع تلك الفتحات.

فجأة وجدتني أصرخ وأرتد إلى الخلف، كدتُ أسقط في هوة سحيقة، جرت أمي نحوى مسرعة على إثر صرختي، لكنها في لحظة تدرك الأمر وتضحك، نعم كانت فتحة يظهر منها طوابق الكنيسة السفلية، لكنها كانت مغطاة بزجاج سميك، وقفتْ أمي فوقه كأنه أرض عادية ولا تزال تضحك من خوفي وتجذبني لأفعل مثلها، تقدمتُ مترددة كمن سيسقط بالفعل وقلبي يسقط من مكانه حتى وقفتُ، غادرني الخوف وحل محله الهدوء، عادت أمي إلى الهيكل ويدها تمس كل مكان ثم تمسح بها على وجهها ورأسها للتبرك، لم تلحظني وأنا ألعب فوق الزجاج الذي يفصلني عن الهوة السحيقة.

تنتهى أمي مما كانت تفعله ثم نتوجه إلى ما يشبه السرداب، الجدران محلاة بصور مختلفة للقديس وأدعية وتراتيل وإهداءات من أناس

يتركونها على لوحات رخامية للذكرى، قرأتُ: شكرًا يا مارى جرجس على شفاء كرستين سامى.

لو حة أخرى: شكرًا مار جرجس على الخطوبة مايكل - إيناس.

من بين لوحات كثيرة قرأتُ: شكرًا لسيدي الملك جورجيوس على الماجستير، توقيع أبو سمرة السكرة.

أيضًا لوحة عليها: الله محبة، معجزة شفاء من مرض السرطان، مايكل مكين، توقيع أم كرولس.

ما هذه الكلمات يا أمى؟! لم تجبني وهي تنحني قليلًا لندخل إلى ما قالت عنه مغارة التعذيب، حيث شاهدتُ صليب خشبي كبير وعليه سلك شائك ومسامير حديدية ضخمة، إنها أدوات الصلب، يقشعر بدني بأكمله، قبل أن أعود للخلف تعود بي أمى ثم تمد يدها لتمسك طوق حديدي متصل بسلسلة ثقيلة، تضع رقبتها في هذا الطوق الحديدي ثم تغمض عينيها لحظات، أتابعها بعينين متوجستين مندهشتين، ماذا تفعلين؟!

لم تجبني مباشرة، إنما نزعت عن رقبتها الطوق ومدت يدها لتضعه حول رقبتى، تود أن تربطني من رقبتى بطوق حديدي متصل بسلسلة ضخمة مثبتة في الحائط..!! رجعتُ للخلف خطوة لكنها جذبتني بيد حانية، وهي تقول:

- لا تخشى شيئًا يا تريزة.. القديس كان يُعذب في هذا المكان.. إيمانه كان كبير.

- و لماذا تربطينني يا أمى؟!

Scanned with CamScanner

ضاحكة بهدوء بينما تضع الطوق حول رقبتي وأنا غارقة في دهشتي، تقول:

- لا أربطك يا حبيبتي.. إنها بركة.. أغمضي عيناكِ.. تخيلي نفسك مكان القديس.

استسلمتُ لرغبتها، وضعت الطوق الحديدي حول رقبتي وضمته قليلًا لأن رقبتي صغيرة بطبيعة الحال، أغمضتُ عينيَّ كما قالت لي، انتظرتُ أن أشعر بأي شيء.

يتهادي عبر فضاء الكون صوت روحاني ملائكي يملأ تفاصيل المكان، صوت خاشع يردد: الله أكبر.. الله أكبر.. أشهد أن لا إله إلا الله.. أشهد أن محمدًا رسول الله..

إنه مؤذن جامع عمرو بن العاص يرفع الآذان.

يتردد صدي الأذان في أذني مرات ومرات.. يتلاشى صوت المؤذن تدريجيًا ويحل محله صوت أمل.

عدتُ إلى الوعي على أمل وهي تكبر في أذني وفي يدها زجاجة عطرية تمررها أمام أنفي.

■■■

في الأيام التالية، يكثر الحديث وتكال الاتهامات من الطرفين، مادة دسمة تعيش عليها برامج التوك شو، يظهر محللون وخبراء، يبتغى كل منهم الظهور فيشطح بفكره وخياله فيلقى على النار زيتًا، يُسرب البعض شائعات بين الطرفين:

- المسلمون يرغبون في طرد المسيحيين خارج مصر.

- المسيحيون يريدون تقسيم البلد وإقامة دولة مسيحية في الصعيد، وبهذا يتحكمون في النيل.

- البنت أعلنت إسلامها وتزوجت مسلم.. هي حرة.

- البنت مخطوفة وتم تعذيبها ولا أحد يعلم عنها شيئًا.

- ظهور تريزة في محل تجارى شهير وهي مرتدية النقاب.

- فاطمة أسلمت وسافرت إلى السعودية للعُمره.

- .....

يتم تشكيل لجنة مصالحة من المعتدلين من الجانبين، أولى خطواتها تكون مقابلة الفتاة «المتنازع عليها» وسؤالها لمعرفة حقيقة ما حدث، هل أسلمت بحريتها الكاملة أم أن هناك من أجبرها على ذلك؟

يجتمع رجال تلك اللجنة، يتبادلون التحايا والأحضان والشعارات الرنانة، ينطلقون صوب الفتاة، يخشى كل منهم أن ينطق اسمها لئلا يغضب الآخر، فإن قال المسيحي «تريزة» فمن حق المسلم أن يقول فاطمة، يؤجلون التصريح لما بعد المقابلة، بداخل بعضهم ترقب وخشية من انتصار الطرف الآخر وإن أظهر غير ما يضمر، حيث يؤكد بأنها مجرد فتاة، فرد لن يزيد هذا الدين أو ذاك شيئا، يوافقه الأخر باسمًا.

تنظر نحوهم فاطمة تغالب ضعفها ووهنها، تصارع آهاتها، لقد كرهت الجميع، إنهم لا يفهمون ما تعيشه، هي لم تترك دينا وتعتنق دينا آخر، هي اقتربت من الله الواحد، رب كل الأديان.

طريقها الذي اختارته بكامل إرادتها هو أخر الأديان وختامها، إنه الدين الإسلامي، وقرآنه، رسالة الخالق إلى مَن خلقهم بنفخة من روحه وأسكنهم الأرض، ليس تقليلًا من رسالة سابقة، إن الله هو الذي أنزل

Scanned with CamScanner

الأولى وما تلاها حتى الأخيرة، وإن لم يكن لها نفع لما أنزلها على رسوله، ولما أمرنا باتباعه، وها أنا أطيع ربي وأتبع خاتم رسله.

تعلن فاطمة كمن يئن أنها أسلمت بحريتها الكاملة. أسلمتْ روحها إلى الواحد الأحد ليفعل بها ما يشاء، وقتما يشاء.

ينفض الجمع..

تجرى المصالحة..

يتوارى القس مينا جبرائيل مضمرًا حقدًا. يتباهى الشيخ شوقي فهيم بما حققه من نصر مبين، تحتل الأحداث الأخيرة مساحة كبيرة من خطبه ودروسه في المساجد والزوايا التي يحتل مركز الصدارة في قائمة الدعاة فيها، متناسيًا القتلى وذويهم الذين يحترقون بنيران الفقد، فلن تغنيهم جنيهات معونة شهرية، يَمن بها شوقي فهيم أو حاتم فكري، عن الأب أو الابن.

تعتزل فاطمة، خلال الأسابيع التالية، الجميع. تتقوقع في حجرتها بالساعات تناجي ربها، تصلى له وحده. تعتليها باستمرار ملامح التيه، الانتظار، لا تعلم بأي أرض تعيش وإلى أين المنتهى، تنزف دمعًا لا ينتهى، تهجر مباهج الدنيا، لا طعام ولا شراب، يهجرها حاتم مرغمًا، تذبل كزهرة نُزعت من شجرتها، تجف كأرض بلا ماء.

أمل يوسف تخدمها، تمرضها وتحنو عليها حنو الأم على رضيعها، فقد شاهدت في فاطمة نقاءًا وصفاءًا لم تشاهده من قبل، وإن كانت تأخذ عليها عدم غيرتها على الدين الإسلامي، لقد انتظرت منها الظهور بقوة ومهاجمة مينا جبرائيل وأعوانه، تحل ضيفة على برامج التوك شو لتؤكد أنها أسلمت بكامل إرادتها وأنها تدعو غير المسلمين في كل بقاع

الأرض بأن يسارعوا بالدخول في الإسلام. لكنها ترتاح لتفسير حاتم الذي يؤكد أنها جديدة في ديننا ولم تتولد الغيرة بداخلها بعد، وهذا مؤكد سوف يأتي بمرور الوقت.

■■■

الأيام قادرة باستمرار على أن تسير في دورتها، وتجبر البشر على الانطلاق معها، مَن يتوقف باكيًا سوف تسحقه.

مجبرين على النسيان ومنه سُمينا.

تعود أم تريزة إلى احتواء صغارها، تأخذهم وقت كل صلاة إلى الكنيسة، تتركهم للقس مينا جبرائيل ليرعاهم رعي الخراف.

أما زوجها، كامل عبد المسيح، يعود إلى عمله بعد غياب أسابيع يعاني فيها الهوان، ولولا إدراكه بأن سقوطه سيعني هلاك صغاره لسقط. يعتبر تريزة قد ماتت في حادث، يرتاح إلى هذا التفسير ويتعامل معه على أنه حقيقة ومع الأيام يصدقه، حادث أليم بالفعل أخذ ابنته تريزة ولم يعد لها وجود على وجه الأرض، الموجودة فتاة أخرى تشبهها تدعي فاطمة لا نعلم عنها شيئًا.

لكن ثمة رابطة، يغض عنها الطرف، تربطه هو كامل عبدالمسيح بابنته المسلمة فاطمة. إنها رابطة الدم.

■■■

Scanned with CamScanner

(37)

الاحتواء

سمير..

لم أنم نومًا هادئًا في ليلتي تلك، كنتُ أقاوم رغبات الاحتواء، لا أريد اغتصاب إيمان، أريدها برغبتها الكاملة، أنعم بمس يديها على صدري، أنفاسها الدافئة تتخلل أنفاسي. بذلتُ الكثير حتى تكون معي في بيت واحد، الآن هي معي وتحت يدي ولا أستطيع نيلها!!

لم نصل إلى تلك اللحظة بسهولة، الكثير من العقبات كانت مجتمعة في طريقي، وإن كان للقدر يد ساعدتَ كثيرًا في تحقيق حلمي، إلا أنني عانيتُ.

أتذكر يوم أن عرفتُ أين تعيش، كنتُ أشعر بأني اقتربت منها. رغبتُ قدماي أن تسير نحوها، وقفتُ متسمرًا في مكاني أفكر بعنف، يجب أن أهدأ قليلًا، إن رآني عادل هذا سيعرفني، إن كانت بداخلي رغبات رؤيتها والاقتراب منها، فيوجد بداخلي أيضًا قناعة بأن ذلك أمرًا يبدو جنونيًا، أمر لا يمكن الانطلاق فيه، نفضتُ رأسي وسرتُ في طريقي إلى منزلي، قررتُ أن أعود إلى حياتي التي اعتدتُ عليها، أنسى تلك الترهات.

بعد لحظات تعتمل بداخلي تيران حقيقية، تخيلي أنها مع المدعو عادل، تنام في أحضانه، يحتويها، ينعم في جنتها، يرتع في حدائقها، يقطف من ثمارها ما يحلو له، يرتشف رحيقها، تتحول تلك التفاصيل إلى بحر عميق بلا قاع أغوص بداخله.

تذهب تلك المشاهد المتتالية بما تبقى لي من قوة إدراك، لم أشعر إلى أين قادتني قدماي، فجأة كمن يفيق من غيبوبة، أجدني أقف أمام البناية التي يقطنون فيها.

علمتُ من أحد ساكني العقار المجاور، وهو على نفس تصميم البناية التي يسكنون فيها، أن الشقة رقم 14 هي الشقة الأولى في الطابق الرابع، يا لي من إنسان محظوظ، تلك الشرفة التي تحتوى على زهور ونباتات رائعة هي شرفتها، مؤكد أن تلك هي زهورها ورياحينها، تعيش الفراشات بين الزهور وعلى أوراقها المخملية تلهو. بالقرب وفي موقع متميز يوجد مقهى مزدحم، اخترت مكانًا يتيح لي رؤية شرفتها بوضوح.

جلستُ أقضم أظفاري حتى يأتي نادل المقهى بالشيشة المطعم حشوها بنكهة اللبان مع شاي فتله. تمر اللحظات ثقيلة والشرفة مغلقة، أسحب أنفاسًا متلاحقة وأنفث دخانها الكثيف صانعًا على وجهي ساترًا هلاميًا.

نظرتُ إلى المكان من حولي، أتأمل الوجوه المحيطة، سألتُ نفسي مرات ومرات: أين أنا ولماذا أجلس هكذا؟! لا أعلم ماذا أفعل هنا، وعلى أي شيء مُقدم أنا؟! لكني لم أجد بداخلي أي رغبة في ترك مكاني، استسلمتُ إلى الأمر الواقع وتابعتُ شرفتها. ليفعل بي القدر ما يراه.

Scanned with CamScanner

بعد مرور نصف الساعة تقريبًا، فُتحت الشرفة وتظهر هي، ترتدي ملابس بسيطة، تنحني بهدوء على سور البلكون الحديدي، أسود اللون ينسج شبكة يظهر من خلفها أجزاء من ثوبها الأحمر القاني. تقف كنسمة رقيقة تتابع حركة الشارع لحظات، ثم تبتلعها شقتها مرة أخرى.

لم تظهر خلال الساعة التي جلستُ فيها متابعًا، أترك المقهى نافحًا نادلها بقشيشًا جعله يفغر فاهه ويتبعني لمسافة مترات وهو يؤكد على انتظاره لي في الغد وأن المقهى في خدمتي في أي وقت.

في الأيام التالية أصبح لدي جدول أتحرك وفقا له، أتوجه إلى عملي مشغول البال بها، أمضي أوقاتي منتظرًا نهاية الشيفت بنفاد صبر، ثم أسرع الخطى إلى المقهى، أكاد أصل إليه هرولة حتى أدنو منه فأتصنع الهدوء والسير بلامبالاة حتى يتلقفني النادل الذي يأتي بمشروبي المفضل والشيشة المخصوص، أجلس متابعا شرفتها أتلمس منحة أشاهدها خلالها، أطفئ ظمأي وأرتوي حتى غدي.

و هكذا سارت بي حياتي حتى يوم خرج بها زوجها وهي تستند على كتفه وتتألم بشدة، تبعتهم. يتوجه بها إلى مستشفى الولادة. وضعت طفلًا علمت من الممرضة ذلك وأنهم أسمياه باسم. شاركتهم ألمهم وفرحتهم من بعيد، دخلت غرفتها في زي عامل تابع لشركة النظافة المتعاقدة مع المستشفى، بذلت مجهودًا لأنال منها لحظات ونظرات، احتويتها وطفلها بروحي وباركت لها، أشارت لي بأن أقترب منها، سقط قلبي بين أضلعي، اقتربتُ تكاد قدماي لا تحملاني، مدت يدها بشيء أتت به من أسفل وسادتها ونفحتني إياه، مددتُ يدي وتناولت منها الورقة المالية محاولًا أن تمس يدها يدي، وقد كان. تسرى حلاوتها كوميض

أبيض شفاف إلى يدي ومنها إلى جسدي، خرجتُ من الغرفة كما التائه، خدر لذيذ يحتويني لأيام.

قررتُ أن أسير على نفس تفاصيل جدولي حتى تأتي الفرصة التي تقربني منها، كنت على يقين من أنها آتية ولا ريب، وفي القريب. على هذا الأمل أعيش. لكني لم أكن أتخيل أن هذا الانتظار سيطول لمدة تقارب الأعوام الثلاثة ولم أكن أعلم أنني سوف أجد نفسي أعبر هذه الطرق وتلك البوابات التي لا عدد ولانهاية لها في متاهات الحياة التي لا نهاية لها.

تفاصيل وأحداث كثيرة لم أتخيلني فيها ذات يوم، لكني مررتُ وها هي نائمة في الغرفة المجاورة لي، في شقتي الخاصة، يفصلني عنها جدار وباب، لكني أشعر بها بعيدة عني، مستقرة في آخر الكون.

هل ستظل هكذا؟ هل سأقنع أنا بهذا الوضع؟.. لا أحسب ذلك.

■■■

Scanned with CamScanner

(38)

المخدوع

حاتم فكري..

تستقر الأوضاع في الأيام التالية، لم لا وقد حققنا نصرًا عظيمًا. لم يجرؤ أحدهم على التفوه ولو بكلمة واحدة في أمر يخص فاطمة، زوجتي المسلمة.

كان لابد من التصدي لهم بأي شكل، فإن نجح القس جبرائيل في مسعاه، واستطاع هو وأعوانه استعادة فاطمة إلى المسيحية مرة أخرى، لأُغلق الباب أمام كل مَن يرق قلبه للإيمان بالواحد القهار، بل سيزيد أمرهم ويطلبون ما هو أكثر من ذلك تحت مسميات عدة كالحقوق والمساواة وغير ذلك من الأكليشيهات المحفوظة.

أيضًا لم نكن، الشيخ شوقي وأنا وجماعتنا، لنرتضي الهزيمة بأي حال، فقد هُزمنا سنوات طوال، وتلك الأزمة هي واحدة من سلسلة أزمات أو إن أردنا الدقة مناوشات، يختبر فيها كل طرف الآخر استشرافًا لمستقبل يراه البعض غامضًا.

هو مستقبلنا بعد أن أمسكنا بزمام الأمور وجلسنا على سدة حكم البلاد وبدأنا نحتل مفاصلها، لذا كان علينا التصدي بكل ما أوتينا من قوة وإن تطلب الأمر واستخرجنا ما ندخره من أسلحة ثقيلة لفعلنا.

و قد كان وانتصرنا، وإن كان لكل نصر خسائر وضحايا، لكننا اليوم أمام خسائر نستطيع تعويضها، أما الضحايا فهم شهداء في جنات الخلد، وأما ذويهم فقد استطعنا تدبير راتب شهري، يساعدهم على تخطي عقبات الحياة، مع توفير فرص عمل لبعض أولادهم.

تعود عجلة الحياة إلى دورتها الطبيعية، وإن كنتُ لا أنسى تلك الحكمة التي علمني إياها شيخي شوقي فهيم، وأعني إساءة الظن وألا أتعامل بالحسني، لذا استعنتُ بحراسة مشددة، لي ولبيتي، منعت زوجتيَّ من الخروج إلا تحت أعين البودي جارد.

تهتمّ أمل بشئون المنزل، نادرًا ما كانت تخرج لزيارة والديها. أما فاطمة فكانت تؤثر البقاء في حجرتها لساعات طويلة، لا تخرج إلا نادرًا بصحبة أمل لحضور الدروس الدينية في المسجد والتي يلقيها عليهم فضيلة الشيخ شوقي.

الحقيقة أني وجدتُ فاطمة وقد تغيرت كثيرًا بعد تلك الأحداث التي مررنا بها جميعًا وهذا أمر طبيعي، لكنه طبيعي إلى حين، يجب أن تعود إلى طبيعتها كما عادت الحياة بأكملها إلى طبيعتها.

ما حدث كان غير ذلك تمامًا، فقد زاد صمتها وشرودها، نحل جسدها وإن زادها نحولها رقة، وخشوعها زادها جمالًا فوق جمالها.

كنتُ آتيها فأجدها مشغولة البال، شاردة، لا تصدر عنها حرارة وشبق أنثى في الشهور الأولى للزواج، حاولتُ أن أخرجها من صمتها كثيرًا،

Scanned with CamScanner

علمتُها أوضاعًا أكثر إثارة، أسمعتُها كلامًا يذيب الحجر، دسستُ لها منشطات جنسية في كوب اللبن الدافئ الذي تعده لها أمل يوميًا، لكنها كما هي.. شاردة..

حاولتُ مرارًا أن أصف حال فاطمة بكلمات موجزة أمام الشيخ شوقي، لكني فشلت، في النهاية وصفتها بأنها أصبحت كالماء لا طعم، لا رائحة. يضحك الشيخ شوقي وقد أحاطني بنظراته ذات المغزى، حتى إني تخيلته يغمز بعينه اليسرى وهو يقول:

– هي وألف غيرها سوف تراهم بنفس الشكل والمعني، طالما القلب مشغول.

تصاعدت الدماء إلى وجهي وباتت حرارتها شديدة في أذنيّ وأنا أغض بصري، لقد عراني شيخي ولم أكن أود أن أعترف بذلك حتى لنفسي. لقد شغلتني فاطمة والأحداث التي صاحبتها عن فتاة أخرى تستقر في قلبي ولا أدري لماذا؟

لو زجرني شيخي، لو وبخني ونهاني لانتهيت، لكنه منذ اليوم الأول شجعني وطلب مني إشباع رغباتي الدنيوية حتى لا تتحكم في تصرفاتي بشكل عام.

لا أعلم لماذا أشعر باستمرار وأنا أجالس الشيخ شوقي بوجود ثالث يراقبنا، أسمع أنفاسه وأشعر بسخونتها تتسلل نحوي منبعثة من خلف الشيخ شوقي ومن جانبيه، كلما زادت سخونة تلك الأنفاس وعلا فحيحها، زاد تألق شيخي وخرجت أفكاره العبقرية إلى الوجود، نستقي منها وننفذها.

تركته وانصرفت ولا تزال السخونة تمسني وصوته يرن في أذني، لا أجد مفرًا من التفكير في إيمان، صورتها لا تفارق خيالي لحظة، خاصة بعد انشغال أمل وفاطمة عني، وكأنهما وليفان التقيا بعد سنوات فرقة. في البداية كنت قلقًا من تجمعهما وانشغالهما عني، لكني عدتُ إلى إيمان بتفكيري ومشاعري الكاملة فحمدت الله على انشغالهما ببعضهما.

مرت فترة طويلة وأنا أنازع رغبتي، من بعيد أراقبها عن طريق أتباعي، يخبروني بأن إيمان لا تغادر بيتها إلا نادرًا بسبب رعايتها لطفليها الصغار، ثمة سبب أخر هو استقرار زوجها في المنزل كثيرًا بعد انهيار السياحة بعد الثورة، وكانت تلك فرصتي الوحيدة للتوغل داخل هذه الأسرة وتحقيق مأربي.

عن طريق بعض رجالي يستطيع أحدهم أن يعرض على عادل، زوج إيمان، العمل عندي في شركتي، كنت على استعداد لدفع أي مبلغ له حتى يعمل عندي ويكون تحت عيني، لكني آثرت أن يكون الراتب أعلى قليلًا مما هو متعارف عليه كي لا يُقاوم ولا يلفت الأنظار أيضًا. ولم يكن، لظروفه، أن يرفض عملًا في شركة كبرى كشركتي، خاصة بعد أن نجحت دعوتنا والتف الناس حولنا وازدهرت مشروعاتنا ونمت وتكاثرت.

على الجانب الآخر كان شخص مثل عادل يعاني لدرجة صَعُب معها أن تستمر طفلته في نفس المستوى التعليمي الذي ألحقها به، لذا وافق على العمل عندي.

وبدأ العمل.

Scanned with CamScanner

لـن يكون عـادل وأمثاله، ممن يؤكد تاريخهم أنهـم بعيدون كل البعد عـن الدعوة وعن الدين كلية، لن يكونوا مـن الأمناء المخلصين لنا نحن أصحاب الدعوة والهداية، لذا لزم عليَّ الحرص وأن تكون وظيفته بعيدة عن مناطق أسراري، تلك المنطقة التي لا يدخل إليها إلا أصحاب الولاء والطاعة فقط.

من مناطق أسـراري الكثيـرة، المصنع، فلا يدخـل العنابر إلا من أثق فيهم ثقة بشـكل كبيـر وأعلم أن حياتهـم معلقة بعملهـم وحفاظهم عليه مهمـا كان هذا العمل. والمنطقة الثانية تلك التي تخصني بشـكل مباشـر أنا والشـيخ شـوقي وعدد قليل جدًّا من الأفاضل وهـي تختص بالتجهيز والإعداد وصفقات السلاح وتخزينها وهذه سرية للغاية.

قـررتُ أن أترك عادل في عمله بعيدًا عني لمدة ثلاث شـهور وبعدها أقابله صدفة كأي موظف في الشـركة، ثم أثني على بعض أفعاله ومن ثم أبـدأ في تقريبه منـي بهدوء، بعدها أتقـرب من عائلته، الخطـوات التالية ستكون أسهل ما في الأمر.

لكـن ما حـدث من مفاجآت رهيبة بعد ذلك، كان بعيدًا كل البعد عما رسمته وعما تخيلته.

■■■

(39)
الكشف

فاطمة..

الحقيقة المسـتقرة في قلبـي أن الفتاة عندما تنتقل إلـى حياة الزوجية تتغيـر حياتها بالفعل، تمارس ما كانت تتمناه وتعشـقه وهو محرم عليها، لا تتـاح لها ممارسـته إلا بالزواج، تلـك التفاصيل المنتظرة لها سـحرها الخاص وتضفى على الفتيات سمات خاصة.

لكن لم تأتي الأيام، التي تلت زواجي، بجديد في حياتي مما سمعت عنه من قبل وكنتُ أنتظره بقلب شغوف.

الحقيقة أنني انتقلت لأمر أعظم وأسمى من الزواج وملذاته، المذاق الأكثر حلاوة يطغى على أي مذاق آخر. كيف لي أن أشعر بلذات الزواج الدنيوية وأنا أنعم بذلك الحب الإلهى العظيم؟! متى يشعر المتخم الشَبِع بلذة طعام؟! اللهم إلا اقل القليل. وهذا ما كان يثر بهجته عليّ، ينسـيني ما مررت به من صعاب وما ينتظرني من مستقبل لا يعلمه إلا ربي.

في حياتنا أمور نراها عظيمة، نشعر بها روحانية ذات صفات لا حدود لها، فإذا ما اقتربنا منها، رأيناها عن قرب، تحسسنا تفاصيلها، قلت رغباتنا تجاهها، تتضاءل دهشتنا بها. تلك كانت علاقتى بحاتم.

Scanned with CamScanner

احتواء حاتم لي، انتظرته روحاني فإذا به احتواء شهوة لا أكثر، هبط درجات كثيرة عن تلك التي كنت أنتظرها في أحلامي. صدمتي تلك هبطت بي درجات، أثارت بداخلي بغضًا وحنقًا، لكني كبتُّ تلك الأحاسيس لانشغالي بتفاصيل ديني وخشوعي.

تخبرني أمل بأن عليّ واجبات لابد من أن أؤديها، أولى هذه الواجبات أن أكون طوع أمره، فراش متاع وقتما يشاء، فكنت جسدًا للمتعة.

هناك أمر آخر أحسب أنه كان سببًا في تلك الحالة التي وصلتُ إليها، نظرات أمل نحوي. كانت حنونًا لأقصى درجة، ملأتْ ذلك الفراغ الذي تركته أمي وصديقاتي، كانت ملاذي ومعلمي في أرضي الجديدة، كيف لي بعد ذلك أن آخذ منها زوجها!! إن كانت نظراتها نحوي نظرات عطف وشفقة، فهي في الحقيقة تُزيد شعوري نحوها بالذنب. حدثتها ذات يوم بما يجول في داخلي، أطالت نظرتها حتى احتضنتني ويدها تحتوي كفي بحنانها الطاغي ثم قالت:

– على فكره يا فاطمة.. لقد أرسلكِ الله طوق نجاة لي.. أنتِ أنقذتيني من الدوامة التي أغرق فيها.

نظرتُ نحوها مستفهمة، تضغط على يدي وهي تكمل:

– هذه حقيقة يا فاطمة.. أنا كنت أعيش أيام صعبه جدًّا.. أنتِ لم تأخذي مني حاتم.

تصمت لحظات وكأنها تقاوم رغبة داخلية في البكاء أو إطلاق آهة ألم، تزفر بضيق وهي تقول:

– حاتم مأخوذ قبل أن يعرفك.. وحتى اليوم هو مشغول البال.

– مشغول البال.. بمَن؟!

– لا أعلم.. وعلى فكرة.. ولكِ أن تندهشي من كلماتي.. لا أريد أن أعلم.. لم تعد بداخلي رغبة لمعرفة كل شيء عنه، أو أحتويه مثل كل زوجه تحتوي زوجها.

دهشتي من كلامها كانت أكبر من أن تعبر عنها الكلمات، يغلفني صمتي وذهولي، تشرد أمل برهة قبل أن تنهي حديثها قائلة:

– مصلحة حاتم دائما فوق كل شيء.

تركتني وقد شعرتُ بها تغالب دموعها، تبعتها بقلبي وهي تدلف حجرتها وتنهار فوق سريرها باكية، تتألم ما لا أعلمه وإن كنت أستشعره، مؤكد أنها كانت تتمني حياة لم تجدها على الإطلاق، فهل أجدها أنا؟!

دموعها زيتًا زاد نيراني الدفينة، تبعتها واحتويتها كما كانت تحتويني، هدأتُ من روعها، بكت على صدري كثيرًا حتى إنها لم تجد قدرة على تحمل شهقاتها المتتابعة كموجات متلاطمة فخرجت كلماتها متناثرة الحروف. طال صمتنا وأنيننا، حتى ذهبنا في نوم لا طعم له ولا راحة فيه.

لا أعلم كم من الوقت أخذتنا هذه السِنة من النوم، لكني استيقظت بشكل غريب ومفاجئ، استيقظت وعلى وجهي علامات راحة وهدوء يتنافى تمامًا مع ما كنا فيه مذ برهة. ألفيتني طائرة على وسائد العشق الإلهي، شيء ما أيقظني، توجهت لأتوضأ وبدأت أصلي ساهمة مبتسمة، تحتويني سجادة الصلاة المزخرفة بنقوش وألوان زاهية وفي منتصفها العلوي صورة الكعبة المشرفة مغزولة بدقة رائعة، على أطراف السجادة أعمدة متراصة في تناسق هادئ مع تداخل لعدد من الطيور المتناثرة في أعلاها، تشدو معها روحي، تحلق في فضاء المكان حتى إنني رأيتها في لحظات تطوف حول الكعبة بين جموع البشر ممن كنت أشاهدهم

Scanned with CamScanner

على شاشات التلفزيون. يخرجني من شرودي الرائع صوت فتح الباب، لقد عاد حاتم من الخارج. لم أوليه أي اهتمام، لا في هذا الوقت ولا مستقبلا. يتركني حاتم وينطلق في سبيله محققًا نصرًا تلو الآخر، يتنقل بين أقرانه إلى درجات أعلى.

أتاه يوما اتصال تليفوني قبيل آذان الفجر بقليل. كان يغط في نومه، يعاني جسده ضربات النهار الموجعة. الحقيقة أنه بالفعل يعمل كثيرًا، لا يترك عملًا إلا وينفذه بيده قدر المستطاع، صفقاته لا تنتهي، بحثه عن الربح يفرض نفسه باستمرار، إنه من تلك النوعية التي لا تعرف الفشل، وإن حدثت له كبوة قام منها سريعًا منتفضًا كجواد شرس ليصهل ويُطلق ساقيه للريح مرة أخرى، يطلقها بجنون كي يُعوض خسارته.

أتاه الاتصال، يستيقظ متكاسلًا متثائبًا حتى يشاهد اسم المتصل، فإذا به يستيقظ دفعة واحدة معيرًا المتحدث كل حواسه، وكأنه نسيَ وجودي إلى جواره، أو لعله توهم أني مستغرقة في نومي، فقد أجاب بكلمات مقتضبة ثم انطلق يقول:

– أخزن هذه الكمية في مصنعي؟! كيف يا مولانا، والعمال؟ (يصمت لحظات ثم يتحدث) الصناديق الموجودة صغيرة ولاتثير شكوكًا، أما الصفقة الجديدة.. المشكلة في العمال..... تعم.. هناك أماكن في المصنع لا يدخلها أحد.. أبوه مخازن.. حاضر يا مولانا.. اللي تؤمر به.. غدًا بإذن الله تعالى وعونه بعد منتصف الليل أكون موجودًا هناك وحدي، أفتح البوابه للإخوة ونخزن السلاح.. وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته.

أغمضتُ عيني وكأني أقول له أنا بالفعل نائمة فلا تخشاني، شعرتُ بنظراته تمسني وتبحث عن دلائل يقظتي، بعدها يتنهد ويستغفر ويتمتم بكلمات مبهمة ثم يخرج متوجهًا إلى الحمام ليتوضأ قبل أن ينزل ليصلى الفجر في المسجد.

لحظات رهيبة عشتها، أي سلاح ولماذا يقومون بتخزينه؟!

و كأني كائن هلامي تحيط به غلالة تحجب الرؤية الحقيقية!! لم أكن أعلم أن حاتم عضوًا في تنظيم ما، ما علمته من أمل ومن خلال الدروس الدينية التي حضرتها معها وفيها تعرفت بالكثير من الأخوات، علمت أنهن عضوات عاملات في إحدي الجماعات الإسلامية، لم أهتم ولم أجد في ذلك ما يشين، كنت أعلم أيضًا أن حاتم يشترك معهم من أحاديثه مع أمل ومكالماته التليفونية، أما الآن وبعد هذه المكالمة الهاتفية علمتُ أنه عضوٌ في تنظيم يتاجر في السلاح أو على الأقل يقوم بتخزينة لاستخدامه في أمر ما.

كانت دهشتي، وقت أزمتي ومعركة إعادتي إلى المسيحية، من هذا الكم من السلاح الذي تم استخدامه، والقتلى الذين سقطوا ولكني لم أتخيل مطلقًا ان يكون لحاتم يدٌ في ذلك، كنت أقول أن طبيعة الحدث أجبرت المتصارعين على الإتيان بتلك الأسلحة، أما وقد استمعت لما استمعت له اليوم، فإن الأمر إذًا له أبعاد أخرى.

في الأيام التالية تجاهلتُ حاتم أكثر. لم يلاحظ أو لم يهتم، يتركني وينطلق خلف أعماله وشروده الذي نبهتني له أمل.

فيما كان شروده..؟

Scanned with CamScanner

تحدثنا كثيرًا في هذا الأمر، أنا وأمل، لم أخبرها بمهاتفة الفجر الخاصة بتخزين السلاح، فهى لم تكن سببًا في شروده، في مهاتفته تلك كان يتحدث عن الأسلحة بشكل آلى، لم يكن يزعجه وجودها، فهو أمر بدا بديهيًا، إنما أزعجه تخزينها في المصنع فقط.

بحثنا عن أسباب شروده، تقول أمل بعد فترة صمت:

- يجب أن نتحرك يا فاطمة، هناك فتاة ثانية في حياته و..

قاطعتها بلا مبالاة وكأن الأمر لا يعنيني:

- تقصدين ثالثة يا أمل.

تنظر نحوى صامته ولم تعقب، إنها تدرك أن وجودي في حياة حاتم مرتبط بموقف وليس عن مشاعر حقيقية.

كنت كمن يبحث عن طوق نجاة أيًا كان هذا الطوق. أبحث عن طوقى لأعيش حياتى ويبحث هو عن نصر جديد، تلاقت أهدافنا فكان الزواج.

لكنني كنتُ زوجة لن تهتم أو تغتم يومًا إن تركها زوجها ونظر نحو إنسانة أخرى أو تزوج بها. لكن طبيعي أن يُقلق ذلك «أمل» وطبيعي أن تستشعره، إنها تعرف طباع حاتم وتعرف كيف يفكر.

بعد لحظات صمت، تناولت فيها أمل كوب الشاى الأخضر بالنعناع الذي تفضله من فوق المنضدة وتحتسيه على دفعات متتالية، فقد برد وسَهُل احتساؤه، تتأملني قبل أن تقول:

- أعلم أن حاتم سيئ الطباع.. أقصد تلك التي تخص علاقتنا، لكنه رجل يعرف الله حق معرفة، يحافظ على فروضه ويسير في طريق الخير.

تذكرت مهاتفة السلاح وكتمتُ دهشتى في داخلي، لم تكن قناعتى بفساد طريقته بأقل من قناعتها بإيمانه، تخوفتُ من أن تفشى الأمر وإن كان على سبيل المعاتبة لحاتم. واضح جدًا أنه له عالمه الخاص الذي لا تعلم أمل عنه شيئًا، فلتظل على جهلها حتى يأذن ربي.

بعيون دامعة سألتُ ربي الأمان، أعيش بين صفحات حياتى الجديدة أرتشف منها ما يحلو لي. أستقر في حجرتى وأغلق عليّ بابي.

تتسم حركة الحياة في الشهور التالية بالبطء الشديد، إلا من خلوتى بذاتى، كانت تلك اللحظات تمثل نقاءًا وصفاءًا، سعادتى الكبرى بتلك الخلوة هي التي تعوضني عن كآبة باقي أجزاء الصورة، أحلق في خلوتي تلك في فضاء الكون، بلا أجنحة، أنصت إلى كلمات بلا صوت، وكأنها وحي العشق يأتيني ليدفع عني كل سوء، يلقي في قلبي محبة وراحة مداها كما الأفق، يتزايد تعلقي بخالقي، رغبتي في اللقاء الأبدي تتزايد كلما هبط وحي العشق.. وكثير ما هبط، واقترب اللقاء الأبدي، لكني لم أكن لأعي ذلك.

تتكاثر الهموم على قلبي وقتما أتذكر أمى وأبي وشقيقاتى وخاصة نورا، أفتقدهم بشكل كبير. أكثر الفقد تأثيرًا في النفس هو فقد شخص قريب إلى قلبك، شخص ترى أفعاله بعد الفقد، مهما كانت، عظيمة تقارب أبطال الأساطير.

تبدو أمامى ابتسامة أبي الوليدة التي يوارى بها آلام الدهر والعجز، شقاء لا نهاية له كي يوفر لقيمات وملابس لأولاده، مسئوليات لها نصل حاد كحد الموسى، مهام لصيقة به لم يهرب منها يوما، حتى بعد أن تركتُ المنزل، بذلوا المستحيل لاحتوائى مرة أخرى، رغم المأساة

Scanned with CamScanner

التي صاحبت معرفتهم بحياتي الجديدة، ونظرات الفقد التي رنا بها والدي نحوي، وحركة يده لحظة رحيله وهو ينفضها في الهواء وكأنه يزيح بها همومًا ثقيلة عن كاهله، ورغم القتلى، وتهديد ووعيد القس مينا جبرائيل، رغم ذلك لم أنقم على أحدهم، كنت أحبهم بكل خلاياي ولن ينزع حبهم من قلبي شيء، أشعر بأن محبتهم لصيقة بمحبتي لربي، شقان لا ينفصمان. أستخرج بعض الصور التي تجمع أفراد أسرتي على تليفوني وأظل أنظر فيها بالساعات.

شاردة أتذكر أدق تفاصيل حياتي الماضية، عودتي من المدرسة ومن بعدها الجامعة، تتلقاني أمي بابتسامتها الممزوجة بأنهار من الحب والحنين، رائحة طعامها الشهي تتلقفني جَوَعَى منذ لحظة دخولي إلى المنزل، أضع حقيبتي أو أجندة محاضراتي وأتوجه نحو المطبخ لأستكشف الطعام وأتذوقه وأنا أعلق برشاقتي التي كانت تضفي على أمي سعادة ألحظها تنبت على خلايا وجهها الصامت، أقول:

- تقدمتي يا أمي وأصبحتِ تجدين الطهي.

تسحب من يدي الملعقة أو الشوكة برفق وتقول:

- استبدلي ثوبك حتى أجهز الطعام.. وبحين موعد عودة والدك، نجتمع كلنا ونأكل يا ابنتي.

كوب الشاي الخفيف المحلى بالسكر والقرنفل، رائحته لا تزال في أنفي حتى اليوم. رائحة ملابسي وأمي تعود بها من على حبل الغسيل وتقوم بتطبيقها ورصها في دولابي، رائحة بقايا مسحوق الغسيل، نعومة الملابس على جسدي وأنا أرتديها لطيفة بعد يوم دراسي شاق. قدماي بعد تحررها من الحذاء وقد غمرتُها في الماء البارد، أفرك جوار اصبعي

الأصغر فأتنشى ولا أعلم لماذا؟! لحظة مرور كف نورا الصغيرة على وجنتي توقظني.

تفاصيل كثيرة مهما كانت صغيرة، أفتقدها اليوم، أشعر بحنين نحوها، حنين لا يُخرجني من أسره غير صلاتي ومناجاتي لربي.

صُعقت، في اليوم الذي ظهرت فيه الحقيقة كاملة أمامي، يوم أن أتتني أمل يوسف مرتاعة وقد ظلت تحرك يدها في الهواء بعصبية شديدة.

ثمة نوعية من الناس تجد في نفسها، وإن كان ذلك على غير إرادة منها، أنهم أوصياء على الآخرين، يوجهونهم إلى ذلك الاتجاه ويمنعونهم من السير في آخر، يعلقون على سلوكياتهم سلبًا أو إيجابًا، في كثير من الأحيان ينتقدون أفعالهم بقوة تصل إلى حد تطبيق الحدود التي يرونها مناسبة وكأنهم يد الله على الأرض، ينبع ذلك كله إما من غيرتهم على دينهم، أو من رغبة داخلية للسيطرة، وهنا يُقنع نفسه بأنه ما يفعل ذلك إلا لغيرته على دينه، ومؤكد أن «الجهلة» سوف يدركون خطأهم يوم يعرضون فيه أمام خالق الكون عز وجل. لا أعلم من أين أتاهم هذا اليقين بصوابهم وبجهل الآخرين. الغريب أن ذلك اليقين يعطيهم قوة غير عادية وإصرارًا لا حدود له فيحققون ما يريدون، مهما كان ذلك بعيدًا عن جادة الصواب.

عمومًا تتفاوت درجات الوصاية وفقًا لدرجات الفهم لطبيعة العلاقة بين الإنسان وخالقه، وقليل مَن يفهم ذلك.

أمل يوسف كانت من فئة الأوصياء. لكن تلك الوصاية كانت مكبلة بظروف معيشتها. وضعها الاجتماعي لم يضعها في موقع تستطيع فيه إظهار رغباتها الكاملة. كانت ترى في نفسها أنها غيورة على دينها ولم

Scanned with CamScanner

يخطر على بالها ذات يوم أنها تقوم بالوصاية على أحد. وإن كنتُ أتابع غيرتها تلك ولا أجد لكثير منها مبررًا، فقد فاقت الحد.

للإنصاف، غيرة أمل يوسف لم تكن نابعة من رغبة في السيطرة وفرض الذات بقدر ما كانت نابعة من إيمان وعقيدة راسخة وحب لدينها الإسلامي، كل ما تفعله هو خطوات على طريق الإيمان بالله لنيل رحمته ودخول جنته، من ذلك رد فعلها يوم أتيتها وتزوجني زوجها، إن كانت أخرى لهاجت وثارت ثائرتها، لكنها تلقفتني كنصر إسلامي جديد ولست كسيدة تشاركها زوجها. أما لماذا كانت غيرتها تصل إلى حد الوصاية فذلك لأنها، وهذا ينطبق على حاتم وشوقي ومينا جبرائيل، لم تقنع بأن الله خلقنا وخلق معنا الحرية التي تكفل لنا القدرة على الاختيار بلا وصاية من أحد، حتى الأنبياء ليسوا بأوصياء على بني البشر.

في ذلك اليوم الذي أتتني فيه مسرعة قائلة:

- فاطمة.. عرفتُ مَن هي التي تشغل بال حاتم.

نظرتُ نحوها بهدوء، حقيقةً لم يكن يعنيني بالقدر الذي قد يتخيله البعض، لأن لا شيء في حياتي بات يجذبني. لم تعد لرغباتي تلك السيطرة المعهودة بين بني البشر، زهدتُ في كل شيء، كنتُ أشعر بكل شيء وأراه ولا أرغبه، غير شغوفة بشيء إلا بصلاتي وخلوتي، تلك كانت غايتي.

لذا لم أكن لأهتم بما يشغل بال حاتم فكري، فليذهب حاتم ويتزوج بمن يريد، ثالثة ورابعة وإن أراد أكثر من ذلك فليطلق مَن أراد ويستبدلها بأخرى كما يفعل الكثير من فتنه التي إليها ينتمي.

قالت أمل:

- سمعته يتكلم في التليفون ويقول: أنا لن أنتظر أكثر من هذا.. لتقلبوا الأرض وتعودون لي بإيمان.. و.. أولادها.

إن كانت ذكرت اسم «إيمان» ثم صمتت، كان الأمر عاديًا جدًّا، لكنها عندما أكملت وقالت «وأولادها» بدأت تجذب اهتمامي، نفضتُ رأسي كمن يهيل عنها أسمال بالية لا يجمعها رابط. نظرتُ نحوها أحثها على الحديث، فقالت بحروف منكسرة كمن يتحدث عن ذنب اقترفه مجبرًا:

- و أكمل كلامه يا فاطمة.. ويا ليتني كنت مت وما سمعت هذا الكلام.

من بين صمتها ونيرانها المستعرة انهمرت دموعها، لم تستطع التماسك والسيطرة على مشاعرها فنشجت نشيجًا موجعًا، تألمت من أجلها ومما تخشى الإفصاح به، وقفتُ واحتويتها بين ذراعيَّ متسائلة:

- إهدأي يا أمل وأخبريني.. ماذا حدث؟ مَن إيمان وأولادها؟ وماذا قال حاتم؟

بعد لحظات استطاعت فيها أن تجتر السكينة، قالت:

- و اقتلوا زوجها.

أطلقتْ أمل جملتها الأخيرة وانهارت تمامًا، لاسيما بعد أن شهقتُ فزعًا من هول ما سمعت. يطبق علينا الصمت مدة طويلة، لا ندري عن أي شيء نتحدث، كنا كعاجزتين عن الحركة ترغبان في قطع طريق طويل لضمان السلامة، كنا كعصفورين في الهواء بلا أجنحة. جلسنا تتنازعنا الأفكار، تنظر إحدانا إلى الأخرى ولا تجد كلمة. تمزقني أفكاري وتأخذني التساؤلات، أي حياة أعيشها، وعلى أي شاطئ قذفتني الأمواج؟

Scanned with CamScanner

تنظر أمل نحوى وعلى ملامحها شفقة ورجاء، مؤكد أن كلاماتها التي لم تتفوه بها كانت:

- الإسلام لم يأمر بمثل هذا يا فاطمة.

أعلم يا أمل، أعلم أن هذا التصرف من حاتم لا علاقة له على الإطلاق بالإسلام، أنا مسلمة مثلك تمامًا وأشعر بحلاوة الإيمان ومتعة الاقتراب من خالقي. كلما ابتعدنا عن رغباتنا ونزواتنا، اقتربنا من الله الرحيم، وقتها يسقي تلك الرغبات والنزوات من أنهار الجنان ويجعلنا نتنسم عبيرها.

لم أكن أنتظر اعتذارًا من إيمان عما يرتكبه حاتم من جرائم.

نعم جرائم، يوم قُتل من قتل حال إعلان إسلامي كانت جرائم، صفقات الأسلحة جرائم، اللحوم الفاسدة التي يُصنع منها المواد الغذائية جرائم، والآن يرغب في سيدة وأولادها ويقتل زوجها!! قائمة طويلة من الجرائم. كنت أعلم محتويات القائمة منفردة، لكن ما أن تذكرتها مجتمعة حتى تملكتني حالة غريبة من التوتر والانفعال الذي يمزق قلبي.

أي رجل هذا الذي يحتويني؟ يضمني بين ذراعيه يرتشف رحيقي، صمتي وبرودة مشاعري حَسِبتُها عزوفًا عن ملاذ الدنيا، لكنها لم تكن كذلك أبدًا، كانت استشعارًا بشخصه، بأفكاره الثعبانية السامة، لم تكن آهاته وقت الاحتواء لذة، استرجعها الآن فأجدها فحيحًا كريهًا. نعم ثعبان أملس ناعم مزركش بألوان تخلب الأنظار، لكنه إن لدغ قتل.

مَن هي إيمان؟ ومَن هم أولادها؟ ومَن هو زوجها الذي يستعد لقتله؟

علامات استفهام تناقشنا فيها، أمل وأنا، تحدثنا كي نصل إلى حل حقيقي لتلك الأزمة الرهيبة، علينا إنقاذ هذه الأسرة. رغبتي في إنقاذها هي رغبتي في إنقاذ جل بني البشر وتوجيه أنظارهم وقلوبهم إلى بئر المحبة التي أرتوى منها على طول الطريق.

رغبة أمل في إنقاذهم كانت لتمزيق تلك الصورة البذيئة التي يسهم حاتم وأمثاله في رسمها عن ديننا الإسلامي.

أناس يخطئون، وبجرائمهم يتمتعون، وآخرون ضحايا وبهمومهم يتلاشون، وصنف ثالث يحمل مشقة إصلاح الأول وإنقاذ الثاني.. وثلاثتهم أشقياء.

اتفقنا على مراقبة حاتم جيدًا ومعرفة أي تفاصيل عن إيمان وأسرتها. يجب أن نتحرك بكل ما أوتينا من طاقة لانقاذهم. يحتوينا الأمل والإصرار، وإن كنا لا نمتلك أي معلومة، وهذا ما يتطلب منا مجهودا مضاعفًا خلال الأيام المقبلة.

■■■

Scanned with CamScanner

(40)
الخطـــة

حاتم فكري..

لقد أتت البداية سريعًا عكس ما كنت متوقعًا لها، يخبرني عادل بأن هناك عملاء يريدون عقد عدة صفقات فيها أرباح مضمونة، يُعمل دهائه طالبًا عمولته، قررتُ أن أعطيه ما يريد، لقد أتتني الفرصة التي كنت أنتظرها بلا عناء.

صباح يوم الصفقة، قررتُ أن أُقرب عادل مني حتى يمكنني التخلص منه بسهولة، هناك ألف طريقة متاحة لأجعله ينفصل عن إيمان، أولى هذه الطرق تبدأ بزراعة الشك في قلبه ناحيتها، وتنتهي بالقضاء عليه نهائيًا. وفي جميع الحالات يجب أن أكون أبعد الناس عن دائرة الشك. يتم ذلك بأن أجعله قريبا مني بشكل ملحوظ، يأمن لي تمامًا، يجب أن يلحظ الجميع ذلك الود بيننا، وقتها لن يتخيل أحد أني السبب فيما آلت إليه الأمور.

أن تكون قريبًا جدًّا من الحدث وصانعه، وفي نفس الوقت أبعد الأشخاص، نظرية بسيطة وقديمة ومُجربة كثيرًا وأنت أكلها. الغريب أنها، رغم انتشارها، بعيدة عن الأنظار. إنها إحدي نظريات الخداع

التي يتبعها كل كائن حي، ولا غرابة في أن نتغير وفقا لتلك الظروف التي تضعنا فيها يد القدر، الحرباء إن وضعت بين الزرع تلونت باللون الأخضر وإن وضعت في الصحراء تلونت باللون الأصفر.

في هذا الصباح حدثت أمور كثيرة وسريعة، يأتي العملاء، يتم الاتفاق المبدئي، ننتهي إلى تحديد موعد في اليوم التالي للتوقيع وتسليم المبالغ المتفق عليها، أودعهم حتى باب مكتبي. دقائق وأجد حركة غير عادية في المصنع وقوات من الشرطة والصحة وحماية المستهلك وغير ذلك. يسقط قلبي بين أضلعي، إنهم قد يصلون إلى مخزن السلاح، تلك الطامة الكبرى ولن أفلت منها أبدًا، لكن الله سلم. في دقائق كنت مقيد بالأغلال وملقى في غرفة الحجز في قسم الشرطة بتهمة استعمال مواد غذائية فاسدة.

خدعة تعرضت لها هدفها القضاء عليّ أنا. مَن صاحبها؟ عادل..!! عادل يخطط بمكر ودهاء ليوقع بي في نفس اليوم الذي بدأتُ فيه خطتي للقضاء عليه.

عموما الأمر بالنسبة لي، ولمن يقفون خلفي، مجرد عيار طائش لم يُصب ولكنه أثار ضوضاءً كنا في غني عنها. يعترف أحد الأتباع بتلاعبه بدون علمي، هو صاحب تلك الكميات الفاسدة، ينتهي الأمر سريعًا ويعود مصنعي لحالته الأولى. آفة الناس عندنا النسيان.

لكني لن أنسى إيمان ولن أنسى ما فعله عادل. زادتني لحظة تكبيلي بالأصفاد ودفعي إلى قسم الشرطة لاستكمال إجراءات التحقيق حقدًا ومرارة وغيظًا، لن يفلت المدعو عادل من قبضتي ولن يهنأ بعد اليوم

Scanned with CamScanner

بإيمان. كنت أشفق عليه وأبحث عن طريقة هادئة لابعاده، لكنه بدأ والبادئ أظلم.

نظرية تعلمتها من شيخي منذ فترة طويلة، لا تنتقم من عدوك وقت الأزمة، بل على العكس تمامًا، تقرب منه، أظهر للجميع بأنه لا أزمة، أنك سامحت والمسامح كريم، سوف تعلو في نظرهم، تسمو بأخلاقك الكريمة، تكسب أرضًا جديدة، سوف يحترمك الجميع ويقدرون عفوك رغم مقدرتك. تهدأ العاصفة ويسعي كل فرد خلف همومه، لكن أنت.. لديك همك الذي يؤرقك، إنه القضاء على عدوك، لتقضي عليه هادئًا مبتسمًا، أفكارك مرتبة لا انفعال ولا عجلة فيها، مؤكد أن النتيجة ستكون هي الأفضل.

انتظرت شهورًا تلو الأخرى، أظهرتُ للجميع أن عادل كان محقًا، أبديتُ استياءًا كبيرًا من هذا الشخص الذي استغل طيبتي وثقتي فيه وتلاعب في السلع الغذائية واستقدم الفاسد منها، لقد أساء إلى سمعتي وسمعة مصنعي، وأقل ما يستحقه ما هو فيه الآن من قضاء سنوات العقوبة في السجن. بل زاد الأمر أن طلبت من عادل العودة إلى العمل، يرفض الحضور، أعلم أنه سوف يرفض ولكني كنت أود أن أظهر للجميع حسن النية.

تمر الشهور التالية وأنا أدبر وأكيد كيدًا، عليّ مراعاة الحرص والتزام جانب الحذر الشديد، فأنا أريد أن أطلق لكمة واحدة تقضي على عادل وتسلمني إيمان.. وأولادها حتى لا تسقط عليهم حزنًا.

استخدمتُ، بكثير من الأموال، من يراقبهم على مدار الساعة. أخبروني أنهم سافروا إلى الاسكندرية، أحد رجالنا وهو الأخ وحيد

شحاته، وقد رشحه لي الشيخ شوقي فهيم لثقته فيه، تحدثتُ معه برغبتي في التخلص من عادل الذي خان الأمانة، وأبلغ عنا، وكانت الشرطة قاب قوسين أو أدني من مخزن السلاح الموجود في المصنع، لكن الله العلي القدير أعمى بصيرتهم واهتموا بشأن الأغذية الفاسدة.

تحدثتُ بذلك وفي النهاية أكدتُ عليه رغبتنا (استخدمت أسلوب الجمع كي أوحي إليه بأن ذلك مطلب من القيادات) في القضاء على عادل وحده أما زوجته وطفليه فنريد لهم السلامة، فهم أبرياء ويفضل أن يكونوا تحت أيدينا فقد نحتاجهم مستقبلًا في أي تفاوض إن حدث ولم يتم القضاء على عادل بشكل نهائي.

يُطلعني الأخ وحيد شحاته على خطته، قائلًا:

- المشكلة يا شيخ حاتم أنهم مع بعض ليل ونهار.

- طبعًا.. في هذه الظروف الأمنية، صعب يبتعد أحدهم عن الآخر.

كنت أود أن أخبره بأن من يعرف إيمان يصعب عليه فراقها مهما كانت الظروف. لكني أكملتُ:

- هذا غير أنه بلا عمل منذ أن ترك المصنع.

ينتظر وحيد لحظات وكأنه يصيغ خطته من جديد ثم يقول:

- سوف تكون حادثة عادية جدًا على الطريق.

أجبته بكلمات جافة شديدة اللهجة:

- أخبرتك بأنني لا أريد أن يلحق بزوجته أو أولاده أي ضرر.. نريدهم أحياء.

يقاطعني بسعادة وهو يشير بسبابته إلى رأسه دلالة عبقريته:

Scanned with CamScanner

– هنا الفن يا شيخ حاتم، عندنا ناس محترفة، وحيد شحاته دماغه تثاقل بالذهب، لا تقلق.

– أخبرني عما ستفعله بالضبط؟

– سيارتان يسيران خلف بعضهما، وفي منطقة محددة، يحدث تصادم بينهما بحيث يتم وقف حركة المرور كاملة على الطريق، في هذا التوقيت تكون هناك سيارة نقل كبيرة تسير خلف سيارة عادل ومَن معه.

– ثم؟

– ثم..؟!.. ثم يتم المطلوب يا مولانا.

ظهرت على ملامحي علامات الفزع، بينما يبتسم وحيد قائلًا:

– أخبرتك ألا تقلق.. وليست هذه المرة الأولى، المطلوب خمس دقائق يقف فيها الطريق حتى يتم التعامل مع سيارة عادل، بعدها تسير حركة المرور، السيارتان خاصتنا، أحدهم تقل عادل إلى المستشفى وفي طريقهم يتم تنفيذ المطلوب معه، والأخرى تقل زوجته وأولاده إلى المستشفى أمام الناس، أما الحقيقة تقلهم إلى مكان أمين.

رأيتها خطة تحتوى على الكثير من المجازفة، واحتمال إصابة إيمان كبير جدًّا، لكن إصرار الأخ وحيد وثقته جعلاني أصمت، ثم إنني كان لابد من كبت رغبتي في سلامة إيمان حتى لا أثير ريبته. وافقته على التنفيذ وأنا أسأل الله العلى القدير التوفيق.

الحقيقة أن هذه الخطة رغم خطورتها كانت تضمن لي، مع إيمان، مستقبلًا بعيدا عن الشكوك، فإذا توفى زوجها في حادث، فهذا أمر يحدث كل يوم، بل وهذا يُسهل من اقترابي منها بأي دافع، على العكس

إن قُتل. بالطبع أرملة المتوفى في حادث تختلف كثيرًا عن أرملة المقتول مع سبق الإصرار.

في اليوم الموعود، انتظرت في مكتبي، اكتوى بنيران القلق، ذاهل عن كل شيء حولي، لا أبعد ناظريَّ عن هاتفي، شعرتُ بأن هناك خيوطًا غير مرئية تربط بيني وبينه، تجذبني بعنف يكاد يفتك برأسي. تحدثت إليه بصوت مسموع: لماذا تصمت هكذا؟ وكأنه سمع جملتي وتدبرها لحظات ثم ينتفض رنينا، جذبته بشده، فإذا بالمتصل أمل زوجتي، رفضت اتصالها بضغطة سريعة، لا أريد أن يكون الهاتف مشغولًا ولو للحظة واحدة. دقائق أخرى ويأتي الاتصال، يخبرني بأن الأمر قد أنجز، دقائق وسوف يخبروني بالمكان الذي تتواجد فيه إيمان وطفلاها انهيتُ الاتصال ومحوت رقم المتصل، شردتُ بتفكيري دقائق منتظرًا الاتصال الثاني، لكنه تأخر.. تأخر كثيرًا، حتى إنني ندمت على أنني محوت الرقم.

خرجتُ من مكتبي وعدت إلى منزلي، رغبت في التواجد إلى جوار أمل وفاطمة، كأني أؤكد محبتي لهما، ولتكونا شاهدتين على مكاني وقت الحادث.

بعد أكثر من ثلاث ساعات تقريبًا، كنت في غرفتي، أتاني اتصال يخبرني بأنهم لم يجدوا في السيارة غير عادل فقط، لقد اختفت إيمان ومعها طفلاها. عدلوا الخطة من أنفسهم ولم يحملوا عادل إلى المستشفى لاستكمال التفاصيل المتفق عليها بشأنه، إنما تركوه للمارة ورحلوا.

أين ذهبوا؟ من ذا الذي جني الثمار؟

■■■

Scanned with CamScanner

(41)

الاختطاف

سمير..

أصبحتْ جلستى في هذا المقهى من تفاصيل حياتى اليومية، كثيرًا ما كنت أرغب في الانفصال عن الحالة ونسيان إيمان بشكل نهائى، لكنني كنتُ أجدني في النهاية جالسًا في هذا المقهى متابعًا لها، لا أجد تفسيرًا مقنعًا لما أفعله، لكنني كنتُ أفعله بسعادة، تلك السعادة كانت معيني، كانت ذلك الخيط الذي يربطني بجماليات الكون من حولى.

يضاف إلى ذلك أنه لم يكن في حياتى أي متغيرات جديدة تفصلني عما أمر به، فلم يتصادف وتجذبني فتاة أخرى، أو لم أفكر في الارتباط وتكوين أسرة. في مجال عملى لا جديد، عملى واحد يتكرر بشكل ممل كل يوم على مدار سنوات.

فقط أنتظر يد القدر تحقق لي ما أتمناه، بداخلي يقين بأنه سوف يتحقق، نعم تأخر.. وقد يطول الانتظار، لكني لا أمتلك غيره.

مكالمة هاتفيه من أحد رواد المقهى كشفت أمامى كل شيء فجأة.

كنتُ أجلس في مكاني المعتاد في ذلك المقهى الذي يواجه البناية التي تسكنها إيمان، أحتسى شرابي وأنفث دخان سيجارتى إلى أعلى حتى تتاح لي الفرصة لإلقاء نظرة على شرفتها.

وصل زوجها المدعو عادل قبل قليل، لم يرفع عينيه نحو الشرفة ليرى إن كانت في انتظاره أم لا، يعود متكاسلًا، وإن كنتُ مكانه لعدت على بساط الريح، لقاتلتُ سوءات الطريق وزحام الشوارع حتى أكون بين يديها في لمح البصر، بل إنني لم أكن لأتركها وأغادر إلا للضرورة القصوى.

بينما أنا شاردا في تخيل أوضاعي معها في حال كنتُ بديلًا يحل محل المدعو عادل، فإذا بأحدهم جالسًا خلفى متحدثا في تليفونه المحمول بصوت حاول أن يجعله هامسًا، لكن لسوء حظه وحسن حظى أنا، بدا أن شبكة المحمول كانت سيئة، فاضطر الرجل إلى رفع صوته، سمعته يقول:

– أنا في المقهى أمام منزله.. عاد منذ قليل.. هو عادل يا سيدي.. نفس الصورة.

أرهفت سمعي أكثر وعدت إلى الخلف رغما عني واستطالت أذناى، سمعته يكمل:

– ليتكم تتركوني أفعل ما أريد.. لكنكم تصممون على أن تكون حادثة طريق لا جريمة، عموما أنتم أحرار، حددوا الموعد وأنا في الخدمة.. المبلغ؟.. لا.. كله مقدمًا بالطبع.. سلام.

سقط قلبي بين أضلعي، من هذا الرجل؟! قاومت رغبة شديدة للالتفات كي أتعرف على المتحدث، أنقذني هو بعد لحظات حينما

Scanned with CamScanner

استدعي العامل للحساب وتحرك تاركًا المكان، تبعته لحظات، متواريًا بقدر الإمكان، يركب سيارته التي كانت تقف على مقربة من المقهى، دلفت إلى سيارتي سريعًا وتبعته من بعيد.

سيارتي، التي اشتريتها منذ بضعة أشهر، ماركة قديمة ومنتشرة جدا بشكل لا يلفت الأنظار، استطعت شرائها وشراء شقة في مساكن بعيدة عن المناطق المأهولة، مساكن حكومية يشتريها الأهالي للتجارة دون أن يسكنوها، تمر السنوات وتتهالك تلك المساكن ولا تزال مهجورة على حافة المدن، شقتي الوحيدة هي المأهولة فيها، أجلس فيها الآن ومعي محبوبتي في الغرفة الأخرى.

لم أفكر يومًا في بيع ذلك المنزل الذي ورثته عن والدي، لم أكن في حاجة إلى ثمنه، مرتبي يكفي الضروريات. إرثي هذا كنت أدخره ليوم ألتقي فيه بنصفي الآخر لنبني أسرتنا، وها أنا أجد نصفي الآخر، إنها إيمان، خلال الشهور الماضية والتي تزايد فيها حبي لها، كنت أجهز لحياتنا المستقبلية معًا، فنحن في حاجة إلى عش هادئ نعيش فيه معا بعيدًا عن هذا العالم.

لم أخطط، أو في الحقيقة لم أمتلك القدرة على التخطيط كي أرتبط بإيمان، إنما كنت أجهز المكان وأستعد لهذا اليوم، عليّ خطوات يجب تنفيذها، فكنت أقوم بها على أكمل وجه، أما التفاصيل الأخرى فهي في يد القدر.. وها أنا ذا أنتظر ما ستفعله هذه اليد الحانية.

اشتريتُ تلفزيون وجهاز استقبال فضائي، كنت أجلس في شقتي بالساعات أتحدث مع إيمان، كنت أتخيلها في كل مكان وفي كل وضع، كان من السهل أن أجد منفذًا لشهوتي بجنيهات قليلة، لكنها ستكون

كوجبة كريهة يُجبر عليها جائع، لذا كنت أعيش شهواتي كاملة مع إيمان، مع صورتها التي أتخيلها في كل لحظة، مع أوضاعها المختلفة واللذيذة في آن واحد.

قرأتُ يومًا أن تخيل ممارسة الجنس ألذ من ممارسته الحقيقية. فهل هذا حقيقي؟!

راقبتُ ذلك الشخص بسيارتي حتى وقف تاركًا سيارته بإهمال أمام أحد البنايات القديمة في حي إمبابة، دلف إلى داخل المنزل وهو يلقي التحيه على الجميع.

بعد دقائق كنت أجلس في مقهى قريب من منزله، بسهوله علمت اسمه وعمله، يدعي سيد، يعمل سمكري سيارات، يمتلك ورشه عشوائية على ناصية قريبة من منزله لكنه يتركها كثيرًا لصبيانه، لم يعد يعمل بيده تقريبًا، يغيب كثيرًا عن المنطقة. يرتاد مقهى حسونه الشهير بزبائنه المخمورين وأرباب البانجو والحشيش.

سيد يتناول الحشيش بشراهة ويكره البانجو، حتى إنه تعارك كثيرًا مع حسونه صاحب المقهى الذي يسمح لهذه الشرذمة التي تتعاطى البانجو من أن تخالطهم في مقهاه، لكن حسونه أقنعه بأنهم من أهم مصادر دخل المقهى في هذه الأيام ولا يستطيع الاستغناء عنهم خاصة وأن أي مقهى آخر يتمني استقبالهم، ولا تنسى أن البانجو انتشر بكثافة وقل الإقبال على الحشيش بعدما أصبح من السهل الحصول على البانجو، لسهولة زراعته ونقله وانخفاض أسعاره مقارنة بالحشيش الذي يجب تصنيعه بعد زراعته وهذا التصنيع يتم في الخارج ومن ثم تهريبه إلى الداخل وبالتالي يرتفع ثمنه، فزاد الإقبال على البانجو.

Scanned with CamScanner

هناك فئة لديها القدرة على صناعة صداقات بسرعة، تتعامل معك بمنتهى الود والحميمية، كل ما تحتاجه منك فقط هو عزومة على مشروب أو أكلة، وبمجرد أن يحصل أفراد هذه الفئة على ضالتهم تلك يرحلون وينسون تمامًا تلك الصداقة التي ولدت وانتهت مع نهاية اللقاء.

كان ذلك الرجل الذي يجالسني من تلك النوعية، الكثير من المعلومات عن سيد والمنطقة كلها يسهب في وصفها ما إن تبادلت معه أطراف الحديث، طلبت له مشروبًا، سارع وطلب شيشة معسل قص على حسابي، ابتسمت موافقًا، أفاض وأنا أسأله عن صاحب تلك السيارة التي كادت أن تصطدم بي وأنا في طريقي إلى هنا لزيارة أحد الأصدقاء.

في اليوم التالي علمت أن إيمان سافرت بصحبة زوجها وطفليها إلى الاسكندرية، ولم أستطع معرفة المكان الذي سافروا إليه أو متى تكون عودتهم. يبدو أن الظروف تكاتفت لإبعادي تمامًا عما سيحدث، لكني لم أكن لأقتنع بذلك.

لم يكن أمامي غير سيد، إنه يستعد لارتكاب جريمة ضحيتها عادل، لذا قررتُ مراقبته خلال الأيام التالية. من خلال مراقبتي له سوف أصل إلى ما خفي عني من تلك الخطوة التي يستعد لها.

دامت مراقبتي له أسبوعًا كاملًا، كان يتصرف بتلقائية شديدة وكأنه مدرب تدريبًا محكمًا على ما سيقوم به، من ثقته تلك لم يشك ولو للحظة في أن هناك من يراقبه، ثم إنه لو كان يعتقد أن ثمة من يراقبه، فإن تركيزه سيكون موجهًا إلى رجال الشرطة في المنطقة، إنه يعرف معظمهم.

في هذا اليوم وبعد أن انتهيت من عملي ذهبت إلى المقهى فإذا بي أجد سيد أمامي مباشرة، يعترض طريقي، ارتبكت لحظة، لكنه تأملني

ثم مر من جواري ليجلس لحظات مع أحدهم ثم يرحل تاركًا المقهى. على ناصية الشارع يصعد ليركب سيارة نقل كبيرة، يقودها بنفسه تاركًا المنطقة بأكملها، أسرعتُ خلفه بسيارتي.

ينطلق لمسافة نصف ساعة تقريبا حتى يصل إلى الطريق الدائري، تعجبت من انطلاقه في هذا الطريق، كنتُ أسير خلفه بمسافة تسمح لي بمراقبته. فجأة هدأ من سرعته، لم أستطع أن أقلل من سرعة سيارتي أنا الأخر فانطلقت مقررًا أن أسير الهويني حتى يلحق بي.

شاهدته في المرآة العاكسة ينطلق مرة أخرى تاركًا الطريق خلفه مغلق، يبدو أن تصادم ما قد حدث، لم تكن هناك سيارة واحدة تسير خلفي غير تلك السيارة النقل التي يقودها سيد، انطلقت أمامه لحظات حتى لا يلحظ انتظاري له، تخطيت أول سيارة أمامي على الطريق، ثم نظرت في المرآة لمتابعة سيد، فإذا بي أشاهد ما لم أتخيله مطلقًا.

سيد بسيارته النقل يهاجم السيارة الوحيدة التي تخطيتها منذ لحظات، يهاجمها بشراسة، يميل عليها بسيارته ثم يصدمها من زاويتها اليمني، في إمكانه أن يصعد فوقها بسيارته الضخمة ليسويها بالإسفلت، لكنه لم يفعل، كان كقط شرس يلهو بفريسته التي يثق في أنه ملتهمها وقتما يريد، لم يستغرق الأمر وقتا طويلًا، ثواني قليلة تصطدم فيها السيارة الملاكي بالرصيف مصدرة صريرًا مفزعًا من أثر احتكاك الكاوتشوك بأسفلت الطريق ثم تعلو قليلًا عن الأرض لتستقر مقلوبة.

لم أتوقف مباشرة، تابعت ما يحدث خلفي، لا أرى أمامي، انطلاقي بسيارتي كان بشكل تلقائي، لحظات ويمر من جانبي سيد بسيارته مسرعًا تاركا المكان.

Scanned with CamScanner

في اللحظة التي مررت فيها بجوار السيارة الملاكى لم أكن مهتما بها، فهى مجرد سيارة من ضمن عشرات السيارات التي على الطريق في هذا التوقيت، لكن ما إن شاهدت اصطدام السيارة النقل بها حتى انتبهت فجأة، إنها سيارة عادل وإيمان، ينتابني فزع رهيب، لم أشعر بنفسي، يخرجني مرور سيارة سيد مسرعة بجوارى هاربة، من ذهولى. ضغطت بشدة على دواسة الفرامل، ما أذهلني هو عدم وجود أي سيارة على الطريق، مسرعًا درت بسيارتى عائدًا إلى سيارة عادل.

وقفتُ مذهولًا.. جميعهم لا يتحركون، لا أعلم أهم موتى أم غائبون عن الوعي؟ غاب وجه إيمان خلف خصلات شعرها المتناثرة والدماء التي تسيل من رأسها وعدة إصابات في وجهها، اقتربت من السيارة وبصعوبة فتحتُ بابها، سقطت إيمان على يدي، إنها تتنفس، لا تزال على قيد الحياة، وكأن الروح عادت إلىّ.

حملتها.. توجهت إلى سيارتى ووضعتها في المقعد الخلفى، يجب أن أذهب بها سريعًا إلى أقرب مستشفى، أغلقت باب السيارة وبينما أتوجه إلى بابي في الجانب الآخر تذكرت الأطفال، شفقة علي قلب إيمان المتعلق بطفليها عدتُ وحملتهما إلى سيارتى مسرعًا. تركتُ المكان وأنا أودع عادل بنظرة حملت ألف معنى إلا معني الرحمة ولا أعلم لماذا افتقدت هذا الإحساس.

لقد حدث كل شيء في لحظات معدودة.

على مسافة كبيرة من المكان شاهدتُ في مرآتى، وأنا أغادر المكان، أنوار الكثير من السيارات تعدو خلفى ويتوقف بعضها بجوار سيارة

عادل المقلوبة، سوف يحمله أحدهم إلى أقرب مستشفى. علىّ إذن أن أذهب بإيمان إلى مستشفى بعيدة نوعًا ما.

تمر الدقائق وقد هدأت قليلًا وانتظمت أفكارى، نحيتُ فكرة الذهاب بهم إلى المستشفى جانبًا سوف أذهب بهم إلى منزلنا الذي أعددته لمثل هذا اليوم.

و ها نحن في منزلنا معًا أسرة كاملة، ينقصها بعض الود والحنين وكثير مما تخيلته في أحلامى.

مؤكد سيأتى مع مرور الأيام.. نعم سيأتى.

■■■

Scanned with CamScanner

(42)
الحقيقة

فاطمة..

عندما تُروى الزهور، تتفتح وتنشر رائحتها في المكان. عندما يبدأ العصفور في الطيران، يفرد جناحيه الصغيرين ليحتويان العالم بسعادة. عندما تمتلك المحب بسمة الحبيب، يخف كريشة حانية تملؤها روعة الحب، فيرى الكون كله ومضات عشق لا تنتهي.

قلبي مملوء بالحب، إن كنتُ قد أحببت خالق الكون، إن كنت قد أدركت في ذاتي بأننا خلقنا من حب لنعيشه على الأرض، إن كنتُ قد تذوقت حلاوة هذا الحب في أسمى صوره، كيف أحبسه بداخلي؟ كيف أرتضى سطوة الشر الذي ما خُلق إلا ليقضى على الحب صفة الوجود؟!

لا.. لن أترك حاتمًا يلهو بسوءاته ليستلب روح أسرة كاملة، يكفيه ما سلب من قبل. روح تلك الأسرة، أسرة عادل، هي قضيتي التي يبدو أنني من أجلها أسلمت، حركتني اليد الكونية في ذلك الاتجاه كي أخطو خطوة واحدة، الحيلولة دون سلب تلك الأرواح البريئة.

يود استلاب روح عادل بالقتل، وروح إيمان بالأسر، وأرواح الأطفال بابتسامة ماكرة.

ترى.. كيف سينمو الأطفال إن قتل أباهم وسبيت أمهم؟! كيف سيكون مستقبلهم.. زيجاتهم.. أولادهم.. أحفادهم..؟!

ما الغد ببذرة يلقيها بغدر حاتم لتستمر مدي الدهر تتسرب عبر الأجيال؟!

لا.. لا..

إنه لأمر فظيع أن يذهب العقل البشرى هذا المذهب، أن تتدني الروح، التي خُلقت لتسمو، إلى تلك الدرجة الدنيا.

أطماع البشر لا نهاية لها.. كذلك روعة الحب لا نهاية لها، يجب أن ندرك قيمة الأخيرة للقضاء على الأولى.

سوف أفعل المستحيل، أستمد من حبي المتفجر طاقة لا نهاية لها، كي أنقذ هذه الأسرة، كي أقضى على غرور الشر المسيطر على روح حاتم، لم ينتصر حاتم حينما ساعدني من قبل، إنما أوى خانقه.

من خلال البحث على شبكة الانترنت عن بعض المعلومات، وقد وضعنا، أمل وأنا، كلمات للبحث مثل إيمان.. عادل.. حادث..

عثرنا على خبر في إحدي الصحف عن قضية غريبة رفعتها سيدة، تتهم زوج ابنتها باختطاف ابنتها وأولادها، التفاصيل تقول بأن حادثًا غريبًا وقع منذ فترة على الطريق الصحراوى، لم تكمن الغرابة في الحادث بقدر ما كانت في تفاصيله، اختفاء الزوجة والأولاد والأب «عادل» في حالة هيستيرية، الغموض يحيط بالأمر وأصابع الاتهام تشير إلى الزوج «عادل» الذي يعاني من حاله نفسية صعبة بعد مرورة بأزمات متتالية في عمله، بينما يؤكد هو أن زوجته وأولاده كانوا معه في السيارة

Scanned with CamScanner

لحظة وقوع الحادث، وهذا ما لم تقتنع به الحماة فرفعت القضية تتهمه فيها بشكل مباشر باختطاف ابنتها وأطفالها.

عن طريق صفحات الفيس بوك استطعنا الوصول إلى الصحفية التي كتبت هذا الخبر وبمراسلتها حصلنا على اسم المستشفى التي يتواجد فيها عادل. عن طريق ممرضة تدعي هدي، علمنا كافة التفاصيل وأن عادل نفسه يعاني من أزمة رهيبة بسبب فقده لزوجته وطفليه وأنه حقيقة لا يعلم عنهم شيئًا، لذا آثرنا عدم مقابلته لأنه لا يمتلك معلومات ذات قيمة في الوقت الحالي.

اكتفينا بما وصلنا إليه من معلومات في الوقت الحالي، فقد عَلِمنا مَن هو. الآن يجب حمايته بعد ذلك التهديد المباشر الذي استمعتْ إليه أمل من حاتم بأنه يجب قتله. لم نجازف ونقابله في تلك الظروف الملتهبة، عدنا إلى منزلنا متواريتين خلف النقاب، ذهن مشغول وبال شارد. كيف نحميه وفي الوقت نفسه نظل بعيدتين عن الأنظار؟ تلك المشكلة التي أرقتنا كثيرًا، فكنا بين كل لحظة وأخرى نتنظر سماع خبر مقتله.

استدعيت أمل ذات يوم وأخبرتها:

– إن كان حاتمًا مشغولًا هكذا بإيمان ويفعل كل هذا من أجلها، فلن يتخلص من عادل إلا بعد عثوره على إيمان.

شاردة تأملتني أمل كثيرًا ثم قالت بهدوء:

– ممكن.

– لِمَ يخاطر بجريمة والصيد لا يزال بعيدًا..؟ الطبيعي أن يحتفظ بالصيد في يده ثم يتخلص ممن يريد أن يأخذه منه.

– عندك حق يا فاطمة.

– إذن لابد أن تكون مهمتنا العثور على إيمان وأولادها. وقتها سوف ننقذ الأسرة كلها و..

أصمتُ لحظات، تنظر أمل نحوى كي أكمل كلماتي، نظرت نحو الأرض وأنا أزفر بشدة قائلة:

– و المجرم لابد وأن يُعاقب يا أمل.

تأملتني كثيرًا، تُنازع بداخلها رغبات عدة، لكنها في النهاية تهز رأسها بالموافقة، بعد لحظات يغمرنا صمت مرير، وقفنا تحتضن إحدانا الأخرى، وكأننا نحتمي ببعضنا البعض، عناق استمر طويلًا، تذكرتُ خلاله الكثير من حياتي الماضية حينما كنتُ تريزة المسيحية، ويبدو أن أمل كانت تجول بفكرها في ماضيها وتعاليم ديننا الإسلامي. نفترق بهدوء ولا تزال بيننا قوة جذب خفية، تعبر نظراتنا النافذة تستقى قوتها من النسمات الإلهية التي هبت على المكان محركة قمم أغصان الشجر المجاورة للنافذة.

انتظرنا كثيرًا حتى عاد عادل إلى شقته وانفض من حوله الجمع الذي يتجمع عادة مع بداية الحدث ثم يتلاشى تدريجيًا مع الوقت وإن ظلت المشكلة قائمة.

طرقنا بابه.. بعد وقت طويل يظهر عادل معتمدًا على عكازيه، يبدو أنه يستعد للخروج، فقد ارتدي ثيابه ولا يزال حافيًا، يقف مندهشًا لحظات وهو يتأملنا محاولًا رؤية أي شيء من خلف النقاب. تبادلنا النظرات أنا وأمل ثم رفعنا النقاب بدون أن تتحدث إحدانا. علينا أن نطمئنه ونظهر له وجوهنا، فسوف يرتاب بطبيعة الحال من النقاب إن كان لا يعلم مَن بداخله. تحدثت أمل بهدوء:

Scanned with CamScanner

– السلام عليكم يا أستاذ عادل.. نحن هنا لمساعدتك.. لكن.. هل من الممكن أن نتحدث بالداخل؟

لم يتحدث، يعود إلى الخلف خطوة ليفسح لنا الطريق ثم يشير بيمناه كي ندخل، ندلف إلى الصالة بينما يغلق الباب ويتبعنا. نجلس جميعًا يسيطر علينا الصمت لحظات ثم تحدثت أنا قائلة:

– لدينا معلومات كثيرة مهمة بخصوص زوجتك إيمان وأولادك.

يشهق عادل، يتأملنا دهشًا، المفاجأة تلجم لسانه، أكملتُ حديثي بكل المعلومات التي نعرفها وما سمعناه من حاتم، يُذهل عادل عندما علم أننا زوجتا حاتم، في البداية يتوجس خيفة ثم يعود إلى طبيعته بعدما تحدثه أمل عن أن الحق أحق أن يُتبع ولا جدال في ذلك.

جلسنا، ثلاثتنا، غرقى في بحور الحيرة لحظات، بعدما داعبت الآمال عادل واستيقن أن حاتم هو المدبر والمنفذ لذلك الحادث.

نقف حيرى أمام كلمات حاتم الأخيرة التي أطلقها لمحدثه عبر الهاتف والتي طلب فيها العثور على إيمان وأولادها بأي طريقة، فذاك يعني أنهم ليسوا تحت يده. إذن أين هم؟

يصمت عادل لحظات ثم يبدأ حديثه متذكرًا ما كان قد توصل إليه من قبل، إنه يشك في شخص ما، لا يعلم عنه الكثير.

الواقع أن عادل كان يعاني، خلال الأيام القليلة الماضية التي تلت الحادث، من آلام رهيبة ويعاني من تشوش في التفكير، وبعد معاناة استطاع أن يسبح داخل بحر ذاكرته منقبًا عن عدو يسلبه حياته. منذ دقائق فقط تذكر هذا الشاب، وحينما طرقنا بابه، كان يستعد للخروج ذاهبا إلى

الفندق، ليستعلم عنه. وقفنا معه وبمنتهى الحماس أقسمنا على التعاون معه حتى نعثر على زوجته وطفليه.

كنت أبحث عن سلامة إيمان كإنسانة. أمل تبحث عن نجاة لحاتم حتى تُبعد تلك الوصمة المشينة عن دينها الإسلامي.

بعد مناقشتة الأمر على أكثر من وجه. توجهنا إلى الفندق.. ببساطة رفعنا النقاب واستعنا بجزء منه لحجب جانب من الوجه فبدونا سيدات عربيات، تواجد سيدات مثلنا في هذا المكان مقبول أكثر من وجود منتقبات. جلسنا حول المنضدة التي توجه عادل ناحيتها، جلس في موضع يتيح له متابعة كل العاملين في المكان، جلسنا أكثر من ساعة، نتحدث في أي أمر كي لا نلفت الأنظار بصمتنا، عادل يتابع المكان باحثًا عن ذلك الشاب، لقد أكد لنا ونحن في طريقنا أنه يتذكره جيدًا، نظراته نحو زوجته وكلماته «أنت لا تستحقهم» وكأن ذلك كان بالأمس فقط ولم يمر عليه سنوات.

من ضمن ما تحدثنا به لتمضية الوقت، تلك الشكوك التي داهمت عادل حول ذلك الشاب، فكيف يكون هو بعد مرور هذه السنوات؟! مطت أمل شفتيها وتأملت الفراغ أمامها وهي تقول:

– قد يكون ذلك مجرد خيال لا يتطابق مع الواقع بأي حال، فلو كان هذا الشاب ينتوى شرًا لفعله في يومه أو بعد عدة أيام، أما أن ينفذ ذلك بعد ما يقرب من ثلاثة أعوام فذلك أمر مستبعد تمامًا.

يجيب عادل في هدوء المستضعف:

– أتفق معكِ.. لكن قلبي يستشعر بأن ذلك الشاب ليس ببعيد عما حدث.

Scanned with CamScanner

بعد مضى ساعة، يشير عادل نحو عامل يظهر في المكان، يبدو أنه تسلم الوردية الآن فقط، تأملناه جيدًا. يخفي عادل وجهه خلف نظارته السوداء وياقة قميصه التي رفعها. تركنا المكان سريعًا. كنا قد اتفقنا على ألا يرى هذا الشاب عادل، نتركه يتصرف بشكل طبيعي حتى نصل إلى إيمان.

بينما نحن نسير في بهو الفندق يقف عادل لحظات، ثم يلحق بنا وهو يخبرنا أنه تعرف على اسم الشاب، يدعي سمير.

انتظرنا أمام الفندق، يستأجر عادل سيارة تاكسي أبيض «لكثرتها وتشابهها فلا تلفت الأنظار». ساعات حتى ينتهي سمير من وردية عمله.

....

أخيرًا يخرج، يقود سيارته، ينطلق ونحن خلفه.

■■■

(43)

اليوم الأخير

حاتم فكري..

كنتُ أرتاب في جلسات أمل وفاطمة، مؤكد يجعلان سوءاتي محور حديثهما، يتناولان فيه ما يكرهانه فيّ، فيتزايد ابتعادهما عني. لن تجلسا لتذكرا محاسني، خاصة بعد تلك الفجوة التي اتسعت تدريجيًا بيني وبين أمل بعد الشهور الأولى للزواج، لولا تمسكها وتدينها لطلبت الطلاق من مدة طويلة، لكنها تخشاه خشية المحرمات.

زاد الأمر سوءًا مع الأيام، حال فاطمة وما آلت إليه بعد شهور من الزواج. فاطمة لها عالمها الروحاني الخاص، وهو أمر يسرني كثيرًا، لكن جلساتها مع أمل هي ما جعلت الريبة تحلق حولي كهالة سوداء.

في البداية كنتُ أعلل جلساتهم بأنها أمر طبيعي يحدث بين سيدة مهتمة بالشأن الإسلامي وأخرى وليدة فيه لم يمر على إسلامها شهور.

أمر آخر ذات أهمية جعلني أقدم على تلك الخطوة، ذلك أن نظراتهن لي قد تغيرت خاصة في الأيام الأخيرة، نظرات أستشعرها تحمل أحد معاني الاحتقار وإن لم يصرحن به، زاد تأجج هذا الشك بعدما سألتني

Scanned with CamScanner

أمل ذات يوم عن تفسير الآية الكريمة «لا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجا منهم».

لم أكن بتلك السذاجة التي قد تتصورها أمل، فهي أولًا قارئة جيدة لكتب التفاسير وتقريبًا تعلم تفسير القرآن كاملًا من كثرة ما قرأته، ثانيًا إذا هي نسيت تفسير إحدي الآيات فمن الطبيعي أن تعود لكتب التفسير، أو أقله تبحث على شبكة الانترنت لتصل إلى تفسير ما تريد في لحظات. علمتُ ما ترمى إليه لكني تجاهلت ذلك، قتلتُ إنفعالى بداخلي وفسرتُ لها الآية على هذا الوجه:

– هذه الآية يا أمل موجهة إلى رسولنا الكريم صلى الله عليه وسلم، يخبره فيها المولى عز وجل بأنه أغناه بالقرآن الكريم عما في أيدي الناس، فليس منا مَن لم يستغن بالقرآن عن أعراض الدنيا وملذاتها.

تتأملني أمل لحظات وعلى وجهها علامات عدم اقتناع، يضطرب داخلي لحظة واحدة، وكأنها ترى ما يعتمل فيه تغزوني بنظراتها، استجمعتُ شجاعتى المبعثرة، ملأتُ صدرى بالهواء كي أتحدث بقوة، أقول:

– أصل الحكاية أن المسلمين في البداية كانوا فقراء جدًّا ويعانون باستمرار.. وفي يوم واحد مرت عليهم سبع قوافل من البصرة.. قوافل تخص يهود بني قريظة وبني النضير.. القوافل السبعة كان فيهم الخير كله، الحرير والحبوب والطيب والجواهر وأمتعة البحر، هنا قال بعض المسلمين: لو كانت هذه الأموال لنا لتقوينا بها وأنفقناها في سبيل الله، فأنزل الله عز وجل الآية التي تسبق هذه الآية مباشرة ونصها: أعوذ بالله

من الشيطان الرجيم.. بسم الله الرحمن الرحيم: ﴿ولقد آتيناك سبعًا من المثاني والقرآن العظيم﴾. صدق الله العظيم.. يعني سورة الفاتحة والقرآن كله، وهذا أفضل من القوافل السبعة. بعدها.. أعوذ بالله من الشيطان الرجيم.. بسم الله الرحمن الرحيم: ﴿فلا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجًا منهم﴾. صدق الله العظيم.. وأزواجًا منهم هنا معناها أمثالًا في النعم، يعني الأغنياء بعضهم أمثال بعض في الغني، يعني أزواج. الخلاصة أنه واجب على كل مسلم ألا ينظر إلى النعم الموجودة في يد غير المسلم لأن عنده نعمة أعظم وأكبر في الدنيا وهي القرآن الكريم، وهو السبب في دخوله الجنة بإذن الله.

لم أكذب على أمل في تفسيرى، فهذا ما ورد بالفعل في كتب التفاسير، أما ما أخذته هي على ظاهر الآية للتلميح إلى ما أعيشه، فلم أكن متأكدًا تمامًا مما يعتمل في داخلها، وكنت على استعداد لمواجهتها بالحقيقة التي تكاد تفتك بي، لكنها لم تفصح، فلم أفصح.

بعد ذلك الارتباك الذي حدث في حياتى مؤخرًا، واختفاء إيمان.. روحى التي لم أعثر عليها حتى اليوم، بدأتُ في اقتفاء أثر الحيطة واتباع الحذر وأن أتعامل، كما تعلمت من قبل، بسوء نية.

تركت من يراقب زوجتىَّ إذا خرجتا ليخبرني بتحركاتهن ويحميهن من أي خطر، فزوجتىَّ صيد ثمين وعلىَّ حمايتهن. خصوصًا بعدما أخبرني شيخى بأن القس مينا جبرائيل قال في إحدي عظاته الأخيرة، والتي نشرت مصورة في العديد من المواقع الإلكترونية، بالحرف الواحد:

Scanned with CamScanner

– لـن نترك خرافنا لتضل أكثر مـن ذلك (يتفرس الجمهور ثم يكمل) إن تركت فرخة حظيرتها وانتقلت إلى سطوح الجيران ماذا نفعل؟ نبحث عنها ونعيدها إلى حظيرتها مرة أخرى.

ثم ينفعل ولا يستطيع كبح غضبته، فيصرخ قائلًا:

– لكـن إن صممت هذه الفرخـة على الهروب وترك حظيرتها، وقتها لن يكون هناك غير حل واحد فقط.. الذبح.

كانـت هـذه الكلمات بمثابة تهديـد حقيقي ورسـالة موجهة لكل من تسـول له نفسه ترك حظيرته وأما من تركها بالفعل مثل فاطمة، فلا يوجد لـه عند القـس جبرائيل غير الذبح. لذا خشـيتُ عليها فعينـت من يراقبها ويحميها، لكن ما لم أكن أتوقعه على الإطلاق هو أن يخبرني مَن يراقبهن أنهن توجهن إلى شقة عادل.

من قبل أخبرني أنهن توجهن إلى المستشفى الذي كان ينزل فيه عادل وخرجن مسـرعتين بعد دقائـق، وفي هذا اليوم أخبرتنـي أمل أنها ذهبت بفاطمة إلى المستشفى لأمر نسائي، قبلتُ الأمر على أنه مصادفة طبيعية، لكن ما لم يكن مصادفة توجههن إلى شقة عادل ودخولهن، وبعد نصف ساعة تقريبًا يخرجون جميعًا متوجهين إلى فندق....

أوه.. إنـه الفنـدق الذي شـاهدتُ فيه إيمان مع عادل، فـي ذلك اليوم الذي وجدتها فيه بعد غياب طال سنين. قاومت رغبة في الذهاب خلفهم واكتفيتُ بمعرفة تحركاتهم من خلال من يراقبهم لحظة بلحظة.

تأججـت بداخلي نيران الغضب، إلى ماذا يسـعون؟! مـاذا يدبرون؟ غلبتني حيرتي فانتظرتُ على مضض، خاصة بعدما فشل أحد أتباعي في

الإنصـات إليهم ومعرفة في ماذا يتحدثون؟! كلما مر الوقت زاد غضبي، حتـى أخبروني أنهم خرجوا من الفندق وانتظروا في سـيارة تاكسـي. لم أستطع المقاومة أكثر من ذلك.

لـم أذهـب بسـيارتي، يعرفونهـا طبعًـا، طـال انتظارهـم في السـيارة الأجـرة، مما أتـاح لي وقتًا لاسـتئجار سـيارة والذهاب بها إلـى المكان الذي ينتظرون فيه، لم يمر الوقت حتى ألفيتهم يتبعون شابًا يستقل سيارة قديمة، فتبعتهم ومعي رجالي.

■■■

Scanned with CamScanner

(44)
النهاية

القس جبرائيل..

ثمة أوقات قد تمر على الفرد يكون فيها مرهفًا شفيفًا كوريقات الزهر، في تلك الأويقات يعود ذلك الفرد، مهما كان عمره أو مركزه، إلى طفل برئ شفاف، إلى شخص مرهف رقيق، يقرأ الجمال في كل شيء حوله، يستشعر حلاوة الحياة تسرى في دمه، يقرأ كلمات الحب على الوجوه، فوق النسمات، عبر أشعة الشمس وفضيات القمر، مع دفقات ماء أو لقيمات خبز، مع ابتسامة طفل أو نظرة خشية في عين قط يموء متوجسًا، مع صياح عصفور أو نعيق غراب. تلك اللحظات الشفيفة تُشعر الفرد بخدر لذيذ يسرى في جسده وكأن وزنه قد خف، تكاد قدمه تمس أديم الأرض هامسة، ولو استطاع أن يحلق مع الطير لحلق منتشيًا. تلك اللحظات قليلة جدًا وقد لا يستشعرها الجميع، لكنها تحدث.

لم يهنأ القس مينا جبرائيل براحة بال منذ اعتنقت تريزة كامل عبدالمسيح الدين الإسلامي، إن كان قد أظهر بالفعل نوعًا من الهدوء بعد الجلسات العرفية، فهو ذلك الهدوء الذي يعلو كومة نار أعلاها ساكن وأسفلها جمرات ملتهبة، ثم إنه لم يكن من ذلك النوع الذي

يرتضى الهزيمة بسهولة متخطيًا الموقف وباحثًا عن مواقف أخرى يُظهر فيها قدراته، لا.. لم يكن مينا جبرائيل كذلك أبدًا.

يُضاف إلى ذلك جزئية أخرى يشعر بها القس جبرائيل جيدًا وإن لم يعترف بها حتى إلى نفسه. إنه ومنذ اللحظة الأولى التي شاهد فيها تريزة ممددة في المستشفى، لم يستطع أن يمنع نفسه من تأملها مليًا، تأمل ملامحها الجميلة المتناسقة. شفتاها المكتنزتان أكثر ما جعل قلبه ينتفض في جوفه، ولا يعلم لماذا ذكره انتفاض قلبه هذا بكتكوت صغير في قبضة اليد، تمني للحظة لو يمس هاتين الشفتين بشفتيه ليرتشف حلاوتهما، تمني لو أنه مس بيديه وجنتيها، يحتوى وجهها براحتيه يستقى منها نبض الحياة.

زهرة في بداية تفتحها، جل ما فيها بكر، كنز لم يمسسه بشر من قبل، تمتلك أسرار الحياة الأولى. آه لو يفتتح تلك الخبيئة ويفك طلاسمها بما يمتلك من تعاويذ، كي يحصل على كنوزها بشفتيه.. بيديه.. بكل خلايا جسده.

الحقيقة أن القس جبرائيل في تلك اللحظات كان يعيش هذه الحالة، شفيفًا رقيقًا كوريقات الزهر، وإن كان لا يدرى منبعها. بالطبع الموقف لم يكن ليتحمل ذلك، لكن رؤيته تريزة على هذا الوضع احتوته بقوة وبسرعة. الواقع أنه كان معذورًا في ذلك، فقد كانت تريزة كملاك نائم، تعتليها كل آيات الجمال، ترفرف حولها فراشات رقيقة فوق نسمات تذيب الحواس وترهف المشاعر.

كثيرًا ما لا نرى الجمال حولنا إلا إن كسر هو حواجز رؤيتنا، إلا إذا استهدفنا مباشرة وطرق أبوابنا لينتزعنا من صمتنا، أو إذا قرر الرحيل

Scanned with CamScanner

عنا.. وقتها نعرف قدره ونتمسك به. وها هي تريزة كامل عبد المسيح تطرق بابه بشدة وتقرر الرحيل، تهاجمه بالاثنين معًا، تهاجمه وهي ممددة فوق فراشها، لا تمتلك غير الجمال والضعف أسلحة، ويا لقوة ضعف فتاة جميلة.

كم شعر بضعفه وهو يتحدث إليها محاولًا التغلب على نفسه بقسوة ألفاظه وتجهم وجهه، لكنه في النهاية لم يستطع منع نفسه من تحقيق إحدي رغباتها، وهي أن تمس يداه تريزة.

يضع يده على جبهتها متمتمًا بكلمات مبهمة بدت كدعوات وتعاويذ ورقى كثيرة، لم يدرك هو منها الكثير، فقد كان قلبه شاردًا يتذوق تلك الحلاوة المنبعثة من جسدها لتسرى في جسده وكأنها عملية نقل روح عبر ذلك التماس.

تعجب من نفسه التي ما وجدها رقيقة بهذا القدر من قبل، لم يدرك منها إلا قسوة وتجهمًا، مرت سنوات عمره وقد حسب أنه لا مشاعر ولا عاطفة سوف تهبط دنياه، لن يتذوق حلاوة الحب، تلك التي قرأ عنها كثيرًا، كان في كثير من الأحيان يهزأ منها وممن يكتوى بها، لكن القدر يمد يده ببعضها الآن، بعد مضى معظم العمر، ونحن في نهايات الفرص نكون أكثر تشبثًا بها، فإن مرت لن تعود، ليس في العمر متسعًا للبحث عن غيرها.

ضعف فريسته وقوة موقعه جعلاه يحلم بأيام قادمة كلها هناءة وسعادة، سوف يرتشف من الأيام رحيقها ليروى به ظمأ سنون جدباء ولت.

لقد عاش القس جبرائيل تلك المشاعر وقد أقسم أن تريزة لن تكون إلا له، لكن في نفس الليلة هربت تريزة وتصاعدت الأحداث بشكل لم يكن ليتخيله جبرائيل أو غيره، وانتهى بأن تحولت إلى فاطمة المسلمة المتزوجة من شخص يدعي حاتم فكري.

فهل عاد القس جبرائيل إلى حياته الطبيعية التي كان يعيشها من قبل؟

ظاهريًا فعل ذلك، لكنه مدفوعًا برغبة في تحقيق نصر وبمشاعر لم يستطع صياغتها رسميًا، قرر أنه لن يترك تريزة خارج حظيرته مهما كانت العقبات، لذا كان ذلك التصريح الأخير له الذي قرر فيه أنه إذا لم يتمكن أحدهم من السيطرة على دجاجة ما ويحبسها في حظيرته، فإنه لمن الصواب ذبحها.

نعم قرر القس جبرائيل التحرك بشكل مباشر لإعادة تريزة وإن لم يتمكن من إعادتها إلى حظيرته، نفذ بلا رحمة الحل الأخير. لن يهنأ بها أحد سواه.

تزامن بداية تحرك القس جبرائيل مع تحرك فاطمة وأمل لمساعدة عادل لاستعادة زوجته وأطفاله.

يستدعي مايكل وملاك سعيد وهما شابان من أتباعة ومن أشد المؤمنين به ويتميزان بحماسة لا تنطفئ وغيرة على دينهما المسيحي لا نهاية لها، يجلس معهم لمدة ساعة في غرفته الخاصة في الكنيسة، يخرج بعدها الشابين وقد إحمر وجهاهما وكورا قبضات أيديهم وبدون شعور يطلقونها في الهواء يلكمون بها أشباحًا. فورًا يبدأون تنفيذ ما أمرهم به القس جبرائيل، يراقبون من بعيد منزل حاتم فكري.

Scanned with CamScanner

في تصاعد سريع للأحداث يتصلون بالقس جبرائيل ليخبروه بما يشاهدونه من أمور مريبة. وها هم الآن يُسرعون بسيارتهم خلف تريزة بصحبة سيدة ورجل يسير متكئًا على عكازين، وبعد فترة يظهر خلفهما حاتم فكري نفسه ومعه رجاله المسلحون.

اتصالات مستمرة حتى يصل القس جبرائيل بصحبة عدد من أتباعه لينضموا إلى مايكل وملاك الذي يحتفظ بسلاح صغير لا يُظهره إلا إذا تأزمت الأمور وكثيرًا ما تأزمت في الآونة الأخيرة. ينطلقون جميعًا خلف الركب.

■■■

بمجرد أن يصل سمير إلى شقته الخاصة التي يحتجز فيها إيمان وأولادها، يحمل مشترواته ويدلف سريعًا، كزوج مشتاق لزوجه وأولاده وقد حمل لهم الهدايا وما لذ وطاب، الشقة في الدور الأرضي يدخل ويغلق الباب ولا يشعر البتة بما يحدث خلفه، فقد توقفت سيارة أجرة على مقربة وبعدها بمسافة تقف سيارة أخرى وفي نهاية الموكب يتوقف القس جبرائيل ومن معه، كان كل منهم مهتم بمَن أمامه ولا يدرك ما يحدث خلفه.

في السيارة الأجرة يتحرك عادل غيظًا وهو يشير نحو المنزل مؤكدًا أنه يتنسم رائحة زوجته وطفليه في هذا المكان، وفجأة يُخرج من بين ثنايا ثيابه مسدسًا صغير الحجم ثقيل الوزن، تنتفض أمل، بينما توقفه فاطمة بإشارة من يدها وهي تقول:

- الموضوع لا يحتاج أي تهور.. إن كانت زوجتك وأولادك معه بالداخل.. سوف تكون هناك خطورة عليهم إن هجمتَ عليه.

- إذن.. ماذا أفعل؟

بعصبية يسألها عادل ذلك السؤال وقد خفض مسدسه، لم يستعمله يومًا رغم امتلاكه له من سنوات طويلة بعد أن أوصاه به زملاء العمل في مجال السياحة، فهو يتحرك ومعه سائح أو أكثر، يجوبون البلاد ليل نهار، ينطلقون في طرق وعرة وأماكن غير مأهولة، قد يظهر لهم قاطع طريق أو حتى حيوان مفترس، لذا وجب عليه اقتناؤه وحمله باستمرار في سيارته.

سائق السيارة الأجرة ظل صامتًا بعد هذا المبلغ الكبير الذي نفحه عادل إياه، يستمع إلى القليل من الكلمات التي تصدر عنهم ليكون فكرة عن الموضوع، يتعاطف معهم ويود لو يشارك في المساعدة، لكن صحته الواهنة وحلمه بالعودة إلى أسرته بأي شكل حاملًا بعض الهدايا جعله يستكين في مقعده، لكنه ما إن رأى المسدس في يد عادل حتى يرتبك ويتململ في مكانه وكأنه يحذر عادل من خطورة ما سيفعله، يود لو يتركهم هنا ويرحل لكنه لم يستطع الإفصاح عن رغبته تلك، فيتحدث بكلمات قليلة للتهدئة.

صامتة تتأملهم فاطمة بعض الوقت، ثم تمد يدها لتفتح باب السيارة بهدوء، بدت في تلك اللحظة كالمأخوذة بقوى غير مرئية، كمن يُطلق عليها في تراثنا «اندهتها النداهة»، ينظر إليها كل من عادل وأمل ولم ينطق أحدهما بالسؤال البديهي، وكأن ألسنتهم رُبطت بحبل معلق به ثقل ضخم، أو كأنهما نسيا معًا أن لهم ألسنة يتحدثون بها، فغرا أفواههما وتبعوها مشدوهين. من بعيد تعلقت بها الأنظار.

فاطمة لم تكن ترى أي شيء مما خلفها، مما مضى من حياتها. تجذبها يد حانية لا ترى لها صاحبًا، جذبتها برفق كي تنقذ إيمان وطفليها،

Scanned with CamScanner

شعرت بها تمسك بيديها، تقودها برفق، بخطوات هادئة وحديث قدميها مع أرض تطأها للمرة الأولى في حياتها تستشعر بخفة وذوبان، حالة لم تشعر بها من قبل، إنها تقترب من ترك الأرض محلقة في الهواء كعصفور أبيض صغير. تهب نسمات خفيفة تكسر حدة حرارة الجو، يترك حذاؤها أثرًا على رمال خفيفة تراكمت عبر الأيام في طريق قليل ما يسلكه أحد، ترامت ظلال البنايات قصيرة لتصنع مربعات سوداء أسفل بنايات بيضاء، شجيرات خضراء تعاني الإهمال منتشرة في المكان، تخترق فاطمة تفاصيل تلك الصورة فتبدو جزءًا منها.

تقدمت فاطمة حتى دنت من باب شقة سمير وبيد حانية طرقته عدة طرقات، انتظرت ولم تلتفت إلى الخلف، كل العيون معلقة بها، تتحرك بتحركها وتنتظر بانتظارها. لحظات ثقيلة مرت كدهر على تلك العيون المتابعة، لكن فاطمة لم تشعر بها، فقد تركت المكان والزمان، حلقت بالفعل في علياء لم تعرفها من قبل، شاهدت جسدها يقف منتظرًا أمام الباب، خلف الباب شاهدت ذلك الشاب يقترب على أطراف أصابعه، ينظر مستكشفًا من عين الباب، تعتليه الدهشة، يعود إلى الداخل ليحمل مسدسه ويخفيه بيده خلف ظهره، يفتح الباب مواربًا بيده الأخرى، يرتسم على وجهه سؤال لم ينطق به لسانه، لا تجيبه فاطمه إنما تخطو نحو الداخل مبتسمة، لا يدرى لماذا لم يوقفها، لم يقطع عليها الطريق، أقله يسألها عن وجهتها. إن سُئل عن صمته لن يجد جوابًا.

تقف فاطمة في منتصف الصالة ويدور سمير لمواجهتها موليا الباب ظهره، حولها هالة بيضاء، رهبة غير عادية تحتوية، ينتظر حديثها. تتأمل فاطمة المكان بعينيها الجميلتين الباسمتين، هادئة تتحدث:

- أين إيمان وأولادها؟

يرتبك سمير لحظات وبدون أن يشعر ينظر نحو الغرفة التي تسكنها إيمان وأطفالها، يعود لينظر نحو فاطمة وقد تمالك نفسه وعلت ملامحه قسوة غريبة وهو يقول:

- إيمان؟!.. مَن إيمان؟ ومَن أنتِ أصلًا؟

لم تجبه فاطمة، توجهت نحو الغرفة التي نظر نحوها، تمد يدها نحو مفتاحها لتفتح بابها، مؤكد فيها يحتجزهم، لكنها فوجئت بحركة مباغتة من سمير الذي قفز ليحول بينها وبين الباب ويدفعها بقوة إلى الخلف شاهرًا مسدسه، صارخًا متوعدًا.

ارتدت فاطمة إلى الخلف من أثر دفعته، تعثرت في طرف ثوبها، تسقط على الأرض، تشهق من أثر السقوط.

تصل أصوات تلك الجلبة إلى إيمان داخل الحجرة، تقترب بسرعة لتنصت، تلصق أذنها بالباب وقد احتوت طفليها تحت جناحيها بقوة، استمعت لصوت نسائى يقول:

- لا داعي لكل ما تفعله، لك رزق لن يخطئك. إيمان ليست رزقك يا سمير.

صارخًا قال:

- لأ.. رزقى.. ملكى.. ومَن يقترب منها سيكون آخر يوم في عمره.

يشهر مسدسه بقوة مصوبًا إياه نحو رأس فاطمة التي تعتدل لتقف وهي تقول:

- على فكره.. عادل زوج إيمان، موجود بالخارج.

Scanned with CamScanner

تنتظر لحظة، تلاحظ ارتباكه ونظراته نحو الباب المفتوح وقد ارتعشت يداه واحمر وجهه، يرتد إلى باب الحجرة ليسده بجسده وكأنه درع يحميه، يستجمع قوته المشتتة ويصرخ:

– قُلت لكِ لا توجد في الكون قوة تأخذهم مني، إنهم ملكي.. ملكي.. أتفهمين؟

قال كلمته الأخيرة بقوة ولا يعلم كيف يتصرف، ينتقل انفعاله إلى أطراف أصابعة الممسكة بالمسدس، تنطلق رصاصة مدوية تشق صمت الكون، تلتها صرخة قوية حملت آلام وهموم الدهر.

في الخارج لم يستطع عادل الانتظار أكثر من ذلك، يخرج من السيارة مهرولًا تاركًا عكازيه،يتعثر كثيرًا، تبعته أمل يوسف تنازع يداها رغبات مساعدته في هرولته وعدم مسه، إنه محرم عليها.

لا يشعران بحاتم فكري الذي يترك سيارته مسرعًا شاهرًا مسدسه وخلفه رجاله.

صوت طلقة النار يجعل القس مينا جبرائيل ينتفض مكانه ناظرًا نحو مايكل وملاك فيتركان السيارة وينطلقان فيتجرأ وينطلق خلفهما.

في اللحظة التي انطلقت فيها الرصاصة لتستقر في حائط الركن الأيسر للصالة، تشهق فاطمة بلا صوت، بينما تنطلق صرخة هائلة من إيمان وبعد لحظات تطرق باب الغرفة بشدة تستغيث، تتوجه فاطمة نحو الغرفة غير مبالية بمن يقف أمامها، لكنه يحول بينها وبين الباب، في الداخل يتزايد صراخ إيمان وطفليها ودقهما على الباب، يرتبك سمير بشكل غير عادي، يدور ليفتح باب الغرفة وهو يصرخ في إيمان والأطفال كي يصمتوا، من بين صراخه ظهرت بعض الكلمات مثل:

– لا تخافوا.. لن يأخذكم مني أحد أبدًا.. لا تخشى شيئًا يا إيمان، مَن سيقترب منكِ سأقتله.. أقتله.

تعود إيمان إلى الخلف، صامتة مذهولة، حتى الحائط الأخير وبدون أن تشعر تضع أولادها خلفها تمامًا وقد انتفضت رعبًا. يقترب سمير محاولًا طمئنتها، بينما تدلف فاطمة إلى الحجرة وتقف على مقربة، تحاول قدر الإمكان أن ترسم على وجهها بسمة طمأنينة لتهدأ بها إيمان.

إيمان التي تجهل تمامًا من تلك الواقفة أمامها وماذا تريد، لم تتغير علامات الرعب المرتسمة على ملامحها، تخرج فاطمة عن صمتها وتقول:

– إهدأي يا إيمان، كل شيء سيكون خيرًا إن شاء الله.. يبدو أن الأستاذ سمير يحبك، ومَن يحب أحد لا يمكن أن يؤذيه.. أليس كذلك يا أستاذ سمير؟

ينظر نحوها سمير متعجبًا من هدوءها، لم يجد ما يتفوه به، يبحث عن لحظة هدوء فلا يجد، تكمل فاطمة كلماتها:

– لا داعي يا أستاذ سمير أن تفعل شيئًا تندم عليه العمر كله، لابد من أن أوضح لك أمرًا، أنت تفعل هذا لأنك بعيدٌ عن الله.. أتعلم.. إن كنتَ قريبًا من الواحد الأحد.. تحبه كما يحبك..

تهدأ إيمان بعض الشيء، بينما تتزايد علامات الدهشة على وجه سمير الذي يقف صامتًا، تكمل فاطمة وكأنها تجيبه على دهشته، فتقول:

– نعم يا أستاذ سمير.. إن الله يحبنا.. الحب هو جوهر الكون.. أناس كثيرون يخشون الله ويتصورونه على أنه جبار ويكرههم وينتظر أن يخطئ أحدهم حتى ينتقم منه ويقذف به إلى النار.. لا.. أترى كيف

Scanned with CamScanner

تُحب إيمان أولادها.. وكيف تحميهم بجسدها الآن.. وعندها استعداد للموت فداء لهم.. رحمة الله بنا أكثر من رحمة إيمان بأولادها آلاف المرات.. فلا تجعـــ..

لا تكمل كلماتها، فقد نظر سمير مشدوهًا إلى نقطة ما خلفها، نظرت هي الأخرى نحو تلك النقطة فإذا بها تجد الجميع خلفها، عادل، أمل، حاتم، القس جبرائيل، مع عدد آخر من الرجال والشباب لا تعرفهم، أغلبهم يحملون الأسلحة.

لا تعلم كيف أتى كل هؤلاء إلى هذا المكان، لم تترك نفسها فريسة لهذا التساؤل، فقد التفتت لمواجهتهم وهي تعود إلى الخلف، فأصبحت بجوار سمير الذي انتفض في لحظة واحدة قافزًا إلى الخلف ممسكًا برأس إيمان تحت إبطه الأيسر بينما مسدسه مصوبا إلى رأسها، خارت قوى إيمان رعبًا ويداها تعبثان في الفضاء خلفها بحثًا عن طفليها لطمأنتهما.

تحاول فاطمة السيطرة على الموقف فتواجههم قائلة:

- أرجوكم يا جماعة.. إهدأوا جميعًا.. لا داعي للسلاح.. الإسلام لم يأمر بالعنف.. ولا أي دين أمر بالعنف.. وكل شيء ممكن يُحل بهدوء.

يتقدم حاتم خطوة للأمام، بينما نظراته مثبتة على إيمان وقلبه يخفق بشدة، يصرخ في سمير قائلًا:

- إن لمست منها شعره.. سأقتلك يا حيوان.

دُهشت أمل من جرأة حاتم وعدم قدرته على تمالك مشاعره، بينما تبتسم فاطمة وهي تتوجه كلية إلى حاتم قائلة:

- القتل ليس غريبًا عليك يا حاتم.. نعم.. كثيرًا ما فكرتَ في القتل، دبرتَ لقتل عادل، قتلتَ كثير أنت والقس مينا يوم أن أوقعتم عباد الله في دوامة العداء باسم الله من أجل ماذا؟ من أجل فتاة مثلي أعلنت إسلامها، وسوف تقتل الكثير بالأسلحة التي تخزنها في المصنع، لقد صُدمت.. كيف يكون لمثلك حافظ كتاب الله أن يتصرف بهذا الشكل، إن سلمنا بأن حبك لإيمان أعماك عن كونها سيدة متزوجة وعندها أسرة ويعيشون سعداء، وحرضك مرضك بها على أن تفكر في قتل زوجها لتحل محله، أتستطيع أن تخبرني، أن تخبر الجميع... لأن الأمر يهمهم أيضًا.. لماذا أتيتَ بالأسلحة وخزنتها في مصنعك، وضد مَن سوف تستخدمونها أنت وأعوانك..؟!

- فاطمة.. أنتِ لا تفهمين الأمـــ..

ينطق حاتم بذلك فتقاطعه فاطمة:

- أنا أفهم جيدًا يا حاتم، أفهم أن أي فرد يُنصب من نفسه وصي على باقي البشر، يكون شخصًا مريضًا، يريد أن يجعل من نفسه بطلًا، وهو في الأصل شخص غير سوي، شخص يعاني عقد النقص.

تلتفت نحو القس مينا جبرائيل ثم تكمل قائلة:

- أنا أفهم جيدًا يا أبونا، يا رجل الدين والمحبة والتسامح، لكني بصراحة لا أفهم لماذا أنت هنا!! ومَن هؤلاء الذين يقفون حولك ويحملون أسلحة كأنهم يقفون بجوار رئيس عصابة وليس رجل دين!!

ثم تلتفت نحو سمير مقتربه منه نصف خطوة لتهدأ من روعه، لا تكاد ترفع يدها لأعلى وتحاول التحدث، حتى يرتد هو إلى الخلف بنفس المقدار وهو يجر إيمان التي أوشكت على ترك المكان والذوبان في منطقة اللاوعي، يفتح عينيه على آخرهما ثم يصرخ:

Scanned with CamScanner